



[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^ RAYAHEEN ^

الطبعة الثانية

ربيع جابر

# أميركا

رواية



[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)-RAYAHEEN

## أميركا

صليت على وجهها الشاحب البياض وهي ترى السيدة  
الحجرية تمدّ الشعلة الحجرية صوبها وتخرج من الضباب الذي  
يغطي البحر. سمعت صوتاً يقول هذا شمال الحرية، وهناك  
وراء الضباب الغريب، هل ترون البنائات ناطحات السحاب،  
هذه مدينة نيويورك، انظروا البيوت العالية!

تسافر مرثا حدّاد، شابة فقيرة وجميلة، من جبل لبنان إلى  
نيويورك في سنة 1913 بحثاً عن زوجها.

بعد ذلك بسنوات طويلة، نراها في باسادينا - كاليفورنيا،  
ثرية ومحاطة بأبناء وبنات وأحفاد.

عبر شخصيات وحكايات، تأخذنا الرواية إلى أميركا، إلى  
"الجهة الغربية"، وإلى سيبيريا.

الحرب الكبرى، ثم وباء الإنفلونزا المنسي، ثم سنوات طيبة  
ذهبية، ثم الأزمة الاقتصادية العالمية (1929)، ثم سنوات  
أخرى طيبة، ثم حرب عالمية ثانية...  
تحيا مرثا عبر هذا كلّهُ، والقراء أيضاً.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYANEEN ^

ISBN 978-9953-00-207-2



9 789953 002072

دار الآداب - بيروت



المركز الثقافي العربي



ربيع جابر

# أميركا

رواية

أميركا

(رواية)

تأليف: ربيع جابر

الطبعة الثانية: 2010

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9953-68-397-2

الناشران

دار الآداب - بيروت



ساحة الجزيرة - بناية الريم

ص.ب.: 4123 - 11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) ، 861632 (03)

فاكس: 009611861633

email: d\_aladab@cyberia.net.lb

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء - ص.ب.: 4006 (سبنا)

هاتف: 2103339 - 52 - 212 +

فاكس: +212522305726

e-mail: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت: ص.ب.: 5158 - 113 الحمرا

هاتف: 343701 - 352826

e-mail: cca@ccaedition.com

دار الآداب - بيروت



المركز الثقافي العربي



إلى ربيته وهو

**[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)**

**^ RAYAHEEN ^**

هذه الرواية من نسج الخيال، وأي شَبَه بين أحداثها  
وأشخاصها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن  
حقيقيةة هو محض مصادفة ومجرد عن أي قصد.

**[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)**  
**^ RAYAHEEN ^**

# الجزء الأول

## Ellis Island

«أبانا الذي في السموات ليبتقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكن  
مشيقتك كما في السماء كذلك على الأرض».

صلبت على وجهها الشاحب البياض وهي ترى السيدة  
الحجرية تمدّ الشعلة الحجرية صوبها وتخرج من الضباب الذي يغطي  
البحر. سمعت صوتاً يقول هذا تمثال الحرية، وهناك وراء الضباب  
الغريب، هل ترون البنايات ناطحات السحاب، هذه مدينة نيويورك،  
انظروا البيوت العالية!

طوال الوقت ظلّت تدمدم صلواتها وهي تنزل من الباخرة إلى  
«إيس أبلاند». المهاجرون تدافعوا على «السفالة» الخشب وهي  
تمسكت بحبال الدرابزين ورأت جردان الماء تفض من الصناديق إلى  
الأرصفت. المبنى الضخم المتربع على الجزيرة ابتلع البشر المتدفقين  
كالأنهار من البواخر: أين يختفون؟ لا يفرقون في الضباب لكنهم  
ينغيون عنها في قاعات وممرات وغرف كثيرة. مثل قطعان نمل تغور  
في التراب. لسع هواء جليدي أذنيها. رجل يرتدي لباساً رسمياً ويعتمر  
قبعة عليها شارة معدنية - هذا شرطة؟ - دنا منها وسألها من أين  
تأتي؟ تكلم بالإنكليزية، ولأنه تكلم متمهلاً فهمت كلماته. لعلها  
استوعبت قصده من دون أن تحدد معاني كلماته تماماً. كل ما تعرفه  
من هذه اللغة الغريبة تعلّمت على الطريق من بيتها الجيد في الجبل إلى

هذه القارة المغفورة بالضباب.

دلّها الرجل إلى صفّ كي تطف فيه. شعرت بنظرته تتبعها، تحفر ندبات خفيفة على كتفها الطويلة الصوف. ثم انشغلت بالحصول على نقطة في الصف بين نساء باقيات وأولاد صفار يخفون وجوههم وراء النائير. حاولت أن تتكلم مع إحدى النساء لكن المرأة لم تفهم لغتها. نظرت حولها تفتش عن وجه يشبه وجهها فلم تجد إلا العيون الغربية. حتى الذين كانوا معها على الباخرة اختفوا. شدّت يدها على مسكة الكيس «الجنفيس» الذي يحوي حياتها. عندما وصلت إلى المكتب حيث يقعد رجل يدخن ويكتب في دفتر ضخم لم تر مثله من قبل، انقبضت معدتها. سألتها عن اسمها.

- مرثا أندراوس حدّاد Martha Haddad .

لفظت اسمها الاول ثم عائلتها بالطريقة الأميركية كما علّموها على الباخرة التي حملتها من مرفأ الهافر الفرنسي عبر المحيط الشاسع الذي يسمونه الأتلانتيك إلى هناك. الرجل كشح غيمة الدخان ثم رفع القلم عن الدفتر وسألها من أين تأتي.

- سورية Syria. أنا من قرية بتاتر في جبل لبنان، بتاتر قرية من عاليه وبحمدون.

خافت من النظرة التي تخترق الدخان ثم أدركت أن الرجل لا يهددها. دام خوفها لحظة ثم أدركت أنه لم يفهم من جوابها غير كلمة مفردة وأن نظراته مصدرها الحيرة. اطمأنت رمشة عين - برّد العرق على رقبتها - ثم باغتتها الذعر من جديد. إذا لم يفهم لغتها كيف ستشرح لهم؟ إذا غضبوا رذوها إلى الباخرة لترجع من حيث جاءت!

أشار لها الرجل أن تبتعد، أن تزيح من طريق الصف. ابتعدت فتقدمت امرأة أخرى واحتلت مكانها، وهذه تكلمت بالإنكليزية.

كانت صفراء الشعر، وسمعت كلمات إنكليزية وأخرى من لغة غريبة ظنّت أنها سمعت مثلها على الباخرة. الرجل كرّر من أقوال المرأة كلمة Poland وعبس واستنار ونادي اسماً فيه قرعة حجارة. أتى رجل قصير من غرفة لم تنتبه لها قبل ذلك ووقف عند المكتب وبدأ يترجم أقوال المرأة ذات الشعر الأصفر. المكان يبعث بالبشر والأصوات، لغات وألوان ووجوه، ناس يركضون وناس يبكون وناس يبحثون عن أوراق أضاعوها. من هنا تدخل أمواج المهاجرين إلى أميركا. نحن في خريف 1913 وهنا يتقرر كل شيء، إما الدخول أو العودة.

دقائق عبرت كالدهور عليها. رأت الصف ينقسم في اتجاهين. رأت رجلاً يحمل طبشورة يرسم بالطبشورة علامة X على معاطف رجال اصطفوا حزاني الوجوه جنب الحائط. امرأة تتلقى العلامة ذاتها صاحت واستندت إلى كتفي الرجل وصارت ترجوه بكلمات غير مفهومة ألا يفعل ذلك. مرثا أندراوس حدّاد نظرت إلى مَداسها السختيان الجلد الذي غاطه من أجلها خالها المريض في صدره - طوال الوقت يسعل وهو ينحني على الصرامي - ثم نظرت إلى الدفتر الكبير على المكتب. رأت عطفواً أفقية وعمودية، رأت أسماء وأرقاماً، وانتظرت ما سيأتي.

كانت النوافذ العالية تُظلم عندما اقترب رجل وسألها بالعربية من أين تأتي، من أي مرفأ غادرت سورية، ومن يكفلها في أميركا؟



## أسالك العناية يا وليّ الهدية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الباقي بلا زوال المنفرد بالعظمة والقُدرة والكمال المقدّر الآجال في البكرة والأصال الذي حكم على عبّيده بالموت وهو حيّ لا يزال. ثم لما كان الأجل المحتوم لا يتوقف على صحة أو اعتلال فالواجب على كل حيّ ناطق أن يترقبه في الغدوات والأصام وأن يبادر لرقم وصيته ليرفع من بين ذرّيته الخلاف والإشكال.

ولهذه النية أي في اليوم الخامس عشر من شهر ذي القعدة من شهور سنة ألف وثلثمائة وستة وأربعين للهجرة النبوية حضرت عند الشيخ أبي علي بشير زين الدين جابر من قريتنا كفرنينخ إذ كان منحرف الصحة وهو بصحة من عقله خالياً من الهذيان ولا مانع يمنعه عن صحة الإقرار والبيان شرعاً، فطلب مني أن أحرر عن لسانه هذه الرخصة خوفاً من هجوم الغيبة واقتداء بالسلف الصالح ذوي النفوس الأبية.

فأوصى أن يكون بعد وفاته جميع ما تملكه يده من حطام هذه الدنيا الفانية من عماد وعقائد وأثاث ونحاس وذهب وفضة ونقود ومواشي ذكر وما لم يُذكر يكون لولده علي ومحمد مناصفة ليس لأحد منهما زيادة على الآخر لا يعارضهما فيه مُعارض ولا ينازعهما منازع. ولما كانا ولداً علي ومحمد المذكوران متغييبين في أميركا

فيكون لحفيده شاهين ابن ولده محمد مع والدته حتى أن يتنابوا حاصلات هذه العقارات ويسكننا في العمارة أثناء مدة غياب ولديه علي ومحمد. هذا ما دامت أم شاهين مقيمة في البيت. لكن لو خرجت من البيت لا يحق لها أن تتناول من هذه الحاصلات شيئاً.

وأما والعياذ بالله إذا تقدّر علي ولده علي شيئاً من قبّل الحق تعالى وهو متغيّب في أميركا وبلا عقب تكون حصته أي النصف الموصى له إلى شقيقه محمد. ولكن إذا لا سمح الله تقدّر علي ولده محمد شيئاً تكون حصته إلى ولده شاهين المذكور. وأما إذا لا سمح الله توفي الاثنان أي علي ومحمد وهما في بلاد المهجر يكون جميع ما ذكر إلى حفيده شاهين مُلكاً خالصاً لا يعارضه فيه أحد. وإذا حضر محمد من المهجر ولم يحضر علي فإن لمحمد حق أن يستلم حصة شقيقه ويتناول حاصلاتها كل مدة غيابه. ولكن لو حضر علي ولم يحضر محمد فلا يحق لعلي أن يتعرّض لحفيده شاهين المحرر في حصة أبيه بشيء ما دام محمد متغيّباً وشاهين حيّاً يُرزق.

وإذا توفي شاهين قبل الإرشاد أو بلا عقب يرجع جميع ما ذكر إلى ابنته ندى أخت علي ومحمد تنصرف بحاصلاتها مدة حياتها فقط ولا يحق لها أن تتبع من هذه العقارات ولا ترهن ولا تفاوض بها في غيرها. ومن بعد ندى يرجع كل ذلك إلى من يكن حياً من ذرّيته آل جابر الأقرب فالأقرب ذكوراً أم إناثاً. وأوصى من خصوص ابنته ندى إذا انقطعت من الرجال تعيش في البيت مع أخويها علي ومحمد بدون جميلة ولا منية وإن لم تتفق بالإقامة معهما يكون لها محل سكن القيو العقد الملاصق للحارة. وأن يقدم لها من أخويها المذكورين معاشاً كافياً وفرشيتين كاملتين وطنجرة ومقلاة وطواية وصينية نحاس وحصيرة. وأوصى من خصوص منيرة ابنة أخيه محمود إذا انقطعت من الرجال

تكون بنسبة ابته ندى ويكون لها حق السكن معها أو وحدها في القيو المعين مسكناً لها. وأن يُقدّم لها ولداه علي ومحمد معاشاً مع المعاش المقدم لها من أخيه إبراهيم حسبما هو موسى لها وبالاتفق المعقود بينهما بهذا الخصوص.

فهذا ما أراد أن يوصي به وطلب مني تحريره. وأراد أيضاً بأن يوصي دراهم على نية الخير طمعاً بالأجر والثواب فأوصى بأن يكون لكل مجلس من مجالس قريتنا كفرنبرخ عشرة غروش ولكل مجلس من مجالس العرقيب عشرة غروش وطلب من الله تعالى العسامة والغفران ومن حضرة المشايخ والإخوان الرحمة وحسن الظن وحرّم وغضّب كل من يُغَيّر أو يبدّل حرفاً واحداً مما تضمنته هذه الوصية يكون تعالى خصمه ومجازيه في عاجل الدنيا أم أجل الآخرة. وبعد أن تُليت عليه الوصية كلمة كلمة أذن عليه بالإشهاد والحمد لله أولاً وآخراً. حُرّر بالتاريخ المسطر أعلاه في 15 ذي القعدة 1346 للهجرة. حرره وشهد الحقير محمود سلمان أبي غانم. شهود الحال: الحقير سعيد محمد الدويك. الحقير سلمان عبد الصمد. الحقير عز الدين قاسم. الحقير بشير زين الدين.

وقد وُكّل على حفيده شاهين كلاً من المحرر محمود سلمان المذكور وصالح يوسف جابر وكالة شرعية ولكل منهما حق أن يوكل غيره من يشاء.

- 3 -

### العلامة

صَلّت ألاً تأني المرأة وترسم عليها العلامة. كانت ترتدي زيّ الشرطة ذاته لكنها تضع على رأسها قبعة بيضاء غريبة الشكل. الشرطي يرسم الX على الرجال الممنوع دخولهم، والمرأة ذات القبعة الغريبة ترسم العلامة على النساء. بينما تصلي مغمضة العينين - عالمة أن نظرات الرجال مسلّطة عليها - أريد أن أكتب هنا شيئاً عن رحلتها من بتائر إلى بوابة أميركا.

خالها لم يصدّق أذنيه عندما أخبرته. نظر إليها مبجلقاً وفمه نصف مفتوح وأسنانه الصفراء المنخورة بالسوس بائه. الناس الذين يعبرون وراء ظهرها كانوا يلقون التحية على الكندرجي بأصوات قوية. «التسقيفة» الخشب (حيث يقعد خالها وجنبه ابنه الصغير وأمام الابن الصندوق وعذّة مسح الصبايط) تهتز عندما يقترب القطار من محطة بحدود. في تلك اللحظات - بينما القطار البخاري يدخل المحطة - ترتفع غيوم الغبار والرمل وتغطي العالم. مرّتا تسمع الصافرة إلى بيتها البعيد الغارق بين جلول التوت، في المنحدر الهابط إلى الأودية.

كانت تحمل سلّة مملوءة ببيض الدجاج المسلوق، جلبته إلى المرأة التي تبيعه لعابري المحطة. كانت تراهم يمدّون الأيدي من نوافذ القطار وترى المتاليك تتساقط من بين الأصابع وتبرق في الشمس. يأخذون البيض المقشّر وهم يضحكون ثم ينفخ القطار

كالإبريق على نار الشتاء، ينفخ مرتين ثم مرة ثالثة، ويرتفع الهدير  
ويتعد الوحش الحديد الأسود.

الخال نظر إليها وهو لا يفهم (سلاحظ القارئ أن هذه  
المواقف تتكرر كثيراً في هذه الرواية. والسبب ليس اللغة: هي  
وغالها يتكلمان العربية، باللهجة الدارجة ذاتها الشائعة في جبل لبنان  
في تلك الفترة؛ ومع هذا تبدو اللغة عاجزة عن إيصال المعنى).

كانت تطلب بَزَكته وهو سألها كيف يبارك رحلتها وهو يعرف  
أن ما تفعله غير مقبول وغير معقول ولم يُسمع بمثله من قبل.

مرتا أحست يدها تبرد على رأس الولد الصغير الذي يسمح  
حذاء أسود. الأولاد في مثل هذه السن لا يحبون أن تضع يدك  
هكذا، اليد على الرأس تضايق. لكن هذا الولد يستكين تحت يدها.  
صعب أن تجد ولداً يعيل بعيداً عن أصابع مرثا.

المرحومة (أمها) طالما خافت عليها من حفظها. الجمال فتنة.  
وهنا - في المبنى الضخم على «أليس أيلانده» - يستطيع مراقب أن  
يلحظ أثر هذه المرأة (الأنثى على يابخرة من سوريا البعيدة) في  
الرجال. لا يمكن إحصاء العيون في هذه القاعة المحتشدة بالمهاجرين  
لكن عيوناً كثيرة تتأمل وجهها. الكتزة الصوفية طويلة وتخفي ملامح  
جسمها لكن هذا يضاعف جمالها: هل تقول إن نوراً يتحلّق حولها؟  
هذه مبالغة شعرية ويمكن تجاوزها. لكن في المقابل لا يمكن تجاوز  
الجوع في هذه النظرات المسددة إلى كتفيها المبرومين وإلى جبهتها  
العريضة. أغمضت عينها كي يغيب الرجل العجوز الذي بعض شفته  
السفلى ويأكلها بعينين غارتين بين تجاعيد وجهه المحروق بالشمس.  
كان يلبس قميصاً أبيض وطبّيات رقبته ظاهرة حيث تلتقي الرقبة  
بالكتفين. يبرم رأسه صوبها كالضلع وهو قاعد بين صناديق وأكياس  
ويحدجها بنظرة جامدة لا تتغير.

في محطة يحمّدون قالت لخالها (الذي يسعل ويمسح الصمغ  
عن أصابعه بمربوله الملقّخ بصباغ الأحذية) إنها لم تعد تقدر، قالت  
«قلبي سيفقع». هل قالت ذلك؟ هل بكت ويدها تغوص في جيب  
عميق غاطته في الكتزة وأودعت فيه الرسالة الأخيرة من أميركا  
والرسالة التي سبقتها؟

أراد خالها أن يقول عدداً لا يُحصى من الكلمات، لكن  
الكلمات تجمعت كالحصى في فمه المحقّم الأستان ولم تخرج. أراد  
أن يبيص الحصى والمسامير على الأرض وأن يتكلم لكنه لم يعرف  
كيف يبرصف كلماته. هي تعرف كيف تتكلم. قبصر روسيا فتح مدرسة  
هنا، جنب القرية، وهي دخلت إلى المدرسة. يتذكرها طفلة تقعد على  
الحصيرة تحت شجرة الثوت وتأكل الهزاز الأبيض العسل عن  
الأرض وهي تقرأ في الكتاب الأصفر.

كبرت وجاء خليل حدّاد وطلب يدها. أخذها إلى فراشه ونام  
عليها ثم ذهب إلى أميركا. كان يكتب لها، وكانت تطرّز المتاديل  
ويأني السمسار من بيروت ويأخذ المتاديل ويختم عليها الصندوق  
ويرسلها مع البضاعة إلى أميركا. خليل كتب لها - وهي قرأت  
«المكتوب» لخالها - أن صاحب المعمل الأميركي يتحدث عن  
متاديلها المطرّزة لأصحاب المعامل الأخرى: «لا أحد يطرّز مثل  
نساء سورية».

لكن منذ سنة لم تصل من خليل رسالة.

## (2) العلامة

رسموا عليها العلامة. لم تبيك. لكننا شعرت بجسمها يتداعى في ثيابها. أسندت ظهرها إلى الحائط ثم سالت على الأرض. وبقيت هكذا.

القطار بلغ الجبل وهي تكبر. تذكر عندما كان أبوها يأخذ عدته وكيس الزوادة ويذهب إلى التلال حيث يمدون سكة الحديد. قال لها ابن الجيران الذي يقفز عن السطح إلى الخيل من دون أن يكسر ساقه إن هذا القطار يسير على البحر أيضاً. لم تصدق. بعد سنوات عرفت أنه لم يكذب عليها: بينما الباخرة تصغر وتغادر مرفأ بيروت تذكرت طفولتها البعيدة وشعرت بالبكاء بغور كالحليب في أعماقها. ابتعدت عن النظرات، أخفت وجهها بين يديها، وبكت. كان ذلك صعباً. الباخرة تعجّ بالبشر: ثلاث طبقات هي، طبقات نفوس تحت سطح الماء، وكل الطبقات ملأنة. نامت على سرير يعلوه سرير وتحتة سرير، والأسرة تملأ المهجع عن الجنبيين وهي تخشى أن تختنق بالهواء الراكد. السلم اللولبي الحديد يصعد من الطبقة التحتانية إلى الوسط إلى الفوقانية إلى ظهر الباخرة: من هنا يأتي الهواء وإذا سدوا المدخل بأجسامهم وهم ينزلون ويصعدون يخنقي الهواء وتخنقها الرائحة. في حياتها كلها لم تعرف مثل هذه الرائحة. خليل لم يخبرها في رسائله عن هذه الرائحة.

كانت عندما تأتي إلى المحطة كي تزور خالها تستغرب هؤلاء الناس في القطار. يذهبون طوال الوقت ولا تدري أين يذهبون ولا لماذا. ملاها خليل. بعد زواجها فكرت أنها قبل ذلك كانت فارغة كالكيس الأجوف، ثم أتى خليل وملاها قمحاً وعدساً. المرة الأولى التي سمعت فيها كلمة «أميركا» تخرج من فمه توقف نبض قلبها.

السماسرة ملأوا القرى، يطنون كالدبابير، يعملون عند شركات الملاحة البحرية، يذبّرون للرغابيين تذاكر السفر إلى وراء البحر. يذبّرون «الكفيل» أيضاً: أصحاب المعامل والتاجر في أميركا بحاجة إلى باعة جوالين يأخذون البضاعة على ظهورهم ويقطعون الطرق التراب إلى القرى البعيدة التي لا تُعدّ. من دون «كفيل» لا يُسمح لك بدخول أميركا.

خالها سألتها وهو يمسح العرق عن وجهه هل تظن أميركا قرية صغيرة مثل بتاتر؟

الصمغ التصق بشعره. بدا فجأة متعباً كأنه يسير تحت الشمس منذ سنوات. (هذا الرجل خرج من الجبل أكثر من مرة. هي لم تخرج. في حياتها لم تترك القطار. خالها خدم في الحرب الروسية - التركية. أخذوه من الطريق، حلّقوا شعر رأسه، ألبسوه الزيّ النظامي وأعطوه بارودة أكل الصداً حديدها. كيف بقي حيّاً ولماذا، لا تعلم، لكنه في هذه اللحظة - بينما يحاول إنقاذ مرثا من نفسها - أحسّ أنه عاد من أرض الصقيع لسبب: عليه أن يحفظ هذه المرأة الصغيرة، عليه أن يحفظها سالمة هنا، في بيتها في قريتها، حتى يرجع زوجها).

مرثا هزت رأسها ولم ترد. سألتها خالها ماذا تفعل إذا مرضت، ماذا تفعل إذا ضايقها عسكري، ماذا تفعل إذا حصل لها شيء، من يساعدها؟

- الربّ يساعدي، قالت مرتا.

من بيروت إلى الإسكندرية توقفت الباخرة في ثلاث محطات: حيفا ثم يافا ثم بور سعيد. في يافا (كما في حيفا قبل ذلك) نزل منها ركاب وصعد إليها آخرون. لكن في الإسكندرية لم ينزل أحد، وهنا صعد إليها كثراً: صارت مكبوسة كسأ. مرتا شعرت أنها ستموت وهي نائمة، من الهواء القليل الفاسد. أبحرت الباخرة وهذه المرة وطول سبعة أيام بلباليها لم تز إلا البحر والسماء. اختفت اليابسة كأن الطوفان غمر الأرض، كأن اليابسة غير موجودة. كانت تراهم يركضون إلى الدرايزين بوجوه مخضوضة مصفرة وتسمع الأصوات. المعدة تنقلب على البحر لكن معدتها حفظت طعامها القليل في جوفها. هذا أعطاها إحساساً طيباً. دام ذلك حتى اليوم الخامس ثم انضمت إلى الراكضين حتى درايزين الباخرة. بينما تسمح فمها ثم تغسله بالماء المالح فكرت أن خليل لم يخبرها عن هذا أيضاً في الرسائل.

قبل أن ترسو الباخرة في ميناء مرسيلى مرهست. الدم أبكاها كما يفعل كل مرة. شعرت بحنين لا يُهد إلى الطراحة تحت النافذة، في البيت حيث عاشت سنوات حياتها. لم تبقَ خارج البيت أكثر من شهر. ثم جاء خليل وأصلح السقف وبنى فتناً كبيراً للدجاج جنب شجرة الرمان وصار البيت - حيث وضعتها أمه - بيتها هي وزوجها.

- 5 -

## مرسيلى

نزلت في فندق يملكه بيروتى وحلبى مناصفةً. البيروتى تذكّر زوجها عندما قالت اسمه. الباخرة تنتهي رحلتها هنا. شرحوا لها أنها من هنا ستركب القطار عبر الأراضي الفرنسية إلى الشمال. ستقطع فرنسا كلها في القطار حتى تصل المرفأ في مدينة الهافر، ومن هناك تركب الباخرة الأميركية. (البيروتى شرح لها أن نزلاء الفندق رجال، هناك نساء بلى، لكنهن مع أزواجهن. الحلبي اقترح عليها أن تنزل في بيته، بيته كبير وزوجته سوف ترحب بها). حصلت على غرفة جنب الدرج على الطبقة الثانية. كانت غرفة ضيقة، تنتهي في زاوية مثلثة غريبة، وفي الزاوية كوة تطلّ على البحر المملوء سفناً.

النوم كان مستحيلاً. ضجة الفندق مخيفة. وعندما يتام الفندق يستيقظ الشارع كله وترى من الكوة مناظر عجيبة: نساء شبه عاريات ورجال يترنحون ويفرق موسيقية لا تشبه فرق الجيش العثماني. مصابيح تثير الظلام وفي الضوء المتعوج ترى رجلاً يحمل امرأة بين ذراعيه!

ظهرت حبوب على وجهها وذراعيها وساقها. ظهرت بعد ذلك على بطنها وجنتها. خافت ولم تفهم ماذا يحدث لها. تذكرت أنهم حذروها على الباخرة: قالوا لها أن تفرش ملاء نظيفة على السرير. فعلت ذلك. فمن أين تأتي هذه الحبوب؟

ارتفعت حرارتها وزاد همتها عندما أيقنت أن البيروتي كذب عليها مرتين: مرة عندما زعم أنه يتذكر زوجها (قال ذلك بلا مبالاة؟ لا، تعتمد أن يقول ذلك وهو يتأملها ملياً). وأخرى حين قال «لا نساء في الفندق». تسمع الأصوات ليلاً وتعرف أنهم لا يدخلن إلى هذه الغرف مع أزواجهن. رأت إحداهن على الدرج، تغطي وجهها بالأحمر والأزرق، وعلى ذراعيها علامات. كانت رائحة الكحول تسبقها. عانقتها على الدرج وهي لم تصدق كيف أفلتت من الذراعيين العاريتين. العرق كان يلعب على جلدها. رأتها بعد ذلك في كابوس تهاجمها مرة أخرى. عندما استيقظت بكت وهي ترفع ركبتيها إلى صدرها. حين غادر القطار مرسيليا أخيراً فكرت أنها تخرج من سدوم وعمورة.

فتحت كيسها وأخرجت تيناً يابساً وأكلته. بانث الشمس من بين الغيوم الكثيفة. تعلقت نظراتها بالأشعة الصفراء تنتشر فوق الحقول والغابات. منذ أيام لم ترَ الشمس. كأن هذه البلاد بلا شمس. خافت ألا ترى الشمس بعد الآن؟ من الكؤوة في الفندق الأسود الفظيع (ستتذكره بعد ذلك مانئلاً، كأنه سيقع على جنبه) كانت ترى مداخن البواخر وهي تقتحم الغيوم: إلى ذلك الحد كانت الغيوم منخفضة!

وضعت كيسها في حضانها. الرحلة إلى La Havre طويلة، أكثر من 15 ساعة قالوا لها. فتحت كيسها وتفقدت أغراضها وهي في قلب الكيس، لم تُخرجها. المرأة العجوز على المقعد المقابل نظرت إليها وابتسمت، ثم عادت إلى كتابها. كان كتاباً غريباً، فيه صور غريبة. مرنا تفحصت أوراقها بأصابعها. تفحصت «شغلها» أيضاً. أرادت أن تُخرج الصنارة وكرة الخيطان والقطعة التي تطرزها، لكن شيئاً ما ظلّ يمنعها. عند الظهر لم تعد تبصر ظلّ القطار يزحف على

الأعشاب جنب السكة. بعد أن نامت العجوز (أكلت سندويشة بيضاء اللون كالثلج، وبين القطعتين الناصعتين شريحة وردية اللون لم تعرف ما هي، وبعد سنوات عرفت أنها صنف من سمك الأنهار يؤكل بارداً بعد تدخينه... بعد السندويشة مسحت فمها بمنديل ونامت)، أخذت مرثا ترفع وجهها وتنظر: نظرت إلى المقصورة، نظرت إلى الحقيبة الجلد بالسيور الجلد والبكالات النحاس، الحقيبة التي رفعها الحاجب فوق الرف بينما العجوز تناوله قروشاً مقلّفاً اللون... نظرت إلى الستارة جنب النافذة. ومرة أخرى نظرت إلى العجوز النائمة. حزن عظيم ملا قلبها.

بان الظنّ في الجانب الآخر. كانت ذاهبة إلى الحمام، عابرة الممر وهي تتمسك بالماسورة الحديد تحت التوافذ، خائفة أن تقع بينما القطار يجري، ورأت ظلّ القطار يمتد حتى النهر الأزرق. تجمعت مكانها تنظر إلى الحقول والنهر. عندما رأت سرباً من البط يطير فوق قطع اغنام متجمدة كحقل من الحجارة شعرت بحركة في بطنها: كأنها ابتلعت حصى وهي تشرب ماء من إبريق الفخار في القرية، والحصى تتحرك الآن في جوفها (أمها كانت تقول لها وهي صغيرة: لا تتركي الإبريق بلا الغطاء القماش، الجنّ يملأه بالحصى وأنت نائمة).

عند العصر، وهي تأمل اللون البرتقالي يغمر الأرض والبيوت المتراكضة، سمعت العجوز تسألها أين هي ذاهبة؟ لم ترد. لعل العجوز تظنّ أنها لم تسمعها (تعرف هذه الكلمات الفرنسية، تعرف أيضاً أن تقول بالروسية صباح الخير ومساء الخير، وأنا جيدة أنت كيف أحوالك؟). لكن العجوز تكلمت من جديد وقالت إن رحلتها تنتهي في باريس وسألها إلى أين هي ذاهبة؟

## مصاييح فرنسا

هبط المساء على الحقول وأظلمت النوافذ. عندما أضيفت المصاييح في رواق القطار رأيت وجهها منعكساً في زجاج النافذة: تراجعت في مقعدنا خائفة. لم تعرف وجهها! البثور تركت ندبات، وبعض البثور ما زال ظاهراً. ماذا حدث لها في ذلك الفندق المائل الأسود؟

نزلت المعجوز في المحطة والأآن تعرف أن باريس عاصمة الفرنسيين وراء ظهرها. خالها كان يحكي لها قصصاً. وأبوها قبل ذلك. كانت صغيرة وتسمعهما يتكلمان وهما يشربان قهوة أو «زهورات» مغلية تحت شجرة الجوز. لم تتخيل في ذلك الزمن البعيد أنها ستصل إلى هذه الأرض يوماً! أرادت أن تحيا الحياة كلها في القرية مع زوجها. لماذا سافر إلى أميركا؟

خلّصت قدمها اليمنى من المداس ورفعتها على ركبتيها اليسرى. كانت حمراء، متورمة. لمستها بأصابعها ودلّكت بطن القدم. كل عضلاتها تؤلمها، خصوصاً ظهرها وموخرتها. عندما ذهبت إلى المطبخ كي تشرب ماء انتهت إلى وجوه تعرفها: هؤلاء كانوا معها على الباخرة من يافا إلى الإسكندرية! حاولت أن تتذكر متى رأت هذه الوجوه آخر مرة. لم تكن متأكدة. ثم فكرت أنها فقدت أثرهم في مرسيليا. وما هم يظهرون أمامها مرة أخرى. كانوا يتجنبون الكلام معها، ولم تفهم سبب ذلك.

طوال الطريق، وكلّما دنا القطار من محطة وأبطأ سيره، ظلّت تنهض من مقعدنا وهي تحمل كيسها وتتأهب للنزول إلى محطة الهافر. لكن الحاجب الذي يمرّ في الرواق ظلّ ينظر إليها ويقول «لا». يعمل إشارة بيده، لكنها أصلاً تعرف هذه الكلمة: Non. وقبل محطتين اقترب ووضع يده على كتفها وأجلسها. تضايقت لكن راحته - تيغ وصوف - أهدت ضيقها. شمّت رائحة عجوز طيب، رائحة الألفنة لا تفرغ منها.

تميّز القرى من البلدات الكبيرة: كتلة المصاييح التي تظهر بين الأشجار، مرة متقاربة كثيفة، ومرة متباعدة منتشرة. عندما تكون المصاييح متقاربة، كثيرة، لا تعدّ، تعرف أنها مدينة.

سمعت جرساً يُقرع ثم سمعت امرأة تذنو وتفتح ستارة (كانت ناعسة الآن، توشك أن تغفو بينما القطار يهددها.. بعد باريس ومحطة Marné صارت حركته ثابتة رتيبة). لم تفهم كلامها ثم رأت أنها تحمل شيئاً وراء ظهرها. اقتربت المرأة ووضعت على المقعد صينية فضة (معدن يلمع كالفضة)، وعلى الصينية طبق معدن يغطاه معدن يشبه قبة. «المنديل الملقوف فيه شوكة وسكين»، قالت مرثا في نفسها. (رأت مثل ذلك من قبل. منذ بدأت هذا السفر وهي ترى أشياء غريبة).

أهام وهي لا تأكل غير الزبيب والثين اليابس. في الطريق من بيروت إلى أوروبا انتهت زوادة البيض المسلوق وأرغفة الخبز بالمرعى. الآن توفر قروشها. في مرسيليا، عندما خافت أن يضعفها المرض بحيث لا تقوى على الوقوف، نزلت إلى الطريق واشترت من فرن بوابته زجاج خيزاً عجيب الشكل عليه جوب تشبه السمسم لكنها ليست سمساً. كان قاسياً كالحجر ولم تتمكن من أكله إلا بعد أن بلّته بماء فاتر.

خرجت المرأة كما دخلت ومرتا بقيت وحدها مع الصبيانية.  
بخار خفيف يخرج من تحت الغطاء المعدن وتسرب إلى أنفها: لمن  
هذا الطعام؟ لماذا تركته المرأة هنا؟

وقت طويل مرّ ولا أحد يأتي. امتدت يدها وحدها - بلا إرادة  
منها؛ هي أصلاً نصف نائمة - ورقعت الغطاء لحظة: رأت قطعة لحم  
وجنبها بطاطا مقوية. هذا أيضاً رأت مثله من قبل... في مرسلينا.

المنظر ضاعف جوعها. عثت يدها في الكيس فخرجت منه  
رائحة الجيل: في جورب صوفي أودعت زهور النّبال اليابسة. خليل  
يحب هذه الزهور، كان يطلبها كل مساء. عندما يرجع من الحقل  
وعندما يرجع من الكرخانة وعندما يرجع من الورشة في عاليه: كلما  
عاد من نهار الشغل الطويل يطلب هذا الشراب الساخن قبل اللقمة.  
يقعد عرفان الرأس على الطراحة في باب البيت ويشرب كوب  
الزهورات وهو يمدّ ساقه العارية ويهرش بأظافره حيث يعقص  
البرغش. (متى لفظ للمرة الأولى تلك الكلمة؟ متى بدأ يتحدث عن  
السفر إلى «أميركا»؟ تذكره واقفاً أمام المرأة المرتعة المبرقة بالصدأ  
- اشتراها من عاليه وجلبها ودقّ مسامير في باب البيت وعلّقها -  
يحلق ذقنه بالموس ويمسح رغوة الصابون على منشفة على كتفه  
ويتكلم معها وهو ينظر إلى وجهها المنعكس في المرأة. كانت تخشى  
عليه أن يجرح وجهه. وحين يسن الموس تقول له «لا تسنّ أكثر» وهو  
يضحك ويفرد قطعة الجلد على فخذ).

أخرجت قطعة تين يابسة وقضمتها. تركتها تلذّب في فمها  
وأغمضت عينيها. عندما رجعت المرأة وأخذت الصبيانية - لم تلمس  
الطعام - كانت مرثا نائمة.

- 7 -

## La Havre

أفزعها الباخرة. «هذه أكبر باخرة في العالم»، قال الرجل وهو  
يدلّ أولاده إلى المداخن العملاقة. تكلم معها، هو وزوجته، بينما  
ينزلون من القطار مباشرة إلى العربات التي تنتظر وصولهم: شركة  
الملاحة استأجرت هذه العربات. الباخرة تنتظر. مرثا رأت عندئذ  
وجوهاً كثيرة شبه أليفة. كان القطار يمتد إلى ما لا نهاية في الليل:  
عربات مقطورة إلى عربات مقطورة. معظم الوجوه الأليفة نزلت من  
العربات في الخلف. فيما بعد ستعرف أنهم كانوا في الدرجة الثالثة.  
(المفروض أن تكون معهم، ولا تعرف من منحها هذه المعاملة  
الخاصة: العاجب العجوز؟). بينما البحر يطلّ أخذ ضوء الشمس  
ينير الفضاء. للوهلة الأولى تحلّل إلى مرثا أنها تحلم: شعور بالصفاء  
ملا جسمها. كأنها بلغت الهدف! كان خليل ينتظرها هنا، على هذه  
الأرصعة! عندما قال الرجل لأولاده (اسمه جرجي - جورج -  
حموي، من حماه في سوريا. رجع من أميركا كي يأخذ إلى «العالم  
الجديد» زوجته وأولاده الصغار الثلاثة): «هذه أكبر باخرة في  
العالم»، فكرت مارتا: «هذه ليست باخرة! هذه مدينة عاتمة!».

قال إن الرحلة عبر الأتلانتيك تستغرق تسعة أيام فسقط قلبها.  
زوجة الرجل سألتها من ينتظرها هناك، في أميركا.

- زوجي، قالت مرثا.



تنزل السلالم حتى من دون أن تتحرك أو تبذل جهداً. التيار البشري يحملها وحده. عليها فقط أن تبقى واقفة وأن تحضن كيسها.

كم طبقة تحت سطح الماء تغور هذه الباخرة؟ كلما بلغت طبقة وحاولت العثور على سرير وجدت المكان مملوءاً. ناس فوق ناس. الرعب هذها. تخاف أن تختنق. استغرقت بعد ذلك كيف ظلمت تتحرك، كأن جسمها يتحرك وحده، بلا إرادة منها. كيف يحدث هذا؟ كانت بلا قلب، ضعيفة وبلا قوة، ومع هذا استمر جسمها في الحركة: صارت ذراعها تمتد وتبعد من يدفعا وهي تركض على السلم منحدره كي تصل قبل الآخرين، كي تعثر على سرير. في مكان عميق من رأسها كانت تحصي الطبقات من دون أن تنتبه: أخيراً، على الطبقة الرابعة تحت سطح الماء وجدت سريراً. في هذه الباخرة الأسرة ثلاث طبقات أيضاً. لكنها هذه المرة أخذت السرير التحتاني، لم تأخذ السرير في الوسط. وفي هذه المرة حصلت على سرير قريب من السلالم: هنا الهواء أكثر من أعماق القاعة. (لاحقاً اكتشفت أن هذا غير صحيح: جنات القاعة فيها أنابيب تهوئة).

طوال أيام الأتلانتيك بلياليه الجليد، لم تر وجهاً أليفاً واحداً. أقتلوا الأبواب بين طبقات الباخرة وتمنوا خروج الركاب إلى ظهر السفينة إلا في أوقات قصيرة مخصصة للترفة.

جرجي (جورج) حموي رأى الحمرة تسرب إلى وجنتها وظن أنه الحياء ولم يخطر في باله أنها تكذب.

قلبها اطمأن بعض الشيء وهي تسمع الكلمات العرية. شعرت أنها ليست وحدها تماماً. لكن هذا لم يستمر طويلاً. بينما يرتقون السفالات إلى الباخرة (من الفراغات بين ألواح الخشب ترى الماء أبيض اللون، كأنه حليب وليس ماء) هاجمتها اللغات: المهاجرون السوريون ذابوا في بحرٍ من مهاجري أوروبا. فجأة اختفوا ورجعت وحدها. أعداد البشر مفترقة. من أين يأتي هؤلاء كلهم؟ دفعتهما المتناكب وأوشكت أن تقع هي وكيسها. تمسكت بالأجسام، بالحبال، بالهواء، حتى بلغت ظهر الباخرة. رأت ناساً يرتقون سلماً حديدياً فمشت إلى حيث السلم. كانت ترتقي الدرجات عندما امتدت يد وقبضت على زندها. استدارت فرأت رجلاً في زي البحارة. جذبها بقوة وصاح في وجهها. لم تفهم. ثم أدركت - كان يشير بيديه الاثنتين الآن ووجهه يحمر كأن الدم يغلي في أفنيه - ماذا يقول: نزلت الدرجات عكس التيار ولم تبالي بالخبطات تقع على جنبها (كانوا يركضون صاعدين وسمعت ضحكاً). ثم ذهبت إلى حيث أشار الرجل المحضن الوجه: كانت البوابة ضيقة، وزاد ضيقها الأعداد المتنافعة: الكل يتدافع ويصيح ويشتم وهو يشق طريقه وينزل السلالم إلى بطن السفينة.

الضربة على ظهرها (حقيبة خشب أم صندوق؟) أخرجت الأنفاس من صدرها. داست أقدام على مدامها وخافت أن تفقد، أن يفلت من قدمها ويضيع. حاولت أن تتمهل لكن التيار دفعها نزولاً. فكرت أنها ستقع على وجهها وأن الأقدام ستدوسها. بينما تتخيل السقوط سقطت. لكن الناس تمنعوا بأجسامهم سقوطها. اكتشفت أنها

(هذه الدرجة الأولى؟) وقف رجال في بذلات أنيقة، وعلى رؤوسهم قبعات. أحدهم فتح مظلة بيضاء فوق رأسه. هذه المشاهد علفت في ذاكرتها ولن تنساها. قبل رمي الجثة نزعوا قبعاتهم.

كانت ساعة النزعة تنتهي (في ذلك النهار نفسه؟) حين اقترب منها بخار وسألها عن زوجها. تكلم بالإنكليزية وفهمت كلامه. قالت إنها وحدها، إنها تسافر وحدها، وإن زوجها ينتظرها في أميركا. البخار نزل معها إلى الطبقة الرابعة تحت الماء وحمل كيسها وصعد السلم وهو يلتفت صوبها. تبعته من دون أن تفتح فمها. أعطها سريراً في قاعة صغيرة على ظهر السفينة، في المؤخرة. كانت قاعة مخصصة للنساء. تلك الليلة نامت على هدير المحركات وهي تشعر بهواء المحيط البارد يملاً رثتها. (قبل أن تنزل من الباخرة ستبحث عن البخار كي تشكره لكنها لن تعثر عليه. بعد سنوات طويلة ستحكي عنه لأولادها).

لم تر البخار إلا في تلك اللحظات. أخرجها من بطن السفينة إلى القاعة المذكورة ثم اغتنى من حياتها. لماذا فعل ذلك؟ لماذا ساعدها؟ مرات كثيرة في حياتها سيحدث لها هذا: وفي كل مرة تشعر بالضوء يخترق قلبها.

ستحكي لأولادها أيضاً عن الحساء الساخن الذي شربته في تلك القاعة في مؤخرة الباخرة: حساء معمول من البصل واللحم المقدد. ستقول إنه كان أطيب حساء أكلته في حياتها. وبعد ذلك لم تذق مثله. «شورية» تُغلى في قدور ضخمة في مطبخ الباخرة، ونصف البصل فيها قديم، ولكنها مع هذا «أطيب شورية». إحدى النساء اقتربت منها وأعطتها خبزاً جافاً. كلّمته بالروسية. عرفت أنها الروسية، فردّت عليها. لفظت الكلمات القليلة التي حفظتها من أيام

- 8 -

## الجثة

قبل أيام من بلوغ «إليس أيلاند» سمعت رجلاً يتكلم بصوت غاضب. رفعت رأسها وهي شبه متلاشية من البرد والجوع فأرته يشير بيديه واقفاً في حلقة من الركاب الذين تجمعوا في الممر بين الأسرة. بعد ذلك رأت أحدهم يصعد السلالم ويطلق على الباب الحديد.

عندما أخرجوا الجثة (أحدهم مات على السرير فوق الرجل الغاضب: عرف من الرائحة. ولأنه منذ وقت لا يتحرك فوقه) سمحوا للركاب بالصعود إلى ظهر السفينة. كان المطر يتساقط وذاً غفياً. وقت تنظر إلى الماء يمتد ويمتد ويمتد بلا نهاية.

لغوا الميت بالكثبان وحزموه جيداً ثم ألقوا به إلى المحيط. كانت تميل على الدرازين - راحة الحديد ملأت أنفها - ورات الجثة تخيط الماء مثل الصخرة وترتد إلى أعلى ثم تسقط من جديد. النوارس جاءت من الجهة الأخرى (هناك المطبخ: طوال الوقت يرمون إلى الماء قشور البطاطا والبصل). والرداء أخفاها هي والجثة. مع ذلك ظلت تسمع صراخها الغريب (أين تحيا هذه النوارس؟ أين أعشاشها؟ الماء يستدير حول الباخرة ولا ترى جزراً هنا! من أين تهيء هذه الطيور؟).

نظفوا سرير الميت وفركوا الأرض بالماء والكلس. وقف كاهن على رأس الجثة قبل رميها في المحيط. على شرفات الطبقة العالية

المدرسة والروسية ضحكك وشدت على يدها. في الصباح ألقبت عليها تحية الصباح بالروسية. كانت تنتظر استيقاظها كي تلقي عليها هذه التحية.

دلّتها الروسية إلى حمام نظيف بقنوات يغسلها ماء المحيط، وعلمتها كيف تستخدم الحنفيتين: القصيرة الباردة والطويلة الحارة. كانت عائدة من هناك والهواء الساخن الخارج من غرفة المحركات يلفح كاحليها الرطبين، عندما سمعت صوت الرجل الحموي الذي يُدعى جرجي وينادونه جورج في أميركا. كان يتكلم مع رجل آخر وراء حاجز خشب، ويضحك. سمعت طرفقة صحوون أيضاً. رغم ضجة المحركات استطاعت أن تسمع نطقاً من الحديث. كان يتكلم عن شخص رجع من مرسيليا إلى دمشق: كان أتياً معهم إلى أميركا لكنه عندما بلغ مرسيليا شعر بالشوق إلى أهله. لم يتحمل فرجع إلى بيته في سوريا وضاع عليه ثمن التذكرة.

- 9 -

## ترلخوما

عجزت عن النوم. الليلة الأولى على «إليس أيلاند». الحيرة وعدم الفهم. تعبانة. جسمها ليس لها. لكن كيف تنام؟ منعوها من الدخول. لكنهم لم يردّوها إلى الباخرة! لم يردّوها! لم يقل لها أحد خذي كيسك وارجمي من حيث أتيت، ارجعي إلى بثائر في سوريا! قالوا لها «ممنوع مغادرة الجزيرة». هذا ما لا يُفهم. هل هي سجين؟ لا يُبدون لها العداء. يعاملونها معاملة لطيفة. فماذا يعني هذا؟ الترجمان لم يشرح شيئاً. كلمة واحدة علقت في رأسها: «تراخوما». على الباخرة قبل ذلك سمعت أن الحراس لا يسمحون بدخول المصابين بهذا المرض. أخبروها على الباخرة أنه مرض في العينين وأنه ينتقل بالعدوى. على السرير الذي أعطي لها في زاوية مهجع مستطيل في «إليس أيلاند» تلمّست عينها. الظلمة كاملة وأناملها تلمس العينين وتصلي أن تكون خالية من المرض. هل هي مريضة ولا تدري؟ ماذا تكون تلك الحبوب التي ظهرت على وجهها في الفندق الفظيح في مرسيليا؟ رأت الضابط ينظر عبر الدخان إلى البثور على جبهتها. شعرها ملفوف بمنديل ولو أفلتته كانت غطت البثور! لماذا تركته مربوطاً؟ هل يكلنها هذا الخطأ حياتها؟

لا تعرف من هي في هذا الظلام. تسمع مهمهمات. وامرأة تشخر. ولطعات المحيط على الصخور. تلمّست كيسها في الليل:

المدرسة والروسية ضحككت وشدت على يدها. في الصباح ألقى عليها تحية الصباح بالروسية. كانت تنتظر استيقاظها كي تلقى عليها هذه التحية.

دلّتها الروسية إلى حمام نظيف بقنوات يغسلها ماء المحيط، وعلمتها كيف تستخدم الحنفيتين: القصيرة الباردة والطويلة الحارة. كانت عائدة من هناك والهواء الساخن الخارج من غرفة المحركات يلفح كاحليها الرطبين، عندما سمعت صوت الرجل العموي الذي يُدعى جرجي وينادونه جورج في أميركا. كان يتكلم مع رجل آخر وراء حاجز خشب، ويضحك. سمعت طرطقة صحنون أيضاً. رغم ضجة المحركات استطاعت أن تسمع نغماً من الحديد. كان يتكلم عن شخص رجع من مرسيليا إلى دمشق: كان آتياً معهم إلى أميركا لكنه عندما بلغ مرسيليا شعر بالشوق إلى أهله. لم يتحمل فرجع إلى بيته في سوريا وضاع عليه ثمن التذكرة.

- 9 -

## تراخوما

عجزت عن النوم. الليلة الأولى على «إليس أيلانده». الحيرة وعدم الفهم. تعبانة. جسمها ليس لها. لكن كيف تنام؟ متعوها من الدخول. لكنهم لم يردّوها إلى الباخرة! لم يردّوها! لم يقل لها أحد غذي كيسك وارجمي من حيث أتيت، ارجعي إلى بتاتر في سوريا! قالوا لها «ممتوع مغادرة الجزيرة». هذا ما لا يُفهم. هل هي سجيننة؟ لا يُبدون لها العناء. يعاملونها معاملة لطيفة. فماذا يعني هذا؟ الترجمان لم يشرح شيئاً. كلمة واحدة علقت في رأسها: «تراخوما». على الباخرة قبل ذلك سمعت أن الحراس لا يسمحون بدخول المصابين بهذا المرض. أخبروها على الباخرة أنه مرض في العينين وأنه ينتقل بالعدوى. على السرير الذي أعطي لها في زاوية مهجع مستطيل في «إليس أيلانده» تلمّست عينيها. الظلمة كاملة وأناملها تتلمس العينين وتصلي أن تكون خالية من المرض. هل هي مريضة ولا تدري؟ ماذا تكون تلك الحبوب التي ظهرت على وجهها في الفندق الفظيح في مرسيليا؟ رأت الضابط ينظر عبر الدخان إلى البثور على جبهتها. شعرها ملفوف بمنديل ولو أفلنته كانت غطت البثور! لماذا تركته مربوطاً؟ هل يكلفها هذا الخطأ حياتها؟

لا تعرف من هي في هذا الظلام. تسمح مهممات. وامرأة تشخر. ولطعات المحيط على الصخور. تلمّست كيسها في الليل:

عربات تجرّها الخيول وعربات بلا خيول، وعندما تعطين السائق الورقة ينظر إلى الرقم والاسم ويأخذك إلى باب الشركة.

### Herman & McCinery

ضابقتها أن الحروف في الكلمات الثانية متداخلة. ولم تأكد من طريقة لفظ الاسم: أحدهم - على الباخرة من بيروت إلى الإسكندرية - لفظ الاسم مثل «الكاف» في الوسط. آخر قال هذه «سين». ماكينري أم ماسينري؟ لا تعلم. ولعل الاسم كُتب خطأ! وعندئذ ماذا يحدث لها؟ أطفالاً الضابط سيكارته وقلب الأوراق بين يديه. ثم أصدر صوتاً غريباً كحمحمه الأحصنة. ما به؟ ماذا رأى؟ ماذا سيقول؟ عندما رآته ينظر صوب المرأة التي تحمل الطيشورة رفعت يدها تلقائياً وقبضت على الصليب الخشب المتدلي من رقبتها. قبضت على الكنزة وعلى الصليب الذي تشعر به تحت الكنزة. كانت تصلي في سرّها طوال الوقت لكن ارتباك ذهنها أضعفها: لعلها نسيت كيف تصلي! لعل الصلاة تضيق في هذا المكان البارد! (مع أنها تعرق عرقاً حاراً في ثيابها!).

هكذا انتهت على هذا السرير بالX على كنزتها. لم يردوها. أرادت أن تسأل الآخرين لكن أحداً لم يفهم كلماتها. هل سبب لها الاسم (McCinery) هذه الكارثة؟ لكنه ليس كفيلاً. هذا الرجل الآخر في الشركة. وكفيلها السيد هرمان. كانت تنقلب على السرير، وكلما انقلبت إلى جهة حملت معها كيسها. البيت البعيد ظلّ حاضراً في خيالها. كانت تستطيع أن تراه الآن، مغفلاً، وعلى العتبة أمام الباب أوراق يابسة من الستديانة. أحسّت بالرطوبة على خديها. لمست عينيها. تخاف أن تكون مريضة في عينيها ولا تدخل إلى أميركا. نامت قبيل الفجر وهي تحصي الخراف الخيالية في قريتها التي تركتها خلفها.

كل ما أتت به من بيتها من الجانب الآخر من العالم. (الترجمان رفع حاجبيه وهو يكرر سؤاله: «وحدك»؟). «الجنيفيس» خشن. وتحت الخشونة تحسّست المفتاح الحديد، مفتاح بيتها. تركت العنزتين والدجاجات عند غالها أمانة. كي تحصل على ثمن التذكرة (التاولون) رهنّت جلّ التفاح وراء الساقية الشتوية: إرث أبيها الثمين. طانيوس جرمانوس أبي راشد\* دبر لها الأوراق اللازمة كما فعل مع زوجها من قبلها. أخرجت الأوراق من الكيس وربتها على الطاولة تحت غيمة الدخان بينما الترجمان يتكلم مع الضابط. سألها من يكفلها؟ أشارت بإصبع يرتجف (كل يدها ترتجف) كانت الرجفة تهزّ يدها، كأنها طفلة تُحْمَم بماء بارد) إلى الاسم على الورقة المخططة بالأسود  
أقنياً: Mr. Herman Tucker

كم مرة في رحلتنا الطويلة إلى هنا فتحت الكيس ونظرت إلى هذه الأوراق؟ حفظت الاسم غيباً. السيد هرمان تاكر من شركة هرمان وماكينري. حفظت اسم الشارع ورقم الشارع. شرح لها أن المدن في أميركا مقسّمة إلى مدن بدورها، مدينة داخل مدينة، وكل مدينة تتألف من خمسة شوارع، وأحياناً أكثر، ولكل شارع رقم. والبيوت (البنائيات، هنالك لا توجد بيوت، توجد بنايات، وكل البنائيات تحتوي عدداً محدداً من البيوت، البيت فوق الآخر) كلها مرقّمة. لكل إنسان عنوان ويمكن الوصول إليه عبر التفتيش عن الرقم. هناك

\* طانيوس جرمانوس: أشهر مسامرة الجبل في تلك الحقبة. مذكور في رسالة ليوسف هلال مؤرخة 8 آب 1919، ومرسلة من شيكاغو (أوكلاهوما) إلى عائلته في قرنايل (جبل لبنان). هاجر يوسف هلال إلى أميركا في مطلع 1919 - بعد تجدد الهجرة بالنهء الحرب العالمية الأولى. أقام في ولايات الغرب الأوسط متقللاً مع «كشته» (صندوق يُحمل على الظهر) حتى وفاته في 1926 أو 1927.

## على الجزيرة

أراحها النوم من دون أن تنتبه. أخيراً: سرير جامد. اضطربت أحشائها على المحيط، والأن على البياضة تلاشى وعيها ونسيت رحلتها: كُتت عن أن تكون المرأة الصغيرة التي قطعت البحر وأوروبا والأطلسي كي تجد زوجها المنقطعة أخباره في أميركا. فرقت في ظلام العينين المفلتتين كأنها ترقد على فراشها على أرض بيتها في بناتر. (إذا صاح الدبك في الفجر نهض إلى جرن الماء خارج باب البيت، تغسل وجهها ثم تهرع وتطلق الدجاج وتلك حيل المعتزتين. أثناء الشتاء، حين اشتد البرد وغظت الثلوج كرخانة الحرير على كتف الوادي، أدخلت المعتزتين إلى البيت ونامت جنبها).

كم يوماً قضت مرتاً أندراوس حداد (سجلوا اسمها في سجلات الجزيرة: "Martha Haddad". الترجمان قال لها: «في أميركا لا نحتاج إلى ثلاثة أسماء. أنت الآن مرتاً حداد فقط» على جزيرة «ليس أيلاند»؟ ماذا دار في بالها أثناء تلك الأيام الماطرة وهي تخرج من المبنى وتسلق الطريق المعبّدة بالحصى المفلطح البحري إلى المطعم الصغير فوق الربوة الصخرية؟ اكتشفت أن هذا

- أسماء المهاجرين إلى أميركا في تلك السنوات - نحو 30 مليون شخص هاجروا إليها أثناء موجة «الهجرة الجليدية» - موجود بعضها في الموقع الإلكتروني: [www.ellisland.org](http://www.ellisland.org)

الرداذ المتواصل لا يضايقها! كأنها لا تمطر! لم تترك كيسها لحظة. تعبت من مراقبة الآخرين سراً: كانت تنظر إليهم مواربة والآن صارت تنظر إليهم بلا وجل. اكتشفت أن الآخرين أيضاً كَفُوا عن تجنّبها. في الحمام عثرت على مرآة صغيرة واكتشفت أن الحبوب وقعت. ليلاً تلمّست وجهها مرة أخرى: صحيح، البثور زالت! كانت تسترد وجهها. بينما تجول على طرقات الجزيرة ذات يوم غائم أصفر اللون رأت ورشة: عمال يرفعون تسقيفة خشب. ماذا بينون؟ بيتاً أم دكاناً؟ حبساً أم مخزناً؟ كانوا يتعرقون في الهواء البارد وعلى أجفانهم ملح من العرق أو المحيط. رأت العرق يقطر من وجوههم ورأت البقع التي يصنعها العرق على القمصان. شعرت بحكك في أصابعها. مشت حتى طرف الجزيرة وجلست حيث أكوام الصخور على حافة الماء (هذه الصخور والأثرية مجلوبة من بطن نيويورك: عندما حفروا أنفاق الصابواي - القطار - رموا الرمد هنا). فتحت الكيس وأخرجت «شغلهاء» الصنارة بين أصابعها وطلّ السيدة الحجرية يتحرك وبنابات نيويورك تطلّ عليها كالعماقة.

لا تقعد في المطعم. تشتري خبزاً وتذهب إلى الصخور. كانت عائدة إلى المهجع عند الغروب - في اليوم الثالث أو الرابع - والنفت سورين.

عرفتهم من ثيابهم وطرايشهم الحمراء قبل أن تصل إليهم. اتسعت شطوتها ووجدت نفسها ترفض. لم تخف أن تزلق على الأرض الرطبة. ورأتهم يرفعون الأيدي من بعيد ويضحكون وهم يغدون الخطى صويها: «أهلاً، أهلاً».

أصوات كثيرة وكلّها قوية جبلية محبّبة. رقص قلبها. ترطب عيناها. كانوا يُرْشِبُون بها وهي تنظر إلى «شراويلهم» (السراويل

## قمر الدين

ابن طبرية المملون العينين ظلَّ ينظر إليها. صارت تلعب بالمحبس الذهب في إصبعها لعله يكفّ بصره عنها. لكنه لم يبالي بتلك الحركة. عرفت أنهم ينادونه «قمر الدين». اسمه سلمان وينادونه «قمر الدين» لأنه حمل معه على الباخرة زوادة لا تفتى من المشمش المكبوس المحلى: كان يُخرج الرقاقات البرتقالية الغائمة من ثيابه، ويزيل الخيوط التي علقت بالديق، و«يعزم». لا يقبل أن يأكل وحده أبداً. ومرتا - بعد أن التقت أبناء بلدها - صارت هي أيضاً لا تأكل وحدها أبداً. عندما أطعموها لبنه ماعز «سردالي» مكبوسة بالزيت خافت أن تبكي وهم ينظرون إليها.

«قمر الدين» شرح لها أن هذه الجزيرة مثل الكرنتينا (المحجر الصحي). قال إنه رأى الأطباء يفحصون إحدى الدفعات وإن العدد الأكبر نجحوا ودخلوا إلى أميركا. لا يردون إلا الحالات المستعصية. «لو كنّا مصابين بهذه التراخوما اللعينة كانت عيوننا كعيون الأرناب الآن، لا تخافي». سألتها ماذا يصنع هذا المرض. قال «الواحد يعمى».

سألته لماذا يضاقهم ذلك؟ قال «لا يعمى وحده». وقال إن المرض معدي، ينتقل باللمس، ويقولون حتى بالنظر. هي كانت تمازحه أصلاً (عرفت في الأيام الماضية أنه مرض يُعدي) لكنه عندما تكلم

الفضفاضة) الكحولية وإلى الصديريات النيلية وإلى الزنانبير الصوف العريضة مشدودة على خصر الشروال وعلى القميص الأبيض. الوجوه السمراء بلون التراب، والشوارب الكستنائية. كانوا كثيراً ولم تفهم كيف لم ترهم على الجزيرة قبل ذلك. دلّوها إلى المبنى حيث ينزلون: كان في الجهة الأخرى، شبه محجوب وراء أشجار سوداء عارية الأغصان، تتعالى فروعها وهي تتشابك نحو القماشة الغائمة الرمادية. استداروا واحداً بعد آخر كي ترى العلامات على معاطفهم. رأت الـ X ورأت الـ K ورأت الـ H ورأت الـ L. أكثر من علامة واحدة (قبل ذلك - في مهجع النساء - لاحظت أيضاً علامات غريبة وظننت أنه الطيشور - يمضى بمرور الوقت). شرحوا لها أن كل علامة تدلّ على حالة طبية محددة. شرحوا لها أن الفحص الطبي الحقيقي يأتي بعد أيام وعندئذ يتحدد مصيرهم. كانوا يتكلموا دفعة واحدة، كما يفعل الأولاد الصغار، وعندما رأت أن أحدهم لا يحمل أي علامة بالطيشور سأته «أين العلامة؟» وهو قال «محاها هذا المطر». ورفاقه ضحكوا وقالوا «الكذاب هو محاها وعنده خطة أن يخرج من الباب الكبير ويدخل إلى نيويورك».

ضحكتهم وفعنتها إلى أعلى، شعرت أنها تطفو على الهواء. جلسوا في ظلّ سقف نافير من مبنى خشبي وصارت تسألهم ويسألونها. كانوا من جبل لبنان ومن حوران ومن دمشق ومن طبرية. الرجل ابن طبرية مملون العينين، طوال الوقت يحدّق إليها كأنه سبأكلها: أخرج من معطفه تفاعحة بيضاء - خضراء تلتمع كأنها مصقولة. استنحت أن تمدّ يدها لكنهم ألحوا عليها. أخذت التفاعحة بين أصابعها وأصغت إلى كلامهم ولم تأكلها. ألحوا عليها مرة أخرى: «كلي، كلي، هذه من الشام، كلي»، وضحكوا. كانت ضحكاتها تهزّ الفضاء كأنهم في احتفال، في عيد ينتظرونه من سنة إلى أخرى.

ناشف الوجه خشن الثيرة خافت: خوفاً انتقل إليها بالعدوى.

أحدهم - هذا من حوران - سألها من ينتظرها في أميركا؟ كان يحمل عصا في يده وطوال الوقت يبرمها بين أصابعه وهو يتكلم. عندما يسكت يدق الأرض بعصاه كأنه يقبس فارق الوقت بين سؤاله والإجابة.

- زوجي.

سألوها ماذا يشتغل، وماذا يُدعى؟ قالت «خليل حدّاد» وقالت يشتغل عند السيد هرمان، يبيع بضاعة في نيويورك وبروكلين وأماكن أخرى.

الرجل الذي قال إنه من عينبال الشوف في جبل لبنان تكلم عندئذ:

- وأنا سأعمل عند مستر هرمان.

اكتشفت أن عدداً منهم كقبيلة السيد هرمان أيضاً.

- «هذا خواجه آدمي ويحب السوريين»، قال «قمر الدين».

- المهم الآن أن نخرج، وألا يردّونا إلى البلاد.

- لا أحد يرجع من هنا. إذا وضعوني على الباخرة أقفز وأسبح إلى المدينة.

- أنت تفرق كالخروف.

- أبوك الخروف. أنا أسبح في النهر، لن أغرق في هذه المياه المالحة.

كانوا يتكلمون ومرتا ابتعدت من دون أن يتحرك جسمها. كانت تفكر في زوجها. كلما سألها أحد من ينتظرها في أميركا قالت «زوجي». هل تقول ذلك عفو الخاطر؟ من دون قصد يخرج هذا الجواب من فمها؟

ساعة النوم، عندما تنفصل مرة أخرى عنهم، ترقد على ظهرها. السرير جامد. وهي تنظر إلى السقف. ضوء المنارة يدخل من الشباك الكبير ويبرم على السقف. تنظر إلى الضوء الأصفر وتنخيل البيت البعيد وشجرة الرمان وشجرة التين والهواء الذي حين يهبّ يحمل إلى الباب أوراق السندبانة. تنكس الورق ويرجع، تنكسه ويرجع. يتسلق العتبة ويدخل البيت. ومرات - إذا تركت باب الخزانة بالناموسية الشبك مفتوحاً - يقع في صحون الزعتر والزيت ودبس العنب واللبننة. في الصباح أيقظوا المهجع باكراً بطنين جرس مدي. طُلب من الجميع النزول إلى البهو مع الأغراض والاصطفاف بانتظار الطبيب. مرنا أندراوس حدّاد شدّت الكيس إليها وحلّت مندبليها: تدفق شعرها الأسود فشعرت بالخوف والقوة في اللحظة ذاتها.

الطبيب أوجع عينيهما. يقول «افتحي، افتحي» (Open, Open) ثم يدفع العمود في بؤبؤها. فكرت أنها ستعمى على يده. لكنه عندما انتهت ابترسم وأشار برأسه إشارة طيبة. وقفت أمام رجل - هذا غير الضابط الأول - يدخن بلا توقف، وتظنرت إليه يطبع الختم على الورقة ويعطيها الورقة شبه مطوية. من دون أن تنظر عرفت: استدخل إلى أميركا!

كانت خارجة من الباب الكبير إلى «العالم الجديد» الذي ينتظرها، واستدارت لا تدري لماذا، فرأت الرجل الذي يسمّونه «قمر الدين» حزين الوجه يرفع يده متباعدة الأصابع ويودّعها. كان بين حارسين وراى أنهما يأخذانه إلى الباب الأخرى.

«باب الدموع»، هكذا يسمّونه. من هناك يرجع الواحد إلى الباخرة.



صوته على الصبي فظهر من وراء الإسطبل وهو يلثث. طلب الحصان لكن الصبي كان عارفاً ماذا يطلب سيده من قبل أن يتكلم.

أليزابيث نظرت إلى جزمته الطويلة الساق وسألته لماذا لا يقعد ويأكل فطوره. كان محتفراً ويشعر أن التوتر في أعضائه لا يُحتمل. يقفزة واحدة نزل الدرجات الأربع الرخام. الحصان خرج من الإسطبل مرفوع الرأس، صقيل الجلد، ومن شعره تتساقط قطرات ماء. تبه على الصبي أكثر من مرة أن ينشفه جيداً. لكن الصبي نصف أبله.

بينما يقطع الحقول بهز رأسه (طوال الوقت يلقون عليه التحية: يرفعون الوجوه العرقانة عن النبات والأرض ويقولون أشياء غامضة. «سينيور، سينيور». وهو - إذا كان معتدل المزاج - يرد: «سي، سي». هذه «نعم» بالإسبانية). الصبي قال إنهم يحبونه. بعد «سينيور» ينطلقون في سلسلة كلمات يستحيل فهمها. مع هذا تبدو وجوههم فرحة، مُرحبة. تحت الشجرة الضخمة غرب الحقول تتراصف أكياس القطن. جنبها على الأرض امرأة قاعدة في ثوب فضفاض تحمل إبرة بيد وفوطة مبللة باليد الأخرى. الفوطة حمراء اللون. القاططات العبدات يقتربن من المرأة بكفوف مفتوحة. تستخرج شوكة القطن من الراحات وتسمح الجروح بالفوطة. عندما ألقى حصانه الضخم ظللاً على المرأة قامت واقفة. كلمته بالإسبانية والإنكليزية معاً. كان بهز رأسه وتُربت على عنق الحصان. حرارة الحصان تسربت إلى راحته، تسربت إلى دمه. شعر المرأة فاحم السواد يُحدّد وجهها. بشرتها حنطية وعندما تفتح فمها تظهر أسنانها بيضاء، قاسية، متراصفة. يتخيلها تقضم جوزاً وتكسر القشرة القاسية. نفخ الحصان بخاراً وتراجع. اقتربت المرأة وهي تمدّ يدها. لمست فم الحصان، داعبت المنطقة الحساسة بين

## المزرعة

السيد يبدو شارداً هذا الصباح. دلزي (في عروقتها تمتزج دماء زنجية ومكسيكية) وضعت الفطور على الطاولة وانسحبت بلا صوت. كان ينظر إلى الحقول تمتد بيضاء وتبّية إلى نهاية العالم. القطن تفتح، وحين يهبّ الهواء ترتفع الكواكب الناضجة مع الهواء وتسبح. هل يرى المنظر؟ الأعمدة الرخام البيضاء تمنع أشعة الشمس عنه. يقعد في الظل ويبدو معتكر المزاج. أليزابيث قالت وهي تتشابه في الفراش: «الديوك ما زالت نائمة، ارجع!». لكنه كتلة طاقة في هذا الصباح. كلماتها الإنكليزية بقيت في الغرفة ذات الستائر الحريري وهو خرج إلى البهو الشاسع. القصر بناه أبوها. كان الجد يملك أكبر عدد من العبيد في المقاطعة كلها. صورته ترتعج في صدر البهو، يليس الزبي العسكري. أليزابيث قالت إنه أصيب أثناء الحرب الأهلية بثلاث رصاصات في بطنه وظلّ حياً. ثم مات في الفراش بعد سنوات وهو نائم. هل تتذكره؟ لا، لكن أهلها أخبروها أنها وُلدت قبل موته وأنها كانت المفضلة عنده. كان يجلسها في حضنه ويضعها الدراق بأصابعه ويضحك. لكنها لا تتذكره.

خرجت بقميصها الأبيض وعلى كتفها شال صوف بمرمعات خضراء وصفراء. لثّت ذراعها الطويلتين حول رقبته فترك رأسه يتراجع ويستند إلى بطنها لحظة. ثم نهض وقال إنه تأخر. نادى بأعلى

عينيه. أحنى الحصان رقبته. السيد ضحك وهمز الحصان وخرج من الحقل إلى الطريق في غيمة من غبار أحمر.

رأى أرناباً ميتاً وسط الطريق وأثر العجلة التي مرّت على جسمه. لسبب لا يعرفه نزل عن الحصان ونظر إلى الأرناب الممموس. بعد ذلك ركب الحصان وانطلق خيباً.

على يمينته، في سهل أخضر العشب، مرّت كالسهم ثلاثة تعالِب. بعد ذلك رأى مجموعة أخرى: كانت توج حمراء وبنية في بحر العشب الأخضر - الأصفر. قبل أن يبلغ النهر (لولا هذا النهر يكون العشب بنياً الآن، محروفاً) سمع هديره. مع أنها سهول والنهر لا يتحدر هنا قوياً. الصوت سببه الصخور في مجرى النهر. ربط الحصان حيث يربطه كل مرة. نزع ثيابه وخاض في الماء. جلس بين صخور مفلطحة صقيلة وترك النهر يغمره حتى الرقبة. في الأشجار بانت المصافير الملونة: عيونها تنظر إليه.

فتح يده في الماء. البرد اللذيذ بين الأصابع. أول نزوله في الماء تصعقه البرودة. الحصان يتردد ولا يخطو صوب النهر إلا كي يشرب. النهر بارد جداً في هذا الصباح والحصان تتبخّر منه الحرارة في موجات مرئية. بعد وقت هدأت حركته. كان يأكل العشب والزهور البيضاء الغريبة الشكل (في قلب الزهرة كتلة حمراء تشبه ثمرة الكرز) وبين حين وآخر يهزّ ذيله هزاً عنيفاً ويطرده الحشرات الطائرة.

- 13 -

## نيويورك

بعد سنوات طويلة، وهي تجلس بين شجيرات ياسمين فوّاحة العطر في باسادينا\* (كاليفورنيا)، ستقول الجدة مرتاً رداً على سؤال من أحد أحفادها: «ثلاثة أشياء أتذكّرها من دخولي الأول إلى نيويورك: جسر بروكلين. الناس الذين يخرجون فجأة من بطن الأرض ويقطعون الطريق ثم ينزلون في ثقب آخر. ورائحة الهوت دوغز». هذا كله سيُقال بالإنكليزية، وصعب على شخص يسمع لهجة الجدة مرتاً وهو مار غارج سور الحديقة أن يتكهن أن هذه المرأة جاءت من وراه المحيط وهي لم تبلغ العشرين بعد.

الرجل الذي قال «محسوك قاسم عبد الباقي من عينبال الشوف» وهو يقرقع بالقف القوية، الرجل الذي التفت مع أصحابه على «إليس أبلاند»، كان رفيق رحلتها من الجزيرة - الكرنيتينا إلى عنوان المتجر التابع للسيد هرمان في «واشنطن ستريت». كانت رحلة عجيبة: خلال دقائق انتقال من حي إلى آخر كأنهما يتقلان من زمن إلى زمن مختلف. كانت رحلة عبر الزمن! لم تكن رحلة عبر أمكنة متجاوزة في المدينة نفسها!

سائق العربة لم يلفظ كلمة واحدة وهو يأخذها في هذه الرحلة العجيبة. ألقى نظرة واحدة على الورقة وعرف العنوان المنشود.

Pasadena •

خافت من حركة الغيوم في الزجاج؟ خافت من الضجة والزحمة؟ في مرسيها خافت وهي تقطع الطريق حتى أنها صلت ألا تقتلها السكنة. كل تلك المناظر في الليل أفزعتهما. لكن ساعتها الأولى هذه في نيويورك لم تززع رعباً في قلبها. على الأقل هكذا أتخيل تلك الساعة: كانت مذهوثة! عينها تسعان والفتنة تشع من وجهها.

رأت بناية حمراء اللون، كلها مبنية من القرميد الأحمر. ما هذا؟ في سوريا لا أحد يبني عمارة كاملة بالقرميد الأحمر. القرميد تُصنع منه السقوف الهرمية الشكل في بيروت وجبل لبنان: هذه السقوف الهرمية علامة الثراء. مهاجرون كثير يرجعون من أميركا وعلى بطن الصديرية تتدلى ساعة ذهب بسلسلة ذهب وكل لحظة يفتحون الساعة كي ينظر الآخرون إليهم وهم يفتحون الساعة (ماذا يبذل الوقت هنا، في القرية النائمة بين أشجار الزيتون والتوت والكرز؟). يفتحون الساعة ثم يشترن الأرض ثم يبنون البيت ويرفعون سقف القرميد العالي: هكذا تكتمل الحياة. لكن بناية كاملة من القرميد الأحمر! هذا لم تتخيل مثله يوماً!

من شرفة بناية تطلّ على الشارع نظرت إليها زنجية ضخمة الجسم ترتدي ثوباً أصفر لا يغطي إلا جزءاً من لحمها. كان المنتظر لا يصدّق! البشرة السوداء لعت من القماش الأصفر والمرأة حدقت إليها كأنها تعرفها! حتى السائق استدار لحظة وأشبع نظره من وجه مرتا. الرجل القاعد جنب مرتا لم ينتبه إلى ذلك: بدا مرتباً كأنه وقع في ورطة ولا يعرف كيف يخرج منها. بدا مصدوماً بأميركا! ماذا أتى بفعل هنا؟ لماذا ترك البيت الأليف والجبل الساكن والقرية الوديعة؟ أي غباء حمله من هناك إلى هنا؟ يده على الحقيبة المصنوعة من خشب وجلد، والظلام يقتحم عينيه. أعتمت الدنيا أمامه وودّ لو يُحمل إلى عنبال الشوف في هذه اللحظة.

تركهما يتخبطان في الحيرة وهما يعبران الشوارع والأحياء تحت سماء غائمة، سماء هذا «العالم الجديد». من كل جهة هجمت عليهم أصوات وروائح وألوان غير مألوفة. وجوه لا تُحصى، بيضاء وسوداء وصفراء، كل أعراق الأرض اختلطت على هذه البقعة التي تُسمّى مانهاتن.

وما ضاعف الإحساس بالضخامة والزحمة وأجهات المتاجر الزجاج وكل تلك النوافذ الفسيحة: إلى أي ناحية التفتت كانت مرتا ترى وجهها في الزجاج منعكساً وضائماً بين مئات الوجوه الغربية. وكل الناس يركضون، ولا تعلم من أين يأتون (من أي قرية؟ من أي عائلة؟) وإلى أين يذهبون. عربات بأحصنة وسيارات فورد ودوج وقطارات أصغر من القطارات تمرّ في هدير قوي مفرغ على شبكات حديد معلقة في الهواء بين الأرض الموحلة والسماء الفاتمة. تُخيل إليها أن أحد هذه القطارات الرمادية بالعلامات الصفراء الدائرية سيدخل في البناية الضخمة عند الزاوية. لكنه مرّ خلف المبنى ولم تسمع شيئاً. فتى في العاشرة ركض وهو يرفع سلة فوق رأسه. لم تعرف ماذا يريد أن يبيعها لكن وجهه المغطى بالنمش ردها إلى عالم آخر بعيد لا تعرف هل تراه بعد اليوم: كان يشبه نعموم ابن خالها (الصورة الأخيرة التي تحفظها له: يمسح يده على سرواله ويتناول منها «كمشة» من اللوز الأخضر الطري وجوزة رقبته تتحرك وهو يبيع ريشه). أوجعها عنقها وهي ترفع وجهها وتحاول أن تحصى عدد الطبقات في البنايات الشاهقة الملوّنة (رجال عابرون في بذلات، على رؤوسهم قبعات عالية سوداء، وفي قبضاتهم شماسي أنيقة، التفتوا ونظروا إليها).

هل كانت خائفة؟ هل شعرت بعقدة في بطنها هي تنظر إلى الغيوم التي تعبر زجاج البنايات؟ بدت البنايات كأنها ستقع عليها؟

## تقرير قنصلي

من ماجلسن (Magelssen) القنصل في بيروت  
إلى لوميز (Loomis) في الخارجية - واشنطن.

ذكرت في رسالة سابقة أن قرى كاملة في هذه الجبال باتت فارغة أو شبه فارغة. وتجد قرى بلا رجال. وإحداها سُميت «قرية الأرامل» لأن الرجال خرجوا إلى وراء البحر وتركوا النساء واختفت أخبارهم! لكن هذه حالة شاذة.

وعموماً فالبيانات المنشورة في المطبوعات السورية عن المهاجرين السوريين تعوزها الدقة. ولا بد من أن نلاحظ أن المهاجرين السوريين يقتصرون غالباً على لبنان الذي ينتمي سكانه تقريباً إلى طبقة الفلاحين. وهناك بلا شك عائلات عربية ذات نفوذ كبير في لبنان ولكن من النادر أن يهاجر منها أحد. ومن ثم سأقصر تقريري على طبقة الفلاحين المذكورة.

نظراً لطبيعة أرضهم الصخرية والتجارب الصعبة التي اكتسبوها في مجال حراثة الأرض فإن ذلك يجعل منهم إضافة قيمة لسكان الريف عندنا إذا شجعناهم على العمل في هذا المجال. لكن لسوء الحظ لا تتوافر لديهم النية أو الميل للاشتغال بنوع العمل الذي من الطبيعي أن ننتظره منهم. وكما يتضح من البيانات التي قدمها المواطنين العائدون فإنهم يشتغلون جميعاً بالتجارة، ويعني ذلك في

كثير من الحالات أنهم باعة متجولون، ولنا أن نتخيل بسهولة ملامح البائع السوري المألوفة الذي يرتاد الطرق الترابية في الريف الأميركي. إنه يذهب إلى أماكن قصية لا يذهب إليها غيره لكنه في المقابل غير مستعد بعد الآن لحراثة الأرض وزراعتها.

من الناحية العملية لم يأت أي من هؤلاء المهاجرين من بيروت أو غيرها من المدن التجارية، ونسبة من تعلموا منهم في المدارس الأميركية في سوريا ضئيلة جداً. فهم على نحو ما وعوض النزول من الجبل إلى المدن لامتثال التجارة ينزلون من الجبل إلى أميركا لفعل ذلك.

من جهة أخرى فنمذج السوري الذي «يتأمر» بسهولة نجده غالباً بين من تأثر بالثقافة الأميركية في هذه البلاد: ففي الكلية الأميركية ببيروت مثلاً والموجودة هنا منذ 1866 يتبع المحاضرون الأميركيون المناهج الأميركية. والقساوسة يُدرسون التوراة والإنجيل جنباً إلى جنب العلوم والجغرافيا والرياضيات والتاريخ الطبيعي. ويمكن بمراجعة سجلات مرفأ بيروت وسجلات «إليس أبلاند» أن نتبين مدى قلة عدد من يذهب إلى أميركا من أولئك الخريجين السوريين المتعلمين وهكذا نرى أن 37 خريجاً فقط من أصل 842 خريجاً هم جملة خريجي الكلية (أي أقل من 5.4 في المئة) قد هاجروا إلى أميركا. وهؤلاء المهاجرون الـ 37 ينقسمون إلى عدد من الاختصاصات وبينهم 8 أطباء و6 صيادلة و3 قساوسة وخمسة درسا التجارة ومسك الدفاتر.

السوري العادي في أميركا يعيش بأقل نفقة ممكنة عيشة الضنك ليوفر أكبر قدر ممكن من المال يرسله إلى بلاده أو يحمله معه عند عودته. وقياساً على عدد من عادوا إلى بلادهم لبناء المنازل وشراء الأراضي يبدو أن متتهى ما يطمحون إليه أن يصبحوا من عداد الملاك

## السيد هرمان

تراجعت الدعشة وحلّ مكانها الخوف والترقب الذي يعقد المصران عندما توقفت العربة. مرنا ميّزت حروف اللاتفة فوق المتجر الذي يحتل الزاوية:

Herman Dry Goods Co.

شبكت شعرها بديوس وغفلت رأسها بالمنديل. ها هي بلغت نهاية رحلتها (هذه نهاية رحلتها حقاً؟). منذ زمن طويل وهي تسافر، قطعت الأرض من جهة إلى أخرى. «ثمانية آلاف ميل»، هكذا قالوا لها على الباخرة التي حملتها من «الهافر» إلى «إليس أيلاند» (بعد سنوات طويلة، وهي تساعد حفيدها المفضل على دروسه في الجغرافيا، اكتشفت سرّ هذا الرقم الغامض: قطر الأرض 8000 miles)

العجلة طرقت على حافة الرصيف. من دكان يجاور المخزن الكبير (واجهته الزجاج ملأى بالثياب ويناس يقفون بلا حراك كالتماثيل والثياب تغطيهم) خرج حلاق يحمل مشطاً ومقصاً ويطرطق بالمقص كأنه يائع قهوة ويطرطق بفناجين القهوة المرّة في محطة بحدود. كان أصلع والضوء يبرق على رأسه. رأته بطرف عينها وهو يستدير بكامل جسمه ويحدق إليها وهي تدوس في الوحل محاذرة لئلا تزلق (نظراته ألهبها عن ذكرى باغتتها: جلّ التفاح المرهون وراء الساقية الشتوية عندما تغمره الأمطار شتاءً ويتحول إلى ما يشبه

في بلادهم. ومن الملاحظات العامة الشائعة بين السوريين والأجانب أن كل البيوت التي بنيت في لبنان بالسقوف القرميدية إنما بنيت بأموال جاءت في أميركا. فإذا وضعنا في اعتبارنا أنه تكاد لا توجد قرية في أي منطقة نائية في لبنان لا يشيد فيها بيتان أو ثلاثة بيوت جديدة بسقوف قرميد بينما أحفظ هذا التقرير، وأنه قد تمّ بناء قرى بأكملها على هذا النحو أحياناً، يمكننا التعرف على حجم الأموال التي نزحت من أميركا واستثمرت استثماراً دائماً في سوريا. ويمكننا الحصول على فكرة بسيطة عن الأموال التي أرسلها المهاجرون السوريون إلى بلادهم مما تذكره بعض مصادر البنك العثماني الإمبراطوري عن تلقي ما بين 400 و 500 ألف جنيه استرليني من هذه التحويلات. والقسم الأكبر يأتي من الأميركيين. (بين قرى الجبل نذكر دير القمر التي باتت معظم بيوتها تنغطي بسقوف القرميد حتى أنها تبدو من القاطع المقابل حمراء اللون؛ والقسم الأكبر من مهاجري هذه البلدة يستوطنون الأرجنتين ويرسلون المال إلى الأسياء ومرات يُسهّلون لهم الهجرة).

ورغم القيود التي تفرضها تركيا (السلطات العثمانية) على المهاجرين المتجنسين بالجنسية الأميركية يفامر عدد كبير منهم بالعودة إلى بلادهم الأصلية. وخلال مدة عملي في هذه القنصلية التي زادت على خمس سنوات، سنحت لي فرص نادرة لدراسة هذه الشريحة والكلام معهم وطرح الأسئلة حول غرضهم من العودة. ولم يقل أي منهم إنه أسرع بالعودة أملاً في إقامة وكالة تجارية أو مشروع استثماري ولكنهم كانوا يقولون دائماً إنهم عادوا لزيارة أسرهم وأقاربهم أو لتصفية ممتلكاتهم، وعدد لا بأس منهم عاد للبحث عن زوجة. وفي بعض الحالات كان المرض وسوء الحالة الصحية دافعاً للعودة.

المستمتع... هل تفكّ الرهن عن الجبل يوماً؟ هذا ما لا نعرفه حتى الساعة: المستقبل يحفل بمناطق مظلمة، وما علينا إلا الانتظار ثم نعرف ما خفي عنا. شدت الكيس إلى جسمها كأنها تحتمي من خطر محقق (ولو كانت العين لا تراه في هذه اللحظة) وسألت نفسها السؤال الذي تسأله كل ليلة قبل أن تغضض عينيها: «أين أنت يا خليل؟». بدت مترددة وهي تقترب من متجر السيد هرمان. ماذا ستجد في الداخل؟ أي خبر ينتظرها؟ هل تعرف مكان زوجها؟ هل تجد خليل هنا؟ (خلفها سمعت الرجل ابن عينايل يقول شيئاً للسانق. لم تعرف ماذا يقول. لعله لا يكلم السانق. كان يترقق طوال الوقت في العربة ويتلفت حوله كالأرنب المدعور لا تعرف لماذا).

قبل أن تبلغ الباب دخلت رائحة دافئة إلى رأسها. في اللحظة ذاتها رأت قطار بحمدون يعبر أمامها برؤوس الماشية تطلّ منه مع رؤوس البشر ورأت غيمة من الرمل الأصفر وفي جوف الغيمة رجال يقعدون ويلعبون «الطاولة». الباب الزجاجي المشرع عكس كنزتها الصوف الملوّنة ثم عكس الرجل الذي هرع كي يلحق بها حاملاً صندوقه - الحقيقية. بينما تخطفو إلى قلب المتجر شعرت بقلبي يتجاوز نبضة.

خطوة واحدة حملتها - بعد هذه الأميال كلها - من ضوء نيويورك الرمادي إلى عتمة خفيفة أنارتها مصابيح تتباعد وتتوغل إلى نقطة بعيدة غير مرئية: وجدت مرتنا نفسها عندئذ في مدخل أطول متجر في العالم. كان متجراً بطول شارع! وعن الجانبين تتعالى الرفوف المثقلة بالثياب، وإلى جهة من الائنئين تمتد منضدة طويلة صقيلة: أطول منضدة في العالم. وكان المكان فارغاً أو هكذا نُحِيل إليها للوهلة الأولى. ثم سمعت الأصوات ورأت ناساً يخرجون من

وراء إحدى «السقالات» (رفوف فوق رفوف مثل سقالات القزّ التي يُربى عليها دود الحرير في سوريا). كانوا رجالاً ونساء وخرج من الجماعة رجل نحيل كالظنّ واقتر - منها وسألها من تطلب؟ لم يسألها ماذا تطلب؛ من ثيابها حدس أنها تطلب السيد هرمان أو أحد الباعة الذين يعملون عنده على الطرقات.

العيون نظرت إليها وهي تتقدم مع كيسها (والرجل صاحب الصندوق يتبعها). هذه العيون لا تعرف عادات سوريا: في سوريا يسير الرجل أولاً والمرأة تتبعه، وليس العكس. النظرة المستغربة في هذه العيون لا علاقة لها بهذا الانقلاب المباعث في التقليد الشرقي. بدت المرأة فاتنة الجمال. هذه مرتنا ونحن نعرفها لكنهم يرونها للمرة الأولى: من وجهها المدوّر شخّ ضوء غريب. (كل آثار المرض زالت عن وجهها: ماذا كان؟ جدرى الماء؟ لا نعرف ماذا كان لكن آثاره زالت والقشرة الجديدة - بدّلت جلدها كما تفعل الحية؟ - هذه البشرة الطرية تجعل الإنسان - رجلاً كان أم امرأة - راغياً في مَدّ أصابعه كي يلمس خدها برؤوس الأنامل). النظرات لم تحرق صفحة خدها. عيناها الواسعتان تجاوزت الرجال والنساء. أحدهم ألقى تحية. ردت بهيئة رأسها. لعلها رفعت يداً في إيماءة. باتت فجأة عارمة القوة، وكل إرادتها تقودها في اتجاه واحد: إلى أعماق المتجر حيث مكتب السيد هرمان يحتجب وراء ستارة.

استقبلها بالترحاب:

- Welcome Madame Haddad

كثّر كلمة «welcome» مرتين ثم قال «أهلاً» بعربية ثقيلة. كان رجلاً خمسينياً يميل إلى البدانة. (لكنه غير سمين. ولعله بدأ مملوء الجسم مقارنة بالظنّ الذي وقف جنبه - وراء الكرسي الكبير - يترجم

كلامها وهي تستغرب أنه يعرف ماذا تقول: «الظل» بدأ أميركياً خالصاً فكيف يعرف لغتها؟. عندما نهض السيد هرمان ومدّ يده فوق المكتب المغطى بدفاتر الحسابات ولقّات القماش و«المساطر» كي يصافحها انتهت إلى رجة في جانب وجهه: شعرت (من أين يأتي هذا الشعور؟) أنه رجل غير قادر على الكذب.

- 16 -

## علي جابر

إذا بحثت عن علي جابر (Ali Jaber) في سجلات «إليس أيلاند» وجدت أربعة أشخاص يحملون هذا الاسم، ثلاثة منهم قدموا إلى أميركا من سوريا (أحدهم قال إنه قدم من تركيا، ولعله فعلاً تركي، أو هو من سوريا، العثمانية آنذاك، أو التركية). الأول وصل إلى أميركا سنة 1901 وعمره 25 سنة. الثاني وصل سنة 1920 وعمره 37 سنة (هذا حدّد بيروت مكاناً لقدمه، ولعله من بيروت، أو من جبل لبنان، فالمهاجر من جبل لبنان كان يركب البحر من مرفأ بيروت، والسلطات في إليس أيلاند كانت تسأل عن اسم المرفأ الأول الذي بدأ منه المهاجر رحلته الطويلة). أما الثالث فوصل سنة 1913 وعمره عندئذ 30 سنة. الرابع وصل في 1906 وعمره 35 سنة لكنه ليس من سوريا ولا من تركيا ولا علاقة له بقصتنا.

حتى هؤلاء الثلاثة أعلاه لا علاقة لهم حقيقية بقصتنا. قد يجد أحد القراء علاقة لكننا نستطيع تجاوز ذلك الآن والدخول في قصة علي جابر الذي لم يبق اسمه في سجلات «إليس أيلاند» لأنه دخل نيويورك من دون المرور بالكرنتينا.

دخل علي جابر إلى أميركا بطريقة غير شرعية. لم ينزل في إليس أيلاند التي سمّاها «الكرنتينا» وهو يحكي لأخيه بعد ذلك مغامراته الكثيرة. ولم يمرّ على الشرطة. كان يكره جميع أشكال

قوة لا نعرفها نحن الذين ورثنا جيناتهم؟ (الناس في «التوراة» يعترفون مئات السنين: نوح مات عن 950 عاماً).

هل كان علي جابر جباراً شجاعاً؟ لماذا ترك الباخرة قبل أن ترسو؟ لعله خاف أن ترده السلطات الأمريكية إلى بلده. على ظهر الباخرة شعر بنار في عينيه. عثر على مرآة ونظر إلى وجهه: رأى اللون الأحمر يغزو العين اليسرى. خاف أن يكون مصاباً بهذا المرض (التراخوما) اللعين الذي يتكلمون عنه طوال الوقت. إذا كان المرض في عينه اليسرى فتلك نهاية رحلته: لن يسمحوا له بالدخول إلى أميركا! هل يكون خوفه هو السبب غير المعلن لنزوله من الباخرة\* إلى الماء خلسة؟ هل يوجد سبب آخر لا نعرف عنه شيئاً، سبب مظلم لا يقدر أن يبوّح به؟ (سبب مظلم؟ ماذا؟) وماذا يُبدّل - في الختام - ذلك؟ كل ما بقي في الإرث الشفهي للعائلة من حياته النيويوركية القصيرة تلك الحكاية: دخوله أميركا مبلولاً بماء الأطلسي.

وقف في الظلام ينظر إلى بنايات مضاءة: في حياته كلها لم يَرِ بنايات طويلة كهذه البنايات. كان يرتجف من البرد ويفرك جسمه يديه كي يدفأ، ويغمض عينيه ويفتحهما، وكل لحظة ينحني ويصق ماء البحر. لم يكن يعلم عندئذٍ أن الحمرة في عينه ستزول بعد أيام وحدها (هذه الحمرة سببها الشمس الساطعة على صفحة الأطلسي ليل نهار). ولا كان يعلم أن نيويورك - مدينة الأضواء الملتفة بهذا الليل الصاقي البرودة - لن تكون إلا محطة أخرى قصيرة وعابرة في حكايته.

\* لن يتحمل رحلة العودة. قلبه يفلح إذا رموه مرة أخرى كراس الماعز في بطن هذه الباخرة... كل ليلة مرت عليه، كل يوم مرّ، دعرّ.

السلطة ويقول إنه لم يترك سوريا إلا هرباً من البطش والقيود: من كان يقصد؟ السلطان عبد الحميد\* في قصره الكبير الأبيض في إسطنبول قاعداً على كرسيه الذهب يستعرض حريمه كل ليلة - 16 تركية واثنان من السويد واثنان من النرويج؟ - أم كان يقصد «الوالد»، أبو علي جابر؟ أم كان يقصد أحد البكوات من آل العماد أو آل جنبلاط أصحاب النفوذ والرهبة في الجبل في تلك الفترة؟ لعله كان يقصد هؤلاء جميعاً في وقت واحد. ولعله كان فقط يريد دخوله أميركا بطريقة غير قانونية. لم يقف ذليلاً أمام ضابط يفتش الدخان كالتنين ولم ينظر إلى السجل المفتوح على الطاولة وقد قيّدت عليه الأسماء تحت العنوان العالي المطبوع بالأسود:

#### List or Manifest of Alien Passengers

عرف متى يترك الباخرة. لم يقفز كتلك الجثة المكفنة ويطرق صفحة المحيط ويرتد إلى أعلى محطماً بسلسلة ظهر مدقوقة. أرخى حبلاً وتدلّى. سبح في مياه أبرد من الجليد. لم يتخيل يوماً أن المياه يمكن أن تكون باردة هكذا! في ظلام الليل سبح إلى ساحل نيويورك ودخل أميركا خلسة. لم يقل لأخيه إن السياحة كانت منهكة. لعله قال ذلك لكن الأخ لم ينقل ذلك إلى الأبناء والأحفاد. سبح لابساً ثيابه؟ كان يحمل دولارات أميركية اشتراها على الباخرة. لعله اشتراها قبل ذلك في مرفأ بيروت أو في مرسيليا. هل كان يلفها بقماش سميك داخل زناره؟ هناك أقمشة يعرفها البحارة لا يخرقها ماء: هل حفظ أوراقه النقدية القليلة من البليل؟ أم قضى أيامه ولياليه الأولى في نيويورك بلا لقمة واحدة؟ هل امتلك أسلفاً - في البदन والروح -

\* غلغ عن عرته في 1909.



الصباح وبعد تدبير الملابس الضرورية - «في أميركا البس كما يلبس الأميركيون» - وبعد تلقي التعليمات والتمرين الأولي يستطيع أن يبدأ.

خليل حدّاد قال إنه يتعلم بسرعة. السيد هرمان أخيره أن العمل ليس صعباً، المهم أن يكون قادراً على التحمل، وهو ما زال في عزّ الشباب ولن يجد الأمر مرهقاً. لكن الأساس المثابرة. أنا بدأت بانعاً جزئياً أحمل الكشّة، قال السيد هرمان. بعد ذلك اكتشف خليل حدّاد أن وكيله وربّ عمله لا يمزح وأنه فعلاً بدأ «كشاشاً»: رأه يُغَيَّر قميصه مرة واقفاً في نور النافذة المربعة (والآن ترى مرثا المطر يهطل على نيويورك للمرة الأولى في حياتها) ورأى العلامات - التندبات العميقة - التي خلفتها سيور الكشّة في كتفه وعلى ظهره. السيد هرمان أخذ خليل حدّاد تحت جناحه وعلمه كيف يبيع ربّات البيوت الأميركيات بضاعته: عليك أولاً أن تقرح الباب ثم تتراجع خطواتين. في حالتك ومع هذا الطول أفضل أن تتراجع ثلاث خطوات. بعد ذلك التحية. كن مهذباً واعرضْ بضاعتك. لا تفكر أن عليك طيّ المناديل والأقمشة بعد ذلك: أبسط كل بضاعتك أمام الزبون ثم توسع في الحديث لكن من دون إزعاج.

«الظلّ» كان يساعد بترجمته في البداية لكن خليل صار يفهم من دون الكلمات. وسرعان ما أتقن الإنكليزية. نزل في «أوتيل الجبل» في الحي السوي في نيويورك (هنا في طرف «واشنطن ستريت» حيث يتداخل الحيّان السوري والإيرلندي على بُعد خطوة من «وول ستريت» مبنى البورصة). كان يخرج كل فجر - قبل شروق الشمس - ويبدأ المشي. حمل كَشْتَه عبر أحياء نيويورك وبروكلين ونيوجرسي. هذه الأمكنة كانت تعجّ بالمنافسين، وأعلم السيد هرمان أنه يريد أن يذهب أبعد. كل أغراضه جمعها في كيس وتركها أمانة

## حياة خليل حدّاد

السيد هرمان تكلم و«الظلّ» ترجم أقواله. مرثا شعرت أنها تضع في مياه اللغتين. في الأيام والأسابيع الماضية، على ظهر البحر ثم على الجزيرة - الكرتينا، حاولت أن تتعلم (بالإصغاء) الإنكليزية. لم تفلح. صارت تفهم تتفأ من الحديث، بصعوبة. لكن هذا لا يكفي، ثم أن «الظلّ» يترجم بطريقة غريبة: يتدفق السيد هرمان بسيل كلمات فيترجم «الظلّ» كل ذلك في جملة واحدة أو في عبارة بلا معنى! لزمها الأمر بعض الوقت (عبر النافذة رأّت - من دون أن تستوعب ماذا ترى - الفضاء يُعتم، وطقس نيويورك يتحول فجأة من غائم ساكن إلى ماطر يهتض بالرعود) ثم بدأت ترى زوجها، ترى خليل بقامته الطويلة وضحكته المحببة يدخل هذا المكان ذاته ويلقي السلام على السيد هرمان أول وصوله إلى أميركا قبل سنتين.

في وقت قصير تعلم خليل حدّاد الإنكليزية. السيد هرمان قال إنه جلس على حافة الكرسي - حيث هي جالسة الآن - وأعلن أنه على استعداد للبدء بالعمل في هذه اللحظة. غبار الجبل اللبناني كان ما زال عالفاً بالشروال والقمباز والطربوش لكن خليل حدّاد نزع الطربوش عن رأسه وقال «أخرج الآن وابدأ قبل أن تغيب الشمس».

السيد هرمان لم يستغرب لكنه ضحك من السوري المتحمس وأخبره أن الأهم الآن أن يرتاح من عناء الرحلة الطويلة ثم في

## حياة خليل حداد (2)

رسائل خليل لم تخبرها كل هذه التفاصيل. الآن نكتشف أنه عموماً لم يخبرها شيئاً! كانت رسائله قصيرة ولا تروي الغليل. وكم مرة أعادت قراءة السطور. الكيس على الأرض، عند قدميها، والرسائل مطوية فيه. كانت ترفعها إلى وجهها وتحاول أن تشم رائحة يديه وهي قاعدة في البيت في بناتر. حتى في المنام كانت تفعل ذلك: تشم الحبر والورق وتشم العرق من أصابعها ولا تعثر على رائحة خليل. مرّت السنوات وشوقها إليه يتضاعف. عندما اختفت أخباره وقالت لخالها «قلبي سيفقع» كانت تسيطر على نفسها: منذ وقت تشعر أن قلبها تبعثر. إذا لم تعثر على خليل كيف تبقى على قيد الحياة؟ قال السيد هرمان إنه لا يعرف أين زوجها. بحثنا عنه ولم نجده. مثل فص ملح وذاب في أميركا. الحوالة الأخيرة أرسلها مطلع السنة الماضية. وبعد ذلك لم يقصد المخازن في ميسوري واختفى أثره. أميركا شاسعة والوقت يمرّ بسرعة ولعله يظهر في وقت قريب وتجتمع بزوجها من جديد: ما علينا إلا الصلاة والانتظار.

فتح السيد هرمان يديه على المكتب وسكت. مرتا نظرت إلى البخار يتصاعد من كوب الشاي أمامها (لم تنتبه متى وضعوا أمامها الشاي). انتبهت إلى يد سمراء تمتد وتحمل الكوب الآخر. رفعت وجهها ورأت الوجه الغريب والظربوش الغريب: كان يتشمس ابتسامة

عند صديق في «أوتيل الجبل» ثم ترك الغرفة حيث نام الليالي الأولى في أميركا على سرير يجاور تسعة أسرّة أخرى، وصار ينام حيث ينزل عليه الليل: في إسطنبول للمعاشية، في حقل، على قارعة الطريق، وأحياناً في منزل: تتكروم عليه عائلة باعها قماشاً فينام الليل على «فرشة» في المطبخ ويتناول الفطور الصباحي مع الذين أحسنوا إليه ثم يغادر حاملاً كسّته (أبداً لا يغادر من دون أن يودع يد مضيفته هدية: متديلاً مطرّز الحاشية، أو «ذخيرة» من الأراضي المقدسة: صليباً من خشب الأرز اللبناني).

خلال شهر قليلة وصل إلى ولايات أركانساس وكانساس وأوكلاهوما. كان يرجع للترزود بالمزيد من البضاعة من المخازن التابعة للشركة في ميسوري ثم ينطلق من جديد: صارت رحلاته تأخذه إلى تكساس، إلى كولورادو، إلى نيومكسيكو. قال السيد هرمان إنه كان أسرع وأنشط البائعين. «صرتا نرسل صناديق البضاعة بالقطار إلى المحطات في «لينكولن - نبراسكا» أو «تولسا - أوكلاهوما» وهو يتسلمها هناك ويخرج بها إلى المزارع. اقتنى عربة وحصاناً وبات يرسل الحوالات إلينا بانتظام وكل ذلك في أقل من ستين».

المطر يهطل خارج النافذة ومرتا تصغي بلا حركة.

حزينة. «من هذا؟ أنا أعرفه! من هذا؟» وتذكرت: هذا الرجل الذي جاء معها من ليس أبلاند إلى هنا! قبل وقت قصير فقط - كم دقيقة مرّت؟ مرّت ساعة؟ مرّت سنة؟ - دخلت من ضوء نيويورك الرمادي إلى هذا المتجر الطويل كشوارع. وفي هذا الوقت القصير صار الرجل ابن عيّنال مخلوقاً من عالم آخر ومن حياة بعيدة!

سألت من أين وصلت الحوالة الأخيرة؟

- Louisiana

سألت عن المسافة التي تفصلها عن هذه القرية أو المدينة.

«الظلّ» شرح لها أن لويزيانا ولاية كاملة وفيها عدد لا يُحصى من المدن والقرى.

استجمعت أنفاسها وسألت مرة أخرى عن المسافة، كم تبعد هذه الولاية من هنا، وهل يذهب القطار إليها؟

«الظلّ» ترجم جواب السيد هرمان: أقدر أن أعتد على نسخة من الحوالة وأن أعرف عنوان المصرف الذي أرسلت منه واسم المدينة في لويزيانا، هذا سهل جداً. لكنه لن يفتح حتى لو ذهبت إلى هناك لن تعثري على زوجك يا سيدتي. أنا اتصلت بالشريف - الشرطي - هناك في ذلك الوقت. وهو استعلم ولم يجد أثراً لجو. هذا اسم زوجك في أميركا: Joe Haddad. أفضل ما تقدر عليه هو الصلاة من أجله وسوف يرجع. وعندما يرجع بجدك هنا في انتظاره.

مررت لم تفهم. الكلام واضح وغير واضح. إذا كان السيد هرمان اتصل بالشرطي في تلك المدينة فلماذا لا يخبرها اسم المدينة؟ هل نسي الاسم؟ كان المطر يشتد وصار يهدر في أذنيها، كأنها في الخارج. (كم مرة أضاءت شمعة في كنيسة بحمدون الحجرية الصغيرة في المقلب الآخر من الكوكب وصلت ألبياغت

المطر والرعد خليل وهو على الطريق بين مزرعة وأخرى).

تعرف أنه يُسمّى «جو» هنا. أخيراً منذ الرسالة الأولى. ظلّ في رأسها «خليل». لكن عليها منذ اللحظة أن تستعمل الاسم الجديد. لن يتفح أن تسأل الناس عن خليل حداد. عليها منذ هذه الساعة أن تسأل عن جو حداد. (خارج النافذة مرّت عربة تجرّها الأحصنة. كان المطر يلسع الأحصنة الراكضة ورأت سوطاً جلدأ يقصص المطر وينزل على رأس الحصان. لم ترّ وجه الرجل الذي يقود العربة لكنّها رأت ما يشبه القناع الجلد الأسود يبين من أعماق غيوط المطر البيضاء ثم يتبدد. هل التفت القناع بالفتحتين الضيقتين كمينتين وحدّق إليها؟ صوت غامض كان يدعوها إلى شرب الشاي. هل بدت لهم بردانة؟ هل تسرب اللون الأزرق إلى يديها ووجهها وما يظهر من الرقبة؟ كانت ترجف برداً؟).

تحرك الهواء وأحاطت بها ضجة. رفعت وجهها ورأت المكان يمتلئ بالناس. كانوا ينظرون إليها وينتظرون وقوفها وهم يمدّون الراحات صوبها: سوريون - يعملون عند السيد هرمان - عائدون من عمل النهار سمعوا بوصولها فاتوا يسلمون عليها وعلى قاسم عبد الباقي.

## قاسم عبد الباقي

رجل في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين. ملوّن العينين مثل دروز كثير في جبل لبنان. طالما اعتبر نفسه شجاعاً. لكن أميركا صدمته. المناظر الغريبة المتوالية أشعرته بالعجز. أمام الحديد الأسود لجسر بروكلين المعلق بلا أعمدة أحسن أنه أصغر من حبة عدس. هدر «الصابواي» تحت قدميه وهو يقطع الطريق فظن أنه الزلزال: هل قطع الأرض إلى نيويورك كي يُردم تحت الحجارة بهزة؟ أدرك أنه بلا حول ولا قوة. أدرك أنه بلا عائلته وعشيرته يساوي صفرًا. ندم على سفره وعرض أصابعه وهو يدخل إلى المتجر الطويل كشاح على تلك الزاوية في مدخل «واشنطن ستريت».

رحّب السيد هرمان به ودعاه إلى الجلوس. نظر إلى الخواجة الأميركي - الذي كفله كي يأتي ويعمل في أميركا باتعاً جزألاً - ولم يفكر شيئاً. نظر عاقداً أصابعه وانتظر ما سيأتي: عندئذ بدأت تلك القصة الغريبة تحدث أمام عينيه. تحدث؟ لكنه يسمعها! أصغى إلى الكلام الغريب ولم يصدق. لم يفهم: كيف؟ معقول؟ لم يسمع بمثل هذا من قبل. على الجزيرة، في الحجر الصحي، قالت المرأة إنها أتت إلى زوجها الذي يحمل هنا عند المستر هرمان. لماذا كذبت؟ ألم تكن تعلم أنه ليس هنا، أن زوجها - هذا المدعو جو خليل حداد - قد اختفى وضاع أثره منذ سنة كاملة؟ استدار برقبته - نسي اللياقة

والحشمة وغض البصر - وتأمل جانب وجهها: قلبه انقبض في صدره وهو يرى الرطوبة تيرق في عينيها المشروحتين. ما هذه المرأة! امرأة جبلية صغيرة تقطع العالم إلى أقصاء بحثاً عن زوجها! لم يسمع بمثل هذا من قبل! كيف سمح لها أهلها؟ وكيف وجدت في نفسها القوة الكافية كي تقدم على هذه المغامرة؟ عندما رفعت يدها وردّت إلى وراء الأذن خصلت شعر خفق قلبه: سمع النبض يرفق وخاف. العرق بلّب الشعر النابت تحت إبطيه. لم يعرف ماذا يحدث له. عندما اقتحم المكان رجال أقوياء الصوت يحملون كسّات ثقيلة تضايق من وجودهم: مع أنه بحاجة إلى أصوات عربية تُبعد وحشته، تضايق منهم. كانت الأذرع تمتد وتفصله عنها. أراد أن يقترّب منها أكثر. خاف ولم يفهم ماذا يحدث له. خاف وسأل نفسه ماذا سيحدث.

قاسم عبد الباقي لا يقرأ المستقبل. هذا ما سيحدث له: من لحظة السقوط هذه (بينما المطر ينهمر غزيراً خارج النافذة المرتفعة ونيويورك تبدو مشرقة على الطوفان) تبدأ رحلة صعوده. خلال أسابيع قليلة تتعلّم من رفاقه على الطرقات ما يكفيه من الكلمات الإنكليزية: كان يخرج معهم حاملاً الكسّة ويقبل التعليمات ويشكر. اكتشف أنه قادر على حمل الكسّة وأنه قادر على بيع النساء قماشاً ومناديل وقمصان وسيوراً وغيوطاً وتلك الأزوار الخشب الصغيرة. صار يخرج وحده ويسعى بين البيوت. ليس عاجزاً. حمل الكسّة أسهل ألف مرة من «الفلاحة» على الثور في عينال، أرض الصخور البعيدة. هنا لا يلحق «السكّة» ويخاف أن تكسرهما الحجارة. هنا لا يمرض الثور وتقع الأمعاء خضراء من جوفه وتعمل الكارثة. علّم نفسه أن يحبّ الأكل الأميركي. «ستايكس»، تتعلّم الكلمة وصار يدخل إلى المطعم ويطلب هذا العليق. لا يطلب غيره. يقطع الشريحة بالشوكة والسكين

## الحي السوري - نيويورك

المستقبل بقدر أن ينتظر وكذلك وحول الجبهة الغربية (ملايين طُلمروا هناك؛ لاحقاً يدخلون هذه القصة). في هذه الأثناء نتأمل قاسم عبد الباقي يبادل آخرين السلام والكلام بينما مرتا تنهض من المقعد كأنها تنتشل جسمها من تحت البحر.

شعرت بعظامها تنفكك. انتهت فجأة أن الجوع ينهشها. تفكر في الطعام في هذا الوقت؟ لم تكن تفكر لكنها سمعت عصفير معدتها تزقزق وتطلب كسرة خبز. في الطريق إلى «الحي السوري» هاجمتها الرائحة مرة أخرى. وفي هذه المرة عرفت ماذا تكون: رأت مقهى ومقاعد قش على الرصيف وأراجيل. كانوا يدخلون تحت الظللات والمطر يُحَوِّل الشارع إلى برك وحل تغلي وتغور. غمرت الحوّل نيويورك والسوريون - الأميركيون ظلوا أمام المقهى يدخلون الأراجيل وينشرون رائحة البلاد البعيدة في الهواء. كانوا كثيراً وعجبت كيف جاؤوا جميعاً من آخر الأرض إلى هنا وكيف اجتمعوا في هذه الزاوية الصغيرة جنب ناطحات السحاب («الحي السوري» اندثر بعد ذلك ولم يبقَ منه إلا أسطوره. ولعل موقعه الجغرافي الفريد في جوار وول ستريت Wall Street كان السبب في اندثاره).

مرتاً أيضاً لا تقرأ المستقبل: لا تعرف أن «التركو» (هكذا سُمي السوريون آنذاك)\* الذين ينظرون إليها وهي تمرّ مع آخرين تحت المطر المنهمر (كانوا يسبرون الآن، يقفزون فوق البرك، والوحل

ويأكل. في «عيد الشكر» الأميركي احتفل مع أصدقائه الجدد في البهو المثلث الشكل أسفل «أوتيل الجبل». أكلوا خبز الذرة مع الحشيش المحشي والمشوي بالفرن وشربوا. في الجبل لم يقرب العرق ولا النبيذ. مرة دخن تبغاً وأبوه الشيخ رآه وطارده بالعصا من قبو العقد حتى النهر. لو لحق به كان حطّم رأسه. في البهو المثلث وهو يرفع كأس النبيذ الأحمر ويشرب مع رفاقه الجدد فكر أنه لم يعد الشخص نفسه. قضم حبات كستناء مشبعة بنكهة الحشيش (عندما تصبح ديوك الحشيش يرى بيوت عينبال أمامه تتدرج على التلال بيتاً بيتاً). شرب كأساً بعد كأس وتخلّث نفسه يدنو من مرتا حداد ويلمس يدها.

أثناء شتاء 1916 - بينما الحرب الكبرى تحرق أوروبا - استطاع أن يفتح مع صديقين متجرأ صغيراً لبيع الثياب في بوسطن. آخرون غيره لزمهم سنوات من حمل الكثرة قبل أن يجمعوا مالاً يكفي لفتح متجر. دفع ثلث الرأسمال وصار يقف في المتجر طوال النهار ويثرثر بالإنكليزية مع سيدات بوسطن ويبيعهن فساتين من معامل هرمان وماكينري. بعد ذلك استقدم (هو طلع بهذه الفكرة) ملابس يابانية من وراء المحيط الهادئ: كيمونوات للمحترفات بنات الليل في بلدات أميركا التي تظهر من بطن الأرض بين ليلة وضحاها.

طُلب إلى الخدمة العسكرية في الجيش الأميركي أواخر 1917. في أيلول (سبتمبر) 1918، قبل شهرين من «الهدنة»، قتلته قنبلة على الجبهة الغربية.

يلطخ النعال والصباييط) لن يجتمعوا هنا إلا لوقت قصير: مرور  
 الأعوام سيحشرهم على خريطة أميركا. بينهم من يرجع إلى البلاد  
 البعيدة وبيئهم من يمضي إلى أقصى الغرب (إلى كاليفورنيا) وبيئهم  
 من يذهب جنوباً إلى فنزويلا والبرازيل والأرجنتين. مصيرهم التبثر.  
 هذه المساحة سترتفع عليها ناطحات سحاب أين منها البناءات  
 الشاهقة التي تراها مرثا الآن بعينين غامتين. الجوع يجعلها تدوخ  
 والبرد يقتحم مصاريفها وهي تقطع خريف ثم شتاء 1913 ولا تعرف  
 شيئاً عما سيأتي. (بالتأكيد لن ترى البرجين التوأمين لمركز التجارة  
 العالمية يقعان هنا والغبار يغطي العالم وهي تواصل طريقها - جاعة  
 وخائفة ومقهورة - إلى «أوتيل الجبل»). كل ما تعرفه هذا: عليها أن  
 تعثر على خليل. لا أحد غيرها يبحث عنه الآن وإذا لم تعثر هي عليه  
 فمن سيفعل؟

خفت سقوط المطر لحظة، صار رذاذاً، ورأت بيتاً يشبه البيوت  
 في البلاد البعيدة وأمام البيت جنية مزروعة بندورة وقرنبيط وملفوفاً.  
 شتلات البندورة بدت شبه يابسة لكن زهرات القرنبيط بانث بيضاء  
 ناصعة وسط اللون الأخضر واللون الأصفر. رأت امرأة على رأسها  
 مندبل تزبح ستارة مطرزة ثم تُسرع النافذة رغم المطر وتنادي. كانت  
 تصيح بالعربية، تكلم جاراتها، ومرثا تجمدت في مكانها: سألت  
 نفسها هل تهذي، هل هو الجوع! لكن شخصاً معها التفت ونادى  
 وقال للمرأة في النافذة شيئاً والمرأة ضحكت ودفعت ذراعاً تخشخش  
 بالأساور الذهب و«عزمت» عليهم جميعاً كي يشربوا فنجان قهوة  
 وينشفوا رؤوسهم من المطر. الرجل قال إنهم على عجلة، والمرأة  
 ردّت بكلام غير مفهوم، وقاسم عبد الباقي قال لمرثا «انتهي» ومرثا  
 وجدت نفسها تفوص في الوحل.

في مدخل الفندق، وهي تنفض عن رأسها وكنزتها المطر،  
 نظرت إلى الحيطان وإلى اللوحات الغربية على الحيطان، وفكرت أن  
 خليل، من قبلها، نظر بعينه الواسعتين إلى هذه المناظر.  
 أعطوها سريراً على الطابق الثالث في غرفة تضم عشرة أسرة.  
 وجدت في الغرفة خمس نساء غيرها؛ اثنتان منهن يعرفن العربية:  
 واحدة من يكفيا المتن أخبرتها أنها تعرف بحمدون جيداً وعندنا  
 هناك أقارب. والأخرى من زقاق البلاط - بيروت. ابنة يكفيا أتت مع  
 أخيها الكبير والأخ يتاجر في بنسلفانيا وهي ستلحق به بعد أيام.  
 والبيروتية جاءت مع زوجها وأولادها وكلهم يتاجرون على الطريق  
 وهي في الفندق مؤقتاً وستنتقل إلى غرفة في بيت معارف من حلب  
 يقطنون غير بعيد من هنا، وراء بناية «ستجر»\*.

مرثا هجعت عندما انطفأت الأضواء. الخبز الذي أكلته مع  
 حليب أثل على معدتها. لا تعرف مم يصنعون هذا الخبز: فيه حبوب  
 لم تلق مثلها من قبل. ليس أنها كرهته. لا. بل هي أحبت طعمه. لكنه  
 الآن، وهي في الفراش، ثقيل. كأنه يشرب الحليب ويتنفخ ويتورم  
 كالإسفنج في معدتها. رفعت رأسها ونظرت من النافذة إلى الأنوار في  
 البناءات والنوافذ وعلى الطريق. رأت ناساً يتحركون فوق ناس في  
 النوافذ الصفراء المرتمة: رأت عائلة جالسة إلى المائدة. في هذا  
 الوقت المتأخر يجلسون إلى الطعام؟ راقبتهم هناك، في الجانب  
 الآخر من الشارع، حتى نامت.

\* ناطحة السحاب الأطول في نيويورك في ذلك الوقت. تملكها شركة Singer  
 صانعة ماكينات الخياطة.

\* كونهم يتبعون السلطة العثمانية.

## لقاء

أيقظها عند الفجر بوقٍ بحري هادر\* قامت مذعورة وقلبيها يفرّز  
من زلعومها. كانت بداية سبته لتهار طيب ففي ذلك الصباح نفسه -  
وبيتنا تظفر في بهو الفندق - التقت رجلاً سيلعب دوراً مهماً في  
حياتها. هذا جوزف أسطغان.

لكن قبل بلوغ البهو عليها نزول السلالم الزلقة. (ثمة مصعد في  
هذا الفندق: علبة خطيرة وضيقة مصنوعة من الخشب والحديد  
المشبك. لكن المصعد - كالعادة - معطل منذ فترة، ولو كان يعمل  
لخافت أن تدخله). وقبل نزول السلالم الملطّخة بالوحول عليها  
الخروج من غرفتها وعليها دخول الحمام. كيف قضت ليئتها الأولى  
في نيويورك؟ وهي نائمة سمعت المطر يهطل من جديد. (كم ليلة  
أيقظها القلق وعدم الفهم في بيتها الحجري المربع في بتانتر؟ تردّد  
مفتوحة العينين في الفراش الخالي من خليل وتسمع المطر يتساقط  
على الأشجار في الظلام الدامس. صوت ضعيف يصدر عن وقوع  
المطر على السطح: التراب يمتص الصوت وكذلك العشب النابت.  
عندما تصحو تصعد إلى السطح وتحمله متعاً للذلف، لكن العشب  
عتيق وينمو من وراء المحذلة).

فتحت عينها في نصف الليل لحظة قبل أن تفرق في نوم عتيق

\* بايور يدخل الرفا.

من جديد. رأت نوافذ مضاءة في الظلام وأخيلة تتحرك في مربعات  
النور الأصفر: ما هذا المكان؟ أين أنا؟ حين أيقظها البايور فجرأ  
كانت تظن نفسها نائمة في بتانتر. البوق القطيع رذعا إلى أميركا. لم  
تعرف هل تشكر ربها أم تفعل العكس: قبضت على صليبيها وجلست  
في السرير ونظرت إلى خيوط المطر تسيل على الزجاج. «أبانا الذي  
في السموات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكون مشيتك كما في  
السماء كذلك على الأرض». ثيابها الرطبة المنشورة جنب السرير لم  
تشف بعد. تلمستها في الظلام الخفيف وظلال المطر وأضواء الشارع  
تسيل على يديها. فتحت كيس الجنيفيس وأخرجت «البدل» الوحيد  
فإذا به رطباً! المطر تسلس عبر الجنيفيس! تفقدت أوراقها مذعورة  
وشكرت الربّ ومريم العذراء لأنها وضعت هذه في جراب جلد  
إضافي. حملت ثيابها كلها في الكيس، جمعت جسمها إلى جسمها،  
وقامت إلى الحمام. تركت الكيس في الزاوية فلا يصل إليه ماء ويبقى  
أمام عينها في الوقت نفسه: اغتسلت هكذا وهي تنظر إلى الكيس  
يتكوم كحيوان غامض في الزاوية. غسلت رأسها بقطعة الصابون  
البلدي الباقية ثم مشطته بالمشط الهديئة الذي جلبه لها خليل مع  
أغراض أخرى عندما تزوجا. كان يحب أن يجلب لها أشياء. وكانت  
تري في وجهه كم يحب ذلك.

مرة تلو أخرى امتدت يديها وتأكدت أن الباب موصل ولن  
يدخل عليها في الحمام أحد. البوق البحري كان نعمة: أيقظها قبل  
اليقين وأعطاهها هذه الخلوّة القصيرة كي تغتسل.. بينما تلتقط ثيابها  
الرطبة شعرت بغتة بالبرد: كأن أحدهم يضربها بقطع الثلج وهي لا  
تراه لكنها تشعر بلطحات الجليد. مع ذلك لم تجد أمامها غير ارتداء  
الثياب الرطبة. هذا المشهد المحطّم نفسياً قد يتحول بمرور السنوات  
إلى تفصيل شبه خيالي في حكاية تُروى أمام الموقد بعد العشاء. لكن  
الإنسان صغير وضعيف وطبيعته أن يعلق في اللحظة الحاضرة: كرت

الدموع من عينها وهي تبكى أزرار الكنتزة الطويلة الصوف.

حين أطلت على البهو المثلث مع كيسها وقف الرجال عن الطاولة الممدودة بالكراسي عن الجهتين. كانت أطباق الطعام تغطي المائدة والبخار يتعالى من أكواب كثيرة. ورائح القهوة والشاي والحليب امتزجت في رأسها. كان البهو دافئاً ورائحة قاسم عبد الباقي ينفصل عن الجماعة ويدنو منها مرحباً. الآخرون أفسحوا لها مكاناً وهي جلست على الكرسي. كانت محاطة بقاسم عبد الباقي ويرجل آخر تذكر وجهه من «ليس أبلاند» لكنها نسيت اسمه. قبالتها تماماً، بعد صحون الجبنة والبيض وسله الخبز، رأت بعينين رطبتين وجهاً مدوراً يحذق إليها ويبسّم. من دون أن تنتبه وجدت وجهها يردّ الانتسامة: العضلات الصغيرة المتخشبة استراحت، والعبة اخضت. فتحت فمها نصف فتحة ونسيت أن الثياب رطبة على بدنها ونسيت أنها وحيدة وضائعة ولا تملك مالا يكفيها أكثر من خمسة أيام أو عشرة على الأكثر! أحدهم دفع أمامها كوباً وقال اشربي من هذا. كانت الرائحة طيبة دافئة. صوت قال: «هذا كاكاو مع سكر وحليب، يُفيدك، اشربي منه!». ترددت ولم تمدّ يدها. ثم رأت الوجه قبالتها يقول شيئاً: لم يفتح الرجل فمه ولم يتكلم. الوجه أخيرها، بالإيماء التي لا يشعر بها إلا شخص واحد تُوجّه الإيماء إليه: الأعماق تُرسل إشارة إلى أعماق أخرى. شعرت بالدفء في بطنها من قبل أن تمدّ يدها وتضم الكوب الساخن في قلب راحتها. عندما نزل الكاكاو بالحليب فيها أغمضت عينها وأحست أنها لن تتحطم. أحست أنها ليست وحيدة، وأنها - حتى وهي وحيدة - تملك قوة أو ما يشبه القوة. فتحت عينها عندما سمعت الصوت:

- اسمي جوزف أسطفان وأستطيع أن أساعدك.

- 22 -

## بيت الحاجة ماري

«اسمها حنّي مطرونة لأنها حنّت إلى القدس لكننا هنا نسميها الحاجة ماري لأنها هكذا سجلت اسمها في دفتر إليس أبلاند»، قال جوزف أسطفان.

عن نفسه لم يتكلم كثيراً. القليل الذي قاله في تلك اللحظات الأولى بدا كافياً: يعمل عند السيد هرمان وهذا أخيره عنها - أنها وصلت - وطلب منه أن يساعدها على تدبير محل السكن وإرشادها إلى «المعمل».

«لكن قبل ذلك لا بد من ثياب ناشفة»، قال جوزف أسطفان وهو يراها ترجف في ثيابها الرطبة.

أخذها إلى قلب الحي السوري، إلى «كنيسة الموارنة». على باب الكنيسة الخشب المنفوخ بالمطر قرأت كلمات عربية من «مزابير داوود»:

«طوبى لأناسي عزهم بك طَرُقُ بيتك في قلوبهم»

رائحة البخور فاجأتها. ارتجفت قلبها في صدرها وهي ترسم إشارة الصليب ثم تمرّ بين المقاعد الخشب الطويلة. رأت وجوهاً تشبه الوجوه في البلاد البعيدة. جوزف أسطفان قال تعالي، بعد قليل يمكنك الصلاة، الآن تعالي، ومدّ يده وشدّ يدها كأنه يعرفها منذ زمن الطفولة. لم تخف من أصابعه القوية وتبعته.



من باب منخفض (كان عليها أن تحتي ظهرها) دخلت إلى دهليز قليل الضوء تفرح منه رائحة الشمع. «انتبه لي رأسك»، قال جوزف أسطفان. بعد لحظة قال «انتبه»، هنا درج. ورائته ينزل الدرجات إلى ظلمة سرعان ما تبدت: بان أمامها مكان فسح نثيره شبابيك عالية مدوّرة غارق نصفها تحت الأرض. هنا وهناك رأّت طاولات عريضة وعلى الطاوالات أغراض كثيرة: ثياب وطناجر ومعاطف وجزم وصباييط وصحون وأقمشة ضخمة (ما هذه؟ خيم مطوية؟). «من هنا»، قال جوزف أسطفان وعبر بها حتى طاولة تكوّمت عليها ثياب نسائية. «لا تخافي، هذه كلها مغسولة، قديمة لكنها نظيفة».

كانت حائرة لا تعرف ماذا ستفعل، يداها تشدّان الكيس إليها وجوزف أسطفان ينتظر. عندما بقيت جامدة ضحك وقال «أراجع بعد قليل، خذي ما تريدين، هناك غرفة وليس الثياب، هناك». دلّها بإصبعه إلى قسم من القاعة الغربية (هذا المكان لا يشبه القبو: أرضه بلاطاً) تتدلى فيه ستائر بلون الشمام، ثم مضى بخطى واسعة صوب الدرج واخضى. عندما تلاشى صدى دعساته نظرت إلى الثياب الملقاة أمامها. مرّ وقت وهي هكذا ثم مدت يدها.

عندما عاد ورأها واقفة في ثيابها الجديدة قال «عظيم». ثم أسرع إلى كومة الثياب وجلب شالاً صوفاً ومعطفاً يدا أثقل منها. هزّت رأسها كالطفلة تقول لا. كانت خائفة من ثمن هذه الأشياء كلها (قروشها قليلة ولا تريد أن تبدد ما تملك). وهو أدرك من دون أن تقول شيئاً ماذا تفكر وأخبرها أنها لن تدفع شيئاً.

مرتا لحظة سمعت العبارة بدأت ترفع يديها وتفك أزرار الكنتزة التي لبستها فوق كنتزة أخرى. وجهها صار في حمرة الشمتندر: كيف

تقبل إحساناً؟ لا يمكن أن تقبل. ليست إلى هذا الحد فقيرة. وثيابها رطبة وبعد وقت تنشف. عندها ثيابها. جوزف أسطفان مدّ يديه الاثنتين وقبض على يديها. أفهمها بكلمات قليلة أن هذا «غرف» هنا، تأخذ هذه الثياب مؤقتاً وحين تقدر تجلب ثياباً وتعطيها للكنيسة. «الناس للناس يا بنت عمي»، قال لها. وأخبرها قطعة صغيرة من حياته:

- اسمعي يا مرثا. أنا حين أتيت إلى أميركا كنت ابن 13 سنة. جئت مع ابن خالتي، كان يكبرني بخمس سنوات. كنا نخرج ونبيع من هنا حتى نهر مسوري. بعد سنتين هكذا جاء رجل وقال انزلوا إلى الأرجنتين، هناك الذهب على الطريق، وتناجرون بقارب في الريبو وتصيرون أثرياء في سنة واحدة. قال الأرجنتيين والبرازيل والمكسيك بلاد فائحة جديدة وهناك بحثون السوربين ولا ترى أحداً يطرد كئاشاً من أمام بابها. أنا مرة في فيرجينيا قوّصوا عليّ ببارودة صيد. لولا رحمة الرب كانوا قتلوني. ولم أكن أفعل شيئاً. اسمعي: جمعنا أغراضنا أنا وابن خالتي وركبنا القطار. من نيويورك إلى روشستر - بنسلفانيا الرحلة سبع ساعات: كنا نضحك ونأكل البوظة بكوب الورد وملقعة الخشب عندما «تدهور» القطار. هذا يحدث كل عشر سنوات مرة! وحدث لنا! فيليب مات وأنا جلست جنب رأسه المفتوح على السكة وأردت أن أموت أيضاً.

مرتا سألته عندئذ هل أخذ دولارات الخوري؟

قال جوزف إنه أخذها وباس يد الخوري وخرج إلى الطريق ومشى صوب المرفأ ودخل المكتب الكبير حيث يحجزون مكاناً على الباحرة وطلب تذكرة. لكنه بينما يعذ الورقات بين أصابعه رأى ورقة عليها كلمة بحير الكويبا.

- وتعرفين ماذا كانت؟

سألته مرتا كيف لها أن تعرف؟

جوزف أسطفان قال: «اسم، رأيت اسماً مكتوباً بالحبر على ورقة من فئة الخمسة دولارات وما زالت الورقة إلى الآن معي؟ تعرفين ماذا كان الاسم؟»

مرتا هزت رأسها أن لا.

- «فيليب»، قال جوزف.

قال إنه قرأ اسم ابن خالته وصار يبكي. فيليب كان يحب أن يكتب اسمه على العملة. مرة حذروه أن هذا ممنوع في القانون الأميركي. كان يكتب اسمه بالعربية أو الإنكليزية، ويرفع الدولار في الهواء وينفخ عليه كي ينشف الاسم تماماً ولا يمحى بعد ذلك. يفعل ذلك من دون أن يتبسم أو يضحك. طوال الوقت يعقد حاجبيه كأنه يقوم بأدق مهمة في تاريخ العالم.

لماذا كان يفعل ذلك؟ لم يقل لأحد. هكذا كان فيليب. جوزف أسطفان طوى الورقة ووضعها في جيبه مفردة عن بقية الأوراق. قاطع التذاكر نظر إليه وسأله أين الدولارات؟ جوزف قال «غيّرت فكري»، قال I changed my mind. وابتسم لقاطع التذاكر كأنه صديق قديم طالما جلس معه وتكلم، ثم غادر المرفأ ورجع إلى الكنيسة ورآه إلى

- 23 -

## بيت الحاجة ماري (2)

سكت جوزف أسطفان عندما رأى وجه مرتا مخضوباً. لم يكمل قصته بعد. انتبه إلى أثر كلماتها فيها - وهي الوحيدة التي لا تعرف أين أرض زوجها - فقدم على الساعة التي فتح فيها فمه.

لكنها طالبت أن يكمل، ماذا حدث بعد ذلك؟

أخبرها - ففز عن قطعة من القصة - أنه رجع إلى نيويورك وأتى مباشرة إلى هنا، إلى هذه الكنيسة، وقال لأبينا مرقس (الذي لم يعد في هذا العالم): «فيليب مات وأريد الرجوع إلى البلد لكنني لا أملك التالون». كان معه نصف ثمن التذكرة وأراد من الخوري أن يجمع له من الرعية النصف الثاني. الخوري - هذا أبونا مرقس - مد يده في أعماق الجبة الصوف التي يلبسها وأخرج رزمة دولارات ملفوفة وقال «خذ هذه، تكفي وتزيد، وعندما تصل البلد يكون معك ليرة في جيبك».

سكت جوزف أسطفان. ابتعد بنظرته عن وجه مرتا (كان مفتوناً بها ويحاول نسيان ذلك) فرأى العجالات والأقدام على الطريق خارج الكوي العالية: كانت الجزم تخوض في الماء والوحل يتناثر ويلطخ الزجاج... كل تلك الحياة تضج في الخارج وهو هنا - تحت الكنيسة التي تحتل قلب الحي السوري في نيويورك - يحكي للمرأة الآتية من جبل لبنان وحدها، ذكريات أصعب مرحلة في حياته.

أبينا مرقس «إحسانه». بَدَّلَ الورقة التي عليها اسم فيليب بأخرى. لم يسأل الخوري كيف وصلت الورقة إليه. لكنه انحنى ويأس يده الخالية من الخواتم مرة أخرى وقال له «لن أرجع».

- 24 -

### بيت الحاجة ماري (3)

حارب حتى أخرجهما من الكنيسة. من أعماق كيس «الجنيفس» انتشلت مسبحة الصلاة التي ورثتها عن أمها. قال لها جوزف أسطفان وبداء تطيران في الفضاء والكلم الأسود يخفق كالسنتونو: «بعدين، بعدين»\*. هي تريد أن تصلي وتشكر الرب وهو يريد أن يُخرجها إلى الطريق. استسلمت لإرادته لكن قبل بلوغ البوابة الخشب المرشعة بالصلبان انتصب سدٌ في وجهه: كل نساء الحي السوري! ماذا يفعلن هنا؟ النهار بدأ وعندهن أشغالهن. من ليست في المطاحن أو المصانع شغلها في دكانها أو بيتها أو على الطريق. لكنهن هنا! ولن يتمكن من عبور السد إلا بحركة عنيفة. صاح فيهن كأنه يبعد قطع أغانٍ من طريقه:

- بعدين، بعدين، في عندنا شغل كثير.

دفعهن بيد غاضبة ومع ذلك لم تخرج مرثا من الدوامة إلا بعد قبل وعناقات سريعة وغامضة. لكل امرأة ثلاث قبل، على عادة أهل البلاد البعيدة. وأكثر من امرأة حضنتها بعنف وشئت شعرها وهي تقول: «ريحه البلد بعدها فيها». مرثا بعد ذلك فكرت أنهم على الأرجح يتكلمن عن رائحة الصابون. حارب جوزف أسطفان الأذرع

• لاحقاً، لاحقاً.

ظلّ في أميركا. قال لمرثا إنه كان يعرج على ساقه (لم تُكسر ساقه عندما انقلب القطار لكن ركبته تحركت من مكانها) في تلك الأيام، ويشعر وهو يدقّ الأبواب حاملاً «كشّته» أنه نصف إنسان وليس إنساناً كاملاً (تعوّد أن يخرج مع فيليب، وحتى عندما كانا يفتصلان ويذهبان للتجارة على طريقين منفصلين بين وقت وآخر كانا يتفان دائماً على مكان وزمان محددين للقاء من جديد).

«كنت صغيراً»، قال جوزف لمرثا، «ومع ذلك بقيت أحمل الكشّة، وحدي من بيت إلى بيت حتى أعطاني السيد هرمان عملاً في شركته: كنتُ أتكلم العربية والإنكليزية ووجد أن العمال يتكلمون معي بسهولة وكذلك الزبائن فصرت أشتغل في مكتبه. هذا كان قبل سنوات. والآن عندي بيت وراء الستراتل بارك وعندي زوجة وصبي وثلاث بنات ولا أنام ليلة واحدة جائعاً. عندما كنتُ على الطريق كنت...».

قطع الرجل كلامه ونظر إلى الأرض. دار على نفسه وسار حتى طاولة عليها طناجر وسكاكين. حمل سكيناً وتفحص حذّه وضحك ضحكة صغيرة. استدار فرأى مرثا (قبل ذلك رأى انعكاسها في حذّ السكين) تلبس المعطف الذي انتقاء وتلفت الشال على رقبتها. - عظيم، عظيم، والآن نأخذك إلى بيتك عند الحاجة مريم. وبعد ذلك: المعلم.

القضبان الحديد: ماذا يوجد تحت؟ قبل أن تلفظ سؤالها كانت اليد القوية تشدّها إلى الأذراج النازلة إلى حيث لا تعلم.

في «الصابوي» شعرت بالفزع، زحمة البشر وهدير الأصوات في المكان السفلي. الحديد على الحديد والركض الذي لا يتهي. من هؤلاء؟ من أين أتوا؟ إلى أين يذهبون؟ ألوان لا تحصى، أشكال عجيبة، والكل يركض. لولا جوزف أسطفان ماذا كانت فعلت؟ أسندها وهي تطلع إلى «الصابوي» وكرّر ذلك عندما انطلقت العربات السريعة. هي مالت في الاتجاه المعاكس ووجهها لمس - لحظة - معطفه. سمعت نكّة الساعة في جيب المعطف.

- لو ذهبنا مشياً نصل في عشرين دقيقة. هكذا تأخذ الطريق أقل من أربع دقائق. لو لم تتأخر في الكنيسة كنا ذهبنا على الطريق. لكننا تأخرنا. الحاجة مريم تخرج بعد قليل.

مرتا لم تفهم شيئاً. سيرة الدقائق هذه غريبة عن حياتها. في الجبل لا أحد يفكر في الدقائق. ولا حتى في الساعات. ربما تفكر في الأيام: الأحد للقداس والكنيسة. ربما تفكر في الفصول: عندما تركت الجبل كان الوقت خفيفاً وثمار الخرمة (الكاكي) تنضج على الأشجار وريداً وريداً. لكن، في الجبل البعيد الذي تقع عليه الثلوج الآن، من يفكر في الدقائق؟

المتشابكة كالأخطبوط وانزعها من الحلقة. إحداهن كانت تداعبه بكلمات بدت لمرتا (الجبلية) غير لائقة. كلهن كُنّ يتنادينه باسمه أو بكنيته (جوزف أو «بو مارون» - مارون ابنه الوحيد ولاحقاً نصل إلى حياته الغريبة والطويلة). إلا امرأة واحدة بدت لها في الثلاثين كانت تناديه «يا خالي» وتحاول أن تجذبه إليها بعيداً من الحلقة التي حاصرت مرتا.

جوزف أسطفان لم يستلم للنساء. رفع صوته أعلى - مع أننا في الكنيسة - وجذب مرتا من ذراعها وخرج إلى الشارع. الكلمات ظلت تطنّ في رأسها بعد ذلك: «خليل زوجها؟ جو حداد زوجها؟».

كان المطر قد كثّف عن التساقط. وفوق أبراج الكاتدرائية في نهاية الشارع بان قوس قزح. مرتا رأت الألوان تخفق في السماء وسألت نفسها ماذا قصدت تلك الأصوات بذلك السؤال: «جو حداد زوجها؟». نيرة الاستغراب اللانهائية! خافت من تلك النيرة. ها هي الخشية ترجع إلى نفسها (لبوثة كانت آمنة: شعرت بالدفع حين ارتدت المعطف المبكّل بالصوف؛ شعرت بالطمأنينة عندما لفّ الشال النظيف رقبته! أكثر من ذلك: هذا الرجل الذي وضعه الربّ في طريقها ملا قلبها حرارة. كانت تحتضر على المائدة صباحاً وهي تمذّبها إلى البيضة المسلوقة والمقشرة. كانت تموت! ثم جاء هذا الرجل وبدأ يُحدّثها وردّة الروح إليها! يا ربّ!). «خليل زوجها؟». كانت ضائعة في صدى العبارات والنيرة غير المفهومة تطحنها طحناً، عندما تبّها الصوت الذي غدا بسرعة أليفاً: - الوحل!

كانت تخوض في الوحل وهي تسير جنبه. قفزت إلى حيث الأرض جافة. في تلك اللحظة خرج هواء حار من الأسفل ونفخ ثوبها الطويل. بسطته مدهورة بيديها ونظرت إلى الحركة تحت

### بيت الحاجة ماري (4)

هكذا بدأت مرنا - ومن دون أن تعرف أن هذا يحدث لها - حياتها الأميركية. لحظة خروجها إلى سطح الأرض مجدداً (صعدت الدرج ركضاً تطلب الهواء وضوء الشمس) أحسّت بالضياح. فقدت حسّها بالاتجاه وانتابها شعورٌ أنها تحلم: أن كل هذا غير حقيقي (قطار يسعى في بطن التراب! مصابيح ومحطات وناس تحت الأرض!).

صوت جوزف ودّعا إلى نيويورك:

- هذه السنة غريبة. عادة لا تمطر إلى هذا الحد. الهادسون تخرج من مجراه في بعض الأماكن.

بيت الحاجة ماري غير بعيد من ضفة النهر. قطعاً طريقاً تعبرها سيارات فورد وعربات خيول ثم دخلاً غابة مرّعة من أشجار عارية الأغصان. في الجهة الأخرى من الغابة (صغيرة هي، قطعاًها في دقيقة واحدة) رأى مرنا صفّاً من النباتات الخشب يظهر من الفراغات بينها بحرٌ مرتفع غريب الحركة: كان هذا نهر الهادسون.

أحد باعة «الهوت دوغز» كان يحرّ دافعاً العربية بالمجلات الثلاث أمامه. نادى عليه جوزف وطلب سندويشتين. دفع له وناول مرنا سندويشتها. هي استحت وأخذتها من دون أن تفتح فمها (على الطاوله صباحاً سألتها كيف وجدت الخبز الأميركي؟ وهي ردت

بسؤال: لماذا يظنّ كالعجين من الداخل؟). بينما يعبران أمام صف من المتاجر المبنية بالقرميد والأخشاب - بعد هذه المتاجر، هناك بيت الحاجة مريم - مرت عربة مسرعة فأجفلت مرنا وأسقطت قطعة «الهوت دوغز» على الأرض. جوزف ضحك وقال هذه تكسر الشّر، وأصرّ عليها أن تأخذ سندويشته. وهكذا كان مكتوباً أن تدخل مرنا البيت حيث ستسكن على ضفة الهادسون وهي تحمل في يدها سندويشة جوزف أسطفان. (حفيدها الذي صار كاتباً كتب قصته القصيرة الأولى عن هذه الحادثة).

في مدخل البناية النفا الحاجة ماري: كانت تحمل حقيبة يد صفراء اللون، وتلبس ثوباً أخضر كورق التوت. جانب وجهها عليه أثر حرق قديم. لم تبتسم لجوزف. بدت غاضبة. في يدها ساعة (مرنا لم ترّ قبل ذلك نساء يلبسن ساعة معصم). ومن أذنيها تتدلى حلقتان ذهبيتان. شعرها أصفر مصفف ومحجوب داخل برنيطة بكشكش (البرنيطة خضراء والكشكش أصفر). فمها مرسوم بالأحمر، كبير وشبه مائل، كأنها تعرضت لجلطة قبل سنين.

الوصف أعلاه ليس مجانياً. هذه امرأة بوجهين ومرنا ستتعرف خلال الأسابيع الآتية إلى غرابة أطوارها. عندما تغضب يميل رأسها ثقيلاً على رقبتها - كأن الرقبة ملوثة - ويظهر شريان العنق، أخضر. لكن في الساعة الطيبة - حين لا يفور الغضب - تبدو أرق من نسمة وتستطيع أن تعفو عن جرائم لا تُعْفَر.

الغرفة جنب الدرج بالدرايزين الخشب، تُعبر أيضاً عن شخصيتها. جلست وراء المكتب، تحت صليب عليه يسوع المسيح. فتحت دفترًا على المكتب وقُرّبت دواة الحبر: الدواة على شكل دلفين، لكن الدلفين امرأة. والمرأة عارية كما خلقها ربنا ومن فمها تخرج الريشة ملولة بالحبر.

ماري سألت جوزف هل تعرف «الست» (كانت تنظر إلى مرثا  
برهة ثم ترجع إلى جوزف) قوانين البيت؟

مرثا لم تفهم لماذا تناديا «الست» ولم تفهم القسم الأكبر من  
كلماتها. لغتها العربية ثقيلة، مع أنها من هناك، من «البلاد» (كانت  
تنظر أنها حليبية؛ بعد ذلك عرفت أنها من قرية صغيرة تجاور  
الإسكندرية على برّ مصر). حدثت إلى أصابعها، إلى السندويشة التي  
تضمها كالتعمويزة في كفها، وانتظرت ما سيقوله جوزف. عندما تكلم  
فاجأها:

- مرثا زوجة جو، جو حداد.

ماري تراجعت في كرسيها عندئذ، وفتحت فمها. كانت  
مدهوشة! من جسمها وثيابها فاحت رائحة عطر غريب.

- 26 -

## Little Syria

أظن أنها لم تستوعب ما يجري لها. لا تريد غرفة في بيت هذه  
الإسكندرية - الأميركية التي تفوح من جسمها رائحة قرنفل قديم.  
ولا تفهم لماذا يأخذها الرجل مرة أخرى بالقطار - الذي يتأرجح  
كالحية على سكة حديد في جوف الأرض - إلى الجانب الآخر من  
المدينة الغربية المحاصرة بنهرين: معامل هرمان وماكينري تقع عند  
طرف الشارع الحادي عشر على بُعد رمية حجر من مياه «إيست ريفر».  
عندما دخلت المبنى الأسود لسعتها الحرارة المنبعثة من الخلاقين  
العملاقة (هل تذكرت كرخانة الفرنسي ساوي بورتاليس لحل الحرير في  
بتائر عندئذ؟). كان المبنى يعجّ كقفير نحل بالعاملات والعمال.  
أخذها الرجل إلى مكان ينقسم إلى ممرات طويلة وفي كل ممر طاولة  
تمتد وتمتد وتمتد وعن الجهتين غياطات وعلى الطاولة عدد لا  
يحصى من ماكينات الخياطة. العاملات جميعاً يلبسن الزي ذاته  
والأذرع تتحرك الحركة ذاتها وكذلك القدم على الدواسة تحت  
الطاولة: «الدعسة» حديد والقدم تدوسها والعجلة تدور وإبرة الدرز  
توقّع موسيقى أليفة للأذن وغريبة في آن معاً: عدد لا يحصى من الإبر  
يلدز في لحظة واحدة عدداً لا يحصى من قطع القماش. رأت الأكام  
والياقات تظهر إلى الوجود من العدم (أين كان القماش يختفي؟ تحت  
الطاولة؟). ارتضعت الوجوه عن القمصان الطرية بين الأصابع ونظرت

إلى المرأة الجديدة. مرتا هربت من النظرات ولاحت دعسات الرجل الذي يقودها. أسفل بنطلونه ملقح بالوحل. ماذا تفعل هنا؟ لم تأت إلى أميركا من أجل هذا!

قبل ذلك، بينما المرأة التي تُسمى الحاجة ماري تُسلمها مفتاح الغرفة ذات النافذة المطلّة على الهدسون، نظرت إلى الفرشة - بلا ملاءة - على السرير وسألت نفسها كم امرأة قبلها هجعت على هذه الفرشة في هذه الغرفة بالأرضية الخشب؟ الفستان الأخضر ماج أمامها، السيدة مستعجلة وعليها الخروج، ولاحقاً عند المساء إذا أردت شيئاً أنا موجودة في المكتب. كانت مرتا تريد شيئاً: أرسلت كلماتها وراء المرأة الخارجة من الباب. سألتها هل تعرف زوجها؟ - الكل يعرف زوجك.

من دون أن تستدير ناولتها المرأة الجواب الغامض واختفت نازلة على الدرج. (ممنوع صعود الرجال إلى الغرف)، هذا هو القانون الأول في «لائحة قوانين البيت» المعلقة على باب المكتب وعلى اللوح الخشب أسفل الدرج، باللغتين العربية والإنكليزية.

ترددت قبل أن تترك كيس الجنيفيس في الغرفة. «لا أحد معه هذا المفتاح. وأنتي تنظيفين غرفتك. هذا ليس فتدقاً. هذه أميركا وكل واحد يخدم نفسه. إذا أردت شراب أو طنجرة أو صحناً أبيعك أو أوجرك أو تدعيبين إلى السوق». جوزف أسطفان كان ينتظرها واقفاً أسفل الدرج يقرأ «القوانين» وعلى وجهه ابتسامة. (ممنوع دقّ الكبة في الجرن). هذا القانون الثاني وكلماته العربية مكتوبة بالحرف الكبير. يقابله القانون الخامس بالحرف الإنكليزي المصضم، وموجه خصوصاً للإيرلنديات: «ممنوع قلبي الدجاج في الغرف». عندما اخترقا الغابة المربعة من جديد رفع الهواء البارد ورقاً يابساً وخبط

وجهبها. والآن - بينما تنظر إلى صفوف العاملات وإلى النوافذ الفسيحة المطلّة على باخرة تعبر «إيست ريفر» - تشعر بتلك الأوراق الصفراء تتراقص أمام عينيها مثل فراشات تقع ميتة. هل هي مريضة؟

الشمس دارت في السماء وأسراب الطيور تعبر فوق النهر. أخذها الرجل - لماذا أعطاهما النهار كله؟ ماذا يجني؟ لماذا تبعه هكذا بلا أسئلة؟ إلى أي حد باتت منهكة وغير قادرة على تقرير شيء؟ - من يدها، سحبها إلى مكتب خشبي وأوقفها أمام رجل يلبس نظارة بعدسة واحدة على العين اليمنى. الرجل رخب بها، قال أشياء فهمتها وأخرى لم تفهمها.. من جارور في مكتبه أخرج مندبلاً، وهي نظرت إلى المندبل، إلى أوراق العنب المعطرزة على المندبل، وأحسّت أنها في منام: هذه الأوراق هي طرّزتها! أخرج قميصاً محبوبكاً بالصنارة ورأت على ظهر القميص غصناً من الصنوبر. هي نسجت هذا القميص، تذكّر أين كانت تجلس: على الطراحة في باب البيت في بناتر والشمس تملأ القضاء وهي تسمع الدجاج ينقر الأرض في ظلّ الشجرة.

عندما خرجا من المبنى الأسود أخيراً وجدت الضوء يتبدل في السماء: الغيوم صارت برتقالية. ومع أنها تلبس معطفاً مبلتاً بالصوف شعرت بالبرد. ثم فكرت أنها جائعة. لم تكن متأكدة ماذا تشعر ولا ماذا تفكر. لماذا أنت إلى أميركا؟ أين خليلي؟ كيف يعرف الجميع ولا أحد يعرف أين هو؟ ماذا يُخفون عنها وما السبب؟ كان جوزف أسطفان ينحني كي يربط شريط حذائه وسألته هل يعرف زوجها؟ التفت وهو شبه راكع ونظر إليها بوجه مائل ومُشربّ بالحمرة: «الكل يعرف جو».

خاتماً في إصبعها منذ وقعت نظرتة عليها وهي في باب المتجر تحت اللافنة المكتوبة بالعربية؟ اقترب منها فابتسمت له. منذ تلك اللحظة عرف أنه لا يتنفس إلا الهواء الذي يخرج من فمها. قال لصاحبه جو إن الكثة صارت خفيفة، يحملها من هنا إلى بوينس أيرس ولا يتعب.

تسلق الجبال التي رفعها عبود مكرزل في وجهه. قطع الأنهار من أجل فرنسيسكا. وعندما وصل إلى ليلة العرس أخيراً علّق مع أصحابه حبلاً فوق «واشنطن سترت» وعلقوا من الحبال أسلاك الكهرياء واللمبات الوقاحة. شتت الطريق كما لم تشع قبل ذلك (بلدية نيويورك كانت تشتكي دائماً من المصابيح المحقلمة في هذه الطريق: كلما تحارب السوريون والإيرلنديون والصينيون حطموا هذه اللمبات... وهناك عصابات تسرق المصابيح!).

لكن أجمل من اللمبات التي أضاءت ليل الحى السوري كانت الولىمة: ذبوا الخراف على قارة الطريق وأقاموا حفل شواء ملا الدنيا دخاناً وجلب البوليس وعربات الإطفاء من المحطة البعيدة. كانوا فرقة كاملة، أتوا بالهراوات، والشارت على البرانيط تلتمع تحت الأنوار، وجوههم قاتمة. بان جلياً أنهم سيلغون العرس ويأخذون الجزاين والشواتين معاً إلى القسم. الأطول بينهم رفع عصاه وجذب حبل لمبات وشده وأسقطه مفرقاً بين الأقدام. السوريون - الأميركيون دُعروا أمام الهجوم المباغت. كانوا يتراجعون (عدد منهم كان «يدبك» على إيقاع «الدريكة» لا بسين ثياباً فضفاضة من الوطن البعيد؛ هؤلاء تراجعوا في حركة راقصة موحدة ثم تبعثروا واختفوا في ظلال القوس الخشب أمام المقهى الكبير).

• الطلة.

## Little Syria (2)

الحى السوري يعرف أبناءه. عندما رضي عبود مكرزل الملقب بتابوليون أن يعطي كريمته زوجةً لجرجي إبراهيم بن موسى إبراهيم (الدباغ)، شهد «واشنطن سترت» زواجاً سورياً غير مالوف كتبت عنه الجرائد الأميركية. أهم من ذلك ما فعله خليل جو حداد: دثر بمكره وضكاته ألا تضد شرطة نيويورك فرحة العرس.

قاتل جرجي إبراهيم طويلاً قبل أن يُعطي يد فرنسيسكا مكرزل البيضاء اللينة. أبوها القصير ذو الطبع الحاد العسكري كان بنام أقل من خمس ساعات في اليوم ويقضي الوقت راكساً بين أشغاله في بروكلين. عندما سمع للمرة الأولى أن ابن الدباغ الكوراني - من قرية تُسبى في قضاء الكورة شمال لبنان - يحوم حول المتجر في «هنري سترت»، وجه إنذاراً حازماً إلى ابنته: «إياك!»

كان يعرف جرأتها وقدرتها. من المدرسة خرجت إلى المتجر وأدارته كأنها في المصلحة منذ زمن الرضاة. يعتمد عليها في الشاردة والواردة مع أنها لم تبلغ الثامنة عشرة بعد. قال «إياك!» وهي طأطأت رأسها. لو فكر مرتين كان خاف عندئذ. لكنه لم ينتبه. كيف رضخت هي العنيدة بهذه السرعة؟ (أمها كانت تقول لها: أنت كأيك وأسك رأس تيس!).

هل قاتل جرجي إبراهيم حقاً كي يحصل عليها؟ ألم يكن



### Little Syria (3)

كلما أخبروها عنه ابتعد! كيف هذا؟ بدل أن يقترب تراه يبتعد.  
بتغير، يتحول، يصير شخصاً آخر. لم تعرفه هكذا! تبدل حين قطع  
المحيط؟ كان هكذا ولم تنتبه؟ أليس الرجل الذي شاركته الفراش  
والطراحة ولقمة الخبز؟ أليس زوجها وهي زوجته في السراء  
والضراء؟ تتلمس المحبس وتنتظر إلى يدها: ماذا تخبرها الخطوط في  
هذه اليد؟ ترى خليل (جو) مرة أخرى؟ تعرفه كما عرفته دائماً وتلفت  
فراعيها على جسمه وتترك خدها ينام على صدره وهي لا تطلب من  
العالم إلا هذا؟ تعثر عليه؟ لماذا كلما حكوا لها عنه تشعر أنه يبتعد؟  
هل السبب فيها؟ أم أنه تبدل عندما غيّر اسمه؟ لعل صاحب الدفتر  
على «إليس أيلاند» هو من أعطاه اسمه الجديد. وهي مرتا التي  
ينادونها الآن مارتا هل صارت امرأة أخرى أيضاً؟ لكنها هي. تفكّ  
صرة «الزهورات» وتلقي حفنة صغيرة في المياه التي تغلي وتشمّ  
الجبل البعيد. الحفنة الصغيرة تكفي. لا تريد أن تستهلك المخزون:  
هذا جلبته لخليل. جفّقت الزهور في الشمس على سطح البيت.  
وعندما زالت منها الرطوبة تماماً جمعتها برؤوس الأصابع وهي ترى  
خليل: كأنه أمام عينيها، يرفع ذراعه وهو آتٍ من بعيد. لكن أين  
خليل؟ جاءت من آخر الأرض ولم تعثر عليه. جوزف أسطفان أخذها  
مرة أخرى كي ترى السيد هرمان - تخاف إذا ذهب وتحدثها أن

كانوا يتراجعون والخوف القديم - خوف «إليس أيلاند» - يُطلّ  
من عيونهم، عندما سُمع صوت جو حداد عالياً وقوياً فوق فرقة  
المصايح. كان يتكلم الإنكليزية، لهجته أميركية كأنه وُلد هنا وعاش  
هنا الحياة كلها. تقدم حاملاً أرغفة المرقوق المخبوزة على الصباح  
والحطب في الباحة أمام «كنيسة الموارنة» وكل رغيف ملفوف وفي  
جوفه اللحم المشوي والبصل المشوي والبندورة المشوية. كان  
يضحك ضحكاته المشهورة، وجهه يهر، ويبدو كأنه ينظر من فوق  
إلى الخليفة كلها. ورّع الأرغفة على البوليس وأحاط كتف أحدهم  
بذراعه ونادى على جرجي كي يجلب «العرق». شرطة نيويورك شربت  
العرق اللبناني المكرر ثلاث مرات في بيت سليم شقير في «ركتور  
ستريت»<sup>(1)</sup>: أفراد البوليس رقصوا «الدبكة» البعلبكية في عرس  
جرجي إبراهيم (ابن الدبّاغ الكوراني) على فرنسيسكا مركزل ابنة  
عبود مركزل الملقّب «نابوليون». أبناء الحي السوري لن ينسوا تلك  
السهرة التي طالت حتى تحركت عربات العترو ساعة الفجر: البوليس  
بالزّي الأزرق والأسود منتظماً في صف راقص واحد مع شبان الحي  
وعجائز الحي بالشراويل والصديريات والطرايش (من أين خرجت  
هذه الطرايش الحمراء؟ وكيف لم يأكل العث شراباتها الكحولية  
الحرير وهي نائمة هذه السنوات كلها في الصناديق؟ ألم يرموا  
طرايشهم في البحر عندما نظرت إليهم السيدة الحجرية من مكانها  
العالي فوق إليس أيلاند؟)

الصينيون جاؤوا على الضجة من الحي الصيني (China Town)  
وراء «برودواي». كانوا قصار القامة، يحملون طعاماً وشراباً ويعزفون  
على آلات موسيقية لها صوت كالآنين.

تضيق؟ لقد جاءت من جبل لبنان إلى هنا وحدها لكنها في نيويورك ذات الشوارع المتشابهة تُضيق الطريق! - والسيد هرمان أخرج لها الحوالة القديمة، نسخة عن الحوالة. دلّها بإصبعه السمين القصير إلى اسم المصرف وإلى اسم المدينة - «باتون ووج» - وقال إنه اتصل مرة أخرى بالسلطات هناك ولا أثر لوجو.

خرجت من عند السيد هرمان مضطربة الخاطر. عندما التفتة للمرة الأولى أول وصولها إلى نيويورك أحسّت في أعماقها أنه رجل لا يعرف الكذب طريفاً إلى شفتيه. لكنها الآن ليست متأكدة! هل يخفي شيئاً؟ كان يدلّها إلى اسم المدينة على الحوالة - تحت، في الزاوية - وهي رفعت عينها لحظة فرأت نقطاً حمراء تنتشر على خده. ألم ترَ أيضاً نقطة دم تقطع بياض العين من هنا إلى هناك؟ يكذب عليها؟ ماذا يعرف ولا يقول؟ وجوزف - هو أيضاً، بلى - ماذا يعرف ولا يقول؟ وصاحبة البيت حيث تنزل، عندما تقف في باب المكتب بيد تستند ذقنها، وتأملها بينما تندو من الدرج حاملة «شغلها» في السلّة الخيزران، الست ماري ماذا تعرف وتخفي في صدرها الكبير؟ والعاملات في المعمل عندما يرفعن عيونهن المحمرة وجباههن العرقانة والشعر الأسود الظاهر من تحت البرانط البيض، ماذا يعرفن وهي تجهل، ماذا تخفي الواحدة منهن وهي تلتقط دبوساً بين شفتيها أو تقص القماش أو ترسم خطأً بالصابونة وتلتفت وتنتظر إلى عاملة أخرى تبادلها النظرة ذاتها! لا تدري مرّتا كيف صارت هكذا، كأن القوة تغادر جسمها وهي تسير بين هذه الصفوف. التوافذ فيسيحة وعالية، تُغسل بالماء والصابون كل صباح كي يتدفق منها الضوء الأبيض والأصفر والرمادي. من النوافذ الغربية يتدفق ساعة الغروب طوفان أحمر عجيب: كأن الطاولات والأشخاص وماكينات الخياطة

وأكوام الفساتين تغوص إلى قعر المحيط. كأن المعمل كلّه باخرة بمداخن والآن انفتح قعرها وها هي تنزل تحت الماء، تفرق ولا يراها إنسان بعد ذلك. فكان هؤلاء جميعاً لم يكونوا يوماً!

كانت ذاهبة أو عائدة - حياتها الآن بين نقطتين: الغرفة المظلمة على الهدسون والمعمل على ضفة «إيست ريفر»؛ ويوم الأحد يتعب إلى القداس - والسماء رمادية ثقيلة الغيوم، لكنها لا تمطر... كانت تعبر غرينويش Greenwich وهي تحاذر لثلاث تصدمها سيارة عندما سمعت صوتاً يتأديها. كان الصوت مبالغاً عالي النبرة. استدارت فرأت قاسم عبد الباقي.

كان يحمل كسّته وأخبرها أنه عائد للتو من بالتيمور. هزّ الكسّته خفيفة على ظهره وقال «فاضية»\*. بدا سعيداً مملوءاً عافية كأنه ليس الرجل ذاته الذي تصبب عرقاً جنبها في العربة من «إليس أيلاند» إلى متجر السيد هرمان قبل أسابيع. أسابيع؟ شهور؟ كم مضى عليها وهي هنا، تحيا كأنها نائمة، كأنها مسلوية الإرادة، ولا تعرف لماذا تحيا هنا، ولا تعرف كيف حدث لها ما حدث.. لكن ماذا حدث؟

\* فارغة.

أمكنة معتمة، ورأيت مداخل إلى باحات أشد عتمة، وبعد الباحات المبلطة بالحجر حيث تتراكم كلاب وقطط تظهر بيوت شبه متداعية، مظلمة أيضاً، وبنيت على حيطانها العفن! ما تلمحه غطفاً للوهلة الأولى يُخلف فيك إحساساً عميقاً بالدعشة لا يتبدد حتى بعد زيارات متكررة للحي.

هل سبق لك أن رأيت صور جاكوب ريس الفوتوغرافية المنشورة في 1890، صور مانهاتن السفلى (الجنوبية)؟ هل لمحت في أحد المعارض في «الفيت أفنيو» لوحة W. Bengough «العصر الأجنبي في نيويورك - المستعمرة السورية» (1895)؟ إذا كنت تحسب ذلك جزءاً من المعاصي المتندر فليس عليك إلا دخول المطعم على تقاطع شارعي ركتور وواشنطن؛ وحتى قبل أن تدخل المطعم، ومن نظرة واحدة سريعة إلى المقهى المجاور، ستعرف أنك فجأة صرت في «الشرق».

الرجال الذين يقعدون هناك يفرقون في بحيرة دخان تخرج من الأراجيل التركية بقرقرتها التي تشبه الغناء - غناء الطيور. عيونهم ناعسة، واسعة وسوداء، وسيقانهم تبدو مقوَّسة في البناطيل التي يستصحبون الحركة فيها لأنهم تعودوا على السراويل الفضفاضة في بلادهم وفي الصحراء.

نادر أن ترى أحدهم يحمل جريدة وإذا حدث ذلك راقبه جيداً وسترى أن رقبته، أن رأسه ونظراته، لا تتحرك كما تتوقع: إن نظرته تسافر على السطور من اليمين إلى اليسار، وليس من اليسار إلى اليمين.. ذلك أنه يقرأ جريدة مطبوعة بالعربية ولا يقرأ جريدتنا.

## Little Syria (4)

إذا أخذتلك الطريق - عزيزي القارئ - صدفةً إلى أحد الأزقة القائمة بين «الباتي ستريت» و «ركتور ستريت» لن تصدق أنك في نيويورك! نظنُّ أننا نعرف مدينتنا، نظنُّ أن تسكننا الطويل في أنحاء مانهاتن قد كشف لنا جميع خباياها، لكن قبل التوغل في «واشنطن ستريت» وفي الدروب الضيقة المتفرعة منه، كيف نتوهم أننا نعرف أحشاء هذه المدينة! هل تعرف عزيز القارئ أن قطعة من سوريا، قطعة من دمشق أو القسطنطينية، انتقلت كما هي - بالبحر - إلى أميركا! إنها هنا، على بعد دقائق من بيوتنا وأعمالنا. اركب «الترام» من الجادة السادسة\*، من الشارع الثاني والأربعين، وفي لحظات ستجد نفسك في «ركتور ستريت»: تنزه غريباً، اقطع مربعاً واحداً من الأبنية، وما أنت في سوريا!

هذا الشارع الذي شقَّ قبل مئة سنة ما زال على الحال نفسها منذ بداية القرن الماضي، بواجهة رخام عريضة - هنا أو هناك - لمصرف تجاري؛ وكل ما تفعله هذه الواجهة الرخامية هو توكيد الفقر الفظيع لسكان القرمة المجاورة. المصارف والتاجر تتراص على جهتي الطريق ولكن إذا دخلت هذا الزقاق أو ذاك وجدت نفسك في

صدق أو لا تصدق: في مانهاتن جراند تُطبخ باللغة العربية - جريدتان تُوزعان معاً ألف نسخة معظمها اشتراكات، ومجلة شبه أسبوعية فنية يشرف عليها الشاعر جيران الذي يكتب بالإنكليزية أيضاً.

يحبون هنا قصب السكر وجلبونه من الحمى الصيني الذي يبعد دقائق عنهم. لكن حلواهم المفضلة هي الفواكه المجففة وتجدها في مرطباتنا زجاج في واجهات متاجرهم ولا تعرف أين نبتت هذه الفواكه ولا في أي أطعمة تستخدمونها، كما يصنعون حلوى غريبة من العجين والسكر وهي ثقيلة على الجهاز الهضمي.

هذا كله تذوقته في المطعم المذكور بعد وجبة من الرز ولحم الضأن المقطع والمشوي على السيخ ويقدمونه على طبق خشب مع خبز غريب يشبه البسكويت الطري. الطاولات في المطعم من خشب الصنوبر الأحمر، وهي تتراصف متجاورة، وعليها أغطية ومفارش ملونة، إضافة إلى صحون البورسلين. صاحب المطعم يستقبلك بنفسه لا بساً الميربول الأبيض وهو يرفع كمنّي قميصه حتى زنديه. إنه يعرف جميع الزبائن بأسمائهم الأولى، وبعد جلوسك مباشرة يصل إليك الحليب المرّ - الذي يستونه «اللين» - في طاسة فخار، وهو مقدمة طعامهم، فكأنك دخلت خيمة في الصحراء والآن يستقبلك الراعي العربي الكريم بتناج إبله. (مع أنك تسمع وأنت تشرب اللبن الأبقار البحرية للبوخر تختلط بضجة شوارع نيويورك وتكاد تصم أذنيك!).

الناس هنا يعرفون الصغيرة والكبيرة ولا أسرار عائلية فكل شخص يعرف شيئاً يجلبه مباشرة إلى المقهى وهكذا يُذاع. ومرات تسبق الإشاعة الحدث كما جرى عندما تحدث رجل عن مقتل إحدى

النساء بسبب علاقة عاطفية خارج زواجها ولم تمضي أيام حتى قُتلت المرأة فعلاً على الطريق وأمام عيون المارة (انظر أعداد الأسبوع الأول من أيار/ مايو في جريدتنا هذه الستة نفسها).

السوريون أذكاء، تجار بالفطرة، ومحبون للعمل. الأشغال اليدوية التي تخرج من بين أصابع نسايم حازت شهرة في أنحاء أميركا. المرأة تابعة للرجل، الزوج أو الأب أو الأخ، ومع ذلك ترى نساء يحملن السلّة ويخرجن إلى الطريق اثنتين اثنتين لبيع الأمشاط والدبابيس والمقصات والخيطان وهنّ أنجح من الرجال في هذه المهنة لأن ربات البيوت الأميركيكات يفضلن التعامل مع بنات جنسهن.

العائلات الآتية من وراء البحر جلبت معها إلى العالم الجديد عاداتها وتقاليدها... كما جلبت الخلافات. الموارنة (وهؤلاء طائفة مسيحية شرقية) والدروز (وهؤلاء مسلمون) يتفانلون هنا أحياناً كما فعلوا قبل سنوات وعقود في جبل لبنان.

يقفوا بعيدين من الماء). عندما سمعت للمرة الأولى رجالاً من الحي السوري ينطلقون تلك الكلمات البذيئة لم تصدق أذنيها!

لكن ما ستمسعه الآن لا يشبه ما سمعته من قبل. الكلمات سكاكين، يمكن أن تقتل. كل ما نستطيعه الصلاة من أجلها.

الصوت لم يكن مخموراً. رائحة الكحول تفوح من المدخل، هذا صحيح، لكن الصوت الذي بلغ أذنيها كان ساكن الجنان. الطريق موحلة، درجة الحرارة متدنية، وفي بعض الأماكن يبرق الجليد. لم تقطع الطريق. لا طاولات على الرصيف هذه الليلة والكراسي مقلوبة جنب الحائط وزبائن المقهى احتشدوا في جوفه شبه المظلم كأنهم يقعدون في بطن حوت. لسبب غامض لم تخف من العبور أمام عيونهم. مع أن العيون لاحقاً ستبدو لها كعيون الضباع، مثلك وصغراء، تلمع في الظلام والدخان الكثيف.

طوال النهار وهي قاعدة إلى شغلها، وماكينات الخياطة تنز في رأسها... هل نومتها موسيقى الإبر وخدّرتها؟ إذا كانت نائمة فالكلمات التي سمعتها عندئذٍ أيقظتها. هل توقفت في تلك اللحظة؟ هل تجمدت كشمثال والآنفاس تخرج بيضاء من فمها؟ اخترقها الصوت كالفضيب المحمي، شرحت أنها ستقع وتموت.

ماذا قال الصوت وهي تمبر الليل البارد أتيةً من ضفة «إيست ريفر» ذاهبةً إلى غرقتها الصغيرة؟ أو أجل اللحظة لكنها وصلت.

أولاً سمعت الشئمة. كان الصوت يشتمها. الأعوام ستمرّ لكنها لن تنسى الحقد اللانهائي في تلك الشئمة (مع أنها لا تعرف صاحب الصوت. لم تسمعه قبل ذلك. ولم تسمعه بعد ذلك. مرات كثيرة تُحِيل إليها أنها تسمع صوتاً يشبهه. لكنه لم يكن هو. ولن تعرف من لفظ تلك الكلمات أبداً)... بعد الشئمة قال الصوت شيئاً عن زوجها. لم

## Little Syria (5)

أخاف على مرتا. أراها وحدها على الطريق، عائدة أول المساء إلى البناية على ضفة الهدسون، تلتف بالشال وترجف في المعطف المبتلن بالصوف. هذه نهاية السنة وزينة الميلاد تملأ واجهات المتاجر. وحتى في المترو حُلقت الأجراس. تسمعها ترنّ عندما تنطلق العربات وعندما تتوقف. أضواء الكهرباء تشعشع على مبنى البورصة، وول ستريت أول الليل مثل شموس تنفجر وتضيء الظلام. هذا كله غريب وجديد ولم تتخيل مثله، لكن هذا كله لا يلمس القلب. مرتا مظلمة العينين وكل هذه البهجة تضاعف قنوطها. والآتي قد يكون أسوأ. أو أجل اللحظة لكنها تقترب. وحتى لو أجهلنا فهي ستأتي.

كانت راجعة كالعادة من نهار المعمل الطويل، وأصابها نؤلمها عند العيقد. رقبته أيضاً. وكذلك ظهرها. هناك «قهوة» في «واشنطن ستريت» تتجنب العبور على رصيفها. المكان سيء السمعة، وكُرّ للقمار والمخمورين. تقطع الطريق إلى الجانب الآخر وبعد أن تتجاوز المقهى تقطع مرة أخرى الطريق. الجالسون في العنمة الخفيفة يُصغرون كلما مرّت امرأة ويرسلون خلفها كلاماً نائياً. كلمات عربية، إنكليزية، إيطالية، يونانية. خصوصاً يونانية. الحي اليوناني غير بعيد، يفصل الحي السوري عن المرفأ (اليونان كالسوريين صعب عليهم أن

### نافذة على الهدسون

مرت ثلاثة أيام أو أربعة ومراقب العمل يعبر بين الصفوف ويرى مقعد مارتا حداد فارغاً. في اليوم الخامس لم يستمر ويكمل الجولة بل ذهب مباشرة إلى الإدارة وأبلغ عن غيابها. مدير المعمل رفع وجهه الأبيض عن دفتر مملوء بالأرقام والكلمات المخربشة، فيدا كأنه يصل إلى نيويورك للتو آتياً من قارة بعيدة. أصلح العدسة على عينه ثم لفظ عبارته الأثيرة:

- Tell Joseph!

خرج المراقب يبحث عن جوزف أسطفان. المعمل كثير القاعات وأينما دخل هاجمته رائحة العاملات التي يحبها. طالما قال لأصحابه إنه محظوظ. والآن، بينما يبحث عن جوزف، تذكر من جديد وجه العاملة الغائبة - هذه الجديدة الباردة بأصابعها - وتمنى رؤيتها مرة أخرى: فيها خاصية تميزها عن الأخريات. بينما يتأمل الوجوه المكتبة على القماش يطيل فترة تأملها. تكون غارقة في شغلها ولا تنتبه، كأنها ليست هنا، على ضفة «إيست ريفر» في خلية النحل التي تصنع ثياباً؛ كأنها في مكان آخر. لم يعثر على جوزف أسطفان عندئذ، لكنه قبل العصر لمح من بعيد فتادى عليه وأسرع صوته. العاملات رفمن الوجوه المجددة والإبر ظلت تدرز القماش وحدها. قلب المراقب جبينه واقترب من جوزف أسطفان وهو لا يعلم أنه لن يرى مارتا حداد في مقعدها مرة أخرى.

يلفظ اسمه العربي: «خليل». مع أن الصوت كان عربياً صافياً، بلا أي لكنة. قال «جو، زوجها جو حداد». ضجة الطريق سرقت كلمة أو كلمتين لكن ليس أكثر. بعد الاسم أتت التهمة. قال الصوت إن زوجها جو حداد ترك ال... ويعيش الآن مع شرموطة أميركانية عندها حقول قطن في نيو أورليتز.

كيف قطعت مرتما ما بقي من الطريق حتى غرفتها؟ أراها بين أشجار الغابة العميقة، تستند بأصابعها إلى جذع خشن اللحاء، ترفع وجهها عن الوحول والأوراق اليابسة والأرض المظلمة، وتنتظر إلى أضواء الزينة على «بيت الحاجة ماري». ترى الأضواء تلوح من بعيد ولا تفهم ماذا تكون. مرتما نفسها من هي؟ هذه المرأة الصغيرة التي تطاردها عيون طافحة بالرغبة أينما ذهبت، هذه المرأة التي قطعت المسافات من بناتر - جبل لبنان، إلى نيويورك - أميركا، بحثاً عن زوج لم تعرف أنه تخلى عنها وربط نفسه بأخرى في مكان يُسمى نيو أورليتز، هذه المرأة بوجهها المدور وعينيها المشروحتين وشعرها الأسود الصقيل وأناملها التي تقبض على القلب مثل أنامل من حرير، هذه المرتما من تكون؟ أراها تتخبط بين أشجار الغابة، ومكعبات الجليد تطفو ببيضاء كالرخام، شبه خيالية على نهر الهدسون، بعيدة وقرية، أراها وأحشى عليها أن تموت.

العظام، إلى النافذة الرمادية - الصفراء (مصباح الطريق يصل إلى هنا ضعيفاً)، والحاجة ماري ترفع يداً إلى فمها، كأنها تحبس صرخة ستخرج منها. يعرف «الحاجة» منذ سنوات. هذه المرة الأولى التي يراها فيها حزينة.

سحبت المرأة الصغيرة بطانية الصوف عن السرير والتفت بها. جفناها المتورمان بقيا في ذاكرة جوزف أسطفان وقتاً طويلاً. حركة ذراعها البطيئة أيضاً، وهي تسحب البطانية. رائحة المكان أثقلت على قلبه. حتى الضوء خارج النافذة بدا كثيباً وقائلاً. مع أن الثلج يتساقط، رقاقت يبيضاً قطعية، وهو يحب الثلج.

من هذه النافذة يظهر الهدسون تطفو عليه صخور الجليد. في ضوء الثلج ومصابيح البواخر يرى التماعات الماء بين الصخور الجليدية: هذه الصخور كأنها قطع جواميس يقطع سهلاً. لكنه قطع ساكت. مع أنه إذا نزل إلى ضفة النهر يسمع القعقة ودوي ارتطام صفائح الجليد وهي تسبح أو تتكسر. وراء ظهره كانت الحاجة ماري تحاول أن تتكلم مع مرثا. عبرت شاحنة في الطريق ودار نور المصابيح وأضاء صفاً من أشجار الكستناء العارية.

استدار ونظر إلى الخيال الأصفر: كم تغير وجهها! كأنها ليست هي نفسها! مع هذا تعرف على العينين. ومرة أخرى فكر أنها أجمل امرأة في العالم. هذا الإحساس دام رمشة عين ثم تبدد. كان ينظر إلى حطام. لم تعد هي. وغيب إليه أن هذا المرض نهايتها.

في هذه الأثناء، بينما الثلج يتدفق على طرقات نيويورك ويذوب ما أن يلامس الأرض، كانت «الحاجة ماري» في مكتبها على ضفة الهدسون تتساءل أين مرثا. منذ أيام لم ترها نازلة على الدرج أو صاعدة. أي واحدة تدخل أو تخرج لا يد من مرورها هنا، أمام المكتب المشروح. نادراً ما تترد هذا الباب. وتعرف نوافذ بنايتها. كل مساء وهي عائدة من نزهتها اليومية ترفع وجهها وتنظر إلى النوافذ وتحصي المضياء والمظلمة. الحاجة ماري متأكدة: أكثر من ليلة مرثا ومرثا لم تشعل المصباح في غرفتها. أين تقضي ليلاتها إذا؟

لم يخطر في بالها أن مرثا في الغرفة. وفي مساء هذا اليوم الخامس، بينما الحاجة ماري تنظر إلى الكفوف الصوف على مكتبها، ظهر في الباب جوزف أسطفان كأنه خيال خرج من رأسها. فتحت فمها ولم تتكلم. هو ألقى التحية أولاً. لم ينفذ الثلج عن كتفيه. ويذا مضطرباً. بعد الحديث القصير صعدت الدرج وهو يتبعها. كانت تنادي وهي تلهث ويدها على الدرايزين:

- Man on the floor(\*)

انفتح الباب - ددَّت وددَّت وددَّت - عن شبح. المرأة الحبيسة منذ أيام في غرفتها (أربعة أيام وهي لا تأكل ولا تشرب؟) نظرت إلى الوجهين في الضوء الخفيف المنبعث من مصباح الدرج ثم تراجعت إلى ظلمتها. وراء الشبح الذي كان مرثا حداد بان مربع النافذة المطلة على الهدسون. لم تقل شيئاً. تراجعت كأنها تخشى أن تلمسها يد. لولا أن الدق لم يتوقف على الباب لم تكن تنهض من سريرها لتفتح. جوزف أسطفان لن ينسى ذلك المشهد: هي تتراجع، صفراء وبارزة

• رجل على الطابق.

مرتا نظرت إلى يد المرأة على صدرها، إلى جهة القلب. اسمها بنسي، إيرلندية الأصل، صهباء، على وجهها نمش أحمر. جليبتها الحاجة ماري من إحدى الغرف المجاورة. صادقت مرتا وصارت تلازمها. كلما رجعت إلى البناية تأتي وتقعدها وتحدث. عندما يحل الظلام تبقى وقتاً، تقول إنها تحب الأضواء وراء النهر ومن نافذة غرفتها لا ترى إلا البناية الأخرى.

تجلب خضراً وبصلاً من السوق وتفرم ذلك على لوح خشب وتطبخ حساء على طباخ الكاز وهي تتكلم. أحياناً تسكت. لكن حتى وهي تتكلم لا تضايق مرتا. اعتادت عليها وصارت - من دون انتباه - تعرف معاني معظم كلماتها.

في البداية كانت تجد صعوبة في رفع يديها. بعد ذلك تمكنت من حياكة الصوف. مرور الوقت ساعدها. لكن حتى بعد رجوعها إلى الصنارة ظلت غير قادرة على الخروج. جوزف أسطفان جاء يزورها مع زوجته وابنته الصغيرة. نظرت إلى البنت التي لم تبلغ الثالثة بعد وصارت تبيكي. لا تعرف لماذا كرت من عينيها الدموع وهي تنظر إلى الطفلة في المعطف الأحمر والقبعة الحمراء. حاولت أن تسيطر على نفسها. لم تقدر. وجوزف أسطفان رجع بعد ذلك وقال لها إن زوجته أحبها كثيراً. الزوجة أميركية، هولندية الأصل، غسمة الجثة. مرتا لم تعرف ماذا تقول لجوزف أسطفان وظلت ساكنة. هو أيضاً عجز عن مواصلة حديثه. نهض وهو يستعد لإطلاق صيحته (Man-on-the-floor) ثم تردد واستدار مرة أخرى فخرج الصوت من فمه عالياً: سألها متى تفكر في الرجوع إلى المعمل؟

فقط عندما سألها عرفت أنها لن ترجع إلى هناك. لكن ماذا

## أضواء جرسى سيتي

- هناك، تلك الأضواء، هذه جرسى سيتي.

كانت تنظر إلى ما يشبه الهوام المضيء يسبح في الظلمة. ماذا قالت؟ Jersey City. هناك سنوات يتجمد فيها النهر من هنا إلى هناك والصغار العفاريات يأتون مع زلاجاتهم ويتزلقون إلى هناك، إلى الولاية الأخرى. لكن مرات يتصدع الجليد وإذا وقع أحدهم يموت ويبقى تحت الماء المتجمد حتى الصيف. أنا عندما كنت صغيرة فقدت أحد رفاقي هكذا. لكن ليس هنا، في الشمال، في بوكيبيسي، هذه على الهدسون أيضاً، ونستطيع أن نذهب إلى هناك في عطله الأسبوع، إذا أردت، عندي عمّة هناك وتصنع أطيب فطيرة تفاح في أميركا. ماذا قالت اسمها؟ Poughkeepsie

ربما في الصيف. الآن الجليد أسمك هناك. وكل الرجال يقطعون الجليد بالفؤوس على النهر ويأخذونه إلى مصانع البيرة. حصاد الجليد شتاء مهم كحصاد الحبوب في الصيف. أبي اشتغل في هذا قبيل أن يموت. كانت عندنا مخازن جليد على الضفة في Rhinebeck، هذا قبل أن تأتي «الشركة» وتستولي على جليد النهر.

أبي قاتل «الشركة» ثم باعهم المستودع. وذهب وبني مخزناً آخر في Schodack لكنهم لحقوا به إلى هناك. عندما أذهب في العطله لزيارة عمتي وأرى اللافنة المعلقة فوق مخزن الشركة يؤلمني هنا.



## Clarendon

سألها خالها ماذا تفعل إذا مرضت، ماذا تفعل إذا ضايقها عسكري، ماذا تفعل إذا حصل لها شيء، من يساعدها؟  
- الربّ يساعدي، قالت.

فتحت عينها في ظلام الغرفة. تلمّست الطريق إلى النافذة. رائحة الشورية والكاكز معلقة بين الحيطان. أرادت أن تدفع الزجاج لكن الجليد منعهما. عندما هدر يوقّ بحري في ساعة الفجر اهتزّ لوح الزجاج. رأت باخرة تخترق صفائح الجليد منتهلة. رأت أكوام الجلود على ظهر الباخرة: كانت محزومة ومثقلة بالحديد لئلا تنزلق. تذكرت المنام عندئذ. خالها وابن خالها دخلا هذه الغرفة. كانت تجلس هنا، عند الظهيرة، جنب النافذة. ابن خالها وضع على الأرض شيئاً يحمله - لم تعرف ماذا كان يحمل - وخالها جلس على حافة السرير والطربوش على فخذه. كان وجهه غامضاً ضايقها ذلك في المنام وعندما أرادت أن تتبين ملامح الوجه الفتي الذي تعرفه - قريب من قلبها ابن خالها - عجزت أيضاً. كان الصبي واقفاً قبالتها، رأت ثيابه التي تعرفها، ورات شعر رأسه البني الفاتح، لكن وجهه... لم ترّ الوجه!

في يوم أحد جاءت أختان من بشمزين - هذه قرية في شمال لبنان هاجر ربع سكانها إلى أميركا في تلك الفترة - تلبسان الثياب المكوية للقداس وتزورانهما.

سضعل؟ وهي راقدة في فراشها ليلاً كانت ترى شخصاً يتحرك حركتها البليدة ينزل على الدرج ويخرج إلى الطريق ثم يعمّر بين الأشجار ويعبر كومة ثلج متسخة وينحدر وينزل بين قطع الجليد ويختفي تحت المياه.

الحاجة ماري دخلت عليها ذات ظهيرة وطلبت منها شالاً، قالت إن الخيوط عندها، اشترتها قبل شهر من «كوييز»، وتريد شالاً بثلاثة ألوان، أصفر وأزرق وأبيض. استدارت وخرجت ثم عادت تحمل كرات الصوف بين ذراعيها كأنها تحمل قطعاً صغيرة ملوّنة وألقنتها على السرير.

الجمر أحمر في المدفأة والبخار قشرة على النافذة. مرتا تنظر إلى الشال الذي يكبر بين أصابعها. هل تعرف يديها؟ عندما تتعب تضع ما في يدها على حافة النافذة. الخلووط في كفتها عميقة، متشعبة، لكنها الآن لا تنظر إليها. بعيداً، بعد هبوط الليل، تظهر أضواء بتسي. الحاجة ماري تقول هذه مراكب الصيادين. حتى في الجليد يلقون الشبك، حتى لو تمزق الشبك لا يبقون في بيوتهم.

قبل أن يتحرك الباب تسمع غطولات بتسي، تسمعها تخبط جزمتهما على السجادة. إذا دخلت فاحت في الغرفة رائحة الخارج والفحم الحجري والخبز. مرات تجلب نبيذاً. تسكب لها في كأس معدنية وتقطع على قطعة الخبز جيئاً أبيض كالساكر. مرتا تذكر أمها عندئذ ومن دون أن تنتبه تقع الدموع من وجهها على الخبز والجبن والنيب.

• تنقسم مدينة نيويورك إدارياً إلى خمس مناطق: مانهاتن، بروكس، بروكلين،

ستانن إيلاند، كويتز.

تكلمتا عن المعمل. الكبرى تكلمت أكثر. الصغرى أقل. وطوال الوقت - وهي تحاول أن تتبع مسار الحديث - ظلت تلاحظ الأمر نفسه: الوجهان غامضان! طالما التقت هذه الأخت وتلك، في المعمل. ساعة الطعام (نصف ساعة ظهراً) كانت تأكل وهي تسمع حديثهما. تعرف وجه الكبرى وتعرف وجه الصغرى. فلماذا تبدو ملامح الوجهين غامضة؟ وهذا ليس مناماً!

إحدى الأختين مدت يدها وأخرجت «شغل» مرتا من السلة الخيزران وصارت تتأمل القطع وتبدي استحسانها. الصغرى أيضاً اشتركت عندئذ في الكلام. كانت تقلب القطعة بين أصابعها الطويلة ونهز رأسها. ذكرت اسماً: «فرنسيسكا مركزول إبراهيم». تركز الاسم أكثر من مرة. وتكلمتا عن أمان هذه القطع.

عندما بقيت وحدها، وأجراس الكنائس تُقرع وتقرع وتُقرع في رأسها، شعرت بضعف شديد، كأنها ركضت للتو مسافات لا نهائية. كأنها بلغت هذه الغرفة للتو راكضة من بتاترا! طوال الوقت - منذ حدث ذلك، منذ سمعت تلك الكلمات في الطريق - وهي منهكة، بلا قوة، لكنها في الأيام الأخيرة صارت تنهض، تتحرك، تفعل أشياء... الآن، بعد زيارة الأختين، وجدت نفسها غير قادرة على الحركة. تكوّمت على نفسها في الفراش.

استغرق الأمر أسابيع. مجسات الأخطبوط تحركت. السيد هرمان عنده مئات الكشاشين يعملون تحت يده موزعين على أنحاء الولايات المتحدة الأميركية. جمعوا المعلومات من أجلها؟ الآن حصلوا على المعلومة الوحيدة التي تطلبها؟ مرتا مدت يدها وأخذت الورقة من يد جوزف أسطفان. الثلوج تذوب في الخارج، طوال الوقت تظفر مسلات الجليد على النافذة والرفف فوق النافذة. تسمع

الجليد يتحطم، تسمع الطيور التي تزفوق، كيف مرّ الوقت؟ انتهي الشتاء، أو هو ينتهي، وما هو الربيع يبدأ! استغرق الأمر زمناً وما هو «العنوان» بين يديها. معقول؟ هذا مكانه؟ عثروا عليه؟ (أم كانوا يعرفون أين هو منذ البداية؟).

رفعت وجهاً متعباً ونظرت إلى جوزف أسطفان. الرجل رأى شفتها ترجف والورقة ترتمش بين أصابعها. أبعد نظرت، مال ونظر عبر النافذة إلى مداخن حجرية لا تُعدّ وإلى سماء ترتفع رمادية ثم تهبط فوق المداخن.

- اسمي جوزف أسطفان وأستطيع أن أساعدك.

كانت الجملة تتكرر في رأسها: ألم يقل ذلك قبل دهر، في البهو في «أوتيل الجبل»، وهي ترجف في ثيابها الرطبة أول نزولها في نيويورك! قرأت الكلمات، حفظتها، أهم شيء اسم الشارع، الطريق المنفضية إلى المزرعة: Clarendon Road.

قال إن المكان خارج مدينة نيو أورلينز، يبعد من محطة القطار ساعتين بالعبوة ونصف ساعة بالسيارة. صوته يخرج من بشر. كان الكلمات تدعب إلى الخارج - حيث تنزلق الثلوج الذائبة عن حافات السطوح - ثم تعود إليها عبر لوح الزجاج.

بعد ذهابه بقيت راضحة: الشبغ والعرق والجوخ. كان يتعرق في معطفه وكفوفه والبرنيطة والشال. نزع كفه - الفردة اليمنى فقط - وهو يستخرج الورقة من جيب المعطف: ورقة صغيرة مطوية بعناية. حفظت العنوان لثلاث تحترق الورقة بين أصابعها وتتلأش الأرقام والحروف في الرماد:

7256 Clarendon Road - New Orleans

كلاريندون.. الاسم يدور كالطاحونة في رأسها. ليلاً تقوم من

نومها مبلولة بالعرق: كلاريندون. يتسي سألتها ذات مساء عن أهلها  
في جبل لبنان، من عندها هناك، هل عندها بعد أقارب؟  
أرادت أن ترد على يتسي، أن تقول لها شيئاً عن خالها أو ابن  
خالها، فخرجت من فمها الكلمة: «كلاريندون».

- 34 -

## المزرعة (2)

دلزي رأت السيد عائداً بالسيارة من المدينة. كانت تنفص  
السجاد تحت أعمدة الرخام الباردة. أسرعت تبعد الأغراض عن  
الدرج، وهي تثلثت بجذعها الثقيل وترسل صوب الإسطبل صوتاً  
كفحيح الثعبان: «سسسس»... كانت تنادي طوماس (الصبي)  
بطريقتها. هكذا لا ترفع صوتها وتوقف سيدتها (ألا تظن نفص السجاد  
يوقف السيدة؟). طوماس أطلّ راكضاً. وشرع بوابة السياج لثلا يخبطها  
السيد بالسيارة. كانت قماشة التلميع في يده (خضعص هذا الصباح  
لصبيج سرج الحصان بطلاء الأحذية. بينما يطلي السيور الجلد بحاذق  
لثلا يلمطح البيكلات النحاس). من بعيد اقتربت السيارة السوداء في  
خط غير مستقيم، غريبة الحركة كحيوان مريض وهي تتلوى. كانت  
عجلاتها تنزلق على الوحل. دخل السيد بسيارته الباحة وأطفأ المحرك  
ولم يستخدم الفرامل. ارتطمت مقدمة السيارة - وهي تخرج على مهل  
- بأكوام التبن الرطب. السيد نزل منها وهي لا تزال تهتز والوحل  
يقطر من جنباتها. قال لطوماس:

- قلْ لإد أن يأخذ الرجال إلى النهر. الطريق هناك لم تعد  
موجودة\*.

The road there is gone. •

الطرائد. خارج النافذة بانث القبط، تموء وقد شمت الرائحة، وأظافرها تحاول تمزيق الشبك الرفيع الذي يمنع دخول البعوض والذباب. التفت - وهو يجلس - صوب النافذة: سكتت القبط عن المواء. البنت نظرت إلى قشور البطاطا تقع على الخشب وتمنت أن تخفي... لكن أن تبقى هنا أيضاً.

شرب القهوة وأكل خبز التورتيا مع بيخة اللحم والحبوب. بينما يكسر الخبز - المصنوع من ذرة متخمرة - وينظر إلى السنة الثيران تتراقص في المدفأة العملاقة، شعر بالنعاس يتسرب إلى جسمه وعينه. كانت تيريزا تسكب شراباً ساخناً في كوب بورسلين عندئذ وتأمر البنت أمراً. عرف - وهو يسمع الكلمات بعيدة وغير مفهومة - ماذا تريد. نهض وأخذ الصينية بنفسه وصعد السلم إلى الأليزابيث.

عندما دفع الباب رفعت جسمها على يديها ونظرت إليه بعينين كبيرتين. ضحكت عندما رأت ملامح وجهه. جلس على حافة السرير وهو ينفخ على الكوب الساخن ويقول إنهن أشعلن نار جهنم تحت. مدت يدها وتلمست كتفه ورفقته. وضع الكوب على الطاولة الصغيرة ومال عليها وأخذها بين ذراعيه. كانت رائحتها طيبة: كأنها تحممت بالحليب وماء الزهر.

تأملت وجهه وهو يدخل فيها. شدته إليها بساقين قويتين ورأت الطيور تعبر خطفاً خارج النافذة بالستارة البيضاء. دقنت وجهها حيث أوتار الرقبة وتنشقت رائحته. عندما رفع جذعه معتمداً على يديه، رأى عينها تشعان والبؤبؤين يسبحان في بياض يتغير إلى لون اليفسج. صفت بشرتها صفاء مدهشاً وهي تلوي رقتها إلى خلف. بعد ذلك سمعا دلزي تترنم بأغانيتها القديمة وهي تنفض السجاد أمام البيت.

بينما يصعد الدرجات استدار ونظر إلى الصبي واقفاً لا يتحرك. عندئذ انطلق توماس راكضاً صوب الحقول (كان ينتظر أن يعطيه السيد شيئاً. في المرة الأخيرة، عندما عاد من نيو أورلينز، جلب له مدينة بمسكة وبيت عظم. هذه أئمن مقتنياته الآن. تلازم جيبه. إذ علمه كيف يتكلمها. في نهاية المسكة حلقة حديد وإد أخبره أن الجنود كانوا أثناء الحرب يتقاتلون على مدى مثل هذه). في هذه الأثناء كانت دلزي تسمح العرق عن وجهها وتسال السيد عن صحته. همهم بكلمات غير مفهومة، رفع يده في تحيته المعهودة، واخترق عتمة البهو باتجاه المطبخ. من دون أن يسأل يعرف أن الأليزابيث في السرير.

حرارة المطبخ كانت حلوة بعد برد الخارج ووحول الطريق والسماء الرمادية الكثيية. تيريزا الطباعة أسرعت تبعد السلة عن الكرسي حيث يحب الجلوس. على يديها دم من الطرائد (طيور وأرانب) التي تنظفها. نظر إلى الريش في السطل الخشب ثم نظر إلى الأرانب. من حركة يده عرفت سؤاله. لفظت اسم الرجل الذي جلب الأرانب وهي تمسح يديها على ثوبها: كانت ثلاثة أرانب برية سمينة، فروتها بلون البلوط. تفحصها بنظرته وهي ترقد على البلاطة وفكر أن اللعين ركض خلفها وكسر رقابها من دون أن يقوِّص عليها خردقة واحدة: كانت الفروة سليمة بلا أثر للثوب!

هز رأسه وهو يلمس فروة الأرنب الذي لم يُسلخ بعد. ابتسم عندما رأت ملامح وجهه. وراء ظهرها كان البخار يتصاعد من إبريق القهوة ومن طناجر الماء. في الزاوية البعيدة، تحت النافذة، كانت ابتها تقشر الثوم والبصل والبطاطا وتحاول السيطرة على جريان الدم في وجهها وأذنيها: لحظة دخول السيد المكان تخضب خداهما بالأحمر الشمندري. حتى جبهتها صارت بلون الدم على بلاطة

بدا صادقاً ويريد أن يخدمها ويستنساها، لكنها وجدت ذلك صعباً عليه: تذكرت زوجته والبيت في المعطف الأحمر والقبعة الحمراء. قالت إنها لا تستطيع أن تبقى هنا أكثر.

أخذها إلى «الغراند ستترال» في الشارع الثاني والأربعين كي تقطع التذكرة قبل يومين من سفرها. كان الوقت ظهراً ونيويورك تمعج بالبشر والمجلات والهدير. زجاج الأبنية عكس الغيوم القطن المتباعدة في سماء زرقاء. أدخلها إلى مطعم صغير مزدحم، يبيع سندويشات همبرغر وبطاطا مقلية. بينما يخبرها عن ابنه مارون - كثير المتاعب هذا الفتى: يضرب ويسرق كأنه ليس ابنه، ولا ينفع معه علاج - رأت شخصاً سوروي الملامح يمرّ على الرصيف حاملاً الكفّة: فكرت أنها تعرف هذا الوجه ورأته من قبل. لكنها لم تستطع أن تتذكر أين ومتى. بينما جوزف أسطفان يحصي الستات في كفه (الهمبرغر بعشرين سنتاً هنا) تذكرته يفعل ذلك أمام عربة الهوت دوغز قبل دخولها «بيت الحاجة ماري».

إذا أردت اليوم أن تسافر بالقطار من نيويورك إلى نيو أورلينز يمكنك أن تذهب إلى المحطة ذاتها (الغراند ستترال). قاطع التذاكر سينصحك بركوب القطار Crescent الذي يتبع خطوط Amtrak. الرحلة طويلة، 1378 ميلاً، تأخذك من الشمال إلى أقصى الجنوب قاطعة الولايات والسهول والأنهار والجبال، وحقولاً وغابات كانت مسرحاً للحرب الأهلية الأمريكية في ستينات القرن التاسع عشر. مرتا قطعت هذه المساحات في ربيع 1914: رأت سهول بنسلفانيا الخضراء عند الشروق، تكّر عن جهتي القطار حتى حيطان التلال المغطاة بالشجر. رأت للال الغيوم تنتشر على قطعان الماشية في مراعي Delaware و Maryland. رأت مدن فيرجينيا وبلداتها (تقرأ الأسماء في مداخل المحطات وعلى حقائب المسافرين الصاعدين في

## وداع

قبل سفرها جاءت الأختان في زيارة أخرى، وهذه المرة جاءت معهما حثّة بافت\*. طلبت حثّة منها بعض القطع (شغل بالصنارة). قالت إنها تستطيع أن تدفع لها أكثر مما تدفع الست فرنسيسكا (هذه صاحبة المتجر في «هنري ستريت» - بروكلين: اشترت منها أغطية «تريكو» للطلاوات والمساند، بواسطة جوزف أسطفان). صنعت قهوة وسكبها في الفناجين. حاولت أن تكون هادئة. المرأة القصيرة كمدقة الثوم والتي تدعى حثّة تفحصت «شغل» مرتا حداد وهي تنتهد: بدت سعيدة وحزينة معاً. قبل أن تغادر مع الأختين نيشراني من بشمزين كانت السيدة حثّة قد أعطت مرتا دولارات تكفيها للذهاب في رحلتها إلى لويزيانا. على الدرج، وهي تنزل حاملة القطع التي انتقتها، قالت للأختين إن حثتها محفوظة. كانت بالغة السرور الآن.

جوزف أسطفان طلب من مرتا تأجيل رحلتها. إذا انتظرت ثلاثة أسابيع أو أربعة، يستطيع أن يأخذ عطلته من عمله وأن يذهب معها.

\* من ظهور الشوبر - جبل لبنان. ولعلها تتّ بصله قريس إلى نعمة بافت الذي هاجر إلى البرازيل في تلك الفترة، وأصاب ثراء هناك. فتح مصانع وبنى لعدها مجمعات سكنية بحجم مدينة صغيرة. أهدى الجيش البرازيلي طائرات حربية وتبرّع للجامعة الأمريكية في بيروت بنفقة بناء «مكتبة بافت» Jafet Library

## هنري أوزبورن

المقصورة مظلمة لكن الضوء الضعيف يتسرب من الممر. حركة القطار رتيبة تدفع إلى النوم. مع هذا تجد مرثا النوم مستحيلاً. فتحت كيس الجنبفيس وأخرجت شيئاً من قعره. فاحت في المقصورة رائحة «الزهورات». المكان مظلم ولا نستطيع أن نرى وجهها. عندما تلتصق أنفها بالنافذة، بينما القطار يدخل محطة مضاءة بالمصابيح أو يغادر محطة إلى الظلام، ماذا يرى الواقفون في الخارج والقاعدون على المقاعد الطويلة؟ هذه المقصورة يغلب عليها اللون الأخضر. القماش الأخضر يغطي جدرانها، وعلى نوافذها ستائر خضراء. هذا يحدث كثيراً معها: يأتي حاجب ويسألها هل تحب الانتقال إلى الدرجة الأولى؟ وهي تتبعه. الحاجب الأخير ابتسم وهو ينظر إلى تذكرتها ويقول إن القطار سيبلغ نيو أورليز عند الفجر أو شروق الشمس. قال شيئاً عن الفحم لكنها لم تفهم: لم تكن تصغي إليه. أحد الركاب كان يحدق إليها طوال الوقت فاضطرت.

يُدعى هنري أوزبورن. اقترب وقال اسمه وقال إنه رآها وهي تعمل بالصنارة، وهذا عمله. تذكرت عندئذ أنه عندما نظر إليها للمرة الأولى كان بعبر الممر: تراجع عندما رآها تُخيط بالصنارة ووقف في باب المقصورة وهز رأسه. لم تثر تحيته لأنها كانت شاردة. بعد ذلك - وهي عائدة من الحمام - التفته مرة أخرى. وفي هذه المرة أيضاً رفع القبة عن رأسه لكنها لم ترد.

كل محطة: (Manassas - Charlottesville - Lynchburg). رأت حقول كارولينا وهضابها، رأت بيوتاً واسطبلات، رأت جسوراً على أنهار المغيب وظلّ القطار في المياه يتسارع مثيراً الذعر في قلبها. في أتلانتا - جورجيا أكلت «وجبة دجاج» وبذلت قطارها. في ألاباما - بينما القطار يرتاح - رأت الهنود الحمر للمرة الأولى في حياتها. كانوا مجموعة كبيرة حزينة ومعهم رجال بيض في زي عسكري وفهمت من حديث الركاب أنهم في الطريق إلى المحمية في نبراسكا (بعد سنوات مرّ بها القطار هناك ورأت «المحمية» وراء السياج: خيم الهنود الحمر الغريبة الشكل، والثيران الصغيرة، فوقها تتعلق القددور، والفتية شبه عراء على الأحصنة). نظرت إلى الهنود الحمر يصعدون إلى قطار ذاهب في الاتجاه الآخر وتذكرت الصورة التي رأتها أمام صالة السينما - قبل أن تبدأ هذه الرحلة - في جوار الفرائد سترال في نيويورك: الهنود الحمر في الإعلان الملون بدوا حقيقيين بعكس هؤلاء الذين تراهم الآن بلحمهم وعظمتهم أمام عينيها! هذا الإحساس هاجمها مرة ثانية عندما أطلّ نهر المسيسيبي عالياً وموحلاً: لم تصدق أن هذا نهر! كان أضخم من المحيط!

المقطع أعلاه (من «إذا أردت اليوم أن تسافر بالقطار» حتى «كان أضخم من المحيط») لا يعكس حالة مرثا بدقة. تبدو مرثا في السطور المذكورة كأنها ليست هي: تبدو «مسافرة!» (هل يصير الإنسان شخصاً آخر بينما يسافر... بينما يقطع مساحات مجهولة لم يعرفها من قبل؟)

لعل وداعها يتسي قبل ليلة أقرب إلى التعبير عن حالتها النفسية (بينما تضمها سالت الدموع من عينيها وهي لا تريد أن تبكي). أو ربما وداعها غرفتها: جمعت أغراضها في الكيس الجنبفيس القديم، بكتل أزرار كتزتها الطويلة. ناظرة إلى الحيطان، وخرجت.

كانت عاجزة عن النوم فخرجت إلى الممر. في نهايته وخ ضوء أحمر. بعض المصابيح مطفأ في الممر أيضاً. رأت أضواء حمراء صغيرة وعرفت أنهم يقفون هناك ويدخنون. كانت تستدير عائلة إلى مقصورتها عندما سمعت ذلك الصوت مرة أخرى، السيد هنري أوزبورن من ترنتون\* - نيوجرسي.

عندما عرف أنها بدأت رحلتها في نيويورك أخبرها أنه اشتغل هناك زمناً، وأن أحد أقاربه يملك متجرأ في هارلم. أخرج من جيبه الداخلي بطاقة. الساعة الذهب لمعت في ضوء الممر وهو يزيح سترته بلامبالاة. على البطاقة قرأت اسمه وعنوان متجره في ترنتون. تذكرت عندئذ عليه البطاقات في مكتب السيد هرمان وشعرت بالتعجب.

سألها من يشتري «شغلها» وسألها هل يمكن أن يبيعه بعض القطع. قالت إنها لا تحمل شيئاً.

انتبهت أنه ينظر إلى كيس الجنييفس لكنها لم تشرح أكثر. كانت مرهقة وفجأة أحسّت أنها قادرة على النوم. تناهت من دون أن تنتبه. والسيد أوزبورن اعتذر ورفق قيمته مرة أخرى ولفظ اسمها كما نطقته أمامه ثم اختفى. بعد ذلك أسندت رأسها إلى حافة النافذة بالبطانة المخمل وفي لحظة غرقت في النوم.

أيقظها اهتزازٌ عنيف. فتحت عينها بعد الارتجاج وسمعت صياحاً ورائت أخيلة تتراكض في الممر. خارج الزجاج كانت الظلمة دامسة وفي مكان بعيد رأت ما يشبه لساناً أحمر يخرج من الأرض ويتعالى إلى السماء. لكنها كانت تعلم أن الضر في القطار لا علاقة له بذلك المشهد البعيد. لم تفرغ. كانوا يركضون ويطلقون صرخات

وفهمت أن شيئاً مريباً على السكة أوقف تقدم القطار. قامت من مقعدنا على مهل، بلا خوف، وبمكثني أن أقول بلامبالاة. كانت بانسة ويأثت إلى حد الخدر، مثل مجرم مُدان حُكِم بالإعدام قبل دهر والآن يؤخذ إلى المقصلة. لماذا يحملها القطار إلى نيو أورليانز؟ وبعد أن تقطع «كلاريندون رود» إلى تلك المزرعة ماذا ستفعل؟

ظهر الحجاب قبالتها وهو يلمت ويمسح شحماً عن أصابهه. لم تعرف كيف تلخث ثيابه بالشحم ولم تهتم. أخبرها أن الجميع ينزل من القطار بانتظار تنظيف قضبان السكة. أخذت كيسها وعبرت الممر وهي ترى وحولاً على السجاد السميك. كانوا ينزلون إلى الحقول ثم يصعدون ثم ينزلون مرة أخرى. هرج ومرج لا يُصدق. مع أن القطار بدا لها - قبل هذه الحادثة - فارغاً. تحت، واقفة على حافة مروج تحطم سياجها، رأت عمالاً يرفعون جثث الماشية عن السكة الحديد (طوال الطريق ترى هذه الأسبجة تمتد بمحاذاة السكة ولا تفهم سرها. الآن فهمت).

المصابيح التي يحملها مسافرون وموقفون في السكة الحديد شوّهت الوجوه، جعلتها غريبة الأشكال والألوان. عندما اقترب منها ذلك الرجل من جديد لم تعرفه للوهلة الأولى. كان عليه أن يُدّجرها بنفسه مرة أخرى.

أخبرها وهما يقفان هكذا في الليل والرطوبة، في مكان ما على حدود الميسيسيبي - لويزيانا، أنه ذاهب لزيارة أخته التي وضعت توأمين، أنثى وذكرأ. بينما يحكي عن عائلة أخته الكبيرة أخرج بطاقة أخرى من جيب سترته ودفعها في يدها. لم تفهم ماذا يفعل. كانت تنظر إلى بقرة ضخمة بيضاء اللون يرفعها عدد من الرجال السود إلى حيث تتحدر الأرض جنب السكة.

بعد دقائق. ضحك وقال لن يذهب القطار من دونك، أنا أعرف أصحابه. ضحك ضحكة أقوى وترنح وكاد يُسقط الأرجيلة على الأرض. قال اسمي جميل طرزي، أنا وُلدت في الشام لكنني جئت إلى هنا مع أبي وأنا صغير، كان عمري 11 سنة، ولهذا تسمعين عريتي ثقيلة. ولأنني عموماً لا أجد هنا من أتكلم معه بالعربية.

ضحك مرة أخرى لكن هذه المرة من دون فرح حقيقي. كان فقط يحاول أن يزيل - كان هذا ممكن - الضباب الذي ملا المسافة بينه وبين هذه الحساء السورية التي رماها القطار أمام باب دكانه.

على الرصيف المقابل مَرَّ رجال في أزياء متشابهة، وكلهم ملطخون بالأسود. كانوا ينظرون إلى واجهات المتاجر ثم يتابعون السير تحت سماء الجنوب الزرقاء (هل بدأ الصيف هنا في هذه اللحظة؟ إنها تشعر بحرارة غريبة تملأ ثيابها!). الرجل بالطربوش تبع نظرتها وقال إنهم في المنجم، هؤلاء يعملون في المناجم. ثم أخبرها - بسرعة، كأنه يسابق صافرة المحطة - قصته:

- أنا وأبي مشينا على الأقدام من نيويورك إلى هنا. أنتِ أتيتِ بالقطار لكن عندما جئنا إلى هنا لم تكن هذه السكة موجودة. وصلنا قبل السكة. كنت أتعب من السير فيحملني أبي مع الكثة. الصندوق على ظهري، والصندوق الآخر الأصغر على صدره. وفي يده الحقيبة التي يُفترض بي أن أحملها. يحملني تحت إبطه ويمشي. كان بطول هذا الباب، لكنه نحيل. كانت عظامه تضايقتني وهو يحملني هكذا فأتشجع وأطلب النزول وأمشي من جديد. كان بقوة ثور. في البداية كان يتركني في المدينة (أولاً في نيويورك؛ بعد ذلك في سالزبوري -

• في الأصل كان هذا الصندوق الصغير الذي يتدلى على الصدر - مربوطاً إلى سيور الصندوق على الظهر - هو «الكثة». وهي كلمة من البرتغالية Caixa تني «الصندوق» وباللها البرتغاليون Ka-sha.

## Slidell

سليدل. المحطة الأخيرة قبل نيويورك. ركاب متوترون بسبب الحادثة والتأخير. شمعت بعצלتها تشتنج إلى حد التخشب. القطار سيتوقف هنا ساعة، وهي لا تعرف ماذا تفعل. نزلت كي تمشي قليلاً في جوار المحطة فأرأت دكاناً جنب كنيسة بيضاء بثلاث نوافذ، وعلى زجاج الدكان كلمات عربية وإنكليزية. أغرب من ذلك: رأيت رجلاً جالساً في المدخل (بين صناديق وسجاجيد شرقية، ومساح تتدلى مع صلبان وأيقونات من قصبان خشب معلقة في الهواء) وعلى رأس الرجل طربوش أحمر! كان - باستثناء الطربوش - يرتدي الملابس الأميركية المعهودة. قميصه الأبيض لافت للنظر، وحقالات البنطلون السوداء ترسم خطين عموديين على بياض القميص. سترته ملقاة على أحد الصناديق الدمشقية المعطمة بالصدف - كيف وصلت هذه البضاعة إلى هنا؟ - وأمامه تفرق أرجيلة. اقتربت منه بلا انتباه فأرأته يتسهم. سأله - بالعربية - من أين تأتي وهل يقدر أن يساعدنا؟ كان واقفاً الآن، مقوّس الظهر بعض الشيء (لعله يخاف أن تقع الأرجيلة إذا انتصب تماماً فإليزيها ما زال بين أصابعه) وبدا مستمتعاً باللحظة. مرنا انتهت عندئذ أنه يشبه رجلاً من قريته.

أخبرته أنها أتت من نيويورك وذاهبة إلى نيويورك. سأله هل عندها وقت كي تجلس وتشرب فنجان قهوة. قالت إن القطار يتحرك



## Slidell (2)

صوته بلغ قلبها. القصة التي سمعها ردت ذكريات قديمة. طوال الوقت، بينما الرجل يحكي عن أبيه، كانت ترى أمامها وجه المرحوم أبيها.

- أي الفتى ويدها ومدودتان صوب المدفأة وصار يقول للزوج «ثانك يو»، ثانك يو مستر» ويستعمل أن يلفظ الكلمات بطريقة مضحكة. الزوج ابتسم وسأله شيئاً عن بضاعته. أبي لم يرد عليه. كانت نظراته مسددة صوب الطاولة: عليها طعام، بخار يتصاعد من صحن، وهو جانح. قام ومشى إلى الطاولة وجلس إلى الطعام وهو يقول «ثانك يو»، مع أن أحداً لم يقل له أن يقوم إلى الطاولة. كسر عيزراً طازجاً حاراً وأكل. الزوج أشار لامرأته أن تجلس وجلس هو أيضاً. أكلوا معاً الطعام المطبوخ. وكلما نظر أحدهما إلى أبي متفضلاً على الطعام كأنه لم يأكل منذ سنوات كان أبي يرفع وجهه ويقول «ثانك يو». الزوج قام إلى المدخل ووقف ينظر إلى الصناديق. أبي قال إنه في تلك اللحظة توقف عن مضغ الطعام: إذا رمى الرجل الصناديق خارج البيت فماذا سيفعل بنفسه؟ أخذ الرجل أحمال أبي إلى غرفة النوم وأبي تبعه إلى هناك وهو يكرر «ثانك يو». نام على سرير نظيف وفي الصباح استيقظ على الشمس وصباح ديوك الحبش وضجة النساء. في المطبخ وجد المرأة مع ثلاث فتيات، وعرف أنهن

كارولينا) ويبيع على الطريق يومين أو ثلاثة ثم يرجع إلّي. عندما رأى أنني لا أتحمّل غيابيه صار يأخذني معه. كان يقول للآخرين «هكذا أحسن» فإذا كنت معه لا يجد صعوبة في العثور على مكان للنوم. وهذا صحيح. أخبرني أنه مرة وجد نفسه في البرية واللبل قريب والبرد يقتل. ظل يمشي ولم يصل إلى مزرعة أو بلدة ثم رأى نوراً بعيداً فأسرع صوبه. كان المطر بدأ يتساقط ابتلاً تماماً، وحتى الغطاء الذي يضعه على الكفة ابتلّ وصارت المياه تنزل تحتها. عندما بلغ باب البيت وقرع عليه فتحت امرأة. قالت إن زوجها في الحقل ولم يرجع بعد. أبي صار يقول «ثانك يو، ثانك يو» ويتجاهل كلامها وهو يحاول دخول البيت. وقفت في طريقه وشرحت له مرة أخرى - بالإنكليزية وبالإشارات - أنها وحدها وزوجها ليس هنا ولا يمكن له الدخول.

أبي ظلّ يضع يديه جنب رأسه - طالباً مكاناً للنوم - ويقول «ثانك يو، ثانك يو» (شكراً شكراً). وضع رأسه في الأرض وتقدم ودخل إلى البيت وهو يقطر. تخلص من حذائه في الباب ووضع أحماله ومشى بخطى واسعة إلى الموقدة وجلس أمام النيران وهو يقول «ثانك يو».

زوج المرأة دخل بعد قليل وهو ينفخ الماء عن مظلته وثيابه. كان الطوفان في الخارج وسأل زوجته من هذا الرجل وماذا يفعل في بيته؟ المرأة قالت إنه بائع جوّال ولا يفهم الإنكليزية. دخل غضباً عنها وطوال الوقت يقول «ثانك يو» ولا يعرف غيرها. الزوج وقف حائراً.

تغلي فوقها طنجرة، وهي نظرت إلى الرجل الزيتوني البشرة من دون أن تقول شيئاً. كانت عاجزة. الكلمة جوزة عالقة في زلعموها، ماذا تقول؟

وقفت في الصف. بينما تنتظر دورها لركوب القطار أكمل الرجل قصته وهو ينحني حتى يكاد رأسه يلمس كتفها. كانت رائحته طيبة، وفي صوته حزن شجي. كأنه مريض يخرج من مرضه الآن، يغتسل ويأكل شيئاً طيباً ثم يقعد في الحديقة الخضراء تحت أشعة الشمس.

- تعلمت من أبي، بقيت أحمل الكشة معه حتى وقع هنا ومات. على بُعد دقائق من هذه البلدة، على شط البحيرة\*. وضعنا الصناديق وجلسنا لتأكل لقمة جنب الماء. قبل أن يقعد وقع ومات. هكذا فجأة. كان وجهه عرقان، أنا أهزه وهو لا يتحرك. قبل أن يموت مشينا على الأقدام هذه الولايات كلها، أميركا كلها؛ من هنا إلى داكوتا ونبراسكا. كنا نملا الكشة ونركب القطار إلى مدينة بعيدة. ثم نرجع الطريق مشياً ونحن نبيع بضاعتنا من مزرعة إلى أخرى. لم نشتر عربة وحصاناً لأن أبي كان يفضل المشي ولا يعرف كيف يتعامل مع الأحصنة. هو مات وأنا بقيت هنا.

بناتها. أهدى المرأة شالاً، وأهدى كل فتاة منديلاً. ثم تكلم معهن بالإنكليزية وشكرهن على العشاء وعلى السير وعلى كرمهن. المرأة فتحت فمها مدهوشة. كان يتكلم اللغة بطلاقة، تعلمها على الطريق. قالت له: أنت تعرف الإنكليزية؟ أمس لم تكن تقول إلا «ثانك يو». وهو ابتسم وظلّ ساكناً. صارت المرأة تضحك، والفتيات ينظرون إلى المتادبل الجميلة ويضحكن. وأبي صار كلما مرّ في تلك الناحية يمرّ على البيت في البرية ويأكل وينام كأنه عند أقارب.

مرتا قالت إنها مضطرة أن تذهب. الرجل نادى صوتاً على جاره وكلمه. أقفل باب متجره بالمفتاح ومشى مع مرتا إلى المحطة. لم يأخذ طربوشه معه. ترك الطربوش في المتجر. بينما يسير جنب مرتا سألتها هل تحتاج إلى مال؟ الكلمات التي نطقها بالإنكليزية فاجأتها. التفتت إليه. رأت الحزن يكسو وجهه. شكرته وقالت «معي مال\*». الرجل هزّ رأسه ورفع عصاه: أشار إلى مداخن رواء المحطة يتصاعد منها سحب أسود وأخبرها أن هذا مصنع القرميد. كانت تحضن كيس الجنتيس بين ذراعيها وشعرت فجأة بالخوف على هذا الرجل الذي التفت للثو، هكذا، صدقة، في نهاية العالم.

مجموعة عبارة ألفت عليه التحية Hello Mr. Tarazi وهو رد باسماً ثم سأل مرتا هل عندها أحد هناك، في نيواورلينز، حيث هي ذاهبة؟

كان «الكونداتكر» يصيح، يقول شيئاً عن ركوب القطار الآن، ورأت امرأة تركض وهي تشدّ ابنها خلفها والصبي يبكي ويجرجر على الأرض معطفاً أزرق. رائحة «هوت دوغز» هجمت عليها من عربة

## الوصول

عربة يجزها حصانان أخذتها إلى المزرعة في 7256 Clarendon Road. الحوذي الأسود العجوز كان يرتدي كتزة صفراء وقبعة صوفاً حمراء اللون. وقف أمامها وهي تخرج من محطة نيو أورلينز للسكك الحديدية وسألها أين تريد أن تذهب. قالت: «هل تعرف كلاريندون رود؟» هز رأسه وهو يقول نعم، ورفع ثلاثة أصابع. كان يطلب ثلاثة دولارات، وانفقا على دولارين أجرة الطريق. لو قالت لن أدفع لك غير دولار واحد كان يقبل. المزرعة ليست بعيدة جداً وهو يحب تلك الطريق. ثم إن الضجة لا تطاق اليوم في جوار محطة نيوأورلينز. ساعدها كي ترتقي العربة بينما أجراس الكاتدرائية تجمنّ وعويل النساء يتعالى. المدينة كلها في كرنفال جنائزي مجنون. فرق موسيقى وأبواق ضخمة، وما يشبه جنازة بلا ميت أو على الأقل بلا تابوت ظاهر للعيان. كل أجراس الكنائس تُقرع والناس على الطرقات والعربات الكبيرة المحملة الآتية من المرفأ إلى محطة السكك الحديدية متوقفة في عرض الطريق يركض بينها أولاد سود يحملون حلوى سكرية غريبة الشكل ويصيحون. النساء أيضاً ملأن الزوايا في ألبسة مبهرجة. كانت السماء زرقاء ساطعة وفوق أبراج الكاتدرائية البيضاء تجمدت ثلاث غيمات بلون الرخام كأنها رُبطت إلى الأبراج بحبال غير مرئية.

مرتا انتفست الصعداء عندما ابتعدت العربة عن الزحمة والصخب المخيف. الحوذي التفت وصار يحكي عن رجل عظيم الشأن ولم تفهم هل مات الرجل المذكور أم رجع إلى المدينة للتو. كانت تبعد عن ضجة المدينة بينما الشمس تميل في السماء - جاوز الوقت الظهيرة - وهبّ عليها هواء الحقول. كان الحوذي يتكلم عن أزمنة بعيدة، عندما كان عبداً وفرّ من سيده وطارده. قبضوا عليه قبل أن يقطع النهر وقطعوا أذنه. أزاح القبعة الصوفية قليلاً ورأت أذنه المشرومة. كلامه يصل من بعيد، يختلط بيزققة العصافير والحشرات التي بدأت تنز وتخرج من بين الأشجار والأعشاب. الأرض كلها خضراء، مع أن الوحل يُصدر أصواته الغريبة تحت حوافر الحصانين وتحت العجلات الأربع. قال الحوذي إن زوجته تقول مثل هذه الأشياء دائماً - لم تسمع مرثا القسم الأول من كلامه ولم تفهم ماذا يقصد - ثم قال إن السيد توماس كان أسود مثل جميع السود لكنه كان حرّاً، لم يكن عبداً، جمع مالاً واشترى حريته، ثم لاحقاً بدأ يشتري العبيد. لكنه كان رحيماً ولا يسوط عبيده إلا في ما ندر. ومع هذا يُقال إن...

كان الرجل يتكلم ومرثا تصغي والعصافير تطير أمام العربة، تفرغ من الضجة وتختفي أعلى الأشجار. بعيداً بعيداً تكرر صدى الأجراس وهي تُقرع في مدينة نيوأورلينز. مرثا شعرت أن قلبها يتوقف وهي ترى اللافتة المغروزة جنب الطريق بين شجرتين قديميتين علاقيتين كأنهما غرزا هنا قبل قرون:

Clarendon R.

على زاوية اللوح الخشب سالت، بيضاء ورمادية، قاذورات الطيور. استدارت ونظرت إلى اللوح يتبعده، يصير وراء العربة،

والكلمة Clarendon تختفي، لكنها تبقى هناك، تنتظرها - إذا رجعت على هذه الطريق. انتبهت عندئذ أن العرق يبيلها من رأسها حتى أخمص قدميها، مع أن هواءً بارداً يهبّ على الحقول.

كانت على وشك الوصول. أدركت ذلك بينما نبضات قلبها تفقد انتظامها. كان الحوذي يقول: إن العاشية في تلك السنة أصابها الطاعون ومرتا سألت نفسها كيف لا يرى أنها وحدها في الجحيم.

كان يستدير بجذعه ويواجهها بفمه الكبير والشفتين القديمتين الجافتين والأسنان البيضاء العظم الباقية كما هي، كأنه في عزّ الشباب، كأنه ليس عجوزاً. هو يحكي وهي ترى الورق يتساقط ابرياً ربيعاً من الأشجار كورق الصنوبر في الجبل البعيد. سمعت خريراً يقترب ثم رأت نهراً أبيض المياه بصخور مفلطحة بيضاوية، ووراء النهر ترتفع طيورٌ ملونة البطون، سوداء الأجنحة، تدور حول أجمة قصب ثم تختفي وراء عربات خشب مكسرة انترزعت عجلائها. كانت العربات مكمّمة عند حافة الحقول. ضابقتها هذا المنظر. بدأ نذير شوم. طلقت عجلائ العربة وهي تنزل في أحاديث وتصعد. الحوذي استعمل سوطه ونادى بمقاطع صوتية غريبة المخارج مستنّة الرنين. استجاب الحصانان له والعربة خرجت من الأخدود. بعد ذلك انبسطت الطريق. الريح تراجعت، والسماء سطعت أشد زرقة فوق السهول.

من بعيد بانّت شجرة عملاقة ثم أعمدة رخام بيضاء كالملح أمام بيت كبير. كان الدخان يتعالى من شواء في الباحة. أمام الدرج ظهرت مائدة وناسٌ مُثَرُّ يأكلون ويدخنون ويشربون. كان الهواء ساكناً ومرتا رأت الناس قبل أن تسمع ضجعتهم: الضحك والكلام وطرفة الكؤوس والصحون.

### المزرعة (3)

دلزي استغربت وقوف العربة عند السياج. العربة صغيرة بجزءها حصانان ولا تشبه عربات الأسياذ الضيوف المصطفة الآن أمام الإسطل، غضراء وسوداء وحمرء، والأحصنة مفكوكة عنها، ترتاح وتأكّل العلف وترتوي من المشارب. الصبي يركض إلى وراء الإسطل ويرجع، يأخذ طعاماً للحوذين وكلما عاد رآته يضحك. هناك وليمة، وهنا - تحت الشجرة الضخمة التي جلست في ظلّها الأجيال جيلاً بعد جيل - وليمة. مثل كل سنة، في مثل هذا اليوم، امتلأ المكان. نوافذ القصر مغسولة تريق. الدرج يلمع وحتى الأعمدة الرخام فُركت بالعام والصابون. الأرض كُنّست حتى بان الصخر تحت التراب، وحيث تبقى وحلّ فرشوا نشارة الخشب لتلا تتسخ الأبواب الطويلة. آل كيميسن (آخر النبلاء) وصلوا أولاً. سيدتها استقبلت العائلة الصغيرة في ثوب أزرق كسماء هذا النهار. تبدل اللقنس بينما أجراس الكنائس البعيدة تتردد في الغضاء. كانت السماء رمادية وفي الهواء قرصة برد ثم هبت الريح من الجنوب، من خليج المكسيك، وها هي السماء صافية، والشمس تسطع، والنمل الطليار يطرف بين الجذوع. دلزي المشغولة مع «الخرقاء» (هكذا تسمّيها منذ طالت أطرافها) ابنة تيريزا الطباخة، بكش الذبان عن صواني الشواء، استقامت لحظة ومسحت العرق عن عينيها وتأمّلت المرأة في العربة: كانت غريبة،

لم ترّها قبل ذلك، وفي ملامحها - لكن هل تراها حقاً من هنا؟ - حزن فظيح! لعلها تنخيل، لا تقدر أن تجزم، لكنها امرأة جميلة. من هنا، مع أن المسافة طويلة، ترى عينيها. كانت تنتظرها كي تترجل من العربة لكنها ظلت جالسة تنظر من هناك إلى المائدة والضيوف. وتخيّل إلى دلزي أن نظرة الغريبة ثابتة على سيدتها أليزابيث (الضوء يخرج من حبرير ثوبها الأزرق) وعلى السيد (يرتدي بذلة بيضاء، وذراعه تحيط كنف سيدتها. وعندما يضحك يضحك معه جميع الضيوف).

دلزي متعبة من النوم القليل ومن عظامها التي تشيخ. طالما فكرت أن هذا القصر لن يبقى بعدها. منذ زمن وهو يتداعى: السيدة لا تنتبه لكنها، هي دلزي التي حملت السيدة طفلة وسُمّت والحة مربية في ثيابها، تعرف. هذه الحيطان الواقعة ليست ذاتها حيطان الزمن القديم. كان السيد الكبير عندما يقف بين الأعمدة الرخام ويطلّ على الحقول أشبه بملك منه سيد مزرعة.

مع أنه لم يبن هذا القصر. وكانت السيدة الكبيرة، قبل أن يهدّها الرومانيزم اللعين، إذا مرت هنا خارجة للزمنعة على الطريق، تمرّ مثل ملكة، وحتى الطيور في الأغصان تكفّت عن التقافز احتراماً لسלטتها. لكنه الوقت والوقت يمرّ. دلزي تعرف: هؤلاء الذين يقعدون إلى المائدة ويرفعون كؤوس النبيذ ليسوا الأوائل. قبلهم رأّت غيرهم، على هذه المقاعد ذاتها، ولعلمهم شربوا من هذه الكؤوس! تذكر السيد نستور - كانوا يسمونه «لورد نستور» وكان يعرف لغات كثيرة بينها اليونانية واللاتينية - بشعره الأبيض كالثلج ومعافنه الطويلة الجوخ، وكيف يتشرب وجهه بالحمرة في نهاية الوليمة، لكنه يظلّ مع

ذلك ثابت الجنان، لا تزوغ نظرتّه، ولا يفرّغ كالرعاع بالضحك. كان يأمر بصوت خفيض فتتحرك كواكب السماء تبعاً لإشارته. كيف مرّ الزمن على هذا القصر؟ وكيف لا تتصدع الأعمدة وهذا «السيد» الذي لا تعلم من أين أتى ينام في فراش سيدتها كل ليلة؟ تراه قاعداً في البهلة البيضاء، والأبن يرفع وجهه وينظر - هو أيضاً - إلى العربة الغريبة التي توقفت عند السياج وظلت واقفة.

الصبي أتى راكضاً مرة أخرى من جهة الإسطبل (هناك مملكته، ورتها عن أبيه، ودلزي ترعاه من أجل ذلك الرجل: مع أنه كان عتيقاً وفيه شرّ وامرأته ماتت باكراً وصغيرة بسبب شرّه. حتى معها - هي دلزي - كان عتيقاً. ومع ذلك أحبّه. أحبّت القوة فيه. وأحبّت لسانه. كان يعرف أن يحكي. وعندما يرسله الجنرال إلى ممفيس أو باتون الحمراء أو حتى نيو أورلينز القريبة يرجع محملاً بأطنان من الأعيان العجيبة... العالم واسع وهي عاشت الحياة كلها بين هذا السياج وهذه الحقول).

كان الصبي يحمل صواني فارغة ودلزي كلّمته بنظرة من دون أن تفتح فمها وهو استدار ونظر إلى العربة الواقعة عند السياج. بينما يذهب باتجاه العربة نادته دلزي: «هات هذه». أخذت منه الصواني فلذهب واسع الخطى فارغ اليدين وهو يكاد يقف على رؤوس أصابعه كي يبدو أطول. رأى الحوذني العجوز ينظر إليه لكنه لم يهتم وسدّد نظرتّه إلى المرأة القاعدة في الخلف على المقعد الجلد الأحمر. لون الجلد تسرب إلى رقبته. كان جمالها لا يُصدّق! ولكن أصعب من ذلك: من جسمها خرجت موجة سوداء قاتلة. أين كانت تنظر؟ التفّت الصبي وطارد نظرتها حتى بلغ رأس السهم سيده. جنب السيد كانت السيدة أليزابيث، في ثوبها الأزرق، تتكلم غير متنبهة. لكن الصبي اتبه: كان السيد مفتوح الفم، ينظر.

## الوجه

نظرت إليه في البذلة البيضاء. مع أنها لم تَرَه أبداً في مثل هذه الثياب عرفته من النظرة الأولى. كيف لا تعرفه؟ إذا أغمضت عينها لا ترى إلا وجهه. هذا خليل، زوجها، كيف لا تعرفه؟ عندما رفع رأسه، عندما نظر إليها وهي تراه بعد هذه السنوات الطويلة (تراه أخيراً، أخيراً تراه) هل تعرف عليها - هو أيضاً - من النظرة الأولى؟ هل عرفها وهي هناك، على المقعد الخشب المغطى بالجلد الأحمر، والعربة تهتز قليلاً، بينما الأحصنة تهمهم وتتحرك قليلاً إلى خلف ثم إلى أمام مرة أخرى؟

أستطيع أن أراه حليق الذقن مفتوح الفم ويده على الكأس على المائدة. لن يرفع هذه الكأس إلى فمه. ينظر ولا يفهم. كيف وصلت زوجته - مرنا - إلى هنا؟ بينهما محيط وبحر وأراضي شاسعة. كيف وصلت إلى هذه النقطة؟ هل هي حقيقية؟ هل يتخيل أنه يراها؟ أأنكون امرأة أخرى تُحَدِّق إليه هكذا من تلك العربة؟ لكنها مرنا! كان الحودزي يرفع سوطه عندئذٍ وسمع السوط يقطع الهواء ثم تحركت العربة.

كانت هي. وأنه وعرفته. وهو أيضاً - خليل (جو) حدّاد - رآها وعرفها. لم يبق من مقعده. وهي لم تترجل من العربة. بعد ذلك فرقع السوط في الهواء والأحصنة تحركت والعربة دارت نصف دورة

وذعبت عائدة باتجاه نيواورلينز. الضيوف ماذا لاحظوا؟ السيدات في الأتواب الزرقاء والصفراء والبيضاء، بالرباط القطن والحرير على الرؤوس، بالدانتيل الناعمة والكشاكش الواسعة خياطة اليد، بالرباطات على الشعر، بالجوارب القطن الطويلة والسكرينات التي تشبه التحف، السيدات السعيدات بهذه الشمس وبهذه الصبغة وبهذه المائدة العامرة وبهذا النبيذ المعثّق في الكهف (وبعد قليل تأتي الحلوى: تيريزا مشهورة بغطاثرها)، السيدات ماذا لاحظن؟ والرجال، في بذلاتهم المكونية وياقات القمصان المنشأة وسوالفهم الطويلة المشمطة، ماذا لاحظوا؟ تغيّر وجه الرجل الذي يُعرف باسم جو، كأنه طرح وجهاً على الأرض والآن يلبس وجهاً آخر! ماذا حدث؟

كانت العربة تتعد على طريق كلاريندون. لم يرتفع من وراء العجلات غبار أحمر. الطريق ما زالت رطبة. ربما بعد أيام، إذا ظلت هذه الشمس الصفراء ساطعة، يتصاعد هنا غبار أحمر.

أستطيع أن أرى الطريق، حمراء ورطبة وتمتد كنهر بين حقول مخضرة. مرنا ماذا رأيت وهي عائدة إلى نيواورلينز، وهي تدخل محطة السكك الحديدية مرة أخرى، وهي تحاول أن تفتح فمها، أن تحرك عضلة لسانها في دوامة الزجاج والحديد، وأن تنطق أمام شباك التذاكر كلمات مفهومة... مرنا ماذا رأيت وهي تتركب القطار مرة أخرى؟ (وقبل ذلك وهي قاعدة بانتظار القطار، كم بقيت قاعدة في ذلك المكان، تنظر إلى ناس يذهبون ويأتون، ناس بوجوه وناس بلا وجوه، ناس يضحكون وناس لا يضحكون، ماذا رأيت وهي قاعدة ساعات وساعات وساعات في محطة نيواورلينز للسكك الحديدية نهاية رحلتها الطويلة التي بدأت قبل دهر في محطة بحدون؟)

بعد سنوات طويلة، محاكاة بالأحبة في حديقة البيت في باسادينا، كانت الذاكرة المعجوز لمارتا حداد خالية - أو شبه خالية - من تفاصيل تلك الرحلة الحزينة إلى نيويورك. لكن هذا محبوب في المستقبل البعيد. أما الآن - بينما القطار يتوغل في الظلام - فإن المرأة (التي يتراخي كيس الجنيفيس عند قدميها مثل كلية ميتة أو مريضة) هي أتعس المخلوقات قاطبة: إنها تقطع أسوأ ساعة في حياتها من دون أن يُعدها أحدٌ لقسوة هذه الساعة اللانهائية. (من يُعدّ تَرْ؟). ومن دون أن يكون لها سنَدٌ في العالم... حتى لو في الخيال. كانت وحدها، في أرض غريبة في عالم غريب، مقطوعة من شجرة، بلا أهل، ومنذ هذه الساعة: بلا زوج. سقط الرجل خارج حدود عالمها. تحطم وجهه ككloch زجاج بينما يقعد هناك في بثلثة الناصعة البياض وينظر إليها ولا يتحرك.

نزلت من القطار في محطة فيلادلفيا - بنسلفانيا ومضت في خط مستقيم إلى شباك التذاكر. الرجل سألها إلى أين تريد الذهاب؟ أرادت أن تتكلم، أن تقول ماذا؟ نيويورك؟ أو شكت أن تقول «بناتر»!

لم تقل شيئاً. اعتذرت واستدارت وخرجت من مبنى المحطة إلى الشارع. قبالتها تماماً رأت صفّاً من المتاجر وعجوزاً يفرش الأرض ويدخن سيجارة. مشت بلا وجهة تحت سماء بيضاء حتى بلغت عربة «هوت دوغز». كانت بلا قوة. ومع ذلك وجدت الستات

ماذا رأت عندما اقترب منها رجلٌ تلو آخر كي يساعدها على حمل الكيس (هل بدا الكيس ثقيلاً لهم؟ هل كانت تتعثر في خطواتها؟) وهي تشيح بوجهها، تطلب أن تُترك وحدها، تطلب ألا تلمسها يد إنسان.. ماذا رأت بينما البيوت تعبر متباعدة خارج النافذة والأشجار تعبر والحياة القاتلة تعبر والسماء تعبر والشمس الصفراء هي ذاتها تحرق الحقول... هل رأت شمس الصباح الصفراء تتحول ببطء عند الظهيرة ثم يرتقالية ساعة الغروب؟ لم تَرِ إلا الأشعة التي تقع على الأرض، بلا لون، لعلها أشعة سوداء، من يرى الأشعة؟ لم تكن ترى شيئاً. كانت ترتعد في كتزتها الصفوف ولو استطاعت كانت تصيح. أرادت أن تصيح. لو كانت وحدها في مكان بعيد! لكنها هنا، في قطار كثير الركاب والضجيج. كان جسمها يرتعد في كتزتها الصفوف. مع أن الشمس حارة على النافذة، وإذا رفعت يدها - لكنها لن ترفع يدها - ولمست الزجاج تدخل إلى أصابعها ذرات السخونة. أي سخونة تدخل إلى مرنا الآن؟ كان المكان مملوفاً بضوء الشمس. سحبت الستارة فسادت عتمة خفيفة. ثم مضى الوقت وحلّ الليل وأضيت المصابيح. رجل في ثياب صفراء اللون وقف ينظر إليها ثم ابتعد. أراد أن يقترب لكنه بعد ذلك غيّر رأيه وابتعد. هل كانت تراهم وهم يتوقفون ويفكرون في الاقتراب ثم يدهبون بخطى مترددة؟ كيف تراهم؟ إذا أغمضت عينيها لا ترى إلا ذلك الوجه، وجهه، فوق البذلة البيضاء، تحت تلك الشجرة، وجنبه المرأة بالفيستان الأزرق. حتى المرأة لا ترى وجهها، لا تهمها الآن، لا تفكر فيها. لكن خليل! وجه خليل! زوجها خليل! رفع وجهه ونظر إليها ولم يتحرك!

يد - لم تَرِ صاحب اليد - امتدت وجذبت الستارة. في الخارج ظهر الظلام يترامى إلى ما لا نهاية. رأت وجهاً منعكساً في الزجاج. كان أصفر، محطماً.

## الجزء الثاني

في ثيابها ودفعت ثمن السندويشة. جلست على حافة الرصيف وأكلت ما دفعت ثمنه. مرت امرأة وسألته لماذا تبكي على الطريق هكذا؟ كلّمته من دون أن تتوقف، ومن دون أن تلتفت - وهي تتابع سيرها - أمرتها أن تذهب إلى بيتها.

مرتا نهضت ومشت في الاتجاه المعاكس. انطلق بوقٌ فظيع في رأسها ومالت في اللحظة الأخيرة وقفزت بعيداً من طريق عرية هانجة الأحصنة. رأت سيارة فورد بلا سقف، بيضاء المقاعد، ورأت رجلاً يشير إليها من وراء المقود. ابتعدت وهي تحضن كيسها وقطعت أكثر من تقاطع طرق، باحثة من دون انتباه عن مكان بلا ضجة. عندما لاح لها البرج الحجري العالي لإحدى الكنائس أسرعت صوبه. كانت البوابة الكبرى مقفلة. وجدت باباً آخر صغيراً في الخلف ودخلت. هنا مانت الضجة. جلست على مقعد خشب يفوح برائحة الصمغ والعرق والبخور. فتحت كيس الجنيفيس وتلمست قعره. كانت تبحث عن مسبحة أمها وعبثت أصابعها بكيس «الزهورات» فضاع منها آخر أثر من قوة. لم تستخرج المسبحة. تركت الكيس على الأرض. استلقت على جنبها، على المقعد الطويل البارد، وتركت النوم يأخذها إلى مملكة الرب غير المرئية. كان ذلك في 7 نيسان (أبريل) 1914.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^



## رسالة وجواب

مرّت أربع سنوات حدثت فيها أشياء كثيرة. وطوال هذه الفترة لم ترّ مرثا زوجها مرة أخرى. مع أنه حاول أن يراها في أكثر من مناسبة وأرسل وسطاء. أحد هؤلاء كان شريكها من نيويورك جوزف أسطفان: أتى يزورها أثناء غريف 1917 فوجدها حيث قصدتها: كانت تبيع منذ فترة حرائر وألبسة ومطرزات في متجر يملكه الأرمني السوري غريغور سكياس وسط «ماين ستريت» في فيلادلفيا. أشرق وجهها حين رآته يدخل. أوكلت أمر المتجر إلى الفتاة التي تساعدها واصطحبته إلى مطعم مجاور. كانت حرّة الحركة، متأنقة بلا تكلف، أميركية المظهر الآن، وصعب على واحد لم يعرفها في فترة نيويورك أن يتخيل أنها طارئة على أميركا. لم تعد تلبس كترة طويلة صوفاً. ولا تتعل مداماً مصنوعاً من السخيان (جلد الماعز المدبوخ). تخلّت عن التنورة السورية الطويلة إلى الأرض. ونزعت المنديل الضنا الذي يستر شعر الرأس. كل ملابسها توحي أنها ترعرعت هنا. حلق الأذنين وساعة المعصم. البلوزة الخفيفة والبرنيطة الناعمة. التنورة القطن الفاتحة اللون والزنار الجلد العريض يحزم الخصر ويظهر قوامها. الجوارب اللطيفة والسكرينة البيضاء.

بينما تدفع باب المطعم الزجاج وتدخل جذلة الخطوة، أحسّ جوزف أسطفان بالعيون الكثيرة مسلطة عليهما، فاحمرّ وجهه. حتى

في الشارع كانت الرقاب تستدير ويرى النظرات تطاردعا. شعر بالخوف عليها وتذكر أحاديث دارت بينهما.

سَمَّيْتِه «شريكها من نيويورك» لأنه بدأ من غريف 1915 صار يُرسل إليها بالقطار بضاعة تتولى بيعها بالمفرق إلى كشاشين وكشاشات يقصدونها في متجر الأرمني سكباس. التاجر السنيي - الذي يراها هدية من السماء - لم يمانع. ثم أن حصّة من الأرباح تصل إليه بطريقة غير مباشرة: تدفع له مبلغاً بمثابة إيجار مقابل استخدام المستودع التابع لمتجره.

سألت جوزف عن العائلة فتكلم عن الصغيرة وكيف أنها تولعت أخيراً بقطف الزهور من الحقول والحدائق... أينما ذهبت مع أمها أو أخوانها تغلت كالخروف وتركض إلى حيث الأعشاب. ضحك فسمعت في ضحكته توتراً وقيل أن يتكلم عرفت أنه سيخبرها شيئاً جديداً عن مارون. كانت النادلة واقفة تنتظر وقالت مرثا «سأطلب أنا لك» وطلبت. النادلة التي تعرف مرثا ذهبت إلى المطبخ وجوزف قال: «تطزّع للخدمة العسكرية\*» عندي ابن مجنون.

- سيأخذونه إلى أوروبا؟

بدت مرثا غائفة خوف الأم. وهو فتح يديه على الطاولة وقال لا أعرف، لكن لا أظن، سلتحق أولاً بمخيم تدريب، لكن...

سكت ولم يكمل جملة.. كانا يتكلمان بالإنكليزية والعربية معاً حتى تلك اللحظة. ومنذئذ وحتى نهاية الزيارة انتقلا عفواً إلى العربية. سأله هل تستطيع هي المساعدة؟ كانت تذكر السنة الماضية،

\* أعلنت أميركا الحرب على ألمانيا في 6 نيسان (أبريل) 1917.

عندما جاء مارون يزورها مع أحد أصدقائه. لم يأت فارغ اليدين: حمل معه صندوقاً مملوفاً بالقماش وعلبة حلوى: بقلادة عربية «أصابع» معمولة في الحي السوري - نيويورك.

جوزف أسطفان قال إنه لا يعرف ماذا يلعب في رأس هذا الولد، لا يعرف ماذا يفكر، لا يعرف حتى هل يفكر... «أخوت».

الكلمة «أخوت» خرجت كالتهيدة، لم تكن شتمة. سمعت مرثا اليأس اللانهائي.

- أمه تبكي لكن هل يهتم؟ أخته تبكي، هل يهتم؟ لا يهتم لأحد. أسأله لماذا يريد أن يذهب إلى الحرب واسمعي جوابه.

- ماذا يقول؟

- من يعرف ماذا يقول؟ قلتُ لك، لا أعرف.

سأته متى تبدأ خدمته، متى يلتحق بالمعسكر، وأين هو الآن، في البيت؟

جوزف أسطفان قال إنه ما زال ينام في البيت وعلى الأرجح سيبقى كذلك حتى نهاية الشهر ثم...

مرثا قالت أستطيع أن أذهب إلى نيويورك، لن نخسر شيئاً، عندما أتى إلى هنا وتكلمنا أصفى إليّ.

- لن يتفع. سجّل اسمه وعمل أوراقه. الأمر انتهى.

جاءت النادلة ووضعت الطبقين. رائحة اللحم المغلي والبطاطا المغلية ملأت الجو. جوزف أسطفان نظر إلى الصحن، إلى طعامه، وتنهذ. بعد ذلك تكلم عن ناس من يوتاه التقاهم في القطار.

مرثا قالت إنها تحبّ هذا المطعم ودلّته بإصبعها إلى الفونوغراف بالبوق البنيّ في الزاوية.

ماذا، سألتها.

دلتته إلى الغطاء «التركيبو» على الفونوغراف وقالت «هذا من شغلنا». هو ابتسم وهي راقبته يأكل بلا نفس، لتلا تحزن. لاحظت التراجع عند طرف عينه. رأسه أيضاً خفقه الشيب في زمن قصير.

رافقته إلى محطة السكك. في دوامة الحديد والزجاج، وقبل أن يصعد إلى القطار، أعلمها أن جو (خليل) عاد إلى نيويورك وأنه يسأل عنها ويريد أن يراها.

نظرت إلى الأرض وقتاً يختصر سنوات، ثم رفعت وجهها. خرج صوتها حازماً: «قل له: مرنا لا تريد أن تراك».

- 44 -

## ما جرى

كيف تغيرت مرنا حداد في أربع سنوات، وهل تغيرت؟ هل نستطيع أن نشير بالإصبع إلى محطات (حوادث) في حياتنا غيرت من نكون أو عدلت في شخصيتنا أو نقلتنا من مرحلة إلى أخرى؟ عندما نجلس في نهاية حقبة ونحاول أن نتذكر ونتأمل ونحلل هل نصل إلى خلاصات حقيقية أم «نتوهم» أننا وصلنا إلى خلاصات؟ هل نعرف حياتنا؟ المعرفة ممكنة؟ الحياة تمر بسرعة والفهم يأتي على مهل. قبل ذلك، قبل التأمل، علينا أن نحكي بعض ما جرى.

في البداية اشتغلت مرنا - كسوريات كثيرات قبلها - «كشاشة». لم تحمل صندوقاً ثقيلًا على ظهرها، حملت «الجزدان»: هذه حقيبة كالسلة ثعلًا حريراً ومقصات وأمشاطاً وكل ما يُباع لربيات البيوت. فيها أيضاً جيوب - بدل الجوارير في «الكششة» - تتسع للأزرار والدبابيس (Pins) ومشكات الشعر (Hair Pins) والدبوس بكلمة (Safety Pins) ودبوس الصدر أو البروشات (Brochette) ومغلفات الإبر. (في قصص Grimm's الخرافية التي جمعها الأخوان غريم من أرياف ألمانيا في القرن التاسع عشر يتكرر ظهور البائعة العجوز التي

• التسمية الشائعة له: «جزدان الحرير». أورد ميخائيل أسعد رسم «زجيلة» عن محتويات «الجزدان» في ديوانه «الغريب في الغرب» (نُصح سنة 1895 في المطبعة الشرقية - نيويورك).

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^ RAYAHEEN ^

تحمل سلّة مشابهة؛ مرات تكون هذه البائعة «ساحرة» أيضاً. مرّات حداد لم تحمل في سلّتها تفاحة حمراء تقضمها بياض الثلج فتقع نائمة، ولا مشطاً مدبب الأسنان تزوعه الحساء في رأسها فتسقط أرضاً. إذا أردنا أن نرى شبيهة لمرّات في القصص الخيالية أسهل أن نتذكر «ذات الرداء الأحمر» Red Riding Hood التي يسميها الفرنسيون Chaperon Rouge فهي أيضاً حملت سلّة بينما تقطع الغابة، والذئب يرصدها من وراء الأشجار.

لكن مرّات ليست «ذات الرداء الأحمر». حين وقفت غريبة وبائسة في ذلك المساء البعيد خارج كنيسة عالية الأبراج في فيلادلفيا لا تعرف أين ستقضي الليل، هل كانت ضائعة في غابة؟ أضواء المدينة التي تشتعل مع اقتراب المساء لم تذهب بوحشتها. بل العكس: زادتها تغرباً. مشّت باتجاه محطة السكك الحديدية فلم تصل إليها. كانت الطرقات تلتف فجأة في زوايا مخادعة. وخيل إليها أن المحطة اخضت من المدينة!

المسافة من ذلك المساء البعيد إلى ظهيرة جلوسها في مطعم مع جوزف أسطفان (بأكلان Steaks & Fries ويحكي لها عن ابنه مارون «الأخوت») كيف تُقاس؟ ماذا تعني هذه الكلمة «سنوات»؟ فتحت جزداتها - هذا ليس «جزدان الحرير» الذي حملته قبل ثلاث سنوات أو أربع - وأخرجت مالا. جوزف أسطفان «الشرقي» (مع أنه وراه الأطلسي منذ زمن بعيد) مدّ يداً يغطيهما الشعر وقبض بأصابع قاسية على أصابعها: لن يقبل أن تدفع الحساب حتى لو كانت هي من دعته إلى المطعم. مرّات نظرت إليه وهي تسحب يدها صوب جسمها. جوزف أسطفان استحي فجأة: عينها الواسعان نثتا عن حزن عميق. صارغ نفسه ورده «المصاري» إلى جيبه وقال «طيب». تركها تدفع الحساب.

النادلة ابتسمت لمرّات وهي تأخذ الحساب. كلما دخلت إلى هنا تُسرّع كي تخدمها. النادلة لا تعرف كيف كانت مرّات قبل سنوات. نحن ماذا نعرف؟ أرى مرّات، في جيبتها ستنتات ودولارات تكفيها للوصول بالقطار إلى نيويورك إذا وجدت قطاراً يسافر الآن من فيلادلفيا... إذا لم تجد قطاراً قد تكفيها قروشها لقضاء ليلة في نزل وضيع ويبقى معها ثمن تذكرة تقطعها صباحاً. لكن بعد ذلك، ماذا؟ وفي نيويورك، ماذا تفعل؟ وعندما يسألونها عن نيويورك ليتها ماذا تقول؟ لكن من يسألها؟ شعرت أنها ليست هي (هذا أثر الغفوة على مقعد الكنيسة الصقيل البارد؟). شعرت أن الهواء الذي يداعب وجهها لا يشبه الهواء. نظرت إلى مصابيح تضاء في نوافذ بيوت تعلو متاجر واحتارت أين هي واقفة: «أين أنا؟» لعلها سألت نفسها أيضاً بينما المساء ينتشر في دروب المدينة الغريبة: «من أكون؟».

لكنها على الأرجح لم تسأل نفسها شيئاً. ابنة بتاتر التي لم تتجاوز 19 ربيعاً وقفت ضائعة على تقاطع طرق في قلب فيلادلفيا المزدهمة بمليون ونصف مليون نسمة. هدرت القطارات في مكان ما وكان عليها أن تتبع الصوت والصدى إذا أرادت الوصول إلى المحطة. لكنها لم تفعل ذلك. لم تكن واقفة ماذا تريد. هل كانت تريد شيئاً؟ لعلها تمنّت أن تتبخر في الهواء. كانت تنظر إلى فتيات يأكلن الآيس كريم على الرصيف المقابل وينظرن إليها. كنّ جميلات الثياب، وعندما سمعت ضحكتهن استدارت ومضت مبتعدة.

اعترض طريقها شابان خرجا من ظلال زقاق وصلّت الظلمة إليه قبل أن تصل إلى الشارع. سألتها أحدهما ماذا تحب؟ لم تفهم ماذا يعني. رأت في الوجوهين شرّاً وخافت. في البداية لم تنتبه ثم انتبهت. تراجعت واستدارت لكنها لم تركض. عندما شدّ أحدهما

الكيس من يدها صرخت. بلا انثناء صرخت. في اللحظة ذاتها رأت شرطياً على حصان يلتفت ويصيح ويتحرك. عندما اقترب رأت أنه يضحك. وراء ظهرها سمعت ضحكاً أيضاً. الشابان بادلا الشرطي كلاماً ثم ابتعدا. ظلت تسمع ضحكاتهما حتى غابا عنها. الشرطي سألها هل تبحث عن مكان للنوم ثم دلها إلى نزل مجاور. شكرته ومشت. في ذلك النزل التقت «كشاشة» سورية.

- 45 -

## ما جرى (2)

وديعة صليبي من راشيا فتحت على الفرشة صرة الزيادة وأطعمت مرتا حداد معها خبزاً وجبناً وبصلأ. أخبرتها أن معظم السوريين الذين يعبرون فيلادلفيا ينزلون هنا لكنها مع هذا لا تلتفتي بهم إلا قليلاً. مرتا حداد أصفت إليها وهي تتأمل أصابعها المملوءة نديبات تكسر خبزاً وتجمع فئات الجبن الأبيض. بينما «الكشاشة» تحكي خفتت ضجة المدينة. خارج النافذة المستطيلة انتشرت الأضواء، حمراء وصفراء وبرتقالية. بعد وقت أخذت تتناقص - نوافذ تغمرها العتمة - وفي هذه الأثناء تضاءلت أصوات النزل (أبواب تُفتح وتُوصد، دعسات على الأدراج وفي الممر، طرطقة أباريق وأكواب، صراخ متقطع بمزيج من اللغات) حتى تلاشت. مصابيح النزل أيضاً انطفأت، ومع هذا تابعت الكشاشة ابنة راشيا الكلام. كانت مشتاقة للحكي ووجدت مرتا صاغية.

- كسرت هيدا\* الإصبع وأنا أركب القارب من شط بيروت. النوتية بلا مخ، غبطوا المركب على الصخرة وأنا وقعت. قبل ما أدعس على الباخرة راح إصبعي. رفعوني بالحبل من الشخورة إلى البابور. طوال الطريق على البحر، من بيروت إلى مرسيليا، كنت

• هذا.

أحمل هذه اليد على هذه اليد وأبكي. ثم جاء واحد يعرف بالطب العربي، حوراني، ورده إصبعي إلى مكانه. أنا سأله لماذا لم يأت قبل ذلك وهو من أول الرحلة براني أسير على ظهر الباغرة وأصبح ضحك وعمل حركات بيديه في الهواء. كانت الأوشام الزرقاء على رصغ تشبه الحيات. قال إن الطب فن الصبر. أنا يا مرتنا يا أختي أحببت هذه الجملة وسامحت: الطب فن الصبر.

الآن أقول سامحته لكن في ذلك الوقت كنت أقدر (لولا أنه شفاني) أن أضربه كفاً على أستانه. زوجي أعطاه ربع ليرة «عشلي». وأخي أعطاه نصف بطحة عرق. بقي معنا في البابور الكبير عندما قطعنا المحيط وكان بخيرنا قصصاً عجيبة. الآن لا أعرف أين أرضه، كان يقول عنده أولاد عم أبوا وإنديانا، «ساياوكس سيتي» يلقظها، ويقصد سيوكس Sioux، في ولاية أيوا.

لأنني جئت إلى أميركا صغيرة تعلمت اللغة بسرعة. أخي وزوجي ظلا وقتاً طويلاً لا يلفظان إلا كمشة كلمات بالإنكليزي، وحتى هذه يلفظانها خطأ. أخي أكبر مني بسبع سنوات، مرض ودبرنا رجوعه إلى البلاد بصعوبة. رجع إلى بيت أهلي ومات هناك ودفنوه في راشيا. زوجي الله يرحمه كان بكبرني بـ 11 سنة. عشنا في ماساتشوستس ثلاث سنوات ثم مرض بمرض أميركاني لعين وراح وتركني وحدي، أنا وابني فارس. كنت ما زلت أرضعه من صدري والآن عمره 17 سنة ويشغل مثلي على الطريق وأراه كل شهر مرة أو مرتين: تعلم مني العربية لكنه أميركي مولود في بوسطن وعنده طباعهم وإذا رآه غريبٌ معي لا يصدق أنه ابني وخرج من بطني. يحكي الإنكليزية أحسن من لينكولن. ولا يخاف إلا رته. يبيع في نورث داكوتا ومونتانا أيام الصيف. وعندما يأتي الشتاء ينزل إلى

الجنوب، إلى تكساس وكنتاس وأريزونا ونيومكسيكو. مرة علق في عاصفة ثلجية في جبال كولورادو وتجمد وجهه كله. عندما وصل إلى مزرعة وجلبوا له مياهاً ساخنة كي يفتسل عرف أنه نجا بمعجزة. غسل وجهه فوق أنفه. قطعة متجمدة من الأنف، قطعة لحم كاملة انكسرت بين أصابعه كالخوخة. الآن حين أراه أفكر أن كلباً قضم أنفه. لكنه جميل الوجه يا مرتنا. وكله نخوة. يريدني أن أقعد وأرتاح. يقول هذا أحسن لي، أن أقعد وأرتاح وأدعه يرعاني، لكنني لا أستطيع، أحب أن أعنتني بنفسي ولا أحب أن أكون عالة. حتى عليه لا أحب أن أكون عالة. مرة انزلت على الجليد وكسرت وركي ولم أعد قادرة على الخروج بالكشة والجزدان. وجدت عملاً في منشأة أخشاب، أقعد على الكرسي ويجلبون إليّ الألواح وأنا أصقلها بالفارة. لهذا ترين أصابعي هكذا كلها. أعرف، الكلّ يستغرب منظرها. بقيت في المنشأة سنة كاملة، وعندما رجعت إلى الطريق كانت أصابعي ترجف طوال الوقت. الآن أكره غسل الثياب ومرات أدفع لإحدى البنات «دايم» فتغسل ثيابي. مرة في بورتلاند - ماين هاجمني جاموس. هربت منه وقرزت ووقعت على يدي والإصبع المكسور تحرك من مكانه. اغراضي كلها وقعت على الأرض والجاموس جاء يتفخ وداسها ومزّقها وأراد أن يدمسني. لكنني تدرجرت على الشوك والثراب وهو تركني. الآن إذا اشتقت أن أكل «مجدرة» أزور إحدى النساء من البلد وأطلب منها أن تطبخ لي. أستطيع أن أطبخ بنفسي، لست مشلولة، وأصابعي ترجف إذا تعبت، لكنني أقدر أن أحمل السكين وأفتر بصلاً وأفرمه رقيقاً للنبولة. لكن المجدرة بلا طعم إذا

أكلتها وحدي، وفارس إذا جاء لا يطلبها. يحب اللحم، ويحب كاهل هذه البلاد مقلياً أو مشوياً، حتى لحم الحصان يأكله. وهو صغير كان يحب المحاشي، الآن لا يطلبها.

- 46 -

### ما جرى (3)

المرأة التي ينادونها Missus Salibi قامت في الليل إلى الحمام فتعشرت بمرتا وهي ذاهبة ثم تعشرت بها ثانية وهي راجعة. كانت تترنح كالسكرانة. بدت مسرورة. في ضوء المصابيح الغازية المنسرب من نافذة النزول انحنت على الشابة النائمة ووثبت الغطاء على كتفيها. مرنا فتحت عينها فسمعت ودبعة صليبي تقول:  
- غداً لا تذهبي إلى نيويورك. إبقى هنا.

أخذتها معها في الصباح إلى متجر الأرمني جاكوب (بعقوب) معمرباشي في «ماين ستريت». كان المتجر يلاصق صالوناً للحلاقة فتذكرت مرنا مخزن السيد هرمان في نيويورك. سألتها المستر معمرباشي، وهو رجل في أواخر الأربعين خافت الصوت حزين النظرة، لماذا تريد أن تعمل على الطريق وهي تستطيع أن تجد عملاً أفضل، هنا في متجره مثلاً؟ مرنا استحوت عندما قال ذلك لأن المرأة التي جلبتها إلى هنا وافقة جنبها تسمع.

أعطاها ديناً الجزدان وبضاعة الجزدان واتفقا أن ترجع خلال أسبوع وتدفع ما تقدر عليه... وهكذا دواليك في نهاية كل أسبوع إذا أمكن.

من أحد الجوارير أخرج قائمة مطبوعة وناولها إياها. هل كانت تعلم وهي تمد يدها وتأخذ القائمة أن هذه الورقة السمكية كالكرتون لن تبلى بين أصابعها؟ لن تبقى مرنا «كشاشة» ولن تمتن

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^ RAYAHEEN ^

بيع الجزدان» زمناً طويلاً، على الأقل ليس في تلك الفترة. ما باعته توزع على بيوت، القماش يبلى بمرور الأعوام، لا ندرى هل تحول أحد أغلبية الطاولات قميصاً بعد ذلك... ثم مسحها، أو فوطة لمسح الغبار، ثم تهلهل ونسلت منه الخيوط وتبعثر. القماش يبلى، لكن تلك القائمة المطبوعة بقيت محفوظة في البيت الكبير في باسادينا (كاليفورنيا):

يردة أطلس ديفال (غطاء طاولة كبير مذهب)	12 دولار
متل أطلس ديفال (غطاء بيانو)	10 دولار
يردة أطلس سوزني	5 دولار
يردة شاش أنواتو	50 سنت
يردة شاش سوزني	30 سنت
يردة ملس سوزني	50 سنت
مخدة أطلس ديفال	35 سنت
غطاء فرشاة غباني على حرير	10 سنت
جوكاكة قصب	90 سنت
صرامي إسلاموية للنسوان	90 سنت
غطاء فرشاة أطلس ديفال	50 سنت
مقصد أسود كبير	20 سنت
سبكتكل (عويبات مذهبة)	25 دولار
برسلات (أساور)	دولار
نكلس (عقود)	90 سنت

على الطريق إلى محطة القطارات أخبرتها وديعة صليبي أنها تستطيع أن تبيع أي غرض يضعف ثمنه أو أكثر. أحد الرجال كان

يبصق تبغاً على الرصيف عندئذٍ فبعست وديعة لحظة وأسرعت في خطوها. عندما صار الرجل خلفها ضحكك وقالت إنها في أول شغلها كانت تستحي أن تبيع البضاعة بأكثر من سعر الجملة المطبوع على القائمة وتظن ذلك حراماً.

قبل قطع التذكرة دنت من مرتا عجوزاً فخمة الشباب مقوسة الظهر تتعزز على عيدة متينة البنيان تلفت الأنظار بثوبها الحريري الأخضر. سألتها ماذا تبيع، أرادت أن تشتري منها. وديعة صليبي شدت مرتا من ذراعها وهي تلتفت بعينين زائغتين وتبحث عن شبح. عندما رأت أن المكان يخلو من الشرطة (البوليس)\* تركت مرتا تبيع العجوز نصف البضاعة في جزدانها دفعة واحدة!

كانت بداية طيبة لنهارٍ متحوس. ركبنا القطار المتجه إلى «ألتاون» فبلغنا المحطة ظهراً. حثثي كانت الرحلة جيدة. افترقتا على أن تلتقيا ساعة المساء هنا، في المحطة. ابتعدت وديعة صليبي في الشارع الطويل واختفت. مرتا لم تعرف أين تذهب. جلست على الدرج، في مدخل المحطة. العابرون يتعثرون بها. نهضت وقطعت الطريق وجلست على حافة نافذة. نصف المتاجر في هذه الجهة كان مقفلاً أو مهجوراً، لا تعلم. في الجهة الأخرى أسرع رجال ونساء على رصيف عريض وهم ذاهبون إلى أشغال أو تسلية، لا تعلم. رفعت وجهها ونظرت إلى غريبان تتراصف على سلك كهرباء. انتهت أن الغريبان أيضاً تنظر إليها. كانت حالكة السواد ولا تشبه الغريبان التي تظهر في سورية. كانت جميلة. نزل غرابٌ وتقافز على الأرض. برق لونٌ كحلي في ريش جناحه. مرّت شاحنة قطار بعيداً. أولاد

\* صدرت قوانين في بعض الولايات آنذاك تمنع البائعين الجوالين من العمل داخل المدن والبلدات بلا رخصة. كان الحل بالنسبة إلى الكشاشين أن يبعوا خارج حدود المدن والبلدات، أو من وراء ظهر الشرطة.



## رسالة من أميركا

إلى أخوتي أبناء قرنايل وعموم أهالي المنن

أسلم عليكم واحداً واحداً وأبوس وجوهكم وأتمنى أن يصلكم المکتوب وأنتم في صحة وعافية. وبعد فهذه الرسالة واجب عليّ ولو تأخرت ولكن المسافر معذور والمسافر إلى أميركا معذور مرتين فالسفر إلى إفريقيا مسألة ووصول المهاجر إلى الديار الأميركية مسألة ثانية. وإذا ظنّ واحد في كلامي مبالغة فليسكت لحظة حتى أختم الحديث. أما إذا كان عاجزاً عن السكوت فليس عليه حرج ولا مؤاخلة وليفتح فمه وليلفظ ما يريد... هذا لا يضايقني وإن فعل فأنا أتحمّل. والذين عرفوني منكم قبل سفري لا بد يتذكرون خلقي الضيق وغضبي السريع وإذا بدوت الآن حليماً لين العريكة فهذا يدلّكم على ما يعرض للإنسان في هذه الأرض وما يتعلم.

طلبت من الخواجة فياض العون على تظهير هذا الكتاب وأنا أقعد الآن في السقيفة فوق غرفته وهو يستهبها «المكتب» وأنا أستهبها «التخت». على وجهه ضحكة ومع هذا يكتب ما أقول أو على الأقل هو يحلف أنه يفعل. وراء ظهره كؤة مربعة يستطيع أحدكم أن يدخل منها لكن الخروف المسنّن في نهاية الخريف قد يعلق وهو يدخل منها. الكؤة عليها شبك مخرم يمنع دخول البرغش والبق من مكب

تراكسوا بدحرجون عجلات وكرات قش. بان كلب يقفز على ثلاث قوائم، عينه اليمنى مطفأة. جاءت امرأة في ثوب أبيض تحمل مظلة بيضاء لإتقاء الشمس، وسألتها ماذا تبيع. نظرت إلى الأغراض بلا مبالاة وذهبت من دون أن تشتري شيئاً. رجل يقوح برائحة ديس السكر وقف قبالتها وقتاً يتأملها. أحسّت بالدم يغلي في أذنيها. أعطته ظهرها كأنها تنظر إلى السيور والمزهريات في نافذة المتجر المغقل. عندما لمحت ظلّه يتعد على الحائط استدارت من جديد. الشمس تغرب، لا بد أن الساعات قد مضت. قطارات تصفر، تهدر على سكك حديد متقاطعة. عربات مثقلة بالفحم الحجري. عامل يحمل مجرفة وآخر يحمل رفشاً. وقتاً يشريان بيرة أو حليماً ثم تراجعا إلى العتمة في مدخل المحطة. هبّ الهواء ففططق خشب السقف. رأت طيوراً كبيرة تشبه الدجاج تعبر السماء البرتقالية. سمعت صيحات طويلة كالآنين وشتمّ رائحة أطعمة. أضيئت مصابيح البلدية ولم ترجع وديمة. مرنا قطعت الطريق ومشت جنب السكة الحديد، ذهاباً إياباً. قطارات تأتي، أخرى تذهب. أحياناً يمرّ زمن طويل ولا يعبر قطار. ناداها شرطي وتكلم معها. كان لطيفاً لكنها لم تفهم لماذا يتكلم معها. كان يلوك تبغاً ويبصق على الأرض فتذكرت ساعة الصباح، ووديمة جنبها تحكي عن أسعار القائمة. بعد ذلك ذهب الشرطي وظلّت وحدها. كان الليل كاملاً الآن. والهواء يبرد ويصير كالبخار والضباب تحت مصابيح المحطة.

وجدت عربة «عوت دوغز». الشاب الصغير بالشارب الخفيف فوق الشفة قال إنه يُفقل. طلبت منه سندويشة، ولو باردة. كانت جائمة. أعطاها سندويشة وهو يضحك ووجهه يتورد. سألتها أين هي ذاهبة؟ كان يُشعل كبريتة - بدا أصغر من أن يُدخن سيجارة لكن هذه أميركا - ولمع الضوء في عينيه فشعرت بقلبيها يسقط. لم ترجع وديمة صليبي.

الباتري\* وهذا اسم الحي وهو على البحر ويقع أسفل مانهاتن المشهورة. وفي المنطقة ناس من زحلة وجبالنا وأنت تعرفهم ما أن تراهم بالسحنة والعيون وحركة أهدانهم. ولا تجد بين أهل هذه البلاد من يشبهنا إلا اليهود والطلبان. اليهود أبناء عمنا أما الطلبان فتغلبهم أكل المعكرونة ونحارهم بالسكاكين فإذا غلبوا يكون حظهم في السماء أو تكون خرجنا للمراك بعد طنجرة «مخلوطة» حمص وعظم وفول وهذه تذهب بالحيل والقوة. وبعد فها إنكم قد أضحككم وأنى وقت الجد.

يا اخوتي وأصحابي إعلموا أن طرقات أميركا غير مفروشة بالذهب. وكل من اعتقد بينكم أن المال هنا لا يتطلب مشقات ومتاعب كثيرة فهو جاهل وأبوه جاهل وابنه سيكون مثله. فكل من تعود على راحة جسمه وباله في البلد لا ننصح له أن يأتي إلى هنا لأن العاقبة وخيمة والتدم لا ينفع. أعرف ناساً عضواً أصابعهم حتى ازرقّت وما نالهم من ذلك خير. وأعرف آخرين جمعوا الدولار على الدولار ولكن بمشقة تفليج الجميل. ولا أريد أن أنبئ عزيبتكم ولكن أقول إذا كان لا يد لك من المجيء إلى هنا فتعالوا وأنتم عارفون ما ينتظركم وأنا إنكم وأخوكم أرحب بكم على الدوام.

والذي يأتي منكم بعد هذه التنبهات يجد نفسه أولاً في الكرتينا فإذا أفلتوه ولم يعثروا على مرض في صدره أو بطنه أو عينيه يركب القارب الصغير من الكرتينا إلى المدينة ويكون عليه فور الوصول أن يخلع ملابسه وإلا أضحك عليه الناس. وبعد أن يلبس اللباس الأميركي يأخذ الكشة ويتغير على الطرقات ويبيع ما يقدر وله

السنن والنكل وله أن يحدق في وحول الطريق ولن يجد الذهب الذي حكوا عنه. لكن الصبر مفتاح الفرج أو هكذا يقول الواحد منا لصاحبه وهو سهران أمام النار في البرية يسمع زقزقة عصافير بطنه، والبرد يلسع رقبته ككف جدتي وأنا صغير عندما تكبسي أسطو على «الصبير» في البستان. والطقس هنا يُدعى «وُذرة» كذا الشتاء «ونتر» والصيف «سمر». وأول ما نتعلمه من لغة البلاد «باي سمتم مام»\* ومعناها «إشترى شيئاً يا سيدة» فنحن هنا نبيع للنسوان وأما الرجال ففي المناجم أو المتاجر أو المعامل أو محطات القطارات. ولن تجد واحداً منا ينزل مثلهم للعمل باستخراج الفحم أو الحديد والنحاس من تحت الأرض. والحقّ أنهم هم أيضاً لا يُقبلون على شغل المناجم إنما يتروكون ذلك للإيرش والصينييين والروس والمجر و«البولش» والجرمان.

وحول هذه المناجم تنمو بلدات أكبر من مدن سورية ونحن نبيع قماشاً وملابس كثيرة وتعطينا شركة المنجم طعاماً من مطابخها مقابل حسم على السعر، ومرات ننام في مساكن العمال، لكن لا يظن أحدكم أن هذه مثل الكهوف التي نسمّيها مناجم في قرنايل وأرصون وصاليماء فهذه المناجم أكبر من البلدات والمدن. وتمتد في بطن التراب مسافة أميال وتوجد فيها مصابيح غاز وسكك حديد للعربات مثل سكك القطار الموجودة فوق الأرض. وهنا صينيون كثير وكلهم صفر كالقططين والشمام ويحترفون غسل الثياب عُرفوا بهذه الحرفة وهم أكثر من النمل، والأهالي والعمال عموماً يخضونهم لأنهم يشتغلون بأبخس الأجور ويقنعون بأقل الكسب ولولا يد

الحكومة لثار الناس ضددهم وطردوهم من كل البلاد. وأنا الآن أشتم راتحة مُخدرة تدخل من كوة الخواجة فياض وهذا دخان الأفيون يخرج من شبايك الحي الصيني في الجوار.

ويعد فقد مات كثير من المهاجرين السوريين في هذه البلاد وبعضهم مكث مدة طويلة وحين أراد المفارقة وصعد إلى الباخرة مات. ويُظن أن السبب تأثير الطقس ومتاعب هذه الحياة فلحظة الحر شديد ولحظة الطقس جليد ولا تعلمون كيف تتجمد هنا البحيرات والشلالات والأنهار وحتى الشوارب تصير كالزجاج وتتكسر والشرف يضيع من غير انتباه. ولا أحد يعلم كم واحداً مات قسى هنا بالمرض أو بالقتل عمداً أو صدفة تحت القطار أو الجياد وما إلى ذلك من الدواهي التي لا يتخيلها النائم في ظل سندبانة عين تراز. والذين ضاعوا في المجاهل كثير، عدا الذين افترنوا بسيدات أميركيات، وأقول هنا - وأقطع قطعاً - أنني لا أظن من المناسب لنا الزواج بأجنبيات، أولاً لتباين العوائد، ثانياً لأنه يصعب على السوري أن يكون تحت أمر زوجته، وثالثاً «زوان بلدك ولا قمح الغريب». ومع أن الذين تزوجوا بأميركيات يظهر أنهم عاشون مع زوجاتهم بوفائي، ومع أن عدد الذين طلفتهم نساؤهم قليل، فالذي مثلي ينتظر بفارغ الصبر ساعة رجوعه إلى الجبل الحبيب كي يذهب ويطلب يد بنت الحلال.

وددت أن أنهي هذا الكتاب بأخبارٍ طيبة خصوصاً للأقارب الأحبة آل هلال وآل معضاد لكن لا شيء من ذلك يخطر على بالي الآن وفي المقابل أفكر في حوادث مكثرة رأيتها فذات يوم قبل جمعيتين فقط مرت عجلة الترام في الشارع الرابع في هذه المدينة على ولد عمره خمس سنوات فقطعت يديه فأغمي على والدته المسكينة

وحمل والده المسكين يدي ولده بيديه وأخذ يرقص بها كمن أصابه جنون بمحضر ألوف من الناس حتى أبكاهم جميعاً وأنا بينهم. ثم عمد إلى تسلق العربة ليتنقم من المدير قفصه رجال البوليس ثم دفعت له الشركة خمسة آلاف ريال تعويضاً. وهنا ترى كثيراً من مقطوعي الأرجل بسبب الفطارات والكارات (Cars) والله الواقعي. ودمتم.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^ RAYAHEEN ^

## الليل في المحطة

يصيبك الرشح وأنت تنظر إلى مرثا قاعدة في الليل قبالة سكة الحديد. الصيف بدأ في الجنوب لكن الشتاء يجرجر أذياله هنا. مياه مصقعة تملاً تجاويف دماغك بينما مرثا تلف ذراعها على جسمها. أظنها وزن 49 أو 50 كيلوغراماً. تشكو من فقر الدم على الأرجح. المحطة أقفرت أو تكاد. ثمة غرفة تشبه صندوقاً خشبياً مكعباً وأمام الغرفة إشارة حمراء: هذا عمود المحطة. من مدخنة أعلى الصندوق يتصاعد دخان. نوافذ البيوت - على طول الشارع الذي يقسم البلدة نصفين - مضاءة. لا أعرف إسم هذه المحطة ولا إسم البلدة التي نبتت كبلدات أخرى كثيرة على حافة السكة الحديد. السكة كالنهر تجلب ناساً وحياة إلى أماكن قسية. بين فيلادلفيا وأنتاون، في نقطة ما وسط حقول الذرة المملوءة بالخيرير ونقيق الضفادع، تقعد ابنة بتاتر على حجر وتنتظر ابنة راشيا التي جلبتها إلى هذا المكان كي تبقي مثلها - من جزدان - قماشاً.

لماذا لم ترجع المرأة كما وعدت؟ لعل الشمس غربت عليها وهي في بلدة مجاورة... هناك، وراء ظلمة السهل والحقول، تبين بلدة مضيبة بأضواء منتشرة كقوس، تملو وتهبط. لماذا ترتفع الأضواء هكذا وتهبط؟ بسبب المسافة؟ بسبب الرطوبة؟ مرثا تشعر بالبرد. الهواء يبل شعرها. تصفي في الليل عندما تسمع دعسات: يخيل إليها

أن وديعة قد تظهر في أي لحظة من أعماق الظلمة. مرثا عربية تفرقع. ثم عربية أخرى. لعل وديعة تجيء في إحدى هذه العربات. نبتت كلاب في مكان غير بعيد وأجابها نباح من وراء السكة، من أعماق الحقول المتشحة بالعموض وما يشبه ضباباً أبيض. أضواء البلدة انطلقت واحداً بعد آخر. الناس يخلدون إلى النوم.

ليست أمها وليست أختها فلماذا تنتظرها؟ لكن ماذا تفعل؟ أفدر أن أراها ماشية ذهاباً إياباً جنب السكة. هل تشعر بعد وقت بالنعاس؟ تستطيع أن تفرق باباً - أي باب - وأن تسأل عن غرفة للنوم في الجوار؟ ربما تستقبلها عائلة مكونة من أب وأم وأربعة أطفال، عائلة ألمانية تسكن هنا، الأب عنده متجر في طرف البلدة، الأم ربة بيت تخبز خبزاً وحلوى وتغلي على النار حليباً وتعمل جبناً. الأولاد يتحلقون حولها، البنات الصغيرة شعرها أصفر بريطة فراشة حمراء، ناعسة شبه نائمة إلى المائدة. الرجل قال لها «أدخلي». قبل ذلك نظر إلى زوجته والطفلة الطيبة جلبت كرسياً كي تجلس مرثا إلى الطاولة. ناولوها خبزاً طازجاً وصحناً فيه شوربة. أحد الأولاد سألها من أين هي؟ قالت «من سورية». سألها: «هذه في الهند؟» قالت «لا، في تركيا». بعد الطعام سألتها المرأة هل تحب أميركا أم تنوي الرجوع إلى بلدنا؟

الرجل كان يدخن سيجارة عندئذ ويطلق من النافذة على طريق البلدة. الكلاب تتحرك حيث برمبل النفايات. في السماء تتباعد الغيوم ويطلق هلالٌ أصفر. إذا عبر القطار في نصف الليل تهتز النوافذ ومرات تستيقظ جميع حيوانات البلدة دفعة واحدة. .. أعطوا مرثا

بطانية. قالت «معي بطانية» وأخرجت الغطاء من قمر الجزدان. كيس الجنيص تركته أمانة عند المستر معمرباشي في فيلادلفيا. لم تَبَيَّ معها إلا ورقة إليس أبلاند.

لكن هذا كلُّه غير حقيقي ولم يحدث. لم تترك مرتا مكانها جنب السكة. اتفقت مع ودبعة على اللقاء هنا وتخشى إذا فارتت الموقع أن تأتي المسكينة ولا تعثر عليها. قضت الليل جالسة على الحجر. وعندما ترى قطاراً يقترب من بعيد تنهض وتقف على تلة قريبة وتتنظر إليه بعبر. بين قطارين مرَّ رجل يحمل أغراضاً في يديه، متمجج الخطى، يبدو مهموماً. ألقت عليه تحية المساء فالتفت ورمقها بنظرة غامضة من طرف عينه. هرَّ رأسه كأنه يصرفها عنه ولم يتوقف. تركها واقفة في الظلام ونادمة لأنها ألقت عليه التحية.

عجوز أحمر الوجه أطلَّ رافعاً مصباحاً من نافذة بدرقة واحدة في العلية الخشب وسألها ماذا تريد؟ قالت إنها تنتظر صديقتها. سألها هل هي بردانة؟ قالت أنا بخير. قالت شكراً لك. أشاح بيده كأنه يطرد حشرة غير مرئية ثم اختفى داخل العلية مرة أخرى.

الإشارة الحمراء توجَّ ونقيق الصفادع لا يتوقف. رأت حركة في الظلام وظنَّت أنها ودبعة. كانت امرأة فعلاً لكنها مقوسة الظهر وتجرَّ خلفها بحبل قصير بقرة بيضاء الوجه ضخمة الجثة: أكبر بقرة رأتها مرتا في حياتها. نظرت إلى مرتا وبدت قصيرة النظر غير قادرة أن تميزها. مرتا شعرت أن المرأة تنظر عبرها، كأن النظرة تخترق مادة العظم واللحم المجموعة في جوف الكنزة. لم تكن إلا نظرة واحدة ثم تابعت المرأة طريقها. البقرة لم تستدر برأسها: لعلها تتحرك وهي نائمة. لم ترَّ مرتا عين البقرة. لعلها كانت مغمضة.

كانت تعبانة وذقنها يقع على صدرها وهي جالسة، عندما عبر

قطار الفجر السريع وهرَّ المحطة. ضغط الهواء دفعها إلى خلف ففقدت توازنها ووقعت على جنبها. بعد ذلك قامت ومشت على طول الشارع حتى نهاية البلدة. سمعت أصواتاً من داخل بيوت. ناس يستيقظون للتو، نوافذ تضاء الآن بعد ليلة طويلة. رجعت على طول الشارع الخالي ورأت مخبزاً يفتح أبوابه وشمت رائحة خميرة.

## ناس الطريق

كانت جديدة على المهنة ولا تعلم أن ناس الطريق لا تربطهم مواقيت ولا ساعة. مستر معمرباشي طمانها عندما وقفت أمامه في المتجر في فيلادلفيا: أخرج من جاوروه دفترأ شخصأ وفتحه على الصفحات الأولى وقال أنظري، هذا الرجل اشترى مني بضاعة بثلاثين دولارأ في 3 آذار (مارس) 1907، ليس اشترى، أخذ مني دينأ (credit) . . . قال سيرد المبلغ كاملاً في نهاية فصل الربيع. بعد ذلك، أنظري هنا، في 29 آذار، صحيح، الشهر ذاته، عاد وأخذ بضاعة بسبعين دولارأ، من دون أن يدفع شيئأ. وأعطيته . . . لماذا أعطيته؟ قال عنده مصاريف، ماذا أقول له؟ إذا لم تعامل معه يذهب إلى غيري، في هذا الشارع فقط أربعة متاجر تبيع للسوريين . . . أنظري، رجع في نيسان مرتين، دفع مرة واحدة، ثم في أيار، أخذ بضاعة بضعف ما دفعه قبل ذلك، ثم في حزيران، أنظري هذه أكبر دفعة، بضاعة بـ 325 دولارأ، أخذ صناديق، حملها في عربة بحصان، من الربيع إلى الصيف وهو يقول مصاريف واشترى عربة ويغلا، أنا أجادله وهو يقول «في آخر الصيف». حملت البضاعة، إذا قلت لك إنني ساعدته بالتمويل صدقيني، لست حمارأ لكن ماذا أفعل؟ الزبون ملك والكشاش ملك أيضاً. أعطيته وذهب وانتظرته ذلك الصيف ولم يأت. والصيف الذي بعده ولم يأت. صرت أقول

للآخرين هذا صاحبكم فلان الفلاني أبن هو ولماذا لا نرى وجهه؟ سمعت أنه في إنديانا، بعد ذلك أنه في مينيوتا. أنظري، هنا (قلب مستر معمرباشي صفحات الدفتر حتى بلغ الصفحة التي يبحث عنها)، في 1912، كم سنة تأخر حتى يرجع؟ وردة لي من كل ما أخذه مئة دولار فقط، وقبل أن يخرج ماذا قال لي؟ «إنظرنني حتى نهاية السنة». ذهب ولم يرجع. أعبروني أنه يتاجر في فالون - نيفادا\*. ماذا أوصله إلى تلك الصحراء المقطوعة، لا أدري!

بينما يحكي زال عنها الهم. لم تعد مشغولة اليال على المرأة. بعد ليلة المحطة المرهقة قرعت أبواباً في الجوار ودخلت بيتوأ وباعت بضاعة. كانت تبيع واقفة في الأبواب أيضاً وعينها على الطريق. قضت النهار تبيع وهي ترجع بين فينة وأخرى إلى مدخل المحطة. قبل أن تبدأ البيع دخلت ذلك المخبز الذي تفوح منه رائحة العجين والكمك والخميرة. اشترت خبزأ وأكلت. ثم اشترت جنبأ عندما فتحت المحلات، وصنعت سندوشات تكفيها النهار، وبدأت العمل. كان هذا نهارها الأول. وتمت أن ترى المرأة إينة راشيا في نهاية النهار، ساعة الغروب الأحمر، عاتلة هي أيضاً وقد باعت كل بضاعتها. حلل المساء ولم ترجع وديعة صليبي. أكلت مرنا السندوشة الأخيرة وأحصت ما جتته وابتسمت. هل ابتسمت حقأ؟ هل رأها ولد (يحمل كيسأ مملوءأ بالفواكه ويمر من هناك) تحسب أرباح النهار وتبسم؟ عندما قطعت تذكرة عاتلة إلى فيلادلفيا كي تملأ الجوزدان من جديد لم تكن تعلم أنها منذ الآن صارت تاجرة.

لم تجد المرأة إينة راشيا واقفة في انتظارها على الرصيف أمام

متجر السيد معمراشي فتفتح ذراعها ضاحكةً وتقول: «لماذا تأخرت هكذا؟ انشغل بالي عليك!». دخلت المحل وحكت للخواجة الأرمني. قال إن ذلك دائم الحدوث وأخبرها أن ناس الطريق دائماً هكذا: لا يعرف الواحد ماذا يحدث له أو يظن أنه عليه وهو على الطريق، ينتقل من بيت إلى بيت في البر\*. سكب جاكوب معمراشي ماء ثم حكى لها عن حياته:

- أنا وأخي جتنا إلى أميركا سنة 1891. اشتغلنا في نيويورك، نبيع سجاجيد ووسطاً شرقية. كنا إذا جاء الليل نستأجر فرشة واحدة في أي مكان نكون فيه وننام جنباً إلى جنب متلاصقين كأننا شخص واحد كما نوفر أجرة الفرشة الثانية. كنا نشترى وخيف خبز ونقطعه نصفين. نأكل القليل ونلبس الحذاء حتى يرق النعل وتصير الأرض تفرك بطن القدم. ناس الطريق أقدامهم معمولة من مسامير. أنت يا مرنا لسيت لهذه المصلحة. إقعدي هنا أحسن لك. أخي كان يفهم بالسجاد، أنا لا أملك معرفته. قبل أن تأتي إلى أميركا اشتغل مع جدي. جدي كان يوصلح سجاجداً، أصابعه طويلة ومعقوفة، ويجلبون له السجاد من مدن بعيدة ويوصلحها وترجع جديدة كأنها الآن حُيكت. بعد نيويورك تاجرنا في بنسلفانيا وأوهايو. السجاد ثقيل، حملة

- \* تُقسم أرض أميركا إلى ثلاثة أقسام: أولاً المدن والغري وهي القسم المعمور ميدان التجارة والصناعة. ثانياً السهول القسيحة المستعملة (ميدان الفلاحة) وهنا البيوت المتفرقة على بعد ميل وأكثر وسياتي الباعة هذه السهول برّاً وأحواله تستدعي تجولهم فيه لبعده عن المخازن ومحلات البضائع. ثالثاً الأرض الخاوية الخالية من السكان وترغب حكومة البلاد تعميرها وإسكانها وتبذل جهداً مع الفلاحين الذين يهتمون من الأخشاب وقطع الأشجار التي تروعب لهم عند إبتلاكهم الأرض وهذا القسم غابات وأجام ملتفة (الغريب في الغرب).

أصعب من حمل «الكثّة»، وأنا أردت أن نشترى عربة وحصاناً. أخي قال لا. كان عنيداً. بعد ذلك تعاركنا، هو ذهب يتاجر وراء النهر وأنا بقيت في هذا الجانب. سنة 1896 افترقنا. بعد سنتين رجع مريضاً، اعتنيت به حتى تماثل للشفاء، هو الذي فتح هذا المتجر، جمع مالاً من تجارته في مسوري ووايومينغ ودفنر، ومن دون أن يخبرني اشترى هذا المكان وعيّن بضاعه. أوقفتني على الرصيف ونحن نمرّ من هنا وندخن وقال: «موقع هذا الدكان مناسب». لم أفهم ماذا يقول. كيف لي أن أعرف أنه اشترى الدكان وأن الدكان مسجل باسمي؟ ترك أميركا وعاد إلى قريتنا... بعد وقت قصير وصلني خبره.

## ناس الطريق (2)

شرب جاكوب معمرباشي ماء وأشعل إحدى سجائره البنية  
الرفيعة. كان صوته شجياً، لا يشبه أصوات الباعة. تكلم بلا عجلة،  
شارد النظرة كأنه يتأمل غروب الشمس. ظفر خنصره اقتفى أثر  
منمنمات شبه غنية قرأها قاطع القماش في خشب المنضدة.

- أندم الآن كلُّما تذكرت أنني تعاركت معه وافترقنا من أجل  
عربة وحصان. قبل أن يركب الباخرة عائداً إلى البلاد أوصاني وصية  
واحدة. أتى خبره فذهبت إلى الكنيسة وأضأت شمعة ثم ركبت  
القطار إلى فرزنو التي يسميها الأميركيون «مدينة الأرمن». بينما  
القطار يتدفع غرباً والقرى والسهول تكثر شرقاً رأيت أخي خارج  
النافذة، شبح أخي، يركض حاملاً السجادة، قاطعاً نهر الميسيسيبي  
إلى مسوري. كان يحب «العَبَّارات»: يقف غير بعيد من المرجل  
وينظر إلى العمال يجرفون الفحم ويرموه في النار. يمدّ يديه كي  
يتدفأ وهو يتسم. في فرزنو بحثت عن فتاة أتزوجها. أردتني أن أعود  
إلى البلاد أو أن أبحث هنا عن فتاة تعرف الأرمنية وتحترم العادات  
والتقاليد التي تربيْنَا عليها. قال إنه سيغضب إذا تزوجت فتاة ليست  
أرمنية. في فرزنو بحثت حتى تعبت، الرجال الأرمن لم يتركوا  
أرمنية. بقيت الصغيرات فقط أو العوانس المتجاوزات الأربعين.  
وفي اليوم السادس دلّوني إلى الفتاة التي صارت زوجتي. في

السادة عشرة، معلمة، تعرف الأرمنية والإنكليزية وبعض التركية.  
الكاهن سارويان زُوجنا في كنيسة سانت بول الأرمنية الشرقية. كانوا  
انتهاوا من تشييدها قبل فترة قصيرة. وروائح البناء ما زالت فيها. بعد  
«الإكليل» وقفنا على الدرج وتصورنا. عائلة زوجتي كبيرة وفي الصور  
ترين رايات وأعلاماً ترفرف في الطريق لأننا تزوجنا في 6 تموز وزينة  
العيد\* ما زالت معلقة. عندما جئت بها من كاليفورنيا إلى هنا بكت  
حتى احمرت عينها. كانت تشاق إلى أهلها. بعد ذلك، وهي  
تساعدني في المتجر، تعرّدت على فيلادلفيا وأحبّت ناسها. بعد  
البيت الأولى ارتاحت في البيت. الآن تُخيط، وتهتم بشؤون البيت  
وتربية البنات. عندي ثلاث بنات وكلهن في المدرسة. علّمتهن  
الأرمنية بنفسها. أختها الكبرى نُكبت في زلزال 1906: زوجها دفن  
تحت حائط في سان فرانسيسكو. عندما أخرجوه بعد أيام من تحت  
الركام كان مهشماً. عرفوه - بين الجثث - بساعته المنقوشة الغطاء  
زوجتي سافرت إليها وساعدتها في محتنتها. كان رجلاً محترماً،  
أرسل له البضاعة التي يظليها بالقطار ولا تتأخر مرة الحوالة. لا  
أتذكر أنه تأخر في الدفع مرة واحدة. استضافنا في عيد الفصح سنة  
1904 وعرض أمامي بساطاً قديماً تورثته عائلته جيلاً بعد جيل طوال  
أربعمئة سنة، وكل جيل يُغيّر في النسيج ويزيد قطعة إلى البساط  
الملون. أربعة ألوان: البني والأصفر والأبيض والأسود، بحسب  
أصواف الخراف التي تربي وترعى في سهوب أرمينيا. أخبرته عن  
قربتي وعن أبي وجددي وأنا أتذكر وجه أخي وهو يوصيني وصيته قبل  
أن يركب الباخرة ويقطع المحيط... الآن صفري بناتي تذكرني

\* 4 تموز (4th of July): عيد الاستقلال الأميركي.



هذا حلمه: أن يُدخر مالا يكفيهِ لفتح دكان. الحياة على الطرقات، بلا سقف فوق الرأس، صعبة. أعرف ناساً تجمدوا تحت الثلوج وماتوا والكفة كتلة جليد على الظهر\*. يلتصق الصندوق بالجسم ويصير الواحد مثل الجمل. أنا عندي عظمة ناتئة هنا (أدار جسمه وراء المنضلة ورفع يداً وضغط بين رفشي الكتفين). مرات تؤلمني وأنا نائم. هذا تشوه في العمود الفقري. مع أنني لم أبقَ كشاشاً وقتاً طويلاً.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
**^ RAYAHEEN ^**

\* كشاشان سوريان من حاصبيا تجمدا في عاصفة ثلجية في ساوث داكوتا وقتاً مع الصندوقين الملتصقين بهما. (مذكرات نجيبه إبراهيم)، ساو باولو، البرازيل، (1908).

بأخي. عيناها كعينيهِ وعندها حركة تعملها بيدها كأن الحركة انتقلت منه إليها. وتحبّ الحساب والأرقام وتظلّ تسألني عن أثمان الألبسة. أمها أيضاً أحبّت المتجر عندما عملت فيه: تلك الرفوف هناك، هذه فكرتها. وإلى الآن عندما تمرّ عليّ وهي ذاهبة إلى السوق أو عائلة، تنظر إلى الرفوف وتقول: «Good Shelves».

ابنسم مستر معمرباشي وهو يدلّ مرثا إلى الرفوف على يمين المدخل. نفث رماد سيجارته في المنفضة الخشب ثم أكمل:

- في نيويورك كنا نلتقي - أنا وأخي - كشاشاً أرمياً من قريتنا. نلتقيه هكذا صدفة على الطريق فنذهب معاً إلى أي مكان ونضع أحمالنا على الأرض ونأكل لقمة. نشرب شيئاً وتبادل القصص عن مغامراتنا على الطريق، إسمه إيلي والآن يعيش في سالت لايك سيتي\*، أرض المورمون. هل تعرفين هؤلاء؟ مسيحيون وليسوا كذلك، يتزوجون كالمسلمين أكثر من امرأة. مع أن القانون الأميركي لا يقبل تعدد الزوجات. صلته بأخي لم تنقطع وقبل سنوات قليلة جاء إلى هنا وأخبرني أنهما تاجرا معاً في تلال كولورادو. بيتما يُعرّضني برحيل أخي مرة أخرى شعرت بالحزن: ليس لأن أخي مات وصار بعيداً عني ولن أراه مرة ثانية، ليس لهذا فقط، لا... حزنت لأنه تاجر مع إيلي في تلال كولورادو وأنا وحدي أجول دروب إلينوي وويسكونسن: أقطع السهول من مزرعة إلى أخرى وأفكر فيه وأتمنى سماع صوته كلما ارتيمت على الأرض ساعة النوم. كم مرة استلقيت في حقلٍ أخضر رطب وأنا أتمنى لو أراه وأصالحه في هذه اللحظة! وفي النهاية جاء هو وصالحني واشترى لي هذا المتجر. كل «كشاش»

## Spring Valley

أميركا. وطقس أميركا الغريب. في أي لحظة - حتى في عزّ الصيف - تظهر الغيوم السوداء من العدم، تيرق السماء وترعد ويصير لونها الأزرق جزءاً من الماضي الخرافي. وبينما العين ترمش ينهمر سيل المطر. مرنا تمّزّ بعدها مفتوحة، تلتقط الحبات حارة في راحتها. حارة! كانت في مكانٍ بعيد من العيون، في نقطة ما من سهول أوهايو أو إنديانا، حيث تتراعى السماء شاسعة لا نهائية، خيالية لا تشبه سماء سورية، بلا تلال ولا جبال ولا حدود، أوسع من المحيط الأطلسي... ثيابها تلتصق بجسمها من غبار الطريق وعرق النهار المشمس الطويل. أينما تلفتت لا ترى نفساً بشرية. وقفت تحت الأمطار وغسلت رأسها وجسمها. غسلت ثيابها وليست أخرى ناشفة من الجزدان ونشرت الثياب الرطبة من أغصان شجرة. كانت شجرة عملاقة، ورقها يشبه ورق التين، ملتفة الأغصان، وكل غصن بضخامة شجرة. في ظلّها الدائري كانت الأرض جافة، متشققة. وقفت في الدائرة المسحورة، حيث لا تصل قطرة مطر، تنشف على مهل من حمامها. خارج الدائرة كان المطر ينهمر، غزيراً وساخناً ورمادي اللون إلى أبيض، من هنا إلى نهاية العالم.

أخرجت سندويشة (خبز أميركي ولحم جامبون بارد) وجلست على جذر الشجرة الخارج كمنعقد من الأرض. كان صقيلاً، لامعاً،

وحدثت أن كثيراً جلسوا عليه من قبل، على مرّ السنين. استدارت بجذعها ونظرت إلى حقول وسهول، إلى البراري العجيبة تنبسط صوب الأفق كالمنام. مع القضة الأولى شعرت أن صفحات المطر تتحرك، ترتفع ثم تهوي، والهواء يحمل إليها البلبل. ظهرت سناجب من أوكار غائرة في جوف الشجرة. تراكضت فوق رأسها. وعندما قطعت من سندويشتها قضة صغيرة ورمتها على التراب والورق اليابس انزلت السناجب على طول الأغصان وقفزت من الرؤوس الخضراء المهترئة وتنازعت قطعة الخبز. الأقوى بينها، سناجب بنديقي اللون على ظهره وذيله خطّ أبيض تلجج بعرض أصبعين، حصل على وليمته ووقف على قائمته الخلفيتين، حاملاً «الخبزة» بيديه، يأكلها بأسنانه العجيبة وينظر بعينين واسعتين ذكيتين إلى مرنا: ماذا يريد أن يقول لها؟ هل تمنحه قضة أخرى؟ كان يأكل بسرعة، قضمات صغيرة لكن خاطفة، واختفت اللقمة في جوفه. ففزّ ففرتين وصار أقرب. ثم انتصب مرة أخرى، بحجم قطة صغيرة، ويتلفت كإتسان. بعد ذلك ذهب يشرب عند طرف الدائرة.

أسندت ظهرها إلى الجذع الجبار ونامت قاعدة. من دون قصد نامت. هددها المطر، تسلل النعاس إلى عينيها، غفت مثل طفلة. لم تكن طفلة، أيام وأسابيع وشهور وهي تسير على طرقات تبدأ في «ماين ستريت» - فيلادلفيا ثم تنتشعب من شبكة سكك الحديد إلى أمكنة بلا عدد: أخذها «جزدان الحرير» إلى كليفلاند - أوهايو، إلى فورت واين - إنديانا، إلى سبرينغ فالي - إلينوي (هناك التقت مرة أخرى «عراينتها» ودبعة صليبي رياشني)، إلى سيدار رايندز - أيوا، وراء نهر الميسيسيبي، وإلى ماكاتو - مينيسوتا، الولاية التي يخرج منها النهر العظيم، دافقاً من بحيرة بيضاء كاللبن، والأشجار ترتفع

من الجانبين، قديمة، شاهقة العلو، سوداء وخضراء، شديدة الرهبة.

بلغت في صيف 1914 سبرينغ فالي Spring Valley على ضفة نهر إلينوي الذي يربط منطقة البحيرات الكبرى (ميتشيغان) بالميسيسيبي، قاطعاً ولاية إلينوي من شمالها إلى جنوبها بالمراعي تسطح خضراء عند ضفتيه. في سبرينغ فالي ذات البيوت الخشب الحمراء المتدرجة على هضاب زيتية اللون مزروعة قمحاً وكرزاً، التقت بوديعة صليبي مرة أخرى، ورأت «راشيا صغيرة» نابتة كستان غريب، ومدعش، في قلب أميركا. الحي السوري في نيويورك قصة، لكن هذه قصة أخرى: ماذا جلب أبناء راشيا الوادي، من جنوب الجبل اللبناني، إلى هذه الأرض النائمة على ضفة نهر إلينوي في الديار الأميركية! حتى شجر التوت، الذي لا ينبت في تربة أميركا، زرعه هنا! للزينة، للذكريات، للإلفة! لن يربوا دود قزّ في أميركا.

في سبرينغ فالي باعت مطرزات (Broderie) إلى سوريات! كانت تبيع لربّات بيوت من سورية! وجدت ذلك مغرطاً في الغرابة: أكلت على موائدهن طيخاً ساخناً و«بخنة» باللحم والخضر لم تذق مثلها منذ تركت البلاد البعيدة. تحلّت بطبق مهلبية بالحليب يفوح برائحة ماء الزهر والبرتقال، ثم بسطت على الطاولة «أشغالها»: النساء تكلمن حول رأسها بالعربية، باللغة التي لا تسمعها إلا قليلاً الآن، وهي شعرت أنها ليست نفسها، كأنها تحيا حياة شخص آخر!

لم تبقَ في سبرينغ فالي طويلاً. أولاً أزعتها أسئلة الأختين بشارة عن زوجها. ثانياً المكان مملوء كعشاشين وكعشاشات. هذه أرض الكثرة في إلينوي. وليس لانقاً أن تبيع هنا. مع ذلك فرغ جزائها في يومين أو ثلاثة. أخذت بضاعة من متجر يقابل محطة السكك ويبيع أيضاً خضراً وغيراً ولحماً بـ«الكوبونات» المطبوع عليها

شعار «الشركة»\* لعمال المناجم، ثم انطلقت غرباً، أبعد فأبعد. بعد أسابيع أو شهور، وهي عائدة إلى المكان الذي صار مقرها في فيلادلفيا، نزلت ليلة أخرى في سبرينغ فالي. نامت عند وديعة صليبي (عندها غرفة الآن في مؤخرة دكان يملكه أقارب من قرينتها). استمعت إليها مرة أخرى ليلة كاملة (المرأة تحكي وتسكر بالكلام، ثم حين تنهض من نومها مترنحة كي تقضي حاجتها في الخارج تتعثر بعرتا مرتين)... غادرت مع صباح الديكة.

\* شركة الفحم Spring Valley Coal Company، وهي التي أنشأت البلدة سنة

1884 مع شركة سكك الحديد المسماة Chicago and Northwestern

.Railroad

أخبرته أنها تُطرز المناديل، هكذا ترتفع قيمة المنديل من عشرين سنتاً مثلاً إلى دولار أو اثنين. كما أنها تشتغل بالصنارة أيضاً.

زوجة جوزف أسطفان قالت لها إن ابنتها الكبرى تحبّ الحياة أيضاً. البنت احمرّاً خداهما عندئذٍ وهربت من الغرفة. أختها ضحكت ومرتنا لم تفهم لماذا فرّت البنت ولا لماذا ضحكت أختها (ما قيمة ذلك؟) لكن إحساساً دافئاً استولى عليها. نظرت إلى العائلة السعيدة في البيت الأزرق السائر وشعرت بسكينة لا تُصدق. تمتد أن تمتد اللحظة.

عند رجوعها إلى فيلادلفيا سألت المستر معمرباشي هل يعرف أحداً في الجوار - في هذا الشارع مثلاً - يمكن أن يؤجرها دكاناً صغيراً؟ الرجل لم يتفاجأ. وطلب منها أن تنتظر يومين وهو يسأل. في اليوم التالي مباشرة قال لها «تعالي معي»\* وأخذها إلى أحد أصحابه: أرمني أيضاً، إسمه غريغوري سكياس.

السيد سكياس أعلمها أنه لم يحسم أمره بعد: بنى متجرأً جديداً بطبقتين ويفكر أن ينقل بضاعته كلها إلى هناك وإذا فعل ذلك فهذا الدكان سيخلو وعندئذٍ يُمكن أن يتفقا. كان صوته مبوحاً كأنه قضى الليل يصرخ في الهواء. وأنه يُخرج مسبحة «كوريا» صفراء الحبات، طويلة، 99 حبة، مرة تلو أخرى من جيب سترته، ثم يودعها الجيب من جديد. كان يُسبح بحباتها وهي في جيبه. شمّت رائحة ثوابل تجمي من مطعم مجاور وصلت أن تحصل على المحل. سيتأخر ذلك. الربّ يستجيب لصلواتنا، لكن - أحياناً - بعد

\* «Come With me»

## الحساب

أزعجتها مطاردة الأختين إميليا وكاميليا بشارة: تلقت أسئلتها المباغثة كأنها تُلطم بالحجارة. لكنها في القطار، بينما تضع الولايات بينها وبين سبرينغ فالي، توازنت من جديد. قالت لنفسها إن الناس إذا سألوا لا يقصدون الأذى. ثم حاولت أن تصرف المسألة كاملة من ذهنها. كانت تصعد وتهبط وتجرب قدر استطاعتها أن تتوازن. نظرت إلى المحبس في إصبعها، ثم نظرت خارج النافذة.

زارت نيويورك في ذلك الصيف. واستقبلها جوزف أسطفان على الغداء في بيته في هارلم. تعرفت إلى عائلته. وجوه بناته حامت حولها، باسمه. كانت تتذكر زوجته والبيت التي رأتها بمعطف أحمر وقبعة حمراء في «بيت الحاجة ماري». التقت ابنة للمرة الأولى. مارون أسود الشعر، بنتي العيتين. وجهه يعميل إلى بياض، ولا يبدو سورياً. كلّمها بالإنكليزية فردّت عليه بالإنكليزية. قال لها إنها تتكلم الإنكليزية بسرعة كأنها تعلمتها وهي صغيرة. وسألها هل تقرأ جرايد أميركا أيضاً؟ أخبرته أنها تفعل ذلك أحياناً لكن ليس كثيراً فالوقت لا يسمح لها. سألها ماذا تفعل إذا وهي في القطار؟ ضحكت من سؤاله - كان يندفع في الكلام مثل صبي صغير، مع أنه كبير الجسم وفي طول أبيه - وأخبرته أنها «تشتغل» وهي في القطار أيضاً.

- تبعين للركاب؟

الزجاج وطلبت صحن Steaks and Fries مع Ketchup . استخدمت الشوكة والسكين وأكلت بأنأة، متمهلة . تدفقت صلصة البندورة، حمراء وكثيفة وسكرية الرائحة، على الصحن الأبيض . بينما تلتقط قطعة بطاطا أخرى بالشوكة شعرت بحزن غريب وغير قابل للفهم . مع ذلك لم تدع الحزن يفسد احتفالها . عند العصر دخلت متجرأ كبيرأ يواجه كنيسة عالية الأجراس واشترت ثيابأ جديدة وحذاء مئبأ . في اليوم التالي ملأت «الجزدان» بضاعة وركبت القطار إلى نيوتن - أبوا . لن تنلهي . من الآن وحتى يقرر السيد سكياس، عليها أن تعمل وتعمل وتعمل . اشتغلت مرنا كئبأ في تلك الأيام وقبل تساقط الثلوج أرسلت إلى بنتار مئتي دولار وفككت الرهن عن جلّ الشفاح وراء الساقية الشؤبة .

وقت . في هذه الأثناء كرز مسر معمرباشي عرضه القديم والدائم : أن تعمل عنده . شكرته كالعادة وقالت الكلام الحلو الذي يحبه (لن تنسى فضله عليها : ألم يُطلق شغلها على الطريق؟ ألم يمنحها الجزدان والبضاعة بلا مقدم ولا كئيل؟ وحتى الآن تترك عنده ما تجنيه أمانة... وقبل كل خروج ينصحها، ويسط الخريطة على المنضدة ويدلها إلى المحطات ويقول لها في أي اتجاه تذهب، ونحو أي بلدات، ويختار لها - دائماً - منطقة مناسبة لا ينافسها فيها كشاشون كثر، مناخها مقبول وأرضها سهلة). كانت تأخذ استراحة قصيرة، كي تسترد قواها . استأجرت غرفة ضيقة في نزل . تحممت طويلاً وجلست على الفراش . اتخذت قرارأ وهي تحسب أرقامأ على قفا كرتونة مربعة مطبوع على وجهها هذه العبارة:

Snow Candles

وتحت العبارة رسم شموع وثلج وبيت، قمر وسما ونبجوم .

في الصباح كوت ثيابها بمكوى مملوء جمرأ استعارته من النزل . رتبت نفسها وصفت شعرها ثم طلت شفتيها بأحمر شفاء . كان عليها أن تمرّ على أكثر من نقطة في ذلك اليوم، وفي كل نقطة وجب أن تنصرف بهدوء وذكاء، وبلا توتر . نجحت . عندما خرجت عند الظهيرة من Bank of Philadelphia وهي صاحبة حساب بنكي (الحاجب رفع قبعة وفتح لها الباب الزجاجي الدوار) كان جسمها يضحّ بالفخر والقوة . لم ترتجف أصابعها وهي تحقّق اسمها بالإنكليزية ثم تُوقّع بقلم الحبر السائل على الأوراق . لم تشعر بالخوف أمام رجال المكاتب في قمصاتهم البيضاء الناصعة وربطات العنق السوداء . أدهشها كيف عبرت كل ذلك ببسر، وبأي سهولة أتجزت عطلتها . كي تحتفل دخلت مطعمأ وجلست إلى طاولة جنب

www.mlazna.com

^ RAYAHEEN ^

## جزدان الحرير

الصحيح وضع حدًا لحبائنها على الطريق. تجمّد طرف تنورتها وشطب كاحلها كحد السكين. عندما خلعت الحذاء رأّت أصابعها زرقاء، متيبسة. مسحت دماً عن قدمها فانبثق الألم كشعلة نار في رأسها؛ شعرت بطلعة بين عينها وخافت أن تموت. لكنها لم تمت. في الأسبوع الأول من كانون الأول (ديسمبر) 1914 اقترح عليها السيد غريغوري سكياس أن تدبر متجره مؤقتاً - لم يقرر بعد هل يريد التخلي عنه - وهكذا وجدت مكاناً تعمل فيه وتنام؛ وضعت فرشة في المستودع - بين الرفوف والصناديق - وأنهت حياتها ككشاشة.

استقرت في فيلادلفيا. وخلال أيام اكتشفت أنها طوال الشهرور الفائتة كانت تحيا خارج العالم؛ بينما تعبر الولايات شمال نهر أوهايو، قافزة من محطة إلى أخرى، ومن بلدة إلى بلدة، تبيع المنسوجات والمطرزات والحرائر، لم تنس نفسها وأحزانها فقط؛ نسبت أيضاً أن العالم موجود. بلى، تذكرت في إحدى اللحظات أن ترسل مالا إلى سورية كي تفكّ الرهن عن جبل التفاح. ولى، كتبت رسالة قصيرة إلى خالها (اشترت ورق المكاتب من مخزن يقابل محطة نيوتن - أبوا). لكنها في المقابل تابعت هروبها؛ لم تكتب لخالها شيئاً عن رحلتها إلى نيواورليتز. فقط طمأنته أنها بخير وأنها تجني مالا من مطرزاتها. (جزدان الحرير حرّوها).

استعملت عنوان السيد معمرياشي البريدي. بعد ذلك انتظرت ردًا على رسالتها. عندما أخبروها أن الرّد قد لا يأتي قريباً بسبب حالة الحرب رفعت حاجبيها مستغربة: إلى هذا الحد كانت خارج العالم!

أثناء جولاتها بين بلدات إنديانا وأيو ونيبراسكا ومونتانا (تشتري من المتاجر الكبرى وتذهب وتبيع في القرى والمزارع البعيدة عن المخازن... طوال الوقت تُبدل أمكنتها كأنها نفرّ من ظلّها؛ كأن الغيمة السوداء ستهب من السماء وتبتلعها إذا كُتت لحظة عن الحركة)؛ بينما الشمس تدور في الأعالي وتُبدل قوسها يوماً بعد يوم؛ بينما القمر يكتمل ثم ينقص ويراهها هاجعة بين أكوام تبن أو في ظل شجرة سيكوي أو تحت شرفة بيت خشبي؛ طوال الفترة الممتدة من نيسان (أبريل) 1914 إلى كانون الأول، كان العالم يتحرك على محور يهتز وهي تتحرك على محور يخضعها. في إحدى مزارع إلينوي، في مكان بعيد عن العمران، وسط حقول حمراء محروثة تنتظر أن تُزرع ذرة وجبوا، سمعت من راديو خشب يشبه الصندوق في مطبخ يفوح برائحة الخوخ المجفف والبراندي، شيئاً عن حرب بين ألمانيا وفرنسا. ظنّت أنهم يتكلمون عن أمور قديمة. عزّز ظلّها أنها سمعت بعد ذلك، خارج مقهى في منيابوليس، كلاماً عن حرب أخرى بين روسيا وتركيا. خالها حارب في تلك الحرب، تذكره يحكي للمرحوم أبيها عن جليل القرم وكيف كانت المياه تتجمد في بطون الأحصنة فتقتلها. لم تتخيل أن الحرب دائرة الآن في أوروبا، بينما تملأ جزدان الحرير بضاعة ثم تفرغه وتقبض السننات والدولارات بين أصابعها الطويلة. (بعد وقت، عندما عرفت أن الأضواء أطفئت في أوروبا خوفاً من القصف والغارات تذكرت مصابيح فرنسا في تلك الليلة البعيدة وهي تقطع السهول من مرسيليا إلى مرفأ الهافر في الشمال). هل كانت لا مبالية؟ أظن أنها كانت

## علي جابر (2)

تركنا علي بشير جابر في الجزء الأول واقفاً أمام أضواء نيويورك يرتجف بلول الثياب. هذا الكتاب لا يتسع لسيرته. سأروي هنا ما يهمني فقط. حياة علي جابر مملوءة فجوات. المعلومات المتوفرة عنه (والمستقاة من الإرث الشفهي للعائلة) تنسج صورة مغامر مقبل على الحياة كثير المخاطرات مَيَّال إلى الضحك. لا أعرف كيف وصل إلى معمل الجلود في لونغ آيلاند لكننا نجده هناك قبل شهر من اندلاع الحرب الكبرى في أوروبا. ماذا يشتغل؟ يحمل الجلود من العربات إلى أحواض المذبحة. أين يسكن؟ وراء المقبرة، في مستودع مهجور لشركة السكك الحديدية (كانوا يخزنون الفحم الحجري هنا قبل نقل الخط إلى الجهة البعيدة) حيث بنام عشرات العمال من خليط جنسيات عجيب: أسبان وطلليان وأفارقة وروس وأتراك إضافة إلى برتغاليين وبولنديين. هؤلاء عشرات؟ لعلمهم مئات، المستودع أوسع من منجم، وعلى سطحه فرشات أيضاً. لا أعرف قوانين المكان لكن زنجياً سرق بطانية مرة فضربوه حتى نزف من جنبه.

كم قضى علي جابر في المعمل المذكور؟ على الأرجح لم يصمد طويلاً. كانت رائحة الجلود تفتله وكذلك الظلمة في المكان العميق المملوء مياهاً راكدة تنضح مواد ملونة. المعمل ضخم، وفي

نصف حبة نصف مية. لكنها بينما تسير على الطرق التراب، بين الحقول الخضراء، باحثة عن مزرعة أخرى وإمراة أخرى تشتري منها قماشاً أو البسة داخلية أو مشدات، أخذت رويداً رويداً تسترجع ما فقدته: النصف الحي بدأ ينتشر فيها، والنصف الميت يتقلص. هل هذا حقيقي؟ هل هذا ما حدث حقاً في تلك الشهور؟ إننا نحاول أن نتخيل ما حلَّ بها، ولعلنا لا نقدر. عندما قبلت عرض السيد سكياس كانت تنجو بجسمها البردان من الجليد القاتل. في ذلك الأسبوع ذاته من كانون الأول 1914 اجتاحات العواصف الثلجية نورث داكوتا ومونتانا ودفنت قطعان الماشية في المراعي. ثلاثة رعاة كانوا في العراء تجمدوا كالتماثيل واقفين ولم يتحركوا بعد ذلك. عرض السيد سكياس أنقلها.

في كل رحلاتها لم تذهب جنوباً. كانت لويزيانا مثل بقعة سوداء في جسمها، وعليها أن تريح عنها على الدوام وإلا اختنقت. حتى سماع الإسم بضابقتها. محتها من خريطة الولايات المتحدة. في سبرينغ فالي، عندما أزعجتها الأسئلة الفضولية للأختين بشارة، غمرت مرة أخرى رائحة الطمي والمستنقعات وقصب السكر وسمعت أزيز البق والحشرات على طريق كلاريندون. شعرت أنها عاجزة عن التنفس. لم ينقلها إلا الخروج إلى الشرفة المشمسة كي تتأمل الجلول المزروعة توتاً وكرزاً. أرادوا أيضاً أن يزرعوا زيتوناً. بولس بشارة - هكذا أخبروها - سيبنى على التلة المواجهة قلعة حجراً، بيتاً دائرياً من الحجر المقصب نسخة طبق الأصل عن قلعة راشيا الوادي.

في فيلادلفيا، وهي تطوي الأقمشة وتوزعها على الرفوف، بدأت رحلة رجوعها إلى العالم.

وقت الراحة يقعدون تحت الأشجار في الخارج ويأكلون زوائدهم ويشربون البيرة. أميركا علّمته شرب الشير والكحول لكنه لم يتعلم مضغ التبغ ويصفه على الأرض. كان يلفت سكارته مثل الخواجات في البلاد البعيدة ويدخن وهو ينفخ دوائر أنيقة إلى فوق، صوب الربّ الساكن في المملكة اللامرتية. أثناء العودة إلى المسكن الجماعي (المهجع المنعم بغير الفحم الحجري) يسلك مع أصحابه درياً مختصرة: يقلمون بين شواهد المقبرة. تتلمّ الحروف الإنكليزية وهو يقرأ الأسماء على ألواح الرخام. وجد الحياة غريبة، محصورة بين تاريخين (ولادة ثم وفاة) مع «شحطة» في الوسط. وأين حياتهم؟ على شاهد رأى صورة فوتوغرافية لرجل طويل السالفين مربع الوجه، بالأبيض والأسود، يغطيها زجاجٌ بلوري يمنع عنها أثر الشمس والعفن. كان يرى هذا الوجه الياسم كل مساء، وهو عائد من معمل الجلود منهكاً وعرقان الشباب إلى المهجع. ذات ليلة انفجر بالضحك، ضرب أقرب رفاقه إليه، ولفظ جملة خالدة: «الموتى يحيون أحسن منا».

أحد أصحابه - هذا إيطالي - ردّ بالإنكليزية المحطمة التي يتكلمونها جميعاً أن هذا غير صحيح وأن حياتهم - حتى في هذا المكان الفظيع - أطيب من حياة الموتى: هؤلاء يأكلهم الدود تحت التراب أو يحترقون في جهنم. علي جابر الذي لا يميل إلى اللاهوت أسكته بضربة على الكتف ودعا الجميع إلى برميل بيرة على حسابه. اشترى البرميل وملأوا الأكواب وجلسوا على «الدكات» الخشب خارج المهجع ينظرون إلى أضواء نيويورك ويتبادلون السجائر والشاتام والقصص: لا يعرف أحدهم أين الصدق وأين الكذب في ما يسمع، ولا يهمهم الأمر كثيراً ما دام الكلام يُسلي. تلك الليلة

أفنعهم علي جابر أن هذه الحياة في معمل الجلود سيئة بكل المقاييس. استمر في الحكى حتى أنهكهم وعند الفجر كان بينهم سبعة على استعداد للرحيل معه إلى بوينس آيرس.

الأسبان الثلاثة بين هؤلاء السبعة زرعوا الفكرة في رأسه أصلاً. أحدهم عنده أقارب سبقوه إلى بوينس آيرس. يعملون في حوض السفن. وفي مزارع في الداخل. يقولون الحياة سهلة هناك، يسرّ تحني النقود، والأراضي مشاع تُعطى لمن يحرثها ويزرعها.

علي جابر وجد هذا أقرب إلى طبيعته: المهم المدى المفتوح؛ سيفقع قلبه إذا حمل الجلود مرة أخرى (كانت ثقيلة على كفيه، رائحتها فئাকে، كأنه يحمل جثثاً... ومرات تزلق بدمها وأوساخها ويكون عليه أن يلتقطها من جديد وهو يلعن العاشية وساعتها). من أقتع من بالرحلة إلى الأرجنتين؟ هذا لا يُغير شيئاً. كانت حياتهم وراء مقبرة لونغ أيلاند لا تُطاق. أهلكتهم البطاطا الفاسدة التي يسلقونها في قدر سوداء مع عظام ينالها أحد أصحابهم الطليان حسنة من جزائر صقلي يمت له بصلصة قريس. وأهلكتهم رطوبة المحيط: كانوا يقعدون دقيقة تحت أشعة الشمس لثلا يتعفن الجلد على أبدانهم، وفي دقيقة واحدة تصيبهم نزلة صدرية. هذه مبالغات بالتأكد، لكن هكذا روى علي جابر مغامراته (حياته؟) لأخيه محمد بعد سنوات.

ركبوا باخرة إلى مُنتيفيديو. قشروا بطاطا وبصلأ. نَقَفُوا المطابخ والمراحيض. ألغوا فحماً وحطباً في المراجل. لسعت النار الشعر الأسود على صدورهم فصاح الإيطالي شاتماً «التركوك» الذي ورطهم هذه الورطة. «التركوك» (Ali) ضحك وهو يكسر ثمرة جوز هند سرقها من المطبخ. الأسبان الثلاثة تراشقوا بالفحم وضحكوا أيضاً.



## المتجر

المتجر أعطاها قوة البيع والشراء. الوقوف وراء المتضدة وتأمل الزبائن داخلين خارجين. الأقمشة ورائحتها. العربات التي تعبر خارج الزجاج. الهواء البارد. سلك السخان الكهربائي. رائحة الأطعمة. بائع الهوت دوغز الذي يمرّ بعرفته في الوقت ذاته كل يوم، ويقف أمام الباب تماماً وينظر إليها نظرة أليفة. الشرطي الذي يعبر وهو يخبط عصاه على فخله. العجايز الذهابيات إلى الكنيسة. بنات المدرسة خارجات من الباب الكبير، يترافقن في الزي الأزرق المقلم بالرمادي ويتساحكن، والجدائل تطير في الهواء. صف الرجال الصغار تحت الأعمدة، في الجهة الأخرى، يأكلون سندويشات أو يدخنون سجائر ويشربون مرطبات. هدير الترامواي. العجوز في ثيابه المهلهلة يحمل بطانية على ظهره ولا تدري ماذا جمع في جوف البطانية. كل الناس يعبرون خارج زجاج المتجر، خارج الواجهة بالملايس المعروضة (على رفوف خشب) والأقمشة الملقوفة، لفة جنب لفة جنب لفة، وعندما يدخلون تحفظ مسافة غائبة بينهم وبينها: هذه المتضدة، عرضها متر تقريباً. الوقوف وراء المتضدة ردّ إليها شيئاً فقدته على طريق كلاريندون. كانت تبسم للشاري أو الشارية لكن من دون ضعف. هنا، في المتجر، ولدت من جديد. ولعل الولادة بدأت فعلاً على الطريق وهي تبسح من «جزدان الحرير».

الجزدان أخذها إلى عالم البيع والشراء. القطعة التي تأخذها بدولار من تاجر الجملة وتبيعها بدولارين أو ثلاثة. ومرات، وهي قاعدة أو واقفة، تطرز على القطعة حرقين ويتضاعف سعر القطعة. هذا عالم غريب! ووجدت جيوبها مملّنة.

ماذا كان ذلك يعني بالنسبة إليها؟ في المتجر وجدت حُريرة جديدة: كانت آمنة، لا تخاف أن ينزل عليها الليل وهي وحدها في العراء في البرية الشاسعة. هذا الأمان ردّ إليها أحاسيس قديمة. ساعة العصر، وهي ترى ناساً عاندين من أشغالهم إلى بيوتهم وعائلاتهم في «ماين ستريت»، كانت بلا انتباه تذكر بتائر وأجراس القطمان (الأغنام والماعز) عائدة من الوادي قبل المساء. الجرس يرنّ في رأسها وهي تنعس كأنها قاعدة على الطراحة في باب البيت البعيد.

سألت خالها في الرسالة عن صحته وأحواله هو وزوجته وأولاده وهل يحتاجون شيئاً؟ لكن الردّ لم يأت. جوزف أسطفان أخبرها عندما رآها أن مرفاً بيروت مقفل وأنه صار محطة لغواصات الألمان وأن الرسائل لا تصل من سورية، البريد ممنوع والتجارة ممنوعة، والبواخر الحربية تسدّ الموانئ. في كل المتوسط. مرثا سمعت ذلك من الراديو في المطعم المجاور أيضاً. كان المذيع الإنكليزي يحصي مرافئ أوروبا التي تخرج منها غواصات ألمانية وذكر فجأة الاسم الغريب: Beirut.

شعرت أنه يتكلم عن مكان لا تعرفه. في اللحظة ذاتها شعرت أنها لا تعرف إلا ذلك المكان. من هناك خرجت في هذه الرحلة! كانت تسمع عن الحرب وتستغرب. عند المساء، حين يأتي السيد سكياس، تنظر إلى الجريدة. يحملها معه إلى البيت. يقرأ فيها أثناء النهار، ثم يأخذها إلى البيت مساء. مرثا تلقي على الجريدة

## المتجر (2)

اكتشفت أنها تحب هذه الساعة وتنتظرها: هو يحصي النقود ويراقب الأرقام الداخلة في دفتر المحل ويعمل جولة سريعة على الرفوف (لا تتضايق! في البدء أزعجها ذلك، ثم نسيت الأمر: الرجل كبير السن ويفعل الأشياء بطريقة لا تزعجها)... وهي تقرأ في الجريدة. (يملك اشتراكاً في صحيفة Philadelphia Public Ledger. وأول عملها هنا كان الصبي يجلب الجريدة إليها ملفوفة بالخيط وهي ترسله إلى عنوان المتجر الجديد الذي يبعد عشر دقائق مشياً، ودقيقتين بالترام). تحسنت قراءتها للإنكليزية، وصارت في وقتٍ غير طويل، تقرأ أكثر من صفحة واحدة قبل أن ينتهي السيد سكياس من «الجريدة اليومية». كانت تمرّ على أخبار الحرب مروراً سريعاً وتهتم أكثر بأخبار أميركا. يبدو ذلك غريباً لكن هذا ما فعلته. في المقابل بدأ واضحاً - من الصفحات المدعوكّة - أن السيد سكياس مختلف الأولويات. كانت تعرف من وجهه، وهو يدخل المتجر، ماذا قرأ اليوم عن الحرب.

أظن أن السيد سكياس كان بالغ التأثير في مرتا آنذاك؛ في تطور شخصيتها. أشخاص كثير نلتقيهم في حياتنا، في مفارق ومحطات محددة، ولا نعلم مدى تأثيرهم في مسيرة تحولنا العقلية والنفسية إلا بمرور السنين. مرتا أيضاً لن تكتشف إلا بعد سنوات

نظرة بينما يفتح دفتر المتجر ثم يحصي النقود. في البدء كانت تراقبه. بعد ذلك كتّت. ينتجهم كأنه غاضب بينما يحصي المال (الأوراق أولاً - الدولارات - ثم الصرافة: العملة المعدن) لكنه حين ينتهي يرفع وجهه إليها باسمأ. دعاها في يوم العطلة إلى بيته كي تلتقي زوجته وأولاده فشعرت بالمرحج: كانت مريضة. مع ذلك لم تقل شيئاً. أخذت معها هدية: غطاء طاولة «تريكو» شغل يدها. عندما دخلت البيت رأت ساعة بطول رجل يخرج منها عصفور الكوكو ويصيح كلما مرّت ثلاثون دقيقة. سمعت العصفور يصيح مرة واحدة. لم تتمكن من البقاء واعتذرت وذهبت. بعد ذلك، بمرور الوقت، ستكتشف أفراد عائلة سكياس وطباعهم واحداً واحداً. كانت عائلة غريبة يصعب التعاطي معها مجتمعة (بخيم عليهم الصمت) لكن التعاطي يسهل إذا التفت أحدهم صدفة في الطريق أو المتجر. حتى زوجة سكياس التي تكبرها بثلاثة عقود صادقتها، مع أنها نادراً ما رأت أرمنية تصادق غير أرمنية. باتت تعرفهن جميعاً: أرمنيات فيلادلفيا. مستحيل أن يتباح إحداهن ذراع قماش من غير متاجر الأرمن في «ماين ستريت». تعلمت بمرور الوقت كلمات قليلة. كان السيد سكياس يضحك ويقول إذا سمعها تلفظ كلمات أرمنية: «كانك من زارا». أخبرها عن قرينه\*. كان مرات ويلا وعي يترك الإنكليزية وهو يحكي عن أهله ويكمل كلامه بالأرمنية فتظل ساكنة. دلّها إلى صورة في الجريدة: باخرة تغرق. قرأت تحت الصورة اسم الباخرة: Audacious. فراقطة حربية إنكليزية غرقت بلغم بحري ألماني قبالة سواحل إيرلندا.

\* «Krekorian (Gregory) Sekias, son of Tumas and Marrow Sherinian Sekias, was born an Armenian in the town of Zara, state of Sivas, Country of Turkey, on...».

الحاجيين تأملت العربات. ابسّم وهو ينظر إليها ثم أخبرها أنه قرأ في الجريدة عن رجل في الحي السوري في بوسطن ضرب زوجته فاشتكتة إلى البوليس. جاؤوا وجروه إلى الحبس وهو يضربهم ويقول «لا تندخلوا بيّني وبين زوجتي». ضربوه عندما ضربهم وكسروا أضلاعه وأنفه وأصابع يده اليمنى. أخبرها القصة ثم جلس محتاراً.

كانت تعرف أنه يملك معملأ صغيراً للأحذية. أرادت - قبل أن يخبرها قصة السوري وزوجته - أن تسأله عن عمله. لسبب لا تعرفه ظنّت سائكة. نهض وهو يضع النقود في جيب معطفه. ألقى تحية المساء وخرج. هي أقفلت الباب وتراجعت إلى مقرها في المستودع. بينما تفرد بطانية شعرت بالغضب. ماذا أغضبها؟ لم تكن متأكدة.

صارت تشتري الجريدة وتقرأها أثناء النهار. كان الشغل سهلاً، المحل له زبائن، وكل يوم يأتي زبائن جدد. غيرت الواجهة. وسّعت مساحة العرض، ووضعت - حيث العين ترى - أجمل ما في المتجر. علّقت أيضاً قبعات بريش في المدخل، وكتبت على لافتة:

10 Percent OFF

ومن دون أي جهد إضافي امتلأ المتجر.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^

(ربما وهي تساعد أولادها في الدروس الإنكليزية أو في الجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية) الدور الذي لعبه السيد غريغوري سكياس في تكوّن شخصيتها الجديدة (الأميركية): أثناء الشهور الأولى من سنة 1915 صار يقرأ «نيويورك تايمز» بسبب تغطيتها للنكبة الأرمنية على الجبهة القوقازية (ساحة الحرب بين روسيا وتركيا). كان يدخل المتجر قبيل المساء مقوس الظهر كأن أخبار التهجير والمذابح كسرت ظهره. يحصي النقود من دون تركيز ويمرّ بنظرة على الدفاتر وعلى الرفوف بوجه أبيض. مرتا تجلب له الشاي الساخن. يشرب ويشكرها. تجلب له بسكويت الزنجبيل أيضاً من المقهى المجاور. صار يتأخر هنا حتى الترامواي الثاني، ولا يخرج إلى الثلج والهواء البارد إلا بينما مصابيح الشارع البرتقالية تضاء. يتكلمان. هو يتكلم أكثر. هي تصغي. عندما يقوم واقفاً ويلتفت بالمعطف والشال العريض الصوف والقبعة ذات الأذنين كأذني الأرنب تسبقه إلى الباب. تراه يلبس القفازين ثم يلتقط المظلة بينما توارب الباب كي يتغير الهواء قليلاً ولا يصفقه البرد دفعة واحدة ويمرض. يتأنى وهو خارج ويقول لها كلمة طيبة ثم يلقي تحية المساء. يخرج بينما الترامواي يذنو والضوء يبرق مكثراً على رفاق الثلج. من أثر فيها؟ هو؟ أم الأخبار التي كانت تقرأها (وجدت الجريدة منعة بحد ذاتها)؟ أم الجو (الكيمياء)؟ ماذا حدث في تلك الأماسي في ذلك المتجر في «ماين ستريت»؟ لم يحدث شيء؟ كان يؤثّر فيها، بلا شك. هل أثرت هي فيه؟ هل غيرت شيئاً في حياته؟ في نفسه؟

عندما مرض في ذلك الربيع (ربيع 1915) افتقدته. صار إنه يأتي بدلاً منه. هذا الكبير، كينفورك (سّماء على إسم القديس) يشبهه كأنه نسخة عنه، ولكن بفارق ثلاثين سنة. بينما يحصي النقود عائد

أيضاً - أهلكاه في البيت. متعا عنه أشياء كثيرة، خصوصاً الجرايد. غابت ضحكته تماماً وهو يقول «الجرايد». بعد ذهابه فكرت مرثا أنها لم تره هكذا أبداً من قبل.

أثناء خروجه، وهو يلف الشال، تأمل اللافتة مرة أخرى وسألها: «خطك؟». هزت رأسها ورمشت برموشها الطويلة.

في مساء اليوم التالي أخبرته عن جوزف أسطفان. سمعها من دون أن يقطعها. عندما انتهت قال إنه موافق وتمنى لها التوفيق. هو ذهب وهي قضت ليلتها تغلب على الفراش بانتظار طلوع الصباح. لم تتوقع أن يقول السيد سكياس «نعم» بهذه السهولة. ليس عليها الآن إلا أن تتصل بجوزف أسطفان وتطلب «الشحنة». رتبت المستودع واستعدت. علّقت لافتة بالخط العربي في الواجهة وتعمدت - قبل تعليقها - أن تزور مستر معمرباشي وتعرض أمامه مشروعها. هو أيضاً تمنى لها التوفيق. ووعدوا أن يساعد مقدار استطاعته. «مع أنك سترقين مني ناس الطريق»، قال بوجو جاد. لم تعرف هل هو غاضب أم أنه يداعبها. فيما بعد اكتشفت أنها فعلاً سرقت منه الكشاشات والكشاشين! والغريب أنه كان يرسلهم إليها، يدهمهم إلى المتجر ويُسهل تجارتها. الشحنة الأولى التي أرسلها جوزف أسطفان من نيويورك بالقطار وصلت في تشرين الأول (أكتوبر) 1915. قبل نهاية الشهر وجدت مستودعها فارغاً. لم تكن الشحنة الثانية وصلت بعد!

يوم الأحد ركبت القطار إلى نيويورك كي تزور «شريكها» جوزف أسطفان في بيته الجديد. في تلك الفترة شاع انتقال السويين من «مانهاتن التحتا»\* (كما سموها) إلى بروكلين وجوارها حيث

\* Lower Manhattan

### المتجر (3)

خرج السيد سكياس من مرضه الطويل نحيلاً، أشد نحولاً من أي وقت مضى، وعظام وجهه بارزة. عندما رآته يترجل من الترامواي انقبض قلبها: بدا على حافة الموت، شديد الضعف الجسماني، وركبته تعجزان عن حمله. في خيالها وأنه يسقط إلى أمام ودقته تطرق الرصيف. أسرعت كي تساعد فأصابتها الدعشة عندما سمعت صوته، عارم القوة، حاداً، ولا يشويه الوهن إطلاقاً. فتح ذراعيه وضمّتها إليه ضمة قوية. فزعت عندما فعل ذلك. ثم استراحت حين وقف يتكلم عن الواجهة وكيف صارت عريضة وجذابة ومن بعيد يراها الراكبون في الترام. كان يتسم. رأت أسنانه الباقية في فمه. فاحت من ثيابه وشعره ودقته رائحة الكولونيا. بينما يدخلان تأمل القبعات القليلة الباقية (باعث الشحنة كلها) وهزّ رأسه معجباً بالخط الأنيق في اللافتة: 10 Percent OFF. أخبرها أن هذه هي التجارة الحقيقية. وللمرة الأولى ضحك وهو يفحص «الدفتر» ويرى أنها باعت من دون تنزيلات!

حين اكتشف أن أرباح المتجر في فترة مرضه تضاعفت ثلاث مرات مسح رقبته بالمنديل - كان يعرق تحت الياقة الصوف السمكية - وقال «المرض مريح». ضحك وسألها عن صحتها. كان البخار يتصاعد من كوبي الشاي ورائحة السكوكيت الساخنة تملأ المكان. قالت إنها بخير وسألته عن العائلة. أخبرها أن زوجته - والطبيب

## المتجر (4)

للوهلة الأولى شعرت بالخوف. لم يذهب عنها الإحساس المبالغت بالضيق - كأنها وقعت في فخ - إلا عندما تكلم جوزف من جديد. قال إن هذا الرجل من أقدم معارفه في نيويورك، إسمه حنايا برياري، أرمل عنده متجر في «الحي الصيني»، السوري الوحيد الصامد هناك، قصير القامة مثلهم ومن عيشتهم صار أصفر الوجه... زوجة جوزف أسطفان كانت آتية من المطبخ وهي تحمل سكين الخبز الطويل: ضحكت عندما سمعت كلام زوجها وقالت «Hannania is Chinese». عرفت ماذا يقول. حفظت من العربية كلمات كثيرة: تعرف الألوان جميعاً، أصفر Yellow، أحمر Red، أبيض White، أسود Black، أخضر Green. سألها جوزف أين مارون؟ قالت إنه سيأتي، لن يتأخر. ثم اخضت مرة أخرى.

وصلا معاً: مارون والضيف. لم يكن أصفر البشرة كما وصفه جوزف، ولكن مغطاً اللون، كأنه قضى زمناً بين الحيطان، لا يخرج. زاد من انطباعها هذا الوجه الآخر الذي أطلت معه: كان مارون يضحك وهو يندو ويمدّ يده ويصافحها. تشرب وجهه حمرة تُفرح القلب وهو يلفظ إسمها. على المائدة، بينما يشربون ويأكلون فيما بروكلين كلّها تشرب وتأكل، روى السيد حنايا:

\* حنايا صيني.

الأرض أرخص وأوسع. جوزف أسطفان واحد من هؤلاء: اشترى قطعة أرض في طرف «عنري ستريت» وبني متجراً بطبقتين. سكن مع عائلته في الطبقة العليا. الدرج الذي يصل بين الطبقتين تحول بسرعة مستودعاً آخر لللبضائع. الزوجة عارضت في البدء لكنها سرعان ما تحولت تاجرة: صارت تنزل إلى «تحت» وتقضي النهار مع الزبائن ولا ترجع إلى «فوق» إلا كي تطبخ للبنات قبل رجوعهن من المدرسة.

مرتا لم تعرفها عندما دخلت المتجر: كانت تليس تنورة كحلية طويلة وترتبط شعرها بمندبيل مثل السوريات مع أنها أميركية! وما أضحكها أكثر رؤية طنجرة على الأرض وراء المتضدة، ولوح خشب تفرم عليه البصل والخضر بين زيون وآخر.

قبل أن يتناولوا الطعام أوقفها جوزف أمام رف المدفأة كي تقرأ الكلمات المنقورة في «الرخامة»:

Abramowicz Jichlinski Cansinos

أخبرها أن الإسم هولندي أو بولندي أو إسباني. خلال شهر الصيف وهو يبني البيت والمتجر ويتأخر في إرسال البضاعة إليها (ضحك بينما يقول هذا) عثر على هذه «الرخامة» في سوق للأثاث المستعمل. أخبرها أن أحد السوريين دلّه إلى المكان فهناك يعثرون أيضاً على أجران حجرية صالحة لدقّ الكتيّة. كانت مرتا تلمس الحروف المنقورة في الرخام عندئذ، وأخبرها جوزف أن زائراً قد يجيء على الغداء.

- عمي حنانيا (أنا سَمَّيتُ على إسمه) كان بين أوائل السورين الذين أتوا إلى أميركا. نحن في الأصل من قرية صغيرة في الجبل تُسَمَّى «العطشانة»، لأنها بلا ماء. لا يتابع ولا آبار ولا سواقي، نجتمع مياه الأمطار، ونعيش من خدمة الدير. الدير يملك القرية، يملك الأرض والبيوت، وأهلي عندما كانوا يريدون أن يبنوا قُفْلاً للدجاج كان عليهم طلب الإذن من الخوارنة. ومرات كان «أبونا» يقول لا، ولا يبنون للدجاج قُفْلاً. أنا لا أذكر القرية إلا في صور بعيدة متفرقة. أذكر مثلاً الوادي، والطريق إلى كعب الوادي، حيث ساقية قليلة الماء نأخذ منها ما نشربه، وجنبها «الفرن»، عبارة عن «صندوق» كبيرة من الطين نشعل تحتها الحطب، وكل القرية تخبز عجينيها «تحت»، في كعب الوادي، ثم نحمله إلى فوق، لماذا لا يخبزون أمام البيوت، لا أعرف... أنا جئت إلى هنا صغيراً، عمي أرسل وجليني ولولا عمي كنت أموت صغيراً كما مات أخوتي قبلي. أنا خسرت أربعة أخوة وأنا صغير: بولس وسليم والياس وعيسى. وخسرت أختين: ميليا وهيلانة. لم يبق لي أخوة. وبعد وصولي إلى أميركا ماتت أمي ثم عرفت أن أبي سيتزوج ثم جاء «المكتوب» وفيه أن أبي توفي وهو راجع من «الحقل»: كان يحمل سلَّة «مفتي» (هذا نزرعه «بعل»، مثل الخيار ولا يحتاج إلى سقاية) ووقع على الطريق في النقطة نفسها حيث وقع جدي (أبوه) من قبل ومات أيضاً. الخوارنة الذين أرسلوا «المكتوب» إلِّي كتبوا أيضاً أنه مات وفي رقبته دين: ثلاث ليرات ذهب عثملي! لماذا استدان أبي من الدير هذا المبلغ، لا أدري. عمي هو الذي دفع ثمن «الناولون» كي أجي. إلى هنا. أنا سهوت أكثر من ليلة أفكر في ذلك الدين المستحق: حين قرأت «المكتوب» مزقته ورميه. عمي لم يقرأه. كان على الطريق،

بذهب ولا يرجع إلا بعد شهر. لم أعمل معه إلا وقتاً قصيراً، كنت معتل الصحة، فكان يتركني عند امرأة يعرفها، نصف إسبانية نصف هندية، في «إيسترن هارلم». كانت بلا أولاد، زوجها ذهب إلى كوبيك في كندا يتاجر بالفراء على طول الهدسون ولم يرجع. عندها ثلاث بقرات، تربي البقرات وتبيع حليباً وتقطع جيناً، تعمل لبنة أيضاً، عمي علّمها، وأنا صرت أساعدها. كنا نعلق كيس اللبنة من غصن الشجرة وأنا أحرسه من الغزلان والقطط. في ذلك الوقت كنت ترى الغزلان تخرج من بين شجرات «السترنال بارك» عند المساء وتمزّ في «الفيفت أفينيو». المرأة إسمها «فاني»، هكذا كان عمي يناديها، طوال الوقت تدخن، حتى وهي تحلب البقرات، وتقول إن البقرة تسترخي عندما تشمّ رائحة تبغها. كنت أساعدها، أغسل البقرات، وأغسل الدلاء الحديد، تعلمت منها الإنكليزية والإسبانية وما تعرفه من لغة الهنود. عاملتني معاملة جيدة وعندما تحسّنت صحتي وصرت أخرج مثل عمي حاملاً الكشَّة وأجني ما يكفيني، بقيت أرجع إليها من حين إلى آخر، نتمشى ونفرض لي وأقضي الليل. عمي أيضاً كنت ألقبه عندها مرات، وحين نخرج معاً كي نبيع ويتبه أنني صرت أتكلّم الإنكليزية أحسن منه بدرجات يقول لي: «البقر يُقيد». كان يضايقني عندما يضحك ويضربني على ظهري، ضربه تهذّب. وكنت لا أحبّ كيف يتحدث عنها. الغريب أنه عاش في أميركا سنوات طويلة ولم يتعلم من اللغة إلا بعض الجمل والعبارات. لم يأخذ من طباع هذه البلاد شيئاً. مع ذلك كان الوحيد الباقي من عائلتي وكنت أحترمه وأفكر دائماً في فضله عليّ وعندما يطلب مني نقوداً أعطيه أكثر مما يطلب. لم يكن سيئاً لكنه لم يكن جيداً أيضاً. عندما حكيت له عن المنام الذي أراه ضحك مني. كنت أرى دائماً

صغير. طال احتضاره أسبوعين أو ثلاثة، وأنا لم أكن لا في «إيست هارلم» ولا في ولاية نيويورك كلها. كنت أناجر بين التهرين، لم أترك بلدة على ضفة «مسوري ريفر» إلا وبعث فيها قماشاً. رأيت مرّة «عبارة» تفرق في المسيسيبي، حملوها حمولة زائدة، انكسرت. رأيت الماشية تسبح وتغرق وتسيح ونزلت إلى الماء مع اللذين نزلوا وأنقذنا أولاداً ونساء. لطمني حيوان وأنا في الماء، ثور أو حصان لا أعلم، ويقني جنيني مبقعاً بالأزرق طوال شهور. عمي مدفون في نيويورك وجنبه المرأة «فاني». سمّيت ابنتي الكبرى على إسمها.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^ RAYAHEEN ^

مجموعة من الأشخاص يقتربون مني وهم يلبسون لباس الخوارة ويعقدون الزناثير على بطونهم، لا يتكلمون معي ولا أعرفهم وحتى وجوههم لا أراها لكنني أستيقظ من المنام وأنا متضايق ورقبتي عرقانة. قلت لعمي إنني أريد أن أرسل إلى الدير في سورية دين المرحوم أبي. قلت إنني أذخرت بعض النقود لكنني لا أعرف كيف أرسل الليرات الثلاث الذهب إلى الدير، ولا أعرف كم تساوي هذه بالفضبط في العملة الأميركية. قلت له إنني سألت وإنني أعرف أن معي الآن ما يكفي ويزيد. سألتني هل أنا أخوت؟ سألتني كيف أصدق الخوارة؟ وسألتني حتى لو صدقتهم كيف أرسل لهم فليلاً واحداً؟ أخبرني أنه هو وأهلي وأهل أهلي (أي أهله) وأجدادي جميعاً عاشوا الحياة كلها عبيداً عند الخوارة، يزرعون الزيتون والقمح والشعير للدير، ولا يأخذون إلا ما يمنح عنهم الموت جوعاً. سألتني أين عقلي؟ أنا كنت صغيراً في ذلك الوقت وعندما قال هذا سكت ولم أفتح الموضوع أمامه مرة أخرى. لكنه بعد فترة جاء وحده وسألتني هل ما زلت أفكر في دين الدير؟ قال إن واحداً من البلاد عائد إلى هناك، ويمكنه أن يرسل الليرات إلى الدير إذا كنت ما زلت مصراً. أعطيته ما جمعته. وذهب. بعد فترة التقينا وأخبرني أنه أرسل المال لكنني أخوت. أنا صدقته. لكنني بقيت أرى ذلك المنام. وعندما رأته مرة أخرى وطلب مني نقوداً فهمت أنه كذب عليّ وأنه لم يرسل الليرات إلى سورية. مع هذا لم أقل شيئاً. أعطيته ما يطلب وافترقنا مرة أخرى. بعد فترة، كنت أسأل وأتعلّم، أرسلت الليرات الثلاث إلى الدير. مرّت شهور ثم جاءني «مكتوب» وفيه يقول الخوارة أن الليرات الثلاث وصلت. بعد ذلك لم أرهم في المنام.

مرض عمي في بطنه ومات في بيت المرأة التي اعتنت بي وأنا

كانوا يشربون القهوة المرة من فناجين الخزف «الشقّة» التي لا تجد مثلها إلا في بيوت السوريين، عندما أظلمت النوافذ فجأة وانهمر المطر غزيراً. لم تكن الشمس غربت بعد لكن تبدل الطقس أشعرها أنها تأخرت كثيراً وأن القطار سيبقها عائداً إلى فيلادلفيا. للحظة وجيزة تنازعتها رغبتان: أن تذهب الآن وبسرعة؛ وأن تبقى هنا، أكثر من هذه الليلة حتى، وألا تترك هذا المكان، هذه الغرفة، هذا المقعد قبالة المدفأة.

تكلموا عن العمل. غرقت في تفاصيل وأرقام مع جوزف لكنها في إحدى اللحظات سمعت الحديث الدائر بين مارون والسيد حنايا: كان مارون يقول شيئاً عن قبصر ألمانيا وويليام الثاني وواقفه السيد حنايا الرأي ثم عارضه بشدة. لم تفهم ماذا كان سبب الخلاف بالضبط؛ لم يكن ذلك مهماً بالنسبة إليها. بعد ذلك تشعب الكلام وتحدثت جوزف عن الحرب.

في القطار، بينما تفتح الجزدان وتُخرج الجريدة المطوية، تذكرت نفعاً من الحديث وشعرت بالنعاس. مررت لسانها على أسنانها وسقف حلقها واستعادت طعم النبيذ الأحمر واللحم المطبوخ طويلاً على نار خفيفة. ماذا قال جوزف عن الجراد؟ قال إنه قرأ في «الهدى» (جريدة عربية تُطبع في نيويورك) إن الجالية السورية تجمع تبرعات كي ترسل مساعدات إلى جبل لبنان حيث نزل الجراد وأكل المحاصيل. مرنا سألته متى حدث هذا، في الصيف، قبل الحصاد؟ أجابها إن الأحوال سيئة في البلاد، الجراد أكل المحاصيل قبل جنيها، يقولون هناك جوع والناس يلذعون إلى حوران لشراء القمح والشعير، وما يزيد الطين بلّة أن العساكر التركية تصدر الدواجن والمواشي والحبوب بينما «الحلفاء» يسدّون البحر. سألته هل تصل

## المتجر (5)

تكلم حنايا برباري بالإنكليزية والعربية. في لحظات محددة من قصته انتقل إلى العربية. مرنا أصغت وهي تحمل السكين بيد والشوكة بالأخرى. بنات جوزف أسطفان أيضاً أصغين بلا حركة. عندما انتقل الرجل إلى لغة لا يعرفن منها إلا كلمات قليلة بدا على وجوههن الضيق. وعندما رجع إلى الإنكليزية لم يتبدد الضيق تماماً (ماذا ضاع من الحكاية؟). زوجة جوزف أسطفان كانت تأكل وهي تلتفت مسرورة. فكرت مرنا أنها سمعت القصة من قبل. مارون أيضاً بدا مرتاحاً. كلّمنا نظرت صوبه رأت أنه ينظر إليها: كانت نظرتنه هادئة، محبة، وتبعث في النفس إحساساً دافئاً. استغربت أنه يُسبب المشاكل لأبيه. لم يظهر عليه أنه طائش أو عنيد. على الأقل ليس في تلك الساعة على المائدة.

بعد الطعام انسحبت الفتيات وبقيت مرنا مع الرجال الثلاثة. زوجة جوزف أسطفان غابت وقتاً أيضاً. كانت تسمع صوتها في الداخل، وضحكتها وهي تتكلم مع بناتها، وسط قرقعة الصحون تحت الماء. جوزف أسطفان أشعل غليونين وناول واحداً لضيقه. مرنا تراجعت في المقعد الوثير وهي تنظر إلى مارون يكشف الدخان من أمام وجهه ويعبس. في تلك اللحظة فقط، عندما شوّمت العيبة ملامحه، بدا قادراً على أعالي غير متوقّعة.



المسافة من نيويورك إلى فيلادلفيا ليست طويلة. مع ذلك رأيت غروب الشمس ثم صعود القمر، أصفر ومكتمل الدائرة، إلى قبة السماء. كانت السهول تنبسط حمراء وصفراء وخضراء، مفسولة بالمطر، شبه برتقالية عند الغروب، ثم لامعة بضوء اليلد مع انقشاع الغيوم. رأيت قطعياً ضخماً من الخيول البرية يتراكم في الظلام ويوشك أن يغطي مساحة السهل. نُعست وتركت الجريدة في حضنها ولم نقرأ حتى العنوان العريض. نامت وقتاً قصيراً وعندما فتحت عينها رأيت حالة الرطوبة تتحلل حول القمر، ورأت سرب بط يعبر فوق السهل الفضي ثم يخفي وراء جسور وأنهار وشجر. كان العالم مسحوراً، قديماً، ولا يُصدّق. في العمر المضاء عبرت امرأة تحمل طفلاً زاعقاً بالبكاء.

البوسطة (البريد) من سورية؟ وقع ذقنه وقال لا، منذ شهور والأخبار مقطوعة، لكن صاحبي «الهدى» عندهما علاقة بوزارة الخارجية الأميركية وهذه تأتيها الأخبار بالتلغراف من القنصل في بيروت. كان مارون واقفاً إلى النافذة ينظر إلى الأمطار تتساقط على أبنية بروكلين وشوارعها. ظلال المطر انعكست قائمة وسائلة على صفحة وجهه. استدار بعد كلام أبيه باسماء. وراء الزجاج نفخت مدخنة غيمة رمادية. قال مارون شيئاً عن خطوط التلغراف والفواصات الألمانية والسفن التجارية التي تتبع الدول المحايدة والألغام في بحر الشمال. ذكر السفينة لوسيتانيا\* أيضاً. مرنا سمعت كلامه من دون أن تفهم بالضبط مفزاه. كانت مشتتة الذهن، مرهقة، تفكر في الجراد وفيلادلفيا معاً، وفي أشياء أخرى أيضاً: للحظة رأيت الجلول مزهرة وراء البيت في بتاتر، رأيت شجرة التين التي طالما أكلت ثمارها، رأيت اليلد تحت كرخانة الحرير، ورأت جلول التوت تتلوج خضراء مورقة حتى تبلغ البحر الأزرق. كل ذلك بان أمامها رمشة عين ثم تبذ وهي ترى النار تتراقص فوق الحطيات في المدفأة. لكنها، بينما القطار يأخذها إلى فيلادلفيا، استمادت تلك اللحظة قمرها الحزن: وجه خليل حدّاد خرج من الظلام، من مكانٍ خفي. وهي رأته ينظر إلى هذه الجهة ولا يتبدل ملامح وجهه: كأنه لا يراها! أو كأنه يراها ولا يعرفها!

\* Lusitania. سفينة ركاب بريطانية عابرة للAtlantسي تتبع شركة British Cunard Line أفرقتها غواصة ألمانية بتوريدو في 7 أيار (مايو) 1915 قبالة ساحل ليرلندا. من 2200 راكب غرق 1198 راكباً بينهم 128 أميركياً. احتلرت ألمانيا للرئيس ويلدو ولسون، ورغم الصدمة ظلت أميركا على حيا.

## المتجر (6)

جمعت كرم السيد معمرباشي إلى دقة السيد سكياس ونجحت في وقت قصير أن تتحول إلى «مؤنة»\* لعدد كبير من الكشاشين والكشاشين. (ما زلنا في 1915، لكن بعد نهاية الحرب الكبرى، وخلال الأعوام التي أعقبت تجدد الهجرة من سورية إلى أميركا مع فتح البحار والمحيط، استفدنا مرثا أهم «مؤنة» لأهل الكشّة في فيلادلفيا وجوارها: شريكها جوزف أسطفان صار يرسلهم إليها «طازة» بالملايس السورية من مرفأ نيويورك، وهم لا يعرفون من الإنكليزية غير كلمتي «مورنغ» و«مستر»، ومن رقابهم تعلق كرتونة كتب عليها بالحبر: Martha Haddad، كي تعرفهم عند نزولهم من القطار وتأخذهم.

كانوا يأتون إليها وقد حفظوا اسمها وعنوان المتجر من آخرين. تملأ كشاشهم وتحدث معهم وتعمل لهم قهوة. مرات تجلب لهم شيئاً يأكلونه. ذات صباح بارد، بينما سيدات «الكويكر»\*\* يرفعن زينة الميلاد على شجرة عارية الأغصان في الجهة الأخرى من الشارع، أطلّ عليها وجه تعرفه: كان هذا قاسم عبد الباقي. خلفه ظهر آخرون. كانوا مجموعة كبيرة ودخلوا عليها كالعاصفة.

\* Supplier

\*\* Quaker

الأصوات العربية اختلطت وارتفعت في ضجيج، وسيدات «الكويكر» الهادئات كالماشيات في نومهن، التفتن ونظرن إلى هذه الجهة بينما الأنفاس تخرج بيضاء من فتحات الوجوه. كان البرد قارصاً ومع هذا وقفت مرثا مع ضيوفها على الرصيف يتكلمون ويضحكون ويرتجفون. المتجر كان يعج بالزبائن (منذ أسابيع عندها قاعة تساعد على البيع. في فترة الميلاد يكثر الطلب على القماش والثياب؛ النساء يعترهجن جنون). قاسم عبد الباقي دلّها إلى أحد الواقفين جنبه، وعلى رأسه طربوش. كان الرجل يدايعها، يضع الطربوش ثم يخلعه ويسألها ألا تتذكره؟ لم تتذكر اسمه لكنها تذكرت وجهه. كان مع المجموعة السورية على «إليس أيلاند». تذكرته وقالت إنه كان يفت مع الرجل الذي سمّوه «قمر الدين» ولم يدخل أميركا.

قالت إنها راجعة بعد لحظة. تركتهم وحفظت رجلها إلى قرن مجاور. رجعت محملة بالأكياس. وائحة الكمك والحلوى سبقتها إليهم. ارتفعت ضحكاتهم وهم يُخرجون الكمك الساخن من أكياس الورق ويلقون القطع في أفواه واسعة. مرثا قالت: «هذه من الشام». قاسم عبد الباقي دمعت عيناه وهو يتقافز والسكر يجري في دمه. كانت ضحكاتهم تهزّ الفضاء كأنهم في احتفال، في عيد باغتهم على حين غرة.

ضحكوا جميعاً وهم يأكلون الكمكات المغطاة بالسهم؟ أظن أن بعضهم كان ينظر إليها مرفوع الحاجب ولا يفهم. كانت تبدو أميركية! تلبس كأميركية الآن وتتحرك كأميركية وتشتري كأميركية! مع هذا تقف بينهن وتبتسم وتقول بالعربية لقاسم عبد الباقي «كلّ هذه الفطيرة، فيها فواكه مجففة».

أتوا ثم ذهبوا ولم ترهم بعد ذلك. كانت السكة تأخذهم إلى

كان الوقت صباحاً . السماء زرقاء باردة وعمال الترام يجرفون الثلج عن الخط . ساعي البريد الذي يمرّ أمام الواجهة من دون أن يلتفت توقّف هذه المرة ودخل وهو يسعل . بعد خروجه ، مهتزاً بالسعال كما دخل ، فتحت الرسالة . عرفت من أرسلها من الإسم على الطرف . فتحتها وهي لا تعرف ماذا تتوقع . فرنسيسكا مركزل إبراهيم كتبت لها من بروكلين رسالة قصيرة بالإنكليزية تبدأ بتمنيات سعيدة مع حلول السنة الجديدة وتنتهي بذكر «زوجك خليل»\* . كانت رسالة غريبة ، لا بسبب الكلمات العربية التي تصدرها فقط - «باسم الأب والإبن والروح القدس» - ولكن أيضاً بسبب الإختيار المنمق للكلمات: بدت فرنسيسكا مركزل إبراهيم تاجرة وراعية في اللحظة ذاتها . باركت لمرنا أعمالها الجديدة ودقّرتها بالقطع التريكو التي اشترتها منها قبل سنتين حين كانت تقيم في مانهاتن (نيويورك) بواسطة «صديقنا المشترك» (mutual Friend) جوزف أسطفان . ثم نعتت عليها باسم المحبة المسيحية الخالصة والرباط المقدس بين الزوج والزوجة أن تقبل دعوتها وأن تنزل عليها ضيفاً في الأحد الأخير من هذا الشهر (كانون الثاني (يناير) 1916) في بيتها في

\* .Your husband Khalil

مدنٍ أخرى وولاياتٍ أخرى وبعضهم يرجع وبعضهم لا يفعل . كم مرة ملأت كسّة بضاعة ولم يرجع إليها دولار واحد؟ مع ذلك ظلّت تملأ الكسّات والجزادين . وحين يرجع كسّاش ويقول إنه سيتأخر في الدفع شهراً ، تقبل وتبيعه على الحساب من جديد - لكن كمية أقل أحياناً - وتصلّي أن يعود . وعندما يعود ويدفع ما عليه تعرف أن السيد معمرباشي أفضل عليها . ألم يُعلمها هذا بالضبط وهو يحكي لها عن ناس الطريق؟

كانت سنة تنتهي وأخرى تبدأ . أخذت الفتاة التي تساعدها إلى المطعم المجاور واشترت لها وجبة . بعد ذلك ، وهي تدفع أجرتها الأسبوعية ، زادت لها «عيدية» . الفتاة شكرتها وهي تحمّر كالشمندر: وجهها تورّد ، ورفقتها اصطبغت باللون نفسه . مرّتا رأّت ذلك وشعرت بالحزن . بينما تغتسل قبل النوم أحسّت بتعبٍ شديد .

اختصرت طقوسها الليلية ونزلت تحت البطانيات . كانت تسمع ضجة في الشارع ، وراء الصناديق والجدار . عادة لا تسمع ضجة في هذا الوقت . هذه الليلة مختلفة\* . أغمضت عينها وحاولت أن تنام .

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^

«هنري ستريت» - بروكلين، حيث ينزل منذ يومين «صديق زوجي وعائلتنا زوجي خليل».

قرأت الرسالة ثلاث مرات ثم طوتها ووضعتها في الجارور، تحت دفتر المحل. دخلت امرأة وبعاتها. ثم دخلت أخرى وبعاتها ما تطلب أيضاً لكن من دون أن تركز أو تنبه. بعد ذلك، وقد صارت وحدها مرة أخرى، فتحت الجارور وأخرجت الرسالة وكُرِّرت القراءة. عند الظهيرة لم تخرج إلى المطعم المجاور. سحنت شايًا على البابور وشربت كوباً مع سكر كثير. كانت ترجف غضباً، وقرأت الرسالة مرة أخيرة ثم مزقتها نفاقاً ورمتها. بعد الظهر، وهي تملأ كفة سوري من زحلة بينما يخبرها عن الثلوج والعواصف في سفوح الأبالاشي\*، ندمت لأنها مزقت الرسالة: ودت لو قرأها مرة بعد.

خرج الكشاش وقفز فوق بركة ثلوج ذاتية ثم اختفى. كان قوي البنية، وخطر في بالها أن الذين يحملون الكفة ملأته ويقفزون هكذا لا يهربون ويختفون. مرّ الترامواي في تلك اللحظة كأنه ينزل على القشرة البيضاء وأخذ خاطرتها معه. في متجر مواجه أضاء أحدهم مصباحاً غازياً ثم أطفأه؛ كان يفحص المصباح أو يُظفنه. فتحت دفتر المحل كي تشغل نفسها ثم فتحت الدفتر الآخر الذي تسجل فيه حسابات أهل الكفة ثم أغلقت الدفتريين وأقلعت الجارور ودارت من وراء المنضدة وخرجت من المتجر ووقفت على الرصيف. لم تنتبه أنها جائعة ولم تفكر في الأمر. شعرت أن شيئاً يقطعها نصفين، ولا تعرف ماذا يكون. كان حاداً كسكين، كقواطع رسائل أو قاطع قماش، لكنه لا يلمس ولا يبرى. شعرت أنها تقع، كأنها تدوخ. رجعت إلى

\* Appalachian Mountains

داخل المتجر وجلست على مقعد ونظرت إلى يديها. لم تنتبه إلى المحبس في إصبعها (صار أضيّق بعض الشيء) ولا إلى أظافرها المقلّمة ولا إلى الخطوط. نظرت إلى يديها كأنها تنظر إلى قطعتين غريبتين عنها ومتصلتين بالرسغين. كانت تلبس جاكيت من الصوف الأصفر، ونظرت إلى الزرّ الأسود في كم الجاكيت وظلّت تنظر إليه وقتاً طويلاً كأنها تتأمل شيئاً لم تر مثله من قبل.

أريد أن أنهى مسألة الرسالة\* عند هذه النقطة. أود أن أعفي مرثا مما باتي في الأيام الفاصلة عن الأحد المذكور. لكن لا بد من هذا: قضت وقتاً غريباً مضعضعاً. تابعت العمل، تبجح وتقبض وتسجل في الدفتريين، لكن حين تبقى وحدها ترجع إلى الدفتر مرة أخرى وتؤكد من الأرقام. هل حاسبت خطأ؟ كانت مشتتة، ضعيفة كما لم تكن ضعيفة منذ زمن بعيد. منذ متى؟ ما ضايقها أكثر من النهارات ساعات الليل، حين تارق. ولكن أيضاً حين تنام وتباغتها منامات غير مفهومة. رآته مرة أخرى في المزرعة على حافة «كلارينتون رود» ينظر إليها واقفاً جنب امرأة غريبة في ثوب أزرق. هذه المرأة حدّقت إلى المرأة. خيّل إليها أنها ترى وجهها. كانت هي: مرثا! على المائدة رأت ناساً كثيراً تعرفهم: مستر معمرياشي كان يأكل ويتسم ولا يتكلم. في الصباح، عندما تذكرت المنام وهي

\* بعد ذلك تتصل رسائل أخرى، بالمحتوى ذاته تقريباً (زوجي خليل، الرباط المقدس، المحبة المسيحية)، ولو تبدل المرسل. من يكتب لها غير فرنسيسكا مكرزل إبراهيم؟ الست حتة بافت؟ الحاجة ماري؟ جوزف أسطفان نفسه؟ لا، جوزف لا يكتب، لكنه يحمل نفسه من نيويورك إلى فيلادلفيا ويذكر الموضوع حراً ورائتباو شديد. جوزف باقي في صلفها. ولن تستمر مسألة الرسائل طويلاً. الرسالة الأخيرة تصل أواخر 1918، ولن يكتبها شخص تعرفه.

تشرب القهوة، بكت غيظاً. لم تفهم ماذا يحدث لها.

تكرّر المنام أكثر من مرة، رأت على المائدة صحوناً وصناديق (لماذا صناديق بين أطباق الطعام؟). وبينما تنتظر إلى الوجوه رأت ناساً من قريتها، ورات أباه. بحثت عقوباً عن أمها أيضاً لكنها لم تعثر عليها. أثناء النهار حاولت أن تتذكر كيف بدا أبوها في المنام (مسروراً؟ حزيناً؟ غاضباً؟) لكن الأشياء ظلت غائمة لا تقبل التحديد.

حلّ الأحد. كان يوم «الجمعة» الإسيوعية بالنسبة إليها، ويوم الغسيل والكوي أيضاً. لكنها فعلت كل ذلك بلا نفس. طوال الوقت استمرت الأغراض تقع من يديها. ارتطمت بحافة صندوق. لطمته. بينما أجراس القديس تُقرع بلغ توترها أقصاه: ماذا رأت في خيالها؟ هل رأت بيتاً بعيداً في «هنري ستريت» - بروكلين يحترق بالناس والطعام والكلام؟ هل رأت مقعداً فارغاً؟ كيف ظلت الست فرنسيسكا أنها تقدر أن تذهب وتحضر القديس الصباحي ثم تتناول الغداء مع رجلٍ هجرها؟ الرباط المقدس؟ وذت أن تكتب إلى الست مكرزول رداً. لكنها عرفت أنها لن تفعل ذلك. عند الظهر خرجت ووقفت على الرصيف. هل انتهت أنها كانت تنتظر؟ ماذا تنتظر؟ هل انتظرت أن يأتي خليل حداد بحثاً عنها كما ذهب هي وبحث عنه؟ لعلها انتظرت.

لعلها بعد ذلك نامت على أمل: غداً الإثنين يأتي. اليوم لن يلحق، كان ينتظرها ولم تأت. غداً يركب القطار من نيويورك إلى فيلادلفيا. هل مرّت هذه الخاطرة في بالها؟ هل تخيلته أتياً إليها من البعيد، يقف في باب المتجر حيث علقت اللافتة بالخط العربي الذي يشبه رسماً، وينظر إليها في بلوزة بيضاء وزرقاء، واقفة وراء المنضدة

تسجل رقماً في دفتر مجلده؟ لكن ماذا حدث للمرأة الأخرى في نيويورك؟ هل تأخذ مكانها؟ لم تعرفها. لم تتكلم معها. تذكر أزيز الحشرات على الطريق. والحوذي الأسود المعجوز كفت عن الحكيم. في المنام رأت أنها صارت تلك المرأة ذات الشوب الأزرق! ألم تتحول إلى أميركية؟ ماذا يُميّزها عن الأميركييات الآن؟ رأت نظرات الكشاشين إليها. رأت وعرفت ماذا يفكرون. هي ماذا تفكر؟  
لم يأت خليل حداد.

صديريانهم تتدلى ساعات بسلاسل ذهب. واحد منهم جاء من مرفأ بيروت في عربة تجرها أربعة أحصنة: من العربة أنزلوا صناديق ثقيلة مملوءة نقوداً! قبل إنه كان ينقل أمانة. لا أحد يعرف ماذا يُبدّل ذلك: الصبي (اسمه عبد\*) رأى الصناديق بعينه الاثنتين وهي تُنزل. سمع خشخشة الليرات الذهب. ورأى ما يشبه شعاعاً أصفر يخرج من ثقب الصندوق، من بين ألواح الخشب.

الأم بكت وهي تودعه: هو يسير مبتعداً في الطريق إلى بيروت حيث البحر والباخر اللاهية إلى أميركا وهي تناديه: «لا تكسر قلبي يا ابني، إرجع يا عيد، لا تفعل بأمنك هذا». وعدّها قبل الذهاب أن يعود. قال أنظري إلى خالتي ما أجمل أنوابها، حين أرجع أشتري لك قماشاً ثميناً ونُحِيط أجمل ثوب في زحلة، لك أنت. كانت أمطرت ذلك الصباح، والعشب أخضر بليل يلمّخ أسفل الشروال بالرطوبة. أسرع في خطواته كي يخفي الصوت الذي يتأديه. أبوه لم يبك. صافحه وقال: «أنت كالرجل الآن، إنبتة لنفسك». لكن صوته تهلّج.

كانت مرتا قاعدة في المتجر تقرأ الجريدة وتشرّب شايًا - هذه لحظات راحتها. دخل إد معزق الثياب، وعينه سوداء مخموضة. كان يكابر مانعاً نفسه من البكاء. أسرع إليه وأنزلت «الكثّة» عن

كشاش صغير من زحلة، فتى في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، كبير الجسم بالنسبة إلى عمره، استقدمه خاله طوبي قزما الخوري «بوسكين» (قبل أيام من دخول العالم الحرب) إلى أميركا كي يجرب حظه. اعتد أن ذلك حدث في بحر سنة 1914، في نقطة ما فاصلة بين إعلان ألمانيا الحرب على روسيا\* ودخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا. لماذا جُلب الفتى إلى «العالم الجديد»؟ هو طلب ذلك. مرة تلو أخرى أفسد أماسي أبوه وأمه - في البيت العقد الراسخ على ضفة البردوني الأبيض المياه - وهو يكرر الطلب. الأب عنده تجارة في زحلة، هذه عاصمة سهل البقاع، ملتقى القوافل منذ عقود. كل تجارة دمشق - بيروت تمرّ من هنا. لكن الزمن يتغير والتجارة بارت: القوافل انقضت عهدا والأب يبيع أراضيه قطعة بعد أخرى. الفتى يرى المهاجرين العائدين من أميركا يلبسون الجوخ وعلى

\* انظر «طريقي إلى أميركا» لنعمة سركيس المطبوع في نيويورك مطلع القرن العشرين (بلا تاريخ نشر). وسيرة محمد (إد) العريان ابن جبل حوران كما أملاها بالإنكليزية على زوجته الأميركية في سنة 1972: فرحلة من سورية إلى سمينول - تكساس. ومبعوثه (الجزء الثاني) لبيخاتيل نعيمة المنشور سنة 1960. وفيه قائمة بأسماء تتغير عند قطع الأطلسي: «هيكال» بصير «عاري» و«ملمح» بصير «وليم» و«ديس» بصير «دايفيد».

\* أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في الأول من آب (أغسطس) 1914. في 3 آب أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا. في 4 آب أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا. في 6 آب أعلنت النمسا - هنغاريا الحرب على روسيا. في 23 آب أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا. في 24 آب دخلت الجيوش الألمانية فرنسا. في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) 1914 أعلنت روسيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية.

ظهروه. سألته ماذا جرى. كانت - منذ شهر - تبعه. لم يقل شيئاً. لم يفتح فمه. جلس على الكرسي الذي جلبته وبقي ساكناً يمسح الدم عن أصابعه ويفحص ركبته المجروحة: البنطلون تمزق. سألته هل وقع وهو يقفز من القطار؟ قالت ذلك وهي تعرف أنه لم يقع. أرادت فقط أن يتكلم. لم ينتظر إليها. سكبت له ماء. شرب الماء وبينما يشرب يصبغ نصف ما شربه على الأرض ونهض واقفاً. رأت ساقه ترجف. ثم رأت أغرب مشهد في حياتها: صار يخيط الأرض ويدور على نفسه كأنه يرقص، لكن بلا فرح. كان يبكي، لم تعرف ماذا تفعل بجسمها وهو يبزم هكذا أمام عينيها. . . بعد ذلك جلس على الأرض. مرتاً مدت يدها ووضعتها على كتفه. استمر ذلك وقتاً. ثم كفت عن البكاء.

لم تعرف من اعتدى عليه ولم تعرف كيف انتهى الأمر ولا ماذا جرى. بينما يبكي قال «ها أمي!»، شعرت بقلبي ينتقل عندما قال ذلك. كانت تعرف أنه صغير السن: سمعت أن عماله الملقب «بو سكين»<sup>\*</sup> ندم لأنه دفع ثمن «التاولون» وجلب الصغير إلى أميركا. سمعت أنه أراد أن يرسله إلى «البلاد» (عيد - إد - هو الذي طلب: أقصد أيام عماله وهو يلج طالباً الرجوع إلى زحلة، إلى بيت أهله. لم يتحمل طرقات أميركا)، حتى أنه ذهب إلى شركة البواخر كي يقطع تذكرة. أخبروه أن ذلك لن ينفع. لا يمكن الوصول بالبحر إلى مرفأ

\* على وجه طوي قزما الخوري ندية من غربة سكين قديمة تعود إلى ليلة شغب في حريف 1905. جرايد نيويورك كتبت عن تلك الليلة: السوربون اشتبكوا بالسكاكين في مانهاتن السفلى. «نيويورك تايمز» (عدد 24 تشرين الأول (أكتوبر) 1905) ردت الخلاف إلى سبين: إنقسام بيني (بين الموارنة والأرثوذكس) وإنقسام مناطقي (بين سوريي مانهاتن وسوريي بروكلين).

بيروت. الغواصات الألمانية تُغرق جميع البواخر، ألا تسمع الأبخار؟

عَلِقَ عيد (إد) في أميركا. جلس مهشم الركبة أمام مرتا في المتجر في «ماين ستريت». جلبت قطعة قماش ولبّتها بماء فاتر من إبريق الشاي ونظفت جرحه. كان ينتهّد كطفل. جلبت غيظاً وإبرة وغيّطت البنطلون المثقوب. قال: «أنا أفعل ذلك، أعرف كيف». قالت: «أنت اشرب الشاي».

رجع بعد أسابيع. حمل لها من نيويورك هدية: كيلو «كشك». قال إنه دار على بيوت الحمى السوري بيتاً بيتاً حتى وجد امرأة تبيع «الكشك». قال إنه في زحلة كان يفضل هذا الطعام على جميع الأطعمة. «لا أحد يطبخ الكشك مثل أمي». مرتا أخذت الهدية وشكرته وقالت تعال غداً في الصباح وتأكّل كشكاً. قال إنه ذاهب الآن إلى فرجينيا. ملأت كشته. دفع ما عليه. ذهب ولم يرجع.

## دعوة إلى عرس

كانت فترة ملانة بالوجوه والأخبار. تدريجياً تكاثرت الأسماء في دفترها. «ناس الطريق» اكتشفوا الطريق إلى متجرها. مستر معمرباشي قال لها ضاحكاً إنها تزيد أسماء في دفترها بمقدار ما «يشطب» من دفتره. قبل حلول شتاء 1916 - 1917 زارتها وديعة صليبي آتية من سبرينغ فالي (إلينوي) وأخبرتها أن إليها فارس سيتزوج ودعتها إلى العرس. مرتا قالت إن ذلك صعب جداً، فالعمل إلى فوق رأسها، ولا تستطيع أن تترك المتجر ساعة واحدة. وديعة صليبي ألحّت، قالت العرس في العطلّة، قالت أنت صديقتي الوحيدة في أميركا، قالت أشياء كثيرة، قالت أنتِ مثل إيتني وأختي، قالت لن أقبل إلا تأتي... غمرت مرتا بالكلمات واللمسات وقالت لا تكسري خاطري يا مرتا، أنا ليس عندي أحد، أقاربي في سبرينغ فالي ليسوا فعلاً أقاربي، والعرس سيكون صغيراً، فارس لا يحب الهرج والمرج، ولن يضايقك أحد.

رضخت. كان ذلك مزعجاً جداً بالنسبة إليها ومع هذا وعدت وديعة أن تحضر. بعد ذهابها سألت نفسها لماذا رضخت؟ كانت تُخرج أقمشة من صندوق وتوقف نظرتها عند البقعة حيث جلس إد (Ed) ويكس. نقط الدم تركت أثراً أسود على خشب الأرضية. حاولت إزالة الأثر بالماء والصابون. لم تنجح. لماذا تفكر فيه الآن

وهي تفكر في عرس فارس أين وديعة؟ طوال شهر، وفي كل مرة تطبخ كشكاً أو تاكل بالخبز كشكاً وزيتاً، كانت تتذكره وهو يخبط الأرض بيديه وتتساءل أين هو الآن وتصلّي أن يُوفقه ربنا. تمدت أن تترك جزءاً من الكشك الذي جلبه في مرطبان على حدة. أرادت أن تطبخ له حين يجيء. مرّت الشهر ولم يرجع. حدّست أنه لن يأتي مرة أخرى. يوم الأحد، وهي تصلّي في كنيسة صارت كنيستها (هناك نامت ساعة في 7 نيسان (أبريل) 1914)، وتسال نفسها لماذا تباعدت أوقات صلاتها في بيت الرب، شعرت ببرقة في ظهرها. في اللحظة ذاتها رأت حبات المسبحة تكّز على الأرض.

هذه الحادثة ستبقى منحوتة في ذاكرتها. غيظ المسبحة انقطع بعد برقة ظهرها أم العكس؟ لعلها رأت الحبات تنفرط فيرق ظهرها! هذه مسبحة أمها، أثنى ما حملته من بتاتر عندما جاءت إلى أميركا قبل سنين. (ورسائل خليل؟)

جمعت الحبات. تدرجت تحت المقاعد لكنها جمعتها. رأت الأيدي تحمل إليها الحبات. في الأحد لا تفرغ كنيسة. مع أن هذه الكنيسة نادراً ما تزدهم. لم تنتبه لوجود الناس حقاً إلا في تلك اللحظة. بينما تصلّي يغيب العالم. الآخرون يختفون. المكان كبير أصلاً، وبعض الذين يصلون يحيون الاختفاء وراء الأعمدة. اقتربت منها عجوز بيضاء الشعر، تلبس كنزة من الصوف الأخضر وتحمل مظلة خضراء. أعطتها إحدى الحبات المفقودة. عدّت ما في كفها. كانت تشكر الناس وتحصي الحبات مرة أخرى. شعرت أنها صغيرة، شعرت أنها - من جديد - تضع في غابة. لم تفهم كيف تقع هكذا في لحظة. برّق ظهرها كأنه انقطع. وعندما زال الألم بقيت الذكرى، مثل طعم في الفم.



## على تقاطع طرق

إتابها شعورٌ غير مفهوم: كأنها تعرفه! كأنها رآته! لم تسأله هل رآها من قبل. كانت تعرف أن ذلك لم يحدث وأنها هي أيضاً لم تنظر إلى وجهه قبل هذه الساعة في كنيسة سيرينغ فالي التي سماها السوربون «أشيا الصغيرة». نظرت إليه ولم تستطع أن تبعد نظرتها. كان يحدثُ إليها ولم تتضابق. الحرارة في بطنها لم تزعجها. الذفء في الحجاب الحاجز. كأنه لا ينظر إليها: كأنه يراها وهو يغمض عينيه. وسألت نفسها من يكون؟ لم تعرف من قبل مثل هذا الإحساس. ظهر أمامها، في سحابة من البخور، وجهٌ لا تعرفه ثم ابتعد وتلاشى. هل فكرت في خليل عندئذٍ؟ في الليالي البعيدة كالخُرَافة في بثائر الضائعة - المنكوبة\* - وراء المحيط والبحر واليابسة؟

خرجوا إلى باحة تغمرها الشمس. كانت الأشجار تتحلق في نصف دائرة وتذكرت حديقة تحبها في فيلادلفيا. لم تكن تعلم عندئذٍ أنها ستفتح متجراً بعد عامين في «بارك ستريت» الممتد بمحاذاة الحديقة المذكورة. ولا كانت تعلم أنها ستقضي بسبب ذلك أحاداً

\* أخبار ترد منقطعة، غير قاطعة، من جبل لبنان: الجراد أكل الأعصر واليابس، والمجاعة شاربة.

تساقط المطر غزيراً على سقف القطار الذي حملها إلى سيرينغ فالي (إيلوي). صحت السماء وانقشعت الغيوم بينما نهر أوهايو يظهر ويختفي وراء الشجر... لكن ذلك دام وقتاً قصيراً ثم بانث غيوم جديدة ومرة أخرى انهمر المطر. لم تكن العواصف تأتي وتذهب. كان القطار يجري من ولاية ماطرة إلى بقعة مشمسة ثم إلى أمكنة ماطرة من جديد. مرنا ظَلَّتْ منشرحة الصدر، مسرورة، طوال الرحلة (كانت محملة بالهدايا، انتفتحتا بعناية، للعريس والعروس وأم العريس). جلبوا طعامها على صينية فضية. أكلت متمهلة وهي ترفع وجهها بين فينة وأخرى وتراقب البيوت المتباعدة وسط السهل الواسع كبحر. عند الغروب خرجت غزلان من غابة وتراكضت في الاتجاه المعاكس. خارج إحدى البلدات وقف أولاد في صفٍ طويل يرمون الحصى على جنب القطار ويكشفون بطونهم. تراجعت عندما طرقت حصة إحدى التوافذ، وضحكت. نزل الليل عليها وهي ما زالت مرتاحة. أخرجت من جزدانها صئارة الصوف. تركت «الكيكوب» في الجزدان. كانت تخيط شيئاً. النسيج يكبر والخيط يخرج من بطن الجزدان وهي تبسّم. لماذا تبسّم هكذا؟ ما سرّ هذه السعادة؟ من أين ينبع هذا الفرح الداخلي؟ كل ذلك كان غامضاً ولم تفكر فيه. نامت وقتاً على المقعد ثم فتحت عينيهَا ورأت في الليل مدناً، بلدات، قرى، مصابيح تشع وتنتشر ثم تتراجع إلى الظلام. عندما بلغت المحطة الأخيرة، وقيل أن تنهض كي تنزل العلب الملقوفة عن الرف، غدرها تعبٌ غامض مقدار غموض سعادتها أثناء الرحلة. لن تنسى العرس أبداً. وقفوا في الكنيسة وبينما الكاهن يتلو التذور رأت رجلاً ينظر إليها ويتبسم. كان هذا علي جابر.

طويلة وهي تصغي إلى عزف الفرقة الموسيقية العسكرية خارجاً من بين أشجار البارك\*.

وديعة صليبي كانت تقفز من هنا إلى هناك مثل أرنب سمين. حضرت مرثا أكثر من مرة. وبعد كل عناق تعتذر لأنها تدعك ثيابها. هل أقول إن مرثا كانت تنع كالقمر في ذلك اليوم البعيد؟ هل أقول إن العيون نظرت إليها ولم تنظر إلى العروس والعريس؟ هذا كلّه غير ضروري. اقترب فارس بالبذلة وهو يسحب العروس بفستانها وتكلم معها. قال أمي تذكر دائماً. كلّمها بالإنكليزية. شكرها على الهدية والعروس شكرتها أيضاً. سألتها كيف كانت رحلتها؟ التفت بينما نتحدث (أحدهم كان يلكر كتفه) ورة بجفاء ثم استدار وتابع الإصغاء إليها. هي وجدت هذا (صوته الجاف) طريفاً جداً. بعد ذلك، عندما رأته يضحك لدى اقتراب الرجل الذي ملأ بطنها حرارة، شعرت بالسرور. لم تسأل نفسها شيئاً. كان جرس الكنيسة يُقرع، بعيداً وقريباً، منذراً بأشياء آتية. حرّك الهواء أوراق الشجر، قلبها على هذه الجهة وتلك، بذل لونها من أبيض إلى أخضر إلى أبيض. أشعة الشمس ملأت جسمها. قال الصوت - ليس جافاً الآن، تغيّر - هذا صديقي علي جابر\*\*.

بعد ذلك سمعت ضحكات قوية. كان يضحك ضحكة لم تسمع مثلاً منذ زمن بعيد. عيناه الواسعتان تكلمتا معها. لم تخف. لعلها اضطرت، لعلها خافت أيضاً. من يعلم؟ عندما صافحها أخبرتها اليد شيئاً. ماذا قالت يده؟ في تلك اللحظة ظهر آخرون،

\* إحدى حدائق فيلادلفيا العامة. كانت تتوسطها آنذاك بحيرة اصطناعية معلومة بالأسماك النادرة. أزيلت الحديقة في خمسينات القرن العشرين.

\*\* «My Friend, All Jaspers»

تحركت الأجسام، والرجل صار مفصلاً عنها. مرّت الدقائق، اعتصى، بحثت عنه بنظرة نائمة ولم تجده. لكنه عثر عليها. سمعت صوته وراء ظهرها والتفتت وسمعته يكلمها بإنكليزية مفككة. لفظ كلمات أسبانية. ضحك وقال هذا الإسبانيولي لا ينفع أبضاً. (لا الكلمات مهمة ولا معناها. هل تكلم بصوت عالٍ أم منخفض؟ كيف تحرك جسمه؟ الآخرون الذين يتأملون الإثنين ماذا أحسّوا في إيماءات جسمها، في إيماءات جسمه؟)

كان يحمل علية ثيغ في يده. رأته يقلب العلية الفضية بين أصابعه وهو يسألها عن فيلادلفيا. لماذا يسألها عن ذلك، لم تفهم. كان يقول أشياء ويسأل، وانتهبت أنها لا تسمع. كانت فقط تنظر إليه. ماذا حدث لها؟ لا أعلم. إحدى النساء زغرودت وراء ظهرها. كانت زغرودة طويلة، عالية، وكلّما تقدمت ارتفعت أكثر، كأنها طائر يهاجر فوق قرى من جبل إلى آخر... هل شعرت بالحنين إلى بيتها البعيد في تلك اللحظة؟ (هل تفكر أنه ما زال بيتها؟ أين بيتها؟ عندها بيت، مرثا؟)

حلّ عليها تعبٌ. كأنها أرهقت جسمها وهي تمشي وتمشي وتمشي. أرادت أن يسكت العالم، أن يدعّب هؤلاء الآن، وأن يتركوها وحدها.

## علي جابر (3)

هذا كل شيء. التيا ثم افترقا. ناس أكثر من الغنم وهي قالت إنها ستأخر عن القطار. قالت شيئاً عن قطار، ثم اخفت. . . فردة قفاز سقطت منها. انحنى وخطف الفردة الصوف عن الأرض قبل أن تدوسها الأقدام، وعندما انتصب من جديد لم يجدها. كأنها ثلاثت في الهواء! لكنها بقيت في رأسه. هل هذا صحيح؟ أوقعت فردة من قفازها؟ لعل شيئاً لم يقع، لعلها ثلاثت بلا أثر، مثل فراشة. هذا كلّه غير مهم: بقيت في رأسه.

لكن ماذا أوصل علي جابر إلى سيرينغ فالي - إلينوي؟ تركناه على باخرة مبحرة إلى مونتفيديو. عندما رست الباخرة نزل مع أصحابه وتسكعوا في أرجاء المدينة. شربوا عصيراً تحت لافتة مكتوب عليها: URUGUAY. بعد ذلك ركبوا عبارة ملطخة وحلأ قطعت النهر الفضيّ (Rio de la Plata) إلى بوينس آيرس. هنا، في مناهة شوارع متقاطعة وباحات بأبواب حديد مطرقة، عشروا بينما الظلام يهبط على معارف. أحد الأسبان الثلاثة أجش بالبيكاه مثل ولد وهو يعانق أقاربه. علي جابر أراد أن يضحك لكنه لم يفعل. وضعوا لهم طعاماً وأكلوا. جلبوا لهم بطانيات وناموا.

في الصباح الباكر ذهبوا جميعاً إلى حوض السفن. حتملوا بضائع حتى بللّهم العرق من الرأس إلى أخمص القدمين. بينما يقفون

في الصف عند المساء كي يقبضوا الأجرة اليومية نظر علي جابر إلى رقبة صاحبه حمراء كالدم وقال «في ضيعتك كنت مكاراً تسوق البغل، هنا صرت بغلاً». الإيطالي (إسمه خوليو) استدار وهو يمسح العرق عن وجهه وقال «كلّنا بغال». كانا بلغا عندئذ الرجل الذي يدفع النقود للشغيلة. مدّ خوليو يده مفتوحة فأسقط فيها الرجل ثلاث قطع معدنية، مطفاة اللون. قال خوليو: «الذي قبلي أخذ خمسة، لماذا أنا ثلاثة؟». الرجل ردّ بلامبالاة «أنت جديد». خوليو أكمل طريقه أسود الوجه. علي جابر بعده. فتح يده وانتظر. الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة. قال للرجل: «أنا لست صاحبي، أريد خمسة». الرجل ردّ وهو ينظر إلى العيتين الواسعتين: «أنت جديد مثل صاحيك. الجديد يأخذ ثلاثة». علي جابر لم يرمش له جفنأ. قال: «أنا مكانك، أعمل مرة استثناء». الرجل ضحك من الإنكليزية المحطمة الممزوجة بإسبانية محطمة أكثر منها. لعله ضحك كي يبعد عن نفسه الاضطراب. الكلمات بلا قيمة. بدا الحمال الجديد الواقف أمامه مثل تمثال غير قابل للحركة من دون قطعيتين بعد. أعطاه قطعيتين أيضاً وقال: «لكن غداً تأخذ ثلاثة. ويعدّه تأخذ أربعة. ثم تصير أجرتك خمسة كل يوم، مثل الباقيين». علي جابر أودع النقود جيبه وهو يقول: «إذا رأيت وجهي غداً».

تلك الليلة قضاها يفتح أصحابه أن هذا العمل ليس لهم. «لو أردت أن أحمل صناديق كنت بقيت في مرفأ بيروت». تكلم عن الأراضي المشاع في توكومان. حفظ الاسم Tucuman: بينما يحمل صناديق أثناء النهار تكلم مع آخرين. سألهم أين هي هذه الأراضي التي توزعها الحكومة على الناس؟ هل صحيح أن الواحد يقطع الأشواك والأشجار، يوسع مكاناً في الغابات، يحرث الأرض

الشمس وقالوا: «علينا أن نتحرك». وهكذا ذهبوا إلى توكومان. كانت رحلة طويلة. توقفوا في أكثر من محطة. كانت هناك مناطق بلا سكك حديد ترعى فيها أعداد ضخمة من الماشية. وهذه قطعوها على الأقدام أو راكبين عربات تجرها ثيران أو أحصنة. في بعض الأوقات اشتغلوا في مد سكك الحديد، ثم تابعوا الرحلة قبل وصول القطار. بلا بوصلة أضاعوا الدرب مرات. دخلوا البرازيل ثم خرجوا منها. بعد شهرين بلغوا توكومان. لن يستقروا هنا. لن يعطيهم أحد أرضاً هنا لأن المكان - بعكس ما قاله الآسياني العجوز - ليس صحراء: أدهشتهم الأنهار وحقول الرز، سهول التبغ وقصب السكر. لن يستقروا هنا. ستحدث أشياء كثيرة ويعد وقت يتفرقون.

ويزرعها وتصير له؟ هل صحيح أن حطب الأشجار ملكه أيضاً؟ ومن حطب الأشجار يمكن له بناء بيت؟ وماذا تأخذ الحكومة في المقابل؟ لا شيء؟ معقول؟ هل الحكومة أمتنا؟ كان آتياً من عالم بعيد وفي يوم واحد حفظ الإسـم San Miguel de Tucuman وقرر أن يذهب إلى هناك.

أصحابه استمعوا إليه كما فعلوا دائماً. لكنهم في هذه المرة بدؤا مترددين. قالوا ننتظر قليلاً، أسابيع قليلة كي نرتاح. ضحك وقال: «نرتاح؟». أحد الآسيان الثلاثة - هذا أصغرهم، يدعى ميغيل - قال: «أنا أذهب معك حتى لو ذهبنا وحدنا». كان حنظلي اللون، في مثل سنّه، عيناه صغيرتان كسمارين، ولا أحد يسبقه في الركض أو في لف السكاثر: كأنه خرج من بطن أمه وهو يفرق الورقة ويملاها تبغاً ويركض. علي جابر قال «أعرف»، وتابع إقناع الآخرين. تدخل أحد الإسيان الذين استقبلوهم وشرح له بينما يشرب شيئاً مرّاً يستونه «ماتي» أن الأرض في الشمال ليست كسهل اليايبيا\* هنا. . . اليايبيا خصب التربة، تقطعه من جهة إلى أخرى ولا تجد حصاة واحدة. لن تجد في السهل صخرة تربط إليها حصانك. لكن في الشمال لا تنفعك الأرض شيئاً. كلّها صِبار وصخور. ولهذا يأخذها الحمقى بلا ثمن.

علي جابر سكت أمام الرجل، (أولاً لأنه لم يفهم نصف كلماته. ثانياً لأنه كبير في السن. ثالثاً لأن الرجل أعطاهم بطانيات وملا أطباقهم فاصولياً). لكنه أعلم أصحابه أنه في الصباح يُسافر. نام على أساس أنه ذاهب وحده فجراً. أيقظوه قبل أن تشرق

\* pampa

## الرجوع إلى المتجر

وجدت السيد سكياس في إنتظارها. قال إنه يريد منها خدمة. مرنا سألته كيف تستطيع أن تساعده؟ أخبرها عن أشأ. قال إنها يتيمة، أهلها ماتوا، قريتها على الحدود التركية - الروسية، أحرقوا القرية، لم يبقَ فيها بيوت، هدموها كلها والناس دفنهم «فوق بعضهم» في حفرة كبيرة. أشأ كانت عند أقارب في قرية أخرى ونجت. مرضة في الصليب الأحمر أنقذتها. أخذوها إلى أستراليا. والآن هي في بيته. صلة القرى بينهما بعيدة، لكنه يريد الإعانة بها. مرنا ظننت أنه يريد أن يأخذ المتجر. لسبب لا تعرفه ظننت ذلك. كانت على خطأ: أرادها فقط أن تأخذ أشأ تحت جناحها وأن تعلمها «المصلحة». بدت مترددة. بينما يتكلم تخيلت نفسها تترك هذا المتجر الذي اعتادت عليه. لم يضايقها ذلك تماماً: تستطيع أن تفتح متجراً يخضها. منذ فترة تدخر ما لا. لم تكن منزوعة ومع هذا وجدت نفسها متعلقة بالمكان. عندما أنهى السيد سكياس حديثه كانت لا تزال شاردة في أفكارها. سعل وعطى فمه بمسنديل ثم أردف: «إذا كان ذلك صعباً بالنسبة إليك...». قاطعته مرنا: «بالعكس، أنا بحاجة إلى من يساعدني». السيد سكياس ارتاح عندئذ. لكن ارتياحه لم يدم إلا لحظة... ثم تكلم: «المشكلة أنها لا تحكي، هذا ما أردت أن أقوله لك».

العلاقة اليومية بالفنائة البيضاء الساكنة أعطتها إحساسين متناقضين: الدفء والبرودة. لم تكن بلهاء، كانت ذكية. وفي وقت

قصير تعلمت أن تخدم الزبائن. وقت الراحة، بينما تشربان الشاي وتأكلان كعكاً، تحدد الفتاة إلى الطريق، إلى السيارات والعربات، ترتقب مرور التراوماي بعربته الحمراء ذات البريق... أحياناً تسحب عن المقعد الجريدة التي تركتها مرنا وتتنظر إلى الصور... صور صغيرة معتمة، فيها جرحى، أو غابات محروقة، أو سيارة بيضاء وحول السيارة يتجمع أولاد يحملون البالونات. لا تقراً، مع أنها تعرف الإنكليزية. لكنها لا تقراً الجريدة. مرنا وأنها تنظر إلى الصور ثم ترد الجريدة إلى مكانها وتنهض وتقف إلى الزجاج. أحياناً ترسم على وجهها الأبيض شبه المستطيل ابتسامة، بينما تأكل شيئاً (تجلب طعاماً معها من البيت ومرات تذهب مع مرنا إلى المطعم المجاور)... إذا فعلت هذا، إذا ابتسمت، تشعر مرنا أن المسافة بينهما تضاعفت مرتين. كأنها لا تبسم، كأنها لا تطبق مرنا! لا تطبق أنها هنا! لكن هذا قليل الحدوث. ما يحدث أكثر هو أن تتحرك كأنها نائمة. أن تقضي اليوم كله نائمة وهي تتحرك وتخدم الزبائن وتطوي الألبسة والأقمشة من جديد وتردها إلى المكان المخصص لها على الرف من دون خطأ، كل ذلك وهي شاردة في مكان آخر لا أحد يعلم أين هو. كأنها ليست حيّة! كأنها شبح! وفي هذه الأوقات - وهذا مبهم إلى حد - تشعر بها مرنا قريبة، أليفة، كأنها جزء من المتجر... كأنها كانت دائماً هنا!

في مرات نادرة خرجت الفنائة البيضاء الساكنة (أشأ) عن عاداتها. كانت نجية في الصباح الباكر (في البداية كان السيد سكياس أو ابنه يوصلها... بعد ذلك صارت نجية وحدها ماشية وهي تحمل مظلة بيضاء). تقضي النهار في المتجر وتغادر عند الغروب. إذا أرادت ظهرًا أن تأخذ نَفَس هواء تخرج إلى الرصيف. وتبقى في النقطة ذاتها ولا تتباعد. في إحدى المرات مرّ عجوز يبيع ذرة واشترت منه. كان ذلك غريباً جداً. مرنا نظرت إليها تأكل الذرة

كالسنباب واقفة تحت مصباح البلدية المظلم فابتسمت لا شعورياً .  
بعد قليل فاجأها حزنٌ . هذا المزاج المقلب كان يهكها .

جاء مارون أسطفان مع صديق له من نيويورك . كان يحمل لها  
بضاعة من مخزن أبيه وهديّة اختارها بنفسه من أحد أفران الحي  
السوري . ظهر فجأة في باب المتجر - من غير توقع - ضاحك  
الوجه ، وألقى التحية باللغة العربية التي يتكلمها على طريقته .

صديقه وقف مرتبكاً أمامها ثم أمام آنا التي ضاعفت ارتباك  
الجميع . ضحك مارون بصوت عالٍ وهو يصف كيف أخاع الطريق  
من المحطة إلى هنا ثلاث مرات . ريت على ظهر صديقه وقال  
«المسكين» Poor Man . كان صديقه متين البنية ، تكفل بحمل  
الصندوق الثقيل ، وترك لمارون حمل علبة الحلوى . مرنا شكرت  
الاثنتين وهي تخطف مقصاً من تحت المنضدة وتقطع خيط العلبة  
المربوط على شكل فراشة . رائحة البقلاوة ملأت المكان . وآنا  
اقتربت خطوة كي ترى .

أخبرها مارون وهو يقف على الرصيف أنه سيرك البيت  
ويذهب إلى كاليفورنيا . سألته ماذا سيفعل في كاليفورنيا؟ قال إنه لا  
يعرف بعد . سألت ما رأي والده؟ كان سؤالها بالإنكليزية . من تلك  
اللحظة استمر الحديث بالإنكليزية . أفنعته أن يؤجل هذا وقتاً . ما دام  
يقدر أن يذهب إلى أي مكان من دون معارضة حقيقية فلماذا يترك  
البيت؟ ليس مضطراً إلى ذلك . هز رأسه وهو ينظر إليها . أراد أن  
يقول شيئاً لكنه استحي . رأت ذلك في عينيه . سألتها كيف تجد  
فيلادلفيا ، هل تحبّ المكان؟ مرنا تذكرت علي جابر . السؤال ذاته .  
تقريباً .

- 67 -

#### علي جابر (4)

المسألة تبدو مضحكة لكن هذا ما حدث لهم : كانوا يبحثون  
عن أرض وعرة يستصلحونها ويستقرون عليها فوجدوا غيرهم سبقهم  
إليها ! (لكن لماذا يطلبون أرضاً؟ لماذا تركوا أوطانهم إذا؟ هنا  
أحسن؟ الأمكنة أوسع؟ المعارف أقل؟ الأقارب أبعد؟ لم يملكوا  
أرضاً هناك - في الجانب الآخر؟). أود أن أتخيل وجوههم وهم  
يرون الخضرة تنتشر حتى الأفق بينما علي جابر يقطف برتقالة من  
شجرة ويقول : «وصلنا» . داروا في المدينة التي تتوسط السهل  
الأخضر يسألون عن أراضي مشاع . أحد العارين التفت وقاسمهم من  
فوق إلى تحت ثم أشار بإصبعه إلى سلسلة الجبال المكلّلة بالأبيض ،  
وراء صف الأبنية الصفراء : «في رأس الجبل» . مضى ضاحكاً على  
طرفته . علي جابر لم يبأس . ذهب إلى متجر يبيع أكياساً مملوءة  
بحبوب لم ير مثلاً من قبل (كانت الأكياس مفتوحة أمام الدكان ،  
تفوح منها رائحة طيبة عارمة القوة) وسأل الرجل الواقف يأكل خبزاً  
أسود اللون ماذا يوجد هناك ، في الجبال ، هل توجد أرض للزراعة؟  
الرجل ردّ وجامعاً : «مناجم» .

علي جابر اقترح الصعود إلى الجبال ، لا للعمل في المناجم  
ولكن على سبيل «الفرجة» . وربما وجدنا أرضاً . هذه المرة لم  
يقبلوا . بدوا جيشاً مهزوماً وهم ينظرون مرة أخرى إلى مياه تجري  
زرقاء في حقول الفواكه والشمندر وقصب السكر . كم أرادوا أن

أدمنوها إدماناً كاملاً. صار يشربها في جميع الأوقات. ولا يذهب إلى أي مكان من دون صرة المنة والقرعة - الكأس - والبومبيجة bombilla التي تُشرب بها في جيبه). وهكذا مضى عليهم الصيف ثم الخريف (قطعوا عنباً أيضاً) وهم في مقاطعة توكومان. لكنهم مع اقتراب الشتاء شعروا بالبرد. كانت الثلوج تنحدر على سفوح الجبال حيث المناجم. رأوا أعداداً ضخمة من العمال تنزل من فوق. كانت عيونهم غائرة في وجوههم، بيضاء، ومن أجسامهم نفوح رائحة الأرض والنحاس. بدأوا أقرب إلى الأشباح في ضوء الشتاء.

علي جابر ذهب في إحدى جولاته الطويلة وعاد عند المساء وسأل أين إبريق المنة؟ سكتوا الإبريق وبينما يبيل المنة في قرعته بماء فاتر أخبرهم: التقى رجلاً سمساراً يعمل في سكك الحديد، يجمع العمال لمد السكك ويقبض على كل رأس عمولة. الرجل مشهور في المدينة، يستطيع أن يدخل أي زقاق في أي أرض وأن يخرج ويخلفه 30 أو 40 عاملاً! يجمع الرؤوس ويقبض عليها ويقول للجميع صراحة أنه يفعل ذلك، ويأخذ من العمال أيضاً حصة. كان يشرب مع آخرين أمام الحانة، لا داخل الحانة، وجاء واحد بحمل شارة وسدساً وفرض عليه غرامة. وهذا الرجل (جامع الرؤوس) أخرج من جيبه رزمة أموال ودفع للشرطي - من دون أن يفتح فمه - ورقة واحدة.

سأله ماذا حدث بعد ذلك؟

علي جابر قال إنه تقدم من جامع الرؤوس وتكلم معه وقتاً. جلسا وشربا وأكلا بزراً. تكلمنا عن أشياء كثيرة وأماكن أكثر.

- «وبعد ذلك؟»، سأله.

علي جابر أخذ وقته قبل الجواب. عندما فرغت قرعة المنة من الماء وأصدرت قرعة، قال: «أحسن أن نرجع إلى أميركا».

يصنعوا هم هذا! وصلوا متأخرين! اشتروا خبزاً وأكلوه هكذا، وحده، في ساحة يبيع فيها الهندو زعترأ وإكليل الجبل ونباتات غريبة يقطعونها من المرتفعات. ذهب علي ساعة ثم رجع يحكي عن البرازيل: «إذا قطعنا الحدود نجد الأرض». كانوا يتحركون شمالاً فقال ميغيل: «إذا تابعتنا هكذا سنجد الأرض في نيويورك». علي جابر ضحك وكذلك فعل الباكون. كانت الشمس تغرب ومشوا على ظلالهم الطويلة حتى سكة الحديد. عثروا على مخزن متداع، تبثثر فيه صناديق مكسرة وسخة، وأكوام أثرية، ومعدات محطة. أشعلوا ناراً وتحلقوا حول النار. عندما تمددوا أخيراً كي يناموا قال أحدهم: «المناجم فكرة». ركلوه بالأقدام ثم غرقوا في نوم عميق. عند الصباح انطلقوا بحثاً عن عمل في المدينة. في الساحة حيث يتجمع بيضٌ وهندو وخلاسيون وجدوا عربة تبيع حلويات مقلية. اشتروا منها وأكلوا. كانوا على حافة الجوع، على حافة التشور جوعاً. ابتسم لهم الحظ ذلك النهار وقضوا الوقت حتى المساء في مزرعة خارج المدينة يقطعون الفاكهة. ملأوا عدداً ضخماً من السلال وأكلوا حتى شبعوا وأخذوا بينما الظلام يبهط أجرة يومهم.

انتفخت بطونهم وميغيل قضى نصف الليل في العراء، مقعياً كحيوان، يثن. عند طلوع الفجر ذهبوا إلى المزرعة وحدهم، سيراً على الأقدام. والناظر عين لهم بقعة للقطاف وسألهم هل يحتاجون إلى مئة وتبيع. كانوا يجهلون ذلك: هنا يُعطى الواحد - إضافة إلى أجرته اليومية - حصة تبيع وحصة مئة (mate).

هكذا تعلم علي جابر شرب المنة (المهاجرون السوريون إلى تلك البلاد عادوا إلى أوطانهم يحملون أكياس المنة. هذه العشيبة اليابسة تحولت إلى جزء من حياة الجبليين في بلاد الشوف؛ يشربونها كل صباح، كل ظهيرة، وكل مساء. ولعل علي جابر بين أوائل من

ميغيل قال ماذا لو حسبونا في «إليس أبلاند» هذه المرة؟

علي جابر شرح له أنهم لن يدخلوا أميركا بالبحر، هناك طريق برية، عليهم أن يستدلوا بالنجم القطبي الشمالي، هذا سهل، وإذا مشوا بما يكفي بلغوا ريو غراندي، نهر يفصل بلاد المكسيك عن أميركا، فيه مراكب تقطعه تحت جناح الظلام، وهكذا يدخلون بلا المرور على الجمرك.

مثل كل مرة لم يقتنعوا. قال علي جابر «أنا قررت»، ثم خرج كي بيُول. لحقوا به واحداً بعد واحد. اصطفوا إلى الحائط وأفرغوا على الطين ما شربوه من مئة. ميغيل ضحك وشمم البخار. رفع وجهه إلى السماء وأخذ يغني. تلك الليلة، بينما يخرج من بيت دعارة زهري اللون في إحدى ضواحي توكومان، ارتطم بشخص نصف سكران واشتبك معه. الآخر شتمه وأخرج سكيناً. تلقى ميغيل الطعنة في بطنه ووقع على التراب. حملوه على بغل إلى الحبس. نرف ومات. عند غروب اليوم التالي دفنوه في المقبرة.

علي جابر وقف أحمر العينين يواجه الشمس. خلال أيام وجد أن البقاء بينهم صعب. عندما اقترح عليه صاحب مزرعة أن يلعب مع فريق رعاة إلى مزرعة على الجانب البرازيلي من الحدود كي يساعد في جلب قطع من الثيران إلى هذه الجهة، قُبِل المهمة وأعلم أصحابه. أخبروه أنهم قرروا السفر إلى بوينس آيرس. هز رأسه ثم صافحهم واحداً واحداً، وهو يلفظ أسماءهم على صوت عالٍ. وهكذا صار وحده. كان بلا حصان لكن الرعاة جلبوا له حصاناً. بينما يمتطيه استعاد أيام الجبل القديمة وفكر في أبيه وفي أخيه. هنا الركوب أجمل: السهل يمتد شاسعاً والحصان يطير وحده. بينما الحوافر تفرع الأرض ملاء الفرح ونسي ميغيل السريع كتغلب. لكنه

ملا الفرعة ماء حاراً وردة الإبريق إلى مكانه على النار ثم شرح لهم أن الأراضي المشاع الباقية في بلاد الأرجنتين لا تصلح إلا لإقتلاع الحجارة. جامع الرؤوس أعلمه أن الغابات الجيدة الباقية كلها في البرازيل لكنها ملأنة شعابين، وكل ثعبان كالثنين يفتقر على ثور ويتعشى ثوراً. وإذا وجدوا في البرازيل غابة معقولة واستصلحوا الأرض لن يبت فيها إلا الكاكاو وهذا لا يقدر على زراعتها إلا أهل البرازيل لأنهم يعرفون مواقيت الصحو والمطر. . . وحتى هم تخرب بيوتهم من موسم إلى آخر. إذا طال الصحو يبس الموسم. وإذا زاد المطر يخرب الموسم. الغابات الباقية في الأرجنتين حور وسرو وستديان وأرز، هذه تحميها الحكومة وإذا قطعت منها يقطعون يدك. جامع الرؤوس قال الكلّ يهاجر شمالاً الآن إلى كاليفورنيا. الحكومة الأميركية لا توزع الأراضي مجاناً لكن بالذئب: نأخذ الأرض سلفة ونزرعها ونسدد بعد كل موسم دفعة وهكذا، إلى أن تصير الأرض لنا. هنا حتى لو وجدنا أرضاً وزرعناها لن نضمن أن تبقى في يدينا. هذه بلاد يحكمها الجيش، إذا مرّ ضابط وأعجبته مزرعتنا يأخذها منا، هكذا، بلا إذن ولا دستور. كاليفورنيا خصبة التربة كالبامبا هنا، كل شيء ينبت فيها، وطقسها أحسن طقس في العالم، إلى هناك علينا الذهاب.



في ذلك المساء، قبل أن يغمض عينيه بعد صحن الفاصوليا واللحم، تذكر ضحكة ميغيل الواسعة وشعر بمخلب غفي يسحق قلبه.

توالى الأيام. في عيد الميلاد، قبل أيام من نهاية 1915، قطع النهر المكسيكي ووجد نفسه في أميركا. في كولومبوس - نيو مكسيكو اشتغل في مزرعة تملكها عائلة برتغالية. كان أقوى من ثور. بينما يساعد في إصلاح سقف الإسطبل أنقذ أحد الرجال من موت محقق: الرجل انزلق وكاد يذق رقبته لكن علي مَدَّ يداً والتقطه. على العشاء سكبوا له صحناً مملوئاً بالفاصوليا السوداء، صغيرة الحب دسمة شهية الطعم، مطبوخة بثلاثة أصناف لحم. السيدة التي أنقذ ابنها من الموت كانت تبسم له كأنها أمه. كزمته وغاصت يدها في الطنجرة وأخرجت أجمل قطعة لحم ووضعتها أمامه. أكلها. كانت غريبة. مضغها على مهل، وشكر المرأة. أخبرته أنها شاكرة له إلى الأبد وكل ليلة ستذكره في صلاتها. هو في المقابل سألهما ماذا أكل للثور.

- أذن خنزير.

لم يشرح لها أن هذا ممنوع في دينه. لكنه بعد نوم الجميع خرج ووقف في العراء ويده على بطنه. كانت النجوم أكثر من حبات الرمل على شط البحر. نورها الفضة سطع فوق صحراء من القفصين والرمل.

في الصباح انطلق صوب كاليفورنيا. بعد أسابيع، وهو يطل على سان فرانسيسكو المنتشرة على سبح هضاب وخلفها البحر الفاتح الأزرق، سمع أن متبردين مكسيكيين يقودهم بانشو فيلا هاجموا الحدود وقتلوا ناساً ثم رجعوا إلى المكسيك. هذا النبأ بعث فيه نشاطاً غير مبرر. قطع طريقاً طويلة ماشياً من دون أن تمرّ عربة

واحدة. تورمت قدماء في الحذاء وتذكر رجلاً أخيره مرة أنه يحتفظ في كيسه دائماً بحذاء ثانٍ أكبر نصف نمرة.

بلغ بلدة تبعد بضعة أميال عن المحيط الباسيفيكي. كانت تتدرج على تلة. بحث عن أقرب حانة ودخل وطلب كوباً من البيرة. كان العرق يتضح منه. بينما يلف سيكارة ثم يبلع بلعة بيرة كبيرة شعر أنه مراقب. التفت فرأى رجلاً يلعبون ورقاً. لم ينظروا صوبه. على طاولة في الزاوية رأى شخصاً ينظر إليه. كان حنطي اللون، أسود العينين والشعر، سوري الملامح. جنبه على الأرض استقرت «كشة»: صندوق بسبور. شرب بلعة أخرى وأشعل سيكارة. قبل أن ينفخ على الكبريتة التفت مرة أخرى. كان الرجل ينظر. ترك مكانه وذهب إليه مع كوب البيرة وقال «مرحباً».

الكشاش ابتسم وقال «مرحباً». كان غريب اللهجة، مثل أميركي يتكلم العربية!

هذا فارس صليبي. تصادفاً. لم يشترِ علي جابر أرضاً في كاليفورنيا. اشترى كشة وصار - مثل صاحبه الجديد - كشاشاً.

قبل أن يحلّ الشتاء وجد نفسه في سبرينغ فالي (إلينوي) يحضر عرس صاحبه ويرى - تحت سقف كتيبة - امرأة تأسر القلب.

كانت تذكر رحلتها وتفكر أن هذا العالم لا علاقة له بذلك العالم... مع أنها جاءت من هناك إلى هنا! كانت الأمواج تتورم في رأسها وتشعر أن شيئاً في جسمها يتغير كلما دنت مرة من ساحل الأتلانتك.

زارها جوزف أسطفان في الخريف. أشرق وجهها حين رآته يدخل. أوكلت أمر المتجر إلى آنا واصطحبه إلى المطعم المجاور. كانت حرة الحركة، تلبس تنورة قطنية فاتحة اللون ويلوزة خفيفة. الزنار العريض البني يحزم خصرها ويُظهر قوامها. بينما تدفع باب المطعم أحسن جوزف أسطفان بعيون كثيرة مسلطة عليهما. في الشارع أيضاً تستدير الرقاب. جلسْتُ مواجهة الطريق. رأْتُ عبر الزجاج ملصقاً جديداً ملوّناً على حائط الكنيسة:

**UPHOLD OUR  
HONOR  
FIGHT  
FOR  
U.S.**

إمرأة بيضاء الثوب وراء ظهرها العلم الأحمر الأبيض والأزرق ترفع ذراعاً عارية وتشير إلى الكلمات: UPHOLD OUR HONOR. كان جوزف يحكي عن إينته الصفرى عندئذٍ ومرتا ابتسمت. (تعرف ماذا قال. هذا حديث سمعنا أجزاء منه في الفصل 43).

حين أخبرها أن مارون تطوّع في الجيش الأميركي تغيّر لون وجهها. أرادت أن تفعل شيئاً. أن تتكلم مع مارون. «إذا ذهب إلى الجبهة يقتلونه، عليك أن تمنعه». لم تقل هذا لكنها فكرت فيه. جوزف أسطفان طوى المنديل منة طيّة:

## زيارة جوزف (خريف 1917)

عبر الشتاء. كانت الثلوج تذوب وتذكرت مرة أخرى الرجل في سبرينغ فالي. أثناء الربيع مرّت الفرقة الموسيقية العسكرية في الطريق. الواجهة الزجاج ارتجفت، صنوج وطبول وأبواق. عادت إليها ذكرى المحطة في نيو أورليتز. الراديو يُذيع مارشات حماسية. البرامج تغيّرت. الحكومة استولت على الإذاعات. في صالات السينما يعرضون أفلاماً قصيرة - بين الأفلام - عن الحرب في أوروبا. رجال من واشنطن. يعتلون منصات في الساحات العامة ويدعون الشباب إلى التطوع وخدمة الوطن. عُلقَت بوسترات كبيرة:

Your Country needs You

رجل أبيض الذقن يعتمر قبعة تُمثّل العلم الأميركي، يسدّد إصبه إلى المارين أمامه. ينظر مقطب الحاجبين ويبدو مصراً. ترى البوسترات أينما ذهبت. تكاثرت الصور أثناء الصيف. غطت الحيطان. في محطة السكك رأْتُ امرأة حمراء الثوب تنام بحمرة على خديها.

WAKE UP AMERICA!

لم تتخيل أن الحرب هناك - وراء المحيط - قد تصل إلى هنا. حتى عندما قرأت في الجرايد عن البواخر الأميركية التي تُغرَقها طوربيدات ألمانية، لم تتخيل. بدا لها المحيط شاسعاً وبلا نهاية.

الستات\* . أخيراً ذلك وهو يستقل الترامواي عند المساء . على جنب العربة الحمراء رأت ملصقاً آخر: HELP OUR BOYS . بينما جوزف يقطع شريحة اللحم انتهت إلى التجاعيد الطارئة على وجهه . وافقته إلى محطة السكك الحديدية . في دوامة الحديد والزجاج ، وقيل أن يصعد إلى القطار ، أعلمها أن جو (خليل) عاد إلى نيويورك وأنه يسأل عنها ويريد أن يراها . نظرت إلى الأرض وقتاً يختصر سنوات ثم رفعت وجهها . خرج صوتها حازماً :  
- قلّ له : مرتاً لا تريد أن تراك .

\* ليبرتي بوندز : استنات الحرية . أصدرتها الحكومة الأميركية لدعم المجاهد العربي . السند الواحد بخمسين دولاراً .

- قلتُ له أن يذهب إلى ديترويت . يريد أن يستقل ، يريد الخروج من البيت ، أوكي ، أفهم هذا ، صار رجلاً . . . لكن كل أولاد أصحابنا في بروكلين ذهبوا إلى فوردي\* . . . خمسة دولارات في اليوم لـ 8 ساعات عمل . . . سنة واحدة ويذخر ألف دولار بسهولة . وأنا أدمعه ويفتح مصلحة . نحن انتظمت ظهورنا قبل أن نفتح محلاً . هذه فرصة ذهبية ، المعامل بحاجة إلى عمال ، الكلّ يؤخذ إلى الحرب غضباً عنه وهو يستطيع أن يبقى هنا ، لكنه يتطرّع !  
جلبت النادلة «اليفتاك» والبطاطا المقلية . مرتاً رأت فتية يرباط كاكية ونساء بمعاطف خضراء يحملون ملصقات . واحد تسلق سلماً . آخر ناوله سطلاً وفرشاة . دهنوا الحائط صمغاً . وفردوا الإعلان إلى أعلى :

**Beat Back The HUN**  
**With**  
**LIBERTY**  
**BONDS**

جندي ألماني يحدق بعينين مظلمتين إلى قرية محروقة . من رأس الحرية يقطر دم . (السيد سكباس قال إنه اشترى من هذه

\* جذبت مصانع فورد (Ford Motor Company) السوريين من أنحاء أميركا عندما رفعت أجورها ، فنمت الجالية السورية في ديترويت - ميتشيفان من 417 سورياً في 1910 إلى خمسة آلاف سوري في منتصف العشرينات من القرن العشرين . أنظر كتاب غريغوري أورفلي عن «العرب الأميركيين» وكتاب أليكسا نال (Becoming American) وشهادة أحمد لاري في جريدة «الهدى» المترجمة بعد ذلك إلى الإنكليزية والصادرة في نيويورك سنة 1939 : «Two Syrians, Two Stories» by Ahmad Larry .

سأله لماذا يقول هذا؟

رفع حاجبيه ثم غمزها وسألها متى رآته آخر مرة؟  
كان ذلك فظيماً. شعرت أنه يتهكها، كأنه ليس آدمياً، كأنه من  
الوحوش.

جزّ لفةً القماش على المنضدة وفتحها ولمسها بأصابع متشقة  
جافة كجلد جاموس ثم أخبرها - وهو يفرك القماش بيده - أن جو  
يتدرب على الحرب في أوكلاهوما... سجل اسمه للخدمة بحسب  
القانون الجديد فسحبوا ورقته بالقرعة. حظه باتس جو، والآن يزحف  
على الوحل في معسكرات أوكلاهوما.

سأله هل سيدفع مقابل البضاعة الآن؟

أجابها إنه ثقة، سيدهب ويبيع ثم يرجع آخر الشهر ويدفع لها،  
ألا تثق به؟

هزّت رأسها وقالت هذا أكيد، لا مشكلة، وبدأت تعرض  
أمامه أدنى ما تملك قيمة. اكتشف ما تفعله. رفع وجهه ونظر إلى  
رفي عالي وقال تلك الأثواب بالكشاكش، هذه تحبها الأميركيكات  
وأبيها بسهولة.

استدارت إلى حيث يشير. قبل أن ترتقي السلم رأّت يطرف  
عينها أنثى رابضة كالقطة في الزاوية ترمق الرجل شزراً. شامل دميان  
لم يلتفت صوب الفتاة القابعة وراء المنضدة. نظر إليها متحفظاً، في  
بداية حديثه، ثم طردها من عالمه. كانت صغيرة الحجم، صامتة،  
نحيلة كالقضية الممصوسة، وبلا قيمة.

بدأ يتكلم مرة أخرى. قال إنه يعرف جو منذ سنوات، في ذلك  
الوقت كنت أبيع في فيرجينيا، التفتية على الطريق وصرنا صديقين.  
تاجرنا معاً في ساوث كارولينا. مستحيل أن يدخل إلى بيت ولا يبيع  
صاحبه كل ما يريد بيعها، مستحيل.

- 70 -

## شامل دميان

كشّاش لم ترّه من قبل، دخل والورق الباهس الأصفر والأحمر  
يتطاير في دوّامات صغيرة أمام البوسترات التي غطت المحيطان. فكّ  
سيور «الكثّة» وهو يلقي السلام بالعربية ثم بالإنكليزية. عندما دنا من  
المنضدة فاحت منه رائحة «العطوس». ذكّرتها الرائحة بمحطة  
بحمدون، بخالها، بالقرية البعيدة، بزمنٍ آمنٍ قديم. كانت على  
خطأ.

في سياق الحديث، بينما تسأله من دلّه إلى المتجر، ابتسم  
مكثراً عن لثة صفراء:  
- زوجك.

خرج الصوت من بين أسنانه بشعاً، خبيثاً. تراجعت إلى خلف  
كأن حضوره يؤذيها، أو يوشك على ذلك. سأته وهي تضغط ماسورة  
القياس بين أصابعها:  
- أنت تعرفه؟

نقر بأصابعه على المنضدة ناظراً إلى علب الأزرار تحت مربع  
الزجاج ثم رفع عينه:

- إذا كان إسمي شامل دميان فأنا أعرف جو حداد. لا تخافي  
عليه: عنده سبعة أرواح.

بينما تفرد ثوباً على المنضدة سألته متى رآه آخر مرة؟

- منذ أسبوعين فقط، قبل أن يأخذه القطار مع الآخرين.  
وأخبرني أنك هنا. وقال لي عندما تراها قل لها زوجك سأل عنك،  
هذا ما قاله بالضبط.

كانت تطوي الكتين إلى بطن الثوب من جديد ومدّ يده كأنه  
يتفحص القماش ولمس يدها. سحبت يديها ثم نظرت إليه. اشتبكت  
نظرتها بنظرتها. رمش بعيني واستدار ودلّ بإصبعه إلى رقب عليه  
صرامي إسطنبولية وسألها مرتبكاً هل يقدر أن يأخذ أيضاً القليل من  
هذه؟ مرنا تكلمت بالإنكليزية عندئذ. كان صوتها ناشفاً، حازماً كما  
لم نسمعه أشا من قبل. وقتت واقتربت من السيدة التي أخذتها تحت  
جناحها وهزّت رأسها علامة الإيجاب. مرنا أخرجت نفوداً كثيرة من  
الجارور وأعطت الفتاة ثمن الطعام وأمرتها أن تذهب وترجع بسرعة  
لأن السيد سكياس وإبنه لن يتأخرا. أشا أخذت المال وخرجت.

شامل دميان تبدّل صوته. سأله هل تريده أن يعود في وقت  
آخر؟ إذا كانت مشغولة الآن وعندنا ضيوف يقدر أن يأتي غداً.  
مرنا قالت لا، لا أريد أن تتعذب، إملا «الكثّة»، وعندما  
ترجع آخر الشهر نتحاسب.

حشا الصندوق. مدّ يده كي يأخذ الثوب المكشكش عن  
المنضدة فقالت «هذا لا». كانت عبارتها مستننة، تنقب الهواء  
واللحم. ألقى على الأرض وضغط الصندوق بركبته ثم أقفل  
«البكلاّت» وتأكد من السيور ورفعها إلى ظهره. كتبت على الدفتر  
أرقاماً وعملت الحساب. لفظت الثمن الكامل. كانت تعرف أنها  
باعته ضعف ما تبيع الكشاشين الجدد. وهو يخرج من المتجر محبباً  
تحت الثقل وهو لا يصدق أنه خدعها: لن يرجع أبداً!

كانت تعرف، وتمتد ألا ترى وجهه مرة أخرى.

- 71 -

## لخبير من البلاد

أمطار غزيرة تساقطت ثم هبّ الهواء الذي يسبق الثلوج  
وهجمت العاصفة. من جديد ظهر عمال الترام يجرفون ما تكدس  
على الخط. كانت تمشي ملتفة بالمعطف والشال بمحاذاة أشجار  
«البارك» البيضاء، وشئت رائحة غريبة: استدارت ورأت عربة  
بمجلتين كبيرتين - كمجلات العربات التي تجرها الخيول - ورجلاً  
خمسياً يدفع العربة بكل ما فيه من قوة والعربة لا تتزحزح. كان  
يحاول إخراجها من زقاق، مستواء فوق مستوى الشارع. وزاد  
الصعوبة الثلج المتكوم. لم تعرف ماذا يبيع. كسناه مشوية؟ كانت  
الرائحة شبيهة برائحة الكسناه لكنها ليست هي. تأملت المنظر لحظة  
أخرى ثم تابعت طريقها. الأنفاس الخارجة من أنفها وقمها بيضاء  
كالثلج، دافئة. قبل أن تبلغ المتجر رأت ثلاثة كشاشين في انتظارها،  
يسمرون، ويفخون في أيديهم.

تعرفهم واحداً واحداً وبعانهم من قبل. سألتهم لماذا يقفون في  
البرد والمتجر مفتوح وأشا في الداخل. قالوا إنهم يحيون الهواء  
وكانوا في إنتظارها. ضحكوا بينما يخبرونها عن بيت سكنوه قبل  
سنوات، بيت في سيدار رابيدز\*، كان بلا سقف تقريباً، وعندما

\* Cedar Rapids - Iowa

بحرفون الثلج إلى خارج البيت يأتي صبيان الحِمَى للفرجة. كلنا في غرفة كبيرة واحدة لها سقف، كنا ثلاثين واحداً، نقرش على الأرض وننام، ومرات مع الضيوف نصير أربعين أو خمسين، وإذا كان أحدنا مع زوجة نضع له ستارة «جنيفس» وهكذا تنتهي المشكلة. الغرف الأخرى كارثة، ولكن المطبخ جيد. أجمل يوم الأحد: نجتمع في المطبخ، نتداف ونطبخ وتأكل كأننا في البلاد ولم نتركها، حتى كبة بالصينية كنا نطبخ. وفي العيد الكبير نخبز الكعك بالتمر والمعمول بالجوز.

عملت لهم الشاي حلواً كما يحبونه وأرسلت أنا إلى الفرن. شددوا عليها ألا تفعل. لكنها قالت «هذا لزوم الضيافة». استحووا عندئذ وسكتوا. هي لاحظت شيئاً غير عادي: كأنهم سمعوا - خيراً! سألتهم عن أخبارهم؟

الأكبر بينهم تكلم. كان ينفخ على كوب الشاي من دون أن يشرب. وأخبرها:

- يوسف طنوس من عكار قال في «ركتور ستريت»، أولاد عمه في «ركتور ستريت»، قال إن الجراد لم يترك في الجبل قمحة ولا حبة شعير. الناس ماتوا بالآلوف. وحتى الذين معهم فضة وذهب، ماتوا. صار الذهب بلا قيمة. الناس أكلوا ما لا يؤكل، ومع هذا جاعوا وماتوا، أنا لا أصدق أن هذا يسمح به ربنا لكن يوسف طنوس يقول إن الجبل كله تحرّب. القرى مات أهلها، باعوا الأبواب وخشب الشبابتك كي يشتروا مكبال حبوب ولم يجدوا. يقول إن قريته في عكار لم يبق فيها أحد! كلهم جاعوا وماتوا! الذين وصلوا إلى طرابلس زحفاً وجدوا ناساً جوعانين مثلهم. كانوا يأكلون من الزبالة، قشور الفواكه، ثم لم تعد توجد زبالة كي يأكلوا. هكذا

قال يوسف طنوس. لكنه يقول إن الجوع الأقوى ضرب في الشمال وأن الناس في المتن والشوف لم يموتوا كلهم. وفي زحلة أيضاً لم يموتوا كلهم، هكذا يقول. كانوا يذهبون في الليل والثلج إلى حوران ويجلبون الحبوب. لكن حتى في حوران جاعوا... يوسف طنوس قال إن الجوع في بيروت كان قظليماً، والأولاد انتفخت بطونهم يشرب الماء قبل أن يموتوا، هو وأهم بعينه قبل أن يخرج.

مرتا لم تفتح فمها. شرب الرجل شاياً وبينما يشرب تابع الأوسط الكلام:

- الأميركان في الجامعة ببيروت عندهم فريق إسعاف وأطباء، وهو كان يشتغل معهم، يسوق البغال المحملة... نزلوا لمساعدة جرحى أتراك في صيدا ونزل معهم. عندما تابعوا الطريق إلى يافا قرر أن هذه فرصته. هرب في الصحراء حتى وصل إلى مصر. على الطريق جاع وكاد يموت. البدو أنقذوه. أطعموه ولولا البدو كان مات عطشاً وجوعاً. لكنه عندما وصل إلى الديار المصرية لم يجد إلا المسكر. ضربوه وجسوه. ظلّ يبكي ويقول إنه لا جاسوس ولا من يحزنون حتى فهموا عليه. قال إنهم لا يفهمون العربي.

دخلت أنا عندئذ محملة بالحلوى من الفرن. الرائحة الشهية الحارة ملأت المتجر. ردت خلفها الباب فظلّ الهواء البارد في الخارج. مرتا أخذت منها ما جلبته ووضعت أمام الثلاثة من دون أن تتكلم.

الأصغر بينهم أكمل الحكاية ناظراً إلى الكعك:

- يوسف طنوس عنده أقارب في الإسكندرية، أعطى العسكر الأسماء وذهبوا، سألوا ورجعوا مع أقاربه. لولا أقاربه في الإسكندرية كان مات في الزندان. لا يعرف كم بقي في الحبس لكنها

## أخبار من البلاد (2)

انهمكوا بتغميس الكعك بالشاي. كانت إيماءاتهم طفولية فرحة، ومرتبكة حزينة، في وقت واحد. الأكبر كَفَّ أولاً عن الأكل. شكر وهو يمسح أصابعه على بنطلونه وشرب مزيداً من الشاي ثم تكلم:

- الرجل ارتج عقله، يقول أشياء ثم يقول غيرها، وكل الحَيِّ السوري، لم يبقَ واحد في الحَيِّ إلا وذهب إليه في بيت أبناء عمه في «ركتور ستريت»، ودائماً يقول: هذه القرية أيضاً جاءت. الخواجة حوماني، أنت تعرفين الخواجة حوماني، عنده المطعم في بروكلين، ذهب إليه وقال اسم قرية غير موجودة، اخترع الاسم من رأسه، وقال ليوسف طنوس: هل جاءت هذه القرية؟ قال جاءت، لم يبقَ فيها أحداً!

الأوسط مسح أصابعه على بنطلونه وشكر وسكب مزيداً من الشاي ثم قال:

- أنا سألته عن عاليه وبحمدون. وسألته عن ظهور الشوير. أختي الكبيرة في عاليه هي وعائلتها، لكن أبي في ظهور الشوير. قال جاءت أيضاً لكن الكثير نجا. هو قال ذلك. جليوا قمحاً من حوران.

الأصغر تكلم وهو يمسح أصابعه:

شهور. يقول الجراد نزل على جبل لبنان مثل السحابة السوداء في ربيع سنة أول\* وأنه عندما أخذوه إلى الإسكندرية وسألهم عن التاريخ اكتشف أنه أضاع الوقت وهو في الحبس. أقرابه أخبروه أن تجارتهم ضُربت، متاجرهم أحرقتها زعران، ولو لم يضطروا للتأخر في السفر بسبب البواخر القليلة كان تَبَّح في الحبس: كانوا مسافرين إلى مرسيليا، مهاجرين! بكى عندما أخبروه، فأخذوه معهم بالبحر. كان ذاهباً إلى مرسيليا وهو لا يعرف ماذا سيحدث له لكن الباخرة دارت وغيرت طريقها: غواصة للألمان كانت تطاردها! وعندما نزل يوسف طنوس من الباخرة رأى نيويورك!

\* نزل الجراد على جبل لبنان يوم 15 نيسان (أبريل) 1915.

- في الجبل الجوع أسهل من الساحل، في المدن لا توجد أرض مزروعة. ابن الجبل يظلّ يجد شيئاً يأكله حتى لو جرد الجراد كل ما على الأرض. يحفر التراب ويجد جذراً يؤكل. أنا جدي أخبرني وأنا صغير عن الجراد. يعرفه وجاع بسببه لكنهم ذهبوا إلى الأحراج وأكلوا البلوط، طحنوه وخبزوه، وفي السنة التي بعدها امتلات الأرض بالأخضر وكل النبات الذي يؤكل لأن الجراد الكثير الذي قتلوه صار سماً للارض.

الأكبر نظر إلى آشا قاعدة في الزاوية تُطرز منديلاً كما علمتها مرنا. بدا حزناً وعلى وشك البكاء. كان يتجنب النظر إلى مرنا في تلك اللحظة. حلّ عليها السكوت: كأنها هي أيضاً أصابها غرس! كان مرض الأرمية اليتيمة انتقل إلى سيدتها بالدوى!

الأوسط كَفَّ عن شرب الشاي. كانت لحظة ساكنة. خارج الزجاج تساقطت رقائق الثلج، خفيفة، ناصعة البياض، صامتة. مرنا لم تفتح فمها. كانت تبكي.

### أخبار من البلاد (3)

تستطيع رؤيتهم، هؤلاء الثلاثة، غارجين من المتحجر، والكشآت ملانة. جزمانهم تطبع أثراً عميقاً في صفحة الثلج. أجسامهم مثقلة والأنفاس تخرج من فتحات الوجوه، بيضاء، دافئة، سكرية الرائحة. ماذا يشعرون؟ كانوا مسرورين بعد البسكويت والشاي والكمك؟ رأوا المرأة الجميلة تبكي وخرجوا حزناً من عندها؟ أستطيع رؤيتهم وهم يتوغلون في الدانتيل الأبيض - الرمادية التي يغزلها ندف الثلج. هذا النسيج عجيب، لا يتمزق بينما يخترقون ستارته من جهة إلى أخرى... في لحظة ما يختفون، تأخذهم الدروب إلى حيث تأخذهم، ويقعون خارج الكتاب.

مرنا ماذا فعلت بعد ذهابهم؟ ماذا فكرت عندما قال الصوت إنه سأل يوسف غنطوس عن عاليه ويحمدون؟ ماذا فكرت عندما قال الصوت إن الجبل تخربّ والقري مات أهلها... ماذا رأيت في خيالها؟ خرجوا ودخلت إلى حيث تنام وجلست بين الصناديق. هل فكرت أنها ستموت حزناً؟ هل شعرت أنها لن تعيش؟ عاشت وتحملت.

استقلت القطار إلى نيويورك. بينما تخرج من «الغراند ستترال» وهي تشدّ زنار المعطف ناداها صوت. التفتت ورأت رجلاً لا تعرفه يتشم لها ويهرع صوبها. كانت حركته غريبة، كأن مفاصله مصابة



بالصدأ. سألتها ألم تعرفه؟ قالت لا. كان أميركياً، يميل إلى البدانة، في الثلاثينات من عمره. نزع البرنيطة الطويلة الأذنين عن رأسه وقال لها: «والآن؟»\*

قالت إنها أسفة.

قال أنا هنري أوزبورن، من ترنتون - نيوجرسي، التقينا قبل سنوات في القطار وتحدثنا، كتبت ذاهبة إلى نيو أورليز أظن، اصطلم القطار بأبقار كسرت سبياج السكة، توقفنا في الليل وتكلمنا، ألا تتذكرين؟

تذكرته عندئذ. قالت له إنها أحياناً تنسى الوجوه. كانت تكذب. وهو ضحك وقال إنه ازداد سمته في الفترة الأخيرة ولهذا لم تعرفه. سألتها أين هي ذاهبة؟ قال إن عربة تنتظره ويستطيع أن يوصلها إلى حيث تريد. قالت إن عربة تنتظرها هي أيضاً. أعطهاها بطاقته. سألتها أين تقيم الآن؟ كان صوته طيباً، حاراً، وكذلك إبتسامته. عبرت خلفه أعداد من الجنود والمارينز. أعطته عنوانها - عنوان المتجر في فيلادلفيا.

ابتعدت في الزحمة ثم أوقفت عربة وقالت «ركتور ستريت، بليز» (Rector Street, Please). الحوذي ساط الحصان وهو يشتم الجنود كأنه تعارك معهم قبل لحظة. الحصان انطلق خيباً كأنه لا يجز عربة.

سألت عن يوسف غنطوس وعثرت عليه. جلست معه. صاحبة البيت جلبت قهوة مرة ومع الفنانيين على الصينية صحن السكر والمعلقة الفضة. قالت إنها منذ وصول يوسف صارت تعرف جميع

\* «And now?»

السوريين في أميركا، وابتسمت. مرتا ردت إبتسامتها وانتظرت ما سيقله يوسف غنطوس. كان يردد «بتاتر، بتاتر، بتاتر» كأن دمدمة الإسم سُخِرج إليه من أعماق الذاكرة الجواب المناسب. في النهاية سألتها أين تقع هذه بالضبط، جنب جزين؟ قالت لا، تلك إسمها باتر، هذه قريبة من بحمدون. بينما تقول بحمدون شعرت أنها أخطأت. (لماذا لفظت «بحمدون» بالذات؟) انتظرت جوابه. لكنه ظل ساكناً. بعد ذلك قالت شيئاً وهو سألتها متى جاءت إلى أميركا؟ وهي قالت قبل سنوات، في 1913. وهو قال إنه في تلك السنة كانت المواسم وفيرة في الجبل، خصوصاً الزيتون، لكن في السنة التي بعدها، في سنة الأربعتمش كان المحصول سيئاً، والناس كانوا ينتظرون محصولاً جيداً في ال 15 لكن جاء الجراد وأكل الأخضر واليابس. وبعد الجراد جاءت رياح الخماسين من الصحراء وأبيست ما تبقى. ثم أتى الشتاء، أفسى شتاء يمكن أن يأتي، الجليد وحيات البرد، كل حبة كيضه الدجاج، والناس جاوعوا وماتوا. سكت وصار يحدق من النافذة إلى بناية بعيدة عالية، تطف مستوحدة في الفراغ. اتسعت عينها وبدا مصاباً بعرض غامض وينتظر أن يقع ويقضي في أي لحظة الآن.

في الباب، وصاحبة البيت تودعها، سمعته مرة أخرى يحكي وحده في الداخل. المرأة إبتسمت لمرتا وقالت إنه لا يتام جيداً في الليل: لم يبق له أحد في القرية، يقول كلهم ماتوا أمام عينيه. أراد أن يرجع، نزل إلى بيروت كي يجلب لهم طعاماً. الذكائرة الأميركان يعرفونه، يشتغل عندهم، وكانوا يوزعون «إعاشة» مساعدة. لا أعرف ماذا حدث بالضبط، لكنه لم يقدر أن يرجع إلى عكار... وهكذا...

شكرت المرأة على القهوة. وعندما عانفتها المرأة وباستها ثلاث مرات أحسّت بوتر يمتد من بطنها إلى زلعموها يوشك أن ينقطع. نزلت الدرج الذي يفوح برائحة البطاطا والدخن المطبوخ ثم خرجت إلى الشارع البارد. كان المطر يتساقط رذاذاً وبوسترات الحرب تنتشر عن الحيطان. مشدودة العصب، مقوسة الظهر قليلاً، مضت مرثاً حدّاد في «ركنور ستريت».

- 74 -

## رسالة إلى ماري

ماري أسطفان. كبرى بنات جوزف أسطفان. والأقرب إلى أخيها مارون. زيتونية البشرة. عسليه العينين. شعرها كستنائي، طويل ومستقيم. أخذت عن أبيها ملامحه الشرقية\* وعاطفته، وعن أمها المخلّق البيروتستاني والولع بالقهوة الأميركية و«الباغل» بالسम्म مع Cheese Cream. عندما تزوجت وخرجت من البيت لم تغادر كنف العائلة: سكنت وزوجها في الجهة الأخرى من الشارع ذاته (هنري ستريت) على بعد أمتار فقط. مارون ضايقه ذلك: ودّ لو سكنت بيتاً أبعد كي ينتقل للإقامة معها. لكن «هنري ستريت» عالم صغير ولن يخرج من دائرة السيطرة. هذا سرّه: كان يهتّم أباه مقتاً شديداً. وكونه باطنياً أفلح في إشفاء موقفه (شعوره) عن الجميع.

أعيدّ مارون في تشرين الأول (أكتوبر) 1917 إلى معسكر

\* في 15 أيلول (سبتمبر) 1915 أثارَت قضية «دار ضد الولايات المتحدة» (Dow V. The United States) في محكمة الاستئناف (Circuit Court of Appeals)، المهاجرين السوريين في أميركا. جمعت الجالية في نيويورك مالاً واستأجرت محامياً دافع عن حقوقها القانونية في التّجنس، وكتب في الجريدة: «الرئيس ويلسون يُلوم السوري عرق أصفر وصيني ونحن نسأله هل كان يسوع المسيح المولود في سورية صينياً؟» انتهت المحكمة إلى اعتبار السوريين من العرق الأبيض (Caucasian) وساميين. وهذا سهّل حصولهم على الجنسية الأميركية.

مستوية، لكن أنت تعرفين وأنا أعرف أن الواحد لا يختار الأرض التي يزحف عليها)... بما أن الوقت في يدي هذه الساعة فكرت أن أكتب إليك كي أخبرك عن أحوالي: أنا بخير وأنته لطعامي وصحتي قدر الإمكان، وإذا كنت فقدت شيئاً من وزني فهذا بسبب التمارين فقط، والآن لياقتي البدنية عالية، ومهارتي في التسديد تليق بجندي إيطالي. أقول «إيطالي» لأن الجميع هنا يتنادونني ماريو. لسبب غريب ظنوا في البداية أنني إيطالي. ستونني ماريو. وهكذا صرّ: ماريو! الإنطباعات الأولى مهمة في هذه الأماكن ومتى ما علّقوا عليك إسماً لا يمكن الإفلات منه. عندي أصدقاء وتعاقد. هناك فرقة من السود في المعسكر، مع ضباط بيض يقودونهم هنا كما في المعركة\*. يتدربون مثلنا لكنهم يأكلون على حدة. رائحة أجسامهم قوية، صاعقة، لكن هكذا حالنا نحن أيضاً... لا تقدر أن تتحمم دائماً بسبب أعدادنا. وفي هذه الظروف تتحول إلى نصف - حيوانات. لكنهم أخيراً جلبوا المزيد من الماء إلى المعسكر. هذا كلّ مقصود، يُقال لنا، والهدف منه أن نتعود على ظروف الحرب، وعلى نقص المواد الأساسية...

... معظم الجنود هنا من الفرقة الخامسة والثلاثين وكانوا أصلاً من الحرس الوطني للحدود في ولايات ميسوري وكنتاس وكنساس لكن توجد كتيبة مؤلفة بالكامل تقريباً من بولنديين - أميركيين وهم مطالبون بفرقتهم الخاصة، على عكسنا نحن السوريين (لكن تذكرني: أنا إيطالي!) الذين نحارب بيدنا ورجلنا كي ننخرط في المجتمع الأميركي. لعل هذه الحرب تكون عمادتنا بالنار... أردت

\* «here as well as in battles»

تدريب في نورث كارولينا. وعد أخته أن يكتب لها لكن الرسالة الأولى تأخرت أسابيع. في هذه الأثناء انشغل بال العائلة عليه. الحياة اليومية في المتجر - والبيت الذي يعلو المتجر - تغيّرت: كان محوراً انكسراً! كلّما دخل زيون تحركت العيون صوب الباب ولم تجد ما تبحث عنه. لكن رسالة وصلت أخيراً في كانون الأول (ديسمبر) بينما الجليد يبرق على صفحة «إيست ريفر»: اكتشفوا أنه لم يعد في نورث كارولينا! المجتدون نُقلوا إلى معسكر آخر في غارنت - كانساس (Garnett - Kansas). لم تصل الرسالة إلى عنوان الأهل. وُجّه الرسالة إلى عنوان أخته. ماري قرأتها وحدها، في المطبخ، قبل أن تنقل الأخبار التي طال انتظارها إلى الجانب الآخر من «هنري ستريت».

«العزيزة ماري»

ها أنا جندي في الجيش الآن، أقعد في خيمة صغيرة الحجم وأكتب لك من «مدينة الجيش» في غارنت - كنتاس\* بينما المطر يعزف فوقني على قماش الخيمة. لا تدريبات اليوم، مُنحنا عطلة تنتهي عند المساء (يبدو أننا سنعرض لكيسة هذه الليلة: نوع من التمرين، يقوم المدربون باقتحام خيمتنا ونحن نيام ويكون علينا أن نلبس ومنتعل جزمنا بينما يطلقون الرصاص داخل الخيمة... بعد ذلك نركض إلى الخارج ونزحف حتى ساحة المعسكر على رأس الثلّة. لن أخبرك كم صعب على الإنسان أن يزحف على أرض غير

\* Dear Mary, Here I am a soldier in the Army now. I am sitting inside our little tent and writing to you from «Army City» in Garnett...

أيضاً، لا مع ذلك أشعر بالغربة عندما أسمع من معي - وهم أصدقاء، لا تسيئ فهمي - يتشوقون لعبور الأطلسي كأنهم ذاهبون في نزهة، كأننا لن نجد القنابل والغاز والرصاص والموت عندما نبذل الجانب الآخر! كان أوروبا ليست مدمرة والغزاة الألمان ليسوا على أبواب باريس! بلى، أشعر بالغربة وأنا أسمعهم، ومرات أسأل نفسي هل أعطت عندما سجلت إسمي وهل كتبت أتمت على حق؟

... لم تكن خطتي أن أكتب رسالة طويلة هكذا ولكن يبدو أنني أفعل هذا تكفيراً عن ذنوبي فأنا وعدت أن أكتب وتأخرت... عليك أن تعرفي أن الجندي لا يملك وقته ولا حياته. إنه قطعة صغيرة في آلة ضخمة جيتارة، وحتى الجنرال ينتابه هذا الشعور وكذلك القائد الأعلى، إنه «برغي» في آلة... أطيع لأنني قادر على هذا الآن، وأكتب بحرية كاملة. أما بعد العبور إلى أوروبا فالأمر مستحيل لأن المكاتب ترمّ على الرقابة العسكرية ثم تُرسل عبر بريد الجيش والبحرية ولهذا سيكون علينا أن نُقنن في الكتابة والتعبير. أيضاً الورق أقل «هناك» ومثله الحبر. أنا أحاول تعويدك على المرحلة الآتية وأريدك أن تكوني أنتي وأمي والباقيون على ثقة أنني أفعل ما أؤمن به. البعض هنا طلب أن يُعطى إجازة لقضاء ليلة الميلاد - هذا الميلاد - في بيته مع أهله وعائلته قبل أن تترك البواخر... لكن يجوز أن نؤخذ إلى الجبهة قبل الميلاد ولا شيء مؤكداً...

... كما قلت أنا بخير وصرت أنتعل جزمتي وأنا نائم وهكذا لا تزعجني «الكبسة» التي نسميها «طابور إزعاج». أقوم جاهزاً وأركض... الأمر الوحيد الذي يضايقني هنا هو اللغة التي يستعملها الجميع، والمدربون خصوصاً. المفروض أنهم جنود قدامى، وهم جنود قدامى فعلاً بمعنى أنهم خدموا في الجيش زمناً وبعضهم حارب

أن أقول إنني أفعل هذا لأنني أؤمن به. أعطتنا أميركا الكثير ولا بد من أن نعطيها في المقابل شيئاً، ليس صحيحاً أخلاقياً أن نظل نأخذ وتأخذ، كأننا نحلج بقرة... أنا أعرف أنك لا توافقيني الرأي: ستقولين لي أنني أقدم أن أقدم الكثير من دون أن أذهب إلى الحرب وأتعرض للخطر... لكن هل أنت واثقة؟ في أحيان عديدة أشك بمعتقداتي وقراراتي لكنني أستغرب أنك لا تفعلين الأمر نفسه: لماذا تظنين دائماً أنك محقة؟... هل تذكرين للويد صديقي من فيرمونت؟ هل تعرفين أن أخاه الكبير تخرج من هارفارد في نهاية 1913 وما أن اجتاحت ألمانيا بلجيكا وبدأت الحرب ترك مكتبه الجديد للمحاماة والتحق بالفرقة الأجنبية الفرنسية... إنه يقاتل على «الجبهة الغربية» منذ أربع سنوات تقريباً! كان في فردان طوال الشهر العشرة الماضية. لا تصلهم منه رسائل لكن تصل بطاقات بريدية، بطاقات الجيش. وما زال مؤمناً أنه اتخذ القرار الصحيح وأن من لا يقاتل في هذه الحرب لا يهجم مصير العالم ولا حرية الإنسان. أنا لا أفهم الجيل السابق؛ جيل الآباء يبدو لي منغمس الشخصية، يتصرف بحسب دفتريين، دفتر يخفيه في الجارور ودفتر يكشفه أمام المحكمة، أمام الضرائب، أمام الشرطة، وأمام الآخرين! خصوصاً الجالية السورية، وعلى الأخص في نيويورك! ألا يبدو لك هذا الوضع غريباً؟ ألا تشعرين عندما تتكلمين مع أحدهم أنه صاحب وجهين، أنه هنا وليس هنا في الوقت ذاته. أنا لا أقول إنهم كذبة وأدعياء، لكنهم يضعون قدماً هنا ويتركون القدم الأخرى هناك، وراء المحيط، في «البلاد» التي خرجوا منها. أما نحن، الجيل الثاني، فنعرف ماذا نريد. هذا هو الفارق: نحن من هنا، ألا تظنين ذلك؟ ولهذا نهتم بهذه الحرب: لأنها على نحو ما قد تساعدنا، وقد تكشف أمامنا شيئاً

تفراين لي قصصاً قبل أن أنام. طالما إعتبرتك أمّاً ثانية لي، وهذا لا يمكن أن يبدّله الوقت. أنا حزين لأنك حزينة بسبب دخولي الجيش. لكنني أطلب منك ألا تحزني، وإذا كانت الصلاة تساعد فعليك الصلاة من أجلي، وسرعان ما تمضي الشهور وتجدين أخاك أمامك مرة أخرى، و«تزعجته» مقدار ما تشائين.

في المكسيك أيضاً... لكن لن تتخيلي الشنائم التي تخرج من أفواههم. مقابل كل كلمة نسمع عشرين شتيمة. معاملة قذيمة واحترار. كأننا من فصيلة أدنى، من عرق مختلف... ولا فارق بيننا وبين السود في هذه المعاملة، كلنا سود هنا، وبالنسبة إليهم نحن أسوأ من السود. لا أعرف لماذا، لكن هذه الشنائم مسألة أعاني في التأقلم معها. غيري يعطيهم الأذن الطرشاء. لكن أنا أخشى أن أنطح واحداً وأنتهي في الزنزانة. قبل أيام رأيت جندياً جديداً يتصارع مع عريف. بطحه على الأرض وركب عليه وضربه على رأسه بحجر حتى فتح جمجمته. أنا أسف على كتابة هذه الأشياء، لكنها حدثت. حاكموه محاكمة عسكرية، لا أدري هل قرأت عن ذلك في الجريدة أم لا. هل تُكتب هذه الأشياء؟ هذه الرسالة سأضعها بنفسني في البريد وأعرف أن أحداً غيرك لن يقرأها، لكن إذا أردت أن يقرأها غيرك فهذا يرجع إليك ولا مشكلة عندي. سأحاول أن أكتب رسالة أخرى قريباً. أردت أن أكتب لأمي لكنني تستطيعين أن تقولني ما تعتقدن أنه يُناسب الآن، وأخبريها أنني سأكتب لها رسالة كاملة عما قريب، وأنتي بخير وصحتي جيدة وأكل فواكه بانتظام. أيضاً كل من يسأل عني من العائلة ومن خارج العائلة قولني لهم إنني أرسل إليهم السلام وأتمنى لهم ميلاداً مجيداً - هذا إذا لم أتمكن من لإرسال رسالة أخرى قبل عيد الميلاد.

أنتي تعلمين يا ماري موقعك عندي، وإذا كنتُ في سرٌّ يصعب فيه على المرء أن يعبر عن شعوره بإستقامة، فأنت لست بحاجة إلى تصريحني كي تعرفي كم أشعر بالحزن عندما أتذكر وجهك وأنت تأخذين مني هديتي قبل أن أصعد إلى القطار. أنا أهديتك ذلك الكتاب لأنه يذكركني دائماً ببعض أجمل ذكرياتي، تلك الأهم وأنت

157، أوماها - نبراسكا\*، بدا مريضاً بإمساكٍ مُزمنٍ وهو يحمل  
اليائنين متجهم الوجه.

جو ضحك وسأله لماذا يعبس هكذا؟

جيفري ردةً إنهم يظليون العنوان لسببٍ واحدٍ فقط.

جو قال لا تقلق، سنذهب ونرجع من دون غدش (Without a  
Scratch).

يتكلم الإنكليزية مثل أميركي الآن. كيف أجاد اللغة هكذا؟  
الآخرون في الخيمة لا يصدقونه عندما يقول إنه قبل سنوات قليلة  
فقط كان فلاحاً في أراضي التوراة، في سورية البعيدة. سمّوه جو  
دونت ووري (Joe don't worry) لأن هذا رده المفضل على جميع  
الطلبات والأسئلة (لا تقلق: Don't Worry). تصادق وجيفري  
سريعاً: كانا بنامان في الخيمة فأنها، مع سبعة آخرين، جنباً إلى  
جنب. جيفري أيضاً صاحب مهارات. عنده طرق خاصة للحصول  
على الويسكي والدخان كما على مؤن مختلفة من خارج المعسكر:  
أجبان، خبز شوفان طازج، سجق، سمك، بيض، فطائر بالفاكهة،  
إضافة إلى المجلات. لن يفقد قدرته بعبور الأطلسي.

نفض القلم بقوة ثم سأل جو عن رقمه. أجابته ضحكة هادئة  
وأصابته وجهه قطرات ماء وصابون. ضحك هو أيضاً ونهض إلى  
الفرشة حيث يتنام صاحبه «التركو». من تحت «مخدة» (كيس تحشي  
تينا وورقاً بإسباغ) استخرج «النذكرة» المعدنية. كانت قرصاً من  
الألومينيوم، قطره أربعة سنتمترات، على الجندي تعليقه من رقبته ليل

\* Jeffrey, Thornton Senior (Father), Omaha - Nebraska, P.O. Box 157,  
U.S.A.

## الذهاب إلى الحرب

لن تعرف مرثا إلا بعد شهر أن خليل سجل إسمها في «بيان  
الخروج». قبل ركوب البواخر من ميناء نيويورك نيو - فرجينيا  
أعطوا الجنود إستمارة تملأ وتوقع وتختم ثم تحفظ في الأرشيف.  
جو (خليل) حدّاد وقع الإستمارة لكنه لم يُعيس الفراغات بيده. ترك  
صديقه (لا يُرى من دونه في المعسكر) جيفري ثورنتون يفعل ذلك.  
كان واقفاً في مدخل الخيمة يخلق ذقنه بالموس، عاري الصدر مع أن  
الهواء لاسع البرودة. جيفري كان قاعداً على صندوق خشب في قلب  
الخيمة، جنب وجات الحطب الذي يخرج دخاناً أكثر مما يخرج دفناً  
(ثمة قسطل لكنه مسدود دائماً). أمامه، على صندوق خشب آخر،  
وضع إستمارة جنباً إلى جنب إستمارة جو. كلُّما كتب شيئاً في  
الخانة على هذه الورقة رفع رأسه وسأل جو ماذا يكتب في خانته.  
كان يدخل غلبوناً ويلقي على كتفيه وساقيه شالاً أسود ضخماً مثل  
إمرأة عجوز.

جو نظر إلى ثيران تجرّ حطباً، في مربع المرأة، ثم استدار وهو  
يمسح الموس على بظلولونه العسكري: «اكتب مرثا حدّاد، زوجة،  
23 ماين سنريرت - فيلادلفيا». جيفري ثورنتون الذي كتب في  
إستمارة قبل لحظة جيفري ثورنتون سينيور (أب)، صندوق بريد

نهار. رجع إلى الصندوق الخشب، ونسخ الرقم المنقور على  
القرص:

619729

سُمع بوق في تلك اللحظة. فُرعت أجراس ومرّر رجال  
بتصايحون. جو تبادل الكلام معهم ثم استدار وقال لجيفري: «غداً  
صباحاً».

جيفري وضع القلم ونهض وخرج من الخيمة. كان المكان  
يفور كخليفة النحل. سمع قرعقة قدور ورأى الشاحنات تتراصف  
خارج السياج وجنبها يقعد السائقون ويشربون قهوة. كانوا في زي  
غير عسكري واستغرب الأمر.

جو مسح بقايا الصابون عن وجهه بالمشفّة وقال: «استمطر».  
كانت السماء زرقاء وفي الأفق تظهر غيمة صغيرة واحدة. جيفري  
ردّ: «استمطر في الصين». وعاد إلى جوف الخيمة. طقطقت ألواح  
الخشب تحت جزمته. كان الصقيع يخرج من تحت الألواح، من  
قلب الأرض المتجمدة.

جو ليس قميصه وعلّق السلسلة التي تحمل القرص (إذا رآه  
العريف بلا قرص يرميه في السجن) وأخذ البرنيطة والسترة ومضى.  
ناداه جيفري قبل أن يتعد وطلب منه أن يرجع ويأخذ الصحنين لأنه  
لا يريد أن يخرج. كان وقت الطعام (توزيع الحصص) يقترب. جو  
استدار ضاحكاً وقال عليك أن ترفع صوتك فأنا لم أسمعك. جيفري  
كّرر كلماته وهو يشتم ويسحب الطبقين المعدنيين من وراء الصندوق  
ويطرق بهما، لكن جو لم يرجع. رفع يده مودّعاً ومن دون أن يُبدّل  
إتسامته قال:

.Don't Worry! -

- 76 -

## رأس السنة

خلال الأيام القليلة الفاصلة بين ليلة الميلاد 1917 وعيد رأس  
السنة لم تأت آتيا إلى المتجر. حضر أحد أبناء السيد سكياس وأعلم  
مرتا أن الفتاة مريضة. سألته هل عليها حرارة؟ قال إنها مريضة  
«عنا»، ووضع إصبعاً على صدغه. كانت إيماءة غريبة، وبقيت منتظبة  
في ذاكرة مرتا.

انشغلت بعد ذهابه بفتح الصناديق الآتية من نيويورك وإفراغ  
البضاعة. في فترة راحتها، بينما تأكل سندويشة جبنة وتشرب شايًا،  
قرأت مرة أخرى رسالة جوزف أسطفان القصيرة. كانت سطوراً قليلة  
لكنها تشير حزناً لا يُصدق. لماذا تقرأها مرة بعد مرة إذا؟ أدركت  
تماماً مقدار خوفه: يخشى ألا يرى إينه بعد الآن. أجدوا قبل  
الأعياد. ووصلت بطاقة أنه على الساحل الفرنسي. البطاقة عليها  
ختم الجيش ولا تقول شيئاً آخر: فقط أنه بخير.

في اليوم الأخير من كانون الأول (ديسمبر) دخل إلى المتجر  
كشاش لم ترّه من قبل. كان ميلولاً تماماً، مثل كلب يركض في  
العاصفة في برية بلا نهاية. اعتذر مئة مرة، بلغتين أو ثلاث لغات  
(عربية، إنكليزية، وهندية - إنكليزية غريبة يتكلمها بعض الكشاشين  
الآتين من ولايات أقصى الشمال، من الحدود مع كندا). كان يفكّ  
البكلات والسيور المبلولة بأصابع متخشبة ولا ينجح في سماعه. في  
هذه الأثناء اتسعت البركة تحت قدميه. كان العياء تنبع من عظامه.

جلبت له منشفة كبيرة، وجوارب ناشفة، وغطائية. سكبت له قهوة ساخنة وأضافت إليها قفطرتين من قارورة معدنية شبه مستطيلة. كان يرتجف برداً ويكاد يحرق يديه على المدفأة. القبة القرو التي نزعها عن رأسه كانت مبلولة كالممسحة وتنفوح برائحة الدخان. أخبرها أنه يتاجر مع الهنود الحمر، بييعهم ويشتري منهم، ويُسبب مشاكل لا تُحصى لشركة الهدسون\*. كثر عن أسنانه وهو يقول Hudson وقال إنه سعيد مع هذا. مرنا ابتمت وسألته ماذا يشتري من الهنود الحمر؟ «هذه»، قال. ودلها إلى القبة التي طرحها جنب المدفأة. فتح «الكفة» وأخرج قبعات أخرى، كلها من القرو. قال إن الهنود بتصيدونها والهنديات يقمن بالخياطة. «شركة الهدسون» لا تحب هذا: تحب أن تأخذ القرو خاماً ومن دون خياطة وبأبخس الأسعار. مرنا أخذت إحدى القبعات وتفحصت القطب. كان الخيط أبيض اللون. سألتها ما هذا الخيط؟ حرير؟ قال لا، أين يجدون حريراً، هذا صوف أرانب.

- أرانب؟

قال إنهم يحلّون فروة الأرانب البرية كما يُحلّ صوف الخروف. في منطقة البحيرات الكبرى، وفي الغابات شمال منبع الميسوري، توجد أرانب لم يبق مثلها على الأرض. يصيدونها. فقط الأكبر حجماً، لتلا تفرض. الهنود ليسوا مثلنا. إذا صاد الهندي من النهر سمكة ووجدتها صغيرة يردّها إلى الماء قبل أن تختنق.

قال الكشّاش هذه كلها فراء ثعالب، الخيط من الأرانب والفرو من الثعلب.

ابتم متعباً وهو يشرب قهوته الساخنة. سألتها هل أكل اليوم؟

\* Hudson River Company

قال «أكثر من هيك، عيب».

كان ينظر إلى الجوارب التي أخذها ولبسها بعد تردد. تركته لحظة ودخلت إلى حيث تنام ثم رجعت تحمل خبزاً ومرعى. فتحت رغيفاً بالسكين وملأته مرعى. فاحت الرائحة، عطرية طيبة، كأنك تسير في بساتين الفاكة تحت شمس الصيف. أخذ الرغيف وهو يحمّر خجلاً. قبل أن يقضم منه قال إنه من قبّ إلياس، ليست بعيدة من زحلة، في سهل البقاع.

قالت أنا من بتائر، قرية من بحدون في الجبل.

قال أنا أعرف أين هي بحدون، يمرّ فيها قطار دمشق -

بيروت، صحيح؟

قالت هذه هي.

قال «لكن لا أعرف بتائر».

قالت هي صغيرة وبعيدة عن سكة القطار، فيها ثلاث عائلات كبيرة، وعائلة أو اثنتان أصغر، كلها على بعضها أربعون بيتاً، ونصف هؤلاء من عائلتنا: حداد.

سألها هل سمعت أخبارهم في السنوات الأربع الأخيرة، هل

تعرف عنهم شيئاً؟

رفعت رأسها إلى فوق ولم تقل شيئاً.

قال «ولا أنا». أخبرها أنه تزوج وخرج من البلاد، ثم رجع

مرة واحدة وبقي حتى حيلت زوجته، ثم سافر من جديد. وكان ينتظر كي يسمع ماذا وضعت، صبيّاً أم بنتاً، لكن بدأت هذه الملمونة (الحرب) ومنذ ذلك الوقت لا أعرف ماذا حدث لهم.



مرتا شعرت أن الهواء يدخل إلى رثتها من جديد بينما ترفع  
قبعة أخرى من الكشّة المفتوحة وتلمس «التخاريج» شبه الخفية.  
كانت غياطة بديعة بتدر أن تجد مثلها في السوق. قلبت القبعة على  
قفاها وسأته كم يريد مقابل هذه كلّها، كل ما يحمله في كشّته؟

قال إنه يأخذ ما تدفعه، وإذا أرادت لا تدفع له سنتاً، وهذه  
البرائيط لها .

كانت فاتحة تجارة طويلة بينهما. قبل أن تكتب إسمه (بولس  
عزيز) في دفترها أخبرها عن حياته القديمة:

- أبي أصابه مرض في جنبه وأنا عمري 7 سنوات. بقي على  
الفرشة ثلاث سنوات، إذا أتى الصيف نجرّه إلى المصطبة، إذا سقط  
المطر نجرّه إلى تحت السقف. 3 سنوات ثم مات وهو نائم في  
الليل. كان عندي أخوتي وأخواني، نحن تسعة في البيت، ستة ذكور  
وثلاث إناث، وأمي. أمي كانت تشتغل بالأرض معنا وتذهب إلى  
زحلة أيضاً وتبيع هناك ما تُخيطه في الشتاء. شغل القمح صعب:  
كنت أحمل «الخشبة» (وهذه ثقيلة) وأضرب السنابل، شغل البيدر  
ليس للولاد: أخذت ظهري وإلى الآن ما زلت أتألم من ظهري عند  
النوم. وإذا وقفت طويلاً من دون مشي أشعر بعمود ظهري ينقطع.  
وإذا مشيت كثيراً من دون أن أقعد وأرتاح يحدث هذا الشيء. أمي  
خافت عليّ عندما صرت أصيح من وجع ظهري وأنا نائم بالبيت.  
أخذتني إلى الحلاق شكيب سعادة في زحلة وباست يديه حتى شغلني  
عنده. تعلمت أن أقص شعر «الزبونات»، أن أقطع الأسنان، أن أصنع  
القهوة التركية. كان يعطيني خمسة متاليك في آخر النهار. وأنام في  
الدكان. أكنس وأمسح وأنظف ويترك لي في الدكان - قبل أن يُغفله  
من الخارج ويذهب - كسرة خبز وإبريق الفخار فيه ماء. أمي لم  
تتركني عنده طويلاً. كانت تُخيط لإمرأة زحلاوية عندها عشرات

## رأس السنة (2)

ابتلع الرغيف بقضمات كبيرة وعندما رآها تفتح رغيفاً ثانياً  
بالسكين قال «لا، لا». لكنها فتحت الرغيف وهي تبعد يده بنظرة  
وملائه بالعمى. قالت هذا ليس أكلاً، لكن الخروج صعب الآن.

كان المطر يسوط الزجاج والهواء يهزّ الظلّة فوق الرصيف  
ويكاد أن يمزقها. الترامواي توقف عن السير لأن الشارع حال نهراً  
متدفقاً. مرّت شاحنة على ظهرها غزلان قُتلت للثور، قرونها كالعظم  
الأسود تحت خيوط المطر. (قواتين الولاية تسمح بصيدها في أوقات  
محددة. تكاثرت إلى حدٍ غير مسبوق في الأونة الأخيرة. مرات  
تدخل إلى البيوت في أطراف المدينة وتأكل الطعام عن طاولة  
المطبخ. مرّت قرأت في الجريدة عن طفل تآذى في إحدى هذه  
«الغزوات» المسائية).

سألها الكشّاش عن أهلها في سورية. قالت عندي خالي  
وعائلته، أهلي مانوا وأنا صغيرة، وعندي... قطعت جملتها  
وشعرت بالثقل، كان قلبها يتحجر ويغوص في بحيرة. لكنها هي  
الحجر، هي الصخرة التي تغوص.

الكشّاش أنفذهما، لفظ إسم كشّاش آخر، من عبيدات - المتن،  
تبيعه منذ فترة ودائماً يدفع ما عليه ولا يتأخر. قال هو دلّني إلى  
دكانك وقال لي إنك تحيّن هذا الصف من البضائع.

## الذهاب إلى الحرب (2)

المعنويات منخفضة - كدرجة الحرارة - بين جيوش «الحلفاء» على «الجبهة الغربية». توقعنا في العدد السابق\* تحسن المعنويات الفرنسية والإنكليزية والكنديّة بوصول الأميركيين من وراء المحيط لكننا لم نتوقع أثر خروج روسيا من الحرب على «الجبهة الشرقية». البلاشفة نفذوا وعيدهم ومع تراجع القتال على تلك الجبهة يُتوقع أن تحول ألمانيا كامل قواها إلى فرنسا. تتسارع الأحداث (من كان يظن قبل شهر أن لينين ورفاقه سيخلعون القيصر الروسي عن عرشه؟) ويخشى الجنرال فوش أن تشن قوات «المحور» هجوماً شاملاً قبل أن يتمكن الأميركيون من تقديم أي مساعدة حقيقية، بسبب نقص الأعداد والعتاد والذخيرة ولكن أيضاً لنقص التدريب. وأستطيع أن أقول من مقابلاتي مع الجنود الأميركيين في موانئ بريطانيا وفرنسا أن الوضع لا يُبشر بخير. الجيش الأميركي لم يقاتل في غنادق من قبل. إنه معتاد على الهجمات والهجمات المضادة في سهول وأراضي مفتوحة.

\* مقالة نشرتها مجلة Madrid الإسبانية أثناء شتاء 1917 - 1918. نُرجمت إلى الإنكليزية ونُشرت في Punch البريطانية بعد حذف مقاطع من النص الأصلي. بقيت أسبانيا على حياء أثناء الحرب العالمية الأولى. لعبت صحافتها دوراً بارزاً في تغطية أخبار الإنفلونزا خلال الفترة الأخيرة من الحرب فشي الوباء Spanish Flu.

النساء وكلهن يخطن لها وهي ترسل شغلهن بالبايور إلى أميركا. . . الله يُوجه لها الخير، عملت معي «منج»، قالت لامي إينك صغير ويتعلم بسرعة. . . أعطتني ثمن «الناولون» وجئت إلى أميركا. لكن قبل أن أجيء زوّجتني أُمي بنت عمي، من خوفها عليّ لم تقبل أن أسافر بلا زواج. كنت ولدأ لا أحلق ذقني بعد ولا أعرف في هذه الشؤون. عندما رجعت إلى قبّ اليباس وأنا أحمل هدايا من أميركا رأيت أُمي تبكي للمرة الأولى في حياتي. حتى عندما أنزلنا أبي عن الفرشة وهو ميت لم تبك. مع أنها كانت تحبّ وتعنتني به كأنه إنهما. تزوجت بنت عمي، وأُمي من قبلي تزوجت ابن عمها. كان يشبهها شكلاً أيضاً، المرحوم أبي.

قالت مرثا:

- أنا كمان تزوجت ابن عمي.

كان صوتها ضعيفاً، لعل الكشاش لم يسمعاها.

- مرة في منطقة الغابات في نورث داكوتا كنت أسير وأركض كي أبلغ القرية وراء الغابة قبل غروب الشمس. كانت الأشجار كثيرة، شبه متلاصقة، والطريق حمراء اللون يغطيها العشب وأنا أهرق في «الكبوت» (أشار بحركة من رأسه إلى المعطف المبلول الذي علّقه في المدخل فوق سلّة الشماسي)، وألهث. لصوص خرجوا من بين الأشجار وواحد منهم وحياة مريم العذراء يشبهني كأنه أنا! هربت منهم وتسلقت شجرة وربطت نفسي بالزئار إلى الجذع كي لا أقع، وتمت فوق. كانوا ينتظرونني حتى أتعب وأنزل لكنهم ناموا. نزلت وهربت.

لكن أين نجد له مثل هذه السهول في خنادق «الجبهة الغربية» وبين أسلاكها الشائكة؟

قائد القوات الأميركية (AEF)\* الجنرال بيرشنج أعطي صلاحيات مطلقة من قبل حكومته. قبل أن يخرج من البيت الأبيض ويركب الفرقاطة Nantucket وجّه إليه الرئيس ويلسون أمراً واحداً: «أطلب منك أن تذهب إلى أوروبا على رأس قواتنا، وأطلب منك أن تعود». المقربون من الجنرال الأميركي يقولون إنه غير مستعد لإعارة جنوده إلى الفرنسيين والبريطانيين ويريد أن يقاتل بجيش أميركي مستقل تحت إمرة الضباط الأميركيين. هذا سبّب الخلاف مع قائد القوات الحليفة الجنرال فوش. والمقربون من بيرشنج يتوقعون أن تحشد أميركا من الآن وحتى نهاية 1919 نحو ثلاثة ملايين جندي على الساحل الفرنسي، وبعد ذلك يبدأ الهجوم الشامل على برلين. لكن الجنرال فوش وكذلك هايج Haig الإنكليزي لا يوافقانه الرأي، إذ يستحيل مواصلة القتال حتى ذلك الوقت أمام الشراسة الألمانية!

أدى سقوط المعنويات وإنهاك الجنود الفطيع خلال الشهر القاتل إلى حوادث فرار وتمرد مقلقة في صفوف الجيش الفرنسي. في ميسي - أو - بوا (Missy - aux - Bois) احتلت كتيبة فرنسية البلدة وأعلنت تشكيل «حكومة» معادية للحرب. قبل السيطرة على التمرد سقط مئات القتلى. أعدمت القيادة 438 جندياً بالرصاص بعد محاكمات عسكرية ميدانية صاعقة السرعة. ولولا تعيين الجنرال بيتان قائداً للمنطقة ولولا التدابير الخاطفة التي اتخذها (ضاعف فترات الراحة وحصص الطعام والتبغ المخصصة للجنود والإجازات home leave) لأمكن القول أن جزءاً كاملاً من الجبهة كان سينهار وأن

الألمان كانوا اجتاحوا باريس! في هذه الأجواء الملبدة - وبينما العواصف الثلجية تحجب الرؤية تماماً - يصل الأميركيون إلى الجبهة وهم يجهلون حال الأرض. لقد قال لي جندي أميركي من ألاباما - وهو يتخذ وضعية القرفصاء على ألواح خشب تطفو في خندق موحل في قطاع أستوفيل Asnauville البعيد بضعة أميال من الخط الألماني الهجومي - جملة معبرة تختصر الوضع: «رجال الأربع دقائق لم يخبرونا عن هذه العصيدة». الجملة بحاجة إلى شرح: رجال الأربع دقائق\* إسم يُطلق في أميركا على الأشخاص المكلفين بالدعاية للحرب. هؤلاء يظهرون في صالات السينما أثناء فترة الاستراحة ويلقون خطاباً حماسياً تدعو الشباب إلى التطوع والدفاع عن البلاد. (الدقائق الأربع هي المدة اللازمة لتتغير «بكرات» الفيلم). أما «العصيدة» أو الشورية السميكة (حساء الذرة أو حساء العدس المطحون) فحتى القراء الأسبان يعرفون المقصود منها: إنها وحول الخنادق.

الدبابات أيضاً - سلاح تشرشل الثوري الجديد - تبدو عاجزة عن قطع هذه الخنادق. الإنكليزي يجربونها لكن الألمان يردون بغاز الخردل، بالآلغام، بالقنابل الجهنمية زنة 420 باونداً كالثني استخدمت في Verdun، وبقاذفات اللهب. كل الأسلحة مسموحة في هذه الحرب المخيفة. المدفعية الثقيلة أحالت الجبهة الممتدة من سويسرا شرقاً حتى البحر غرباً إلى أرض - لا - أحد (No - Man's Land): القرى والبلدات والحقول وسكك الحديد والطرق، كلها كتلة واحدة من الدمار والوحل، تلال وأودية من الوحل، وحيثما

\* Four - minutes - men

\* American Expeditionary Force

نظرت لا ترى إلا الجثث والأشلاء والأطلال، الأحصنة والأشجار  
والماشية المقطعة بالقنايل والرصاص. طبقات جثث\* فوق طبقات،  
والطبقة تدفن الأخرى، بالهجمات العقيمة والهجمات المضادة الأشد  
عقماً على مدى السنوات الماضية... والآن وصل الأميركيون إلى  
المجزرة أيضاً.

- 79 -

### «أنا بخير»

خرجت أشا من حياة مرتنا بلا صوت كما دخلت. السيدة  
سكياس هي التي مرّت على المتجر، ملتفة بالفرو وعلى رأسها قبة  
صوف مربوطة بعقدة تحت الذقن. كان أنفها أحمر، متورماً كحبة  
شمندر. قالت لمرتنا إن صاحب مصانع السجاد والكيمونو عمود  
الطائفة الأرمنية في سياتل ماثيو بابكيان أتى من آخر أميركا وأخذ  
الفتاة البيثيمة زوجة. مرتنا سألتها: «أليست صغيرة؟». كان سؤالاً  
عابراً، يُلفظ بسهولة بينما ملعقة السكر تدور في كوب الشاي.

«ليست صغيرة إلى ذلك الحد»، ردّت مسز سكياس، «عندما  
أتى كريكوريان وأخذني من بيت أهلي في زارا كنتُ أصغر منها».

اختفت أشا كما ظهرت. لكن على مرّ السنوات الآتية ستظل  
تظهر في خيال مرتنا، بيضاء وساكنة وتسير على مهل، كلّمًا قرأت أو  
سمعت عن مذابح 1915 الأرمنية: كانت تراها بين أرتال البشر  
الذين تهجروا من قراهم ونُقلوا برأ عبر الصحاري والجبال والوديان،  
تحت حراسة البواريد التركية، من أرمينيا إلى دير الزور في سورية.  
كانوا يقعون كالذباب على الأرض، ينهكهم التعب أو الثلج أو حرّ  
الشمس، والجوع يهدّمهم... قرأت عن رجل كان يحمل أباه المعجوز  
مسافة مئة خطوة ويضعه على التراب ثم يرجع ويحمل أمه المعجوز،  
وهكذا دواليك، مئة خطوة بعد مئة خطوة، عبر ربيع أو صيف

\* قُتل الحرب الكبرى تسعة ملايين جندي وخمسة ملايين مدني.

ومرة أخرى طلبت مساعدة جويس بيكرود - الفتاة التي ساعدتها من قبل في فترات الزحمة أثناء الأعياد.

اكتشفت أن الفتاة تغيرت. عندها صديق الآن، تقول إنها ستزوجه إذا رجع من الحرب. تتلقى منه رسائل وبطاقات وتكتب له. أحياناً تسأل مرثا أن تساعدتها في تهجئة الكلمات... مع أنها هي الأميركية المولودة في فيلادلفيا.

ذات صباح دخلت تحمل كيسين ورفيقين. قالت إن أمها عملت هذه الدوناتس Donuts من أجلها. أخرجت الحلوى الطازجة من الكيس ثم جلست وهي تحضن الكيس الآخر. بعد ذلك أخرجت منه البطاقات والرسائل وبدأت تتكلم:

- هذه أرسلها من نيويورك. أنا في حياتي كلَّها لم أخرج من فيلادلفيا. في هذه يقول إنه وصل إلى نيويورك عبر «التيوب»، النفق تحت نهر الهدسون. يقول نيويورك ملانة بحارة وجنوداً. وشاهد في السينما «وحش برلين» Beast of Berlin. ونام مع أصحابه في عتابر المرفأ. هذه البطاقة كتبها من مكان ما في الأطلسي. أنظري: هنا يكتب أنهم حقنوه إبرة كزاز على ظهر الباحرة، لئلا يتحول أي جرح لطيف إلى إصابة قاتلة. وهذه الرسالة من ليفربول. يقول النساء الإنكليزيات جليبن لهم طعاماً وزهوراً. وهذه البطاقة من الهافر La Havre. هذه من بطاقات الجيش Field Service Post Card وممنوع الكتابة عليها. فقط يكتب عنواني. ويوقع إسمه والتاريخ. وعليها سطور مطبوعة. هذا السطر تركه: «أنا بخير». وشطب السطور الأخرى. أخاف من هذا السطر: «أنا في المستشفى». أخاف أن يرسل بطاقة ويشطب كل السطور ويترك هذا السطر... أحببت الدوناتس؟

\* I am quite well

1915. بلغوا خيم دبر الزور المضروبة بين الصبير والشوك عند الخريف. فقدوا نصف الغافلة على الطريق بغارات البدو والأكراد. اجلس الرجل أباه وأمه على صخرة بيضاء كالملاح ثم ذهب وجلب دلو ماء من البئر. صياح قطع ملاً رأسه. لماذا يصرخون؟ ماذا يُبدل ذلك؟ جندي اعترض دويه وطلب ماء. سقاه ثم أكمل الطريق إلى الصخرة البيضاء. كان لونها يبدل. سقى أباه وأمه. بعد ذلك شرب وجلس على الأرض. مالت الشمس بين غيوم الخريف. شعر بألم في صدره وكشفه. مات بالسكتة القلبية وأهله عاشوا من بعده. نزحوا إلى بساتين برج حمود (الأب والأم وعدد من أبناء القرية ذاتها) وعندما مرض الأب أخذه المرسلون الإنجلييون إلى المستوصف التابع لهم في رأس بيروت.

الطبيب الذي عالجه سمع منه قصة النزوح الإجباري من الحدود التركية - الروسية إلى سورية. نقلها إلى صديقه الأستاذ في الكلية السورية (الجامعة الأميركية في بيروت لاحقاً) فرانكلين مور المولع بالتصوير الفوتوغرافي. الدكتور مور وضع ألته ذات الأرجل الثلاث أمام سرير العجوز الأرمني والتقط له صورة. عندما انتهت الحرب وخرج الأتراك من سورية ونزل فيها الإنكليز والفرنسيون أرسل مور الصورة المذكورة مع مقالة طويلة إلى جريدة «نيويورك تايمز». مرثا قرأت «حكاية الأرمني الذي وصل إلى بيروت من دون إينيه» وهي تسأل نفسها ماذا جرى لأشأ في سياتل؟ لن تحرف الجواب.

لكن الحرب لم تنته بعد ومرثا ما زالت عالقة في الشهر الأولى من 1918. أقول «عالقة» لأنها مرضت في تلك الفترة والمرض أعطاها هذا الشعور. استولت عليها نوبات سعال ووجدت القوة تخرج من جسمها. صار صعباً عليها أن تقوم بأشغال المتجر

## جو حدّاد

أنهكها السعال وسحقها الحرارة. كانت الثلوج تلدّب في الخارج والعصافير تترقّق على الأشجار لكنها قبعت في الداخل غارقة في رائحة المرض والأصواف. غلقت في حمى مقفلة كتقصص لا ترى ماضياً ولا مستقبلاً. استعانت بفناجين التناع المغلي لعلها تقتل الجرثومة التي فتكت بصدرها. بينما تنحني وتسلل مخلعة الأوصال في فيلادلفيا كان إبن عمها جو (خليل) حداد يُصارع من أجل الهواء في الطبقة الثالثة تحت سطح البحر، في مكانٍ ما من المحيط الأطلسي... عدد لا يُحصى من الجنود يتكومون في بطن الباخرة؛ باخرة تعقب باخرة، قافلة باوخر تحرسها الفرقاطات وطائرات الاستطلاع والقوارب المدرعة خوفاً من الغواصات الألمانية التي تنسلل إلى مياه أميركا (جربوا إطلاق توربيدات على مرفأ نيويورك نيوز حيث تُصنع باوخر حربية الآن... والجواسيس الألمان في أميركا - هكذا كتبت إحدى الجرايد - حاولوا تفجير معامل الذخيرة في نيوجرسي مرة أخرى... نجحوا مرة من قبل وعندما انفجر المصنع تحطم الزجاج وراء النهر، كل ما نهاتن السفلى تساقطت نوافلها، دوي الانفجارات سبّب ذعراً شاملاً: ظنّ كثر أن الغزو الألماني بدأ!

أشعلوا مصابيح في جوف الباخرة التي تخيف الحيتان. جو

حدّاد الخائف مثل الجميع من غواصات الألمان القاتلة دار بين الصغوف والفرشات، يبحث بين عددٍ لا نهائي من الوجوه والأقنعة عن صديقه جيفري ثورتون. قبل أن يعثر عليه التقى ثلاثة سوريين من ماساتشوستس\*. أخبروه أنهم يبحثون عن رفاقهم، معظمهم من فرى الكورة السبع، وصلوا إلى أميركا قبل سنوات قليلة، ورحلة الأطلسي ما زالت ماثلة في ذاكرتهم، لم ينسوا ضيق الصدر والهواء القليل والشعور أنك في زريبة، خروف بين الخراف، بلا حول ولا قوة. جو حدّاد ضحك وهو يقول لا تقلقوا سنعثر على رفاقكم وأنتم ساعدوني أيضاً ونادوا إسم صاحبي: «جيفري». صاح وأفزعهم وأفزع من حوله لكنهم ضحكوا بالمدوى وصاحوا مرة معه، ثم انتشروا بين الصغوف والفرشات والوجوه يكرّرون الإسم مرة تلو أخرى، كأنهم ينشدون في كورسي كنيسي: «جيفري!». لن يعثروا عليه. لكنه سيرى صديقه من جديد بعد شهر، ولولا الصدفة لم يتعرف عليه: كان مشوه الوجه الآن، محروق الأذنين والأنف والرقبة.

حدث الأمر هكذا: في 28 أيار (مايو) 1918 خاض الأميركيون معركتهم الأولى الحقيقية على الجبهة الغربية: أربعة آلاف أميركي من الفرقة الأولى، الكتيبة الـ 28 كاملة العدد تقريباً (البعض سقط قبل بلوغ Cantigny)، تقدمت بحماية 12 دبابة فرنسية -

\* 322 سورياً من ماساتشوستس وحدها اشتركوا ضمن صفوف الجيش الأميركي في الحرب العالمية الأولى. كانوا مجنسين وغير مجنسين والذين عادوا أحياء حصلوا على الجنسية الأميركية. (انظرُ مراسل من الجبهة) (1919) لبيتر موسى، ومقالة وليام كول المنشورة سنة 1922: «السوريون في ماساتشوستس».

\* 28th Regiment - 1st Division

الدبابات في المقدمة والجند يسرون خلفها - بعد قصف كثيف «متدحرج» شارك فيه 368 مدفعاً ثقيلًا. هذه التقنية المتطورة في القصف كانت تهدف إلى حرارة الأرض أمام المهاجمين ومطاردة المدافعين الذين يحاولون الانسحاب فتمتقيهم القنابل. لم تتمكن تحصينات كانتينيغي من الصمود. ونجح الأميركيون في احتلال القرية. لكن المعركة لم تنته عندئذٍ. كانوا يجلسون إلى وجبة سريعة في أحد البيوت التي لم تتهدم تماماً عندما بدأ القصف الألماني وانتجرت قنابل. صاحوا «Gas» وأخرجوا الأقنعة المطاطية ولبسوها. في اللحظة نفسها حطمت رشقة رصاص من مدفع لويس Lewis نمسوي الأكواب على الطاولة. ناجون ألمانيون المدفع على حافة النافذة وأطلقوا النار إلى الداخل. كانوا سيحبسوا لأنهم لم يلبسوا أقنعة الغاز قبل ذلك: قتلهم الغاز الألماني!

جو حدّاد خرج زاحقاً وابتعد قدر ما أمكنه عن الغيمة الصفراء ثم نزع القناع الخائئ. كان يلهث، ويرى الأشياء وردية وحمراء أمامه. عندما انتبه أنه يفوق في الماء استولى عليه الذعر لا خوفاً من الماء ولكن من الغاز ذاته: اكتشف خلال الشهور الماضية أن الغاز يتجمع حيث الأجسام المائية: البرك، الأنهار، خزانات مياه الشرب. . . ارتدى قناعه مرة أخرى وزحف تحت رصاص انهزم من ثلاث جهات دفعة واحدة. سقط في حفرة صنعتها القنابل وبقي في الحفرة. كان المكان ضيقاً بسبب الأشلاء والجثث المتخشبة لكنه بقي جامداً. هذا كلّه لم يعد صامداً بالنسبة إليه. هل ربي جلد تمساح فوق جلده خلال الشهور الماضية؟ حارب تحت إمرة الإنكليز في بيكاردي Picardy عندما بدأ الهجوم الألماني مطلع الربيع. كان في فرقة أخرى عندئذٍ ورأى النار التي تهجم كالبركان وتاكل الخندق كاملاً. فرّوا من الخندق كالآرانب البرية التي تُطرد من أوكارها

بالدخان وإحراق القش. الرصاص يحصدهم وهم يفرون من نافات المهب. صارت هذه رعبه وتطارده إذا نام لحظة. نجا ولم يعرف كيف. تعفنت قدماء وهو يفوق في الوحل ولكنه ظل حيّاً. في كانتينيغي، بينما يبلغ جرعة ماء من مطرته راقداً بين جيشٍ ألمانية وفرنسية وأميركية، جثث قديمة وجثث أحدث عهداً في أوصالها حرارة، صلى أن يخرج الربّ سالماً من هذه «الجورة»، ثم من هذه القرية المدمرة على الهضبة السوداء، ثم من هذه الأرض اللعينة التي تُسمى «الجهة»... صلى أن يبقى حيّاً. أزاح القناع عن وجهه. رأى جسماً يقع فوقه. يده بحثت عن الحرية وانتزعتها من حيث هي وغمدتها في الجسم الذي سقط عليه. هذا ألماني، عرفه من زينه الرمادي وبعته المسطحة. قلبه جانباً ثم برم الحرية إلى هذه الجهة وتلك وأخرجها. متى تدرب على هذا؟ في أميركا البعيدة وهو يهاجم فزاعة الحقول في معسكر يشبه ألعاب الأولاد؟ كانوا يطعنون دمي القش والمدرب يصيح ليس في الظهر، تحت، في الكلية. ولا تدخلوا النصل كلّه وإلا لن يخرج. ولا تشدوا هكذا بل إبرمو الحديد، اللعين يُقتل والنصل يخرج. لم يتعلم في المعسكر شيئاً. هنا، في الخنادق، بينما الرصاص يرمي الخوفة عن رأسه، تعلّم. هل تعلّم شيئاً؟ تعلّم ما يكفي للبقاء؟ انحسر الرصاص بينما المساء يهبط. سمع نداءات رفاقه. كانوا يبحثون عن بعضهم البعض. أطلّ بعينه ورأى ثلاثة ظلال وميّز الزي الروسي الأزرق. سدّد بندقيته وقزص. سقط ظلّ واحد، ذاب في عتمة المساء، ورفيقاه توغلا بين أطلال مظلمة. قسطل البندقية لسع أصابعه وهو ينزل إلى مقره من جديد. تفحص الجثث بحثاً عن شيء لا يعرف ماذا يكون. اكتشف جريحاً: كان يئن بلا صوت تقريباً، في زينه الأخضر والأزرق. هذا بلجيكي. أعطاه ماء كي يشرب وسأله عن إسمه.

## جو حدّاد (2)

«جان - جاك»، قال البلجيكي، «جان - جاك سيمون». ثم أغمض عينيهِ. بعد ذلك لم يتحرك. (إسمه منقور على النصب التذكاري - بين 526 إسماً - في مدخل كانتيني: نصف هؤلاء قُتلوا في المعركة والنصف الآخر قُتل بالغاز بعد إحتلال القرية).

- «أنا جو، جو حدّاد»، قال للبلجيكي.

لم يعرف أنه ميت إلا بعد وقت. أخرج رأسه من الحفرة ورأى ظلالاً تتجمع، سوداء. بعيداً، في الأفق، تشتعل السماء بالأحمر. القصف لا يتوقف لحظة. المدفعية تدوي، والأفق يلتهب. لكن كانتينيغي - لهذه اللحظة على الأقل - صامته. ضرب يده على أذنه اليمنى كي يتوقف الطنين فانتقل هذا إلى الأذن الأخرى. كل رأسه يطنّ ولا يعرف من هؤلاء الذين يتجمعون أمام الكاتدرائية المحطمة: صديق أم عدو؟ رجع إلى «الجورة» فسمع صوتاً. كان الصوت يتحدث إليه، وخيّل إليه أنه يضحك:

- أنا إسمي نانان، أنا أسترالي.

اكتشف أن الرجل يمدّ يده ويريد أن يصفحه. مَدّ يده وقبض على الأصابع القائمة. كانت لوزجة، ورأى أن الدم يسيل من فزاعه وصدوره. في الليل الذي ينتشر كالجبر ويملا الحفرة سمع الضحكة تنقطع: «Waters». لم يكن يطلب يده بل مطرة الماء.

سقاء. بينما الرجل يسعل ويصق دماً من رتيبه المصابتين بالغاز تجددت الانفجارات. الألمان تأكدوا أن القرية سقطت وبدأوا القصف؟ أم العكس: الهجوم فشل والآن يقصف «الحلفاء» كانتينيغي؟ في الحفرة لم يكن مهتماً بمعرفة الجواب.

الاسترالي قال له، عندما لاحظ حركته: «Stay». أراد أن يبقى معه. امتلات رثاه بالماء وكفت عن التنفس. جو حدّاد رأى القمر، أصفر، كامل الدائرة. عند حافة الحقول المقصوفة السوداء وقفت شجرة: كانت بيضاء، مزهرة، تشبه لطفة في هذا السواد. اشتعل الأفق مرة أخرى، يلتهب ثم يخيب... كان الدوي قظيماً ومع هذا سمع نداء من آخر الحفرة. كانت تتصل بحفر أخرى. عندما وقعت قبيلة قريبة تقطعت الأشلاء متطايرة وغطاه التراب. لكنه لم يصب بأذى. تلمس أعضائه وعرف أنه حيّ. من جديد سمع النداء. رجل يسعل، يتفرغر بالدم كأنه يقسل فمه بالماء والملح، وينادي. زحف صوب الصوت. كان هذا أميركياً، مثله، وأخيره أنه من الكتبية الثامنة والعشرين. جو حدّاد قال أنا أعرفك. والرجل طلب ماء. سقاء ففرغت المعطرة. طلب الرجل شوكولا. عشر جو على لوح شوكولا في ثيابه وكسر له قطعة. فتح الرجل فمه وجو ألقى القطعة بين أسنانه. بعد ذلك استند بظهره إلى حائط الحفرة. عندما تدفق ضوء القمر فوق الجثث رأى شخصاً آخر يتحرك. كان في اللباس الأزرق. زحف إليه وسدّ المسدس إلى رأسه. قبل أن يطلق النار قال الألماني:

Kamerad! -

هل كان يستسلم؟ ماذا كان يقول؟ دائماً يسمع هذه الصرخة عندما يجتاحون خندقاً. دخل مرة خندقاً ألمانياً مهجوراً للتو، ورأى



مائدة في غرفة محصنة تحت الأرض، بأكواب قهوة وغيز وجبن ولحم وعلبة سيجار من الصنف الفاخر. في زاوية عثر على صندوق فيه تفاح وبرتقال وليمون حامض. نظر إلى الفاكهة ولم يصدق. كان أتياً للتو من خندق موحل تطفو عليه الجثث، برائحة الأحصنة المتحللة تسحق دماغه، ورأى الفاكهة والحياة العادية في غرفة تحت الأرض. وبخاراً يرتفع من أكواب القهوة! خرج واكضاً إلى الخندق يطلق النار مثل أخوت. الألمان تسانقوا رافعين ثياباً داخلية بيضاء. كانوا يهتفون بتلك الصرخة الغامضة «كومراد» ويقعون على جهتي الخندق.

ناداه صوت. زحف ورأى أميركياً من فرقته. عليه أن يسرب التحية العسكرية: هذا يعلوه رتبة. قبل أن يسرب التحية قال الجريح:

- تستطيع أن تحملني؟\*

بدا كأنه يسأل عن مقدار قوته وحسب، مثل ولدين يلعبان في الساحة. جو هز رأسه ومد ذراعيه وجذب الرجل من كتفيه جذبة قوية. صاح الرجل تلقائياً كأنه ضُرب. كان نصف جسمه (ظهرة) مسحوقاً تماماً، ذاتياً وممتزجاً بالمادة السوداء التي تملأ أرض الحفرة. جو تركه وقال إنه سيرجع.

زحف أبعد فأبعد ثم أطل برأسه. داخل الكاتدرائية المحطمة رأى جنوداً يتحلقون حول نار صغيرة. لم يستطع أن يميز لا اللباس ولا الوجوه. كانوا يعيدون، واللون الأحمر الغامض يغزو عينيه من جديد. مسح جبهته وتأكد أنه لا يبتزف. مرة أخرى تكاثفت

Can you carry me? \*

الإنفجارات وغطى الدخان وجه القمر. ساد الظلام الحفرة وسكن الأئين. شعر بحركة. التفت ورأى رجلاً محروق الوجه. كان وجهه يسيل وعندما رفع يده رأى أن أصابعه تسيل أيضاً. ثم هوى أرضاً. خرج جو من الحفرة ومشى إلى الكاتدرائية ودخل بلا سلاح وألقى التحية. كانوا أميركيين، يبئنون البسكويت العسكري بالماء الفاتر ويُعدون طعام العشاء.

لم يفقد الوعي إلا لحظة. ثم فتح عينيه من جديد ورأهم ينتشرون وراء مناريس أعداء الألمان ثم تركوها. قال يوجد جرحى في الحفرة. قبل أن ينهي إقتراحه إنفجرت قذيفة في مدخل الكاتدرائية وحطمت التمثال الأخير الباقي للرب يسوع المسيح. أحدهم أعطاه ليمونة كي يمضها ويعد العطش.

«الماء تلوث بالغاز»، قال الصوت وهو يتعد.

كان المكان ضخمًا، مثل قصر بُني بأقواس وقناطر وعقود. لا بد أنهم عبروا هذا الصرح قبل قرون. في أميركا نادراً ما يرى عمارات قديمة إلى هذا الحد. لم تعد الانفجارات تبلغه. كان يتعد، والأرض الحجرية تتحرك، تسيل كالماء، وهو ينزلق... انزلق حتى بلغ الخندق حيث تتكلم الجثث مع الجرحى وحيث يطلب الجرحى ماء وشوكولا وحليباً، ويقول الذي يموت «إينى معي» ويمد أحدهم يده ويطلب المطرة. انزلق أبعد ورأى شجرة الكرز النابتة في قلب الجحيم. وانزلق أبعد ورأى جبلاً أخضر وعصافير وعشاً مملوفاً بالبيض. سمع السقسقة. ثم هوى التراب على عينيه وأنفه. هل يُدفن حيناً؟ سمع رصاصاً غزيراً في جوف الكاتدرائية... رجعوا؟ ماذا يحدث؟ أين قوته؟ فتح عينيه وعثر على بندقيته (ألم يأتي من الخارج بلا سلاح؟) وأطلق النار على الرجل الذي فتح النار على الجميع.

هل أصيب بالجنون تحت هذا القصف؟ هل يُطلق النار على رفاقه الآن؟ كانت الحرارة تسحقه وعندما عرف بعد دهر أنه يُحمل على محفة أدرك أنه لن يموت.

في المستشفى الميداني - غرف عميقة تحت الأرض - خاف أن يختنق. كان الهواء قليلاً ورأى رجلاً مبتور الذراعين يقف جنبه وينظر إليه. سعل وبعصق شيئاً أسود. اقتربت امرأة تلبس زي الصليب الأحمر وقالت إنه تنشق قليلاً من الغاز، لا يكفي كي يقتله لكن يكفي كي يأخذ إجازة ويلعب إلى الخطوط الخلفية ويرتاح. كانت تيسم وتلفظ كلمات اعتادت عليها بمرور الوقت. (خلفها كانوا يحقنون، تحت القنابل، جرحي).

وهكذا، في مستشفى فوق وجه الأرض، وراء الخطوط الخلفية، التقى جو حدّاد صديقه جيفري ثورنتون مرة أخرى. تبادلوا الأخبار. دحّنا تبغاً. ثم افترقا إلى الأبد.

- 82 -

### جو حدّاد (3)

جيفري قفز على ساقٍ واحدة إلى باريس\*. وجو رجع إلى الجبهة. في الطريق إلى هناك توقف القطار الحربي أكثر من مرة. نزل في إحدى المحطات - كانت السكة محطمة ويعاد مدها - ودخل مقصفاً لا يرتاده إلا الجنود. شرب نصف قنينة نبيذ وهو يلف تبغاً ويدخن سيكارة تلو سيكارة. في جيب معطفه عثر على بطاقة للجيش لم يكتب عليها أحد شيئاً. Field Service Post Card. تذكر راهبات دير سان مارتن حائضات كالدجاج حوله. كان يستلقي على ظهره، وعلى بعد سريرين يحقنون أحد الجرحى بالمورفين ويغزو الأبيض عينيه بينما يتلاشى. كانت هذه اللحظة من أغرب ما عرفه في حياته: شعر أنه يخرج من جسمه ويطفو فوق الأسرة. ينظر إلى الوجوه ويتعرف إليها وجهاً وجهاً - كأنه عرفهم دائماً - ويتكلم معهم... مع أن معظمهم نيام. (تذكر الجثث التي زحف فوقها ونام عليها طوال الشهور الماضية؟ كانوا يتامون في خندق قريب من الخطوط الألمانية وتساقت عليهم القذائف. أحدثت حفراً مرعبة وأخرجت من تحت الأرض جثثاً متعفنة).

كان غارقاً في غيمة تبغه. نهض خارجاً من الظلمة واقترب من

\* لا نراه بعد الآن ولا أعرف ماذا حدث له بعد ذلك.

الرجل الذي يسكب الكؤوس وسأله هل عنده قلم؟ الرجل استدار وأجاب بالفرنسية:

- Ah, Oui!

أخرج قلماً من تحت المنضدة وقبل أن يعطيه إياه اشترط عليه أن يرده. هُزّ جو رأسه، قال «Sure, Don't Worry»، وأخذ القلم. عاد إلى طاولته. انفتح الباب ودخل جنود وميكانيكيون ملطخون بالشحم. دخلت معهم رائحة الحرائق: كانوا يشعلون أشياء لا أحد يعرف ماذا تكون في الخارج (مثل رائحة العظم وهو يحترق). شرب ما بقي في القنينة ثم كتب عنوان مرثا في فيلادلفيا على البطاقة وقرأه كي يتأكد أنه لم يكتب خطأ. بعد ذلك وقّع اسمه ورفع رأسه وصاح يسأل عن تاريخ اليوم. أجابته الأصوات من جميع الجهات لكن التواريخ وصلته متشابكة ومختلفة كأنه يعيش في اللحظة فإنا أكثر من يوم واحد. شتم وضحك. والأخرون كزّروا ما فعله كأنهم انفقوا على ذلك مسبقاً. كانوا مثل وحشٍ حزين واحدٍ بعددٍ لا يحصى من الرؤوس المحطمة.

سأب الكؤوس دلّه وهو يفرك كأساً بغوطة إلى الروزنامة المعلقة على الحائط. ذهب إليها ونقل المكتوب وهو يشعر بدوخة خفيفة. سأله الفرنسي بلكته المضحكة من أين يأتي وإلى أين يذهب؟ كانت إنكليزيته بانسة لكنها تكفي كي يفهم جو ما الذي يتكلم عنه. أراد أن يضحك ولم يفعل. كان جيغري أمامه في تلك اللحظة يفتز على الساق الباقية ويشتم ويخبط بيديه. لماذا يفعل ذلك؟ لم يسأله في حديقة المستشفى. كان يصلي أن يتجو ويرجع إلى أميركا ويرى

\* بالتأكيد، لا تظن.

مرثا ويتكلم معها. لكن شيئاً غريباً حدث له بينما سأب الكؤوس يتسم ويمدّ يده ويطلب القلم: شعر أنه مات وأن هذه هي النهاية. لم يرسل البطاقة.

بعد ذلك قاتل مع الفرقة الثانية الأميركية في Soissons ثم في Fère - en - Tardenois التي احتلها الألمان في غزوة الربيع قبل أربعة شهور. أحد رفاقه طار في الهواء وسقط حياً. حملته إلى المستشفى في المؤخرة ثم رجع إلى القتال. هذه الحادثة تكررت ثلاث مرات وعندما انتهت المعركة كان يلهث كأنه يركض منذ سنوات. العريف طلب له وساماً وعندما تأخر الوسام طمأنه أنه سيأتي بالتأكيد. جو أصغى إليه بلا اهتمام وطلب منه ألا يقلق ثم أدى التحية وانصرف. في قرية سيرجي Sergy أصابه الحرس البروسي برصاصة في يده. عالجه في مستشفى ميداني على ضفة نهر Marne وحمل البندقية.

كانت إصابة طفيفة ولم تؤذ عصبياً. سار في مرج أسود ثم في مرج أصفر ثم في مرج أخضر وبينما يقطع المروج ويرى الرصاص يحصد السنابل والرؤوس شعر أنه لا يُفهم. في إحدى القرى المجاورة لـ Ypres رأى أسرى من الألمان حُسبوا في قفص مغلولين بالحديد كالحوانات وركبهم نخوص في الوحل. كانوا كأفراس النهر، نصفهم السفلي تحت الوحل والعلوي في الهواء الأزرق البارد. شتت الشمس بينما يقترب منهم وينظر إلى عيونهم الملونة ويحاول أن يستوعب شيئاً. أحد رفاقه أخرج من معطفه وساماً وقال: «أنظُر». «ما هذا؟» سأله.

\* المقبرة هناك فيها شواهد لسنة آلاف جندي أميركي إضافة إلى نصب تذكاري لـ 241 اسماً بلا قبر.

وأخبره أنه وجد صندوقاً مملوئاً بالأوسمة في الخندق والآن يوزع منها على الجميع. كان يضحك وأخذ يسعل ويضرب على صدره ويقول شيئاً عن الفلاندرز Flanders.

نقلوا جو إلى كتيبة أخرى وحارب في سان ميهيل St Mihiel. كان هاجماً وتعثر ووقع، ومن دون أن ينتبه غرق في النوم. كان القصف يفتك بالجميع والمدافع الرشاشة تحصد وتغرم وتقطع لكنه ظلّ نائماً. بعد المعركة طلب المزيد من الحبوب لأن يده تؤلمه. لم يُعطَ حيوياً. «هناك نقص في المواد الطيبة». فقد خوذته في - Meuse Argonne لكنه غنم أخرى من ألماني. قالوا له: «هذا خطر جداً، لا تلبس خوذة العدو». لكنه لبسها. وقع على الأرض في هجوم وعلق بأسلاك ونزف. أعطوه إجازة وأرسلوه إلى بيوت مدمرة في Chateau Thierry - حيث دارت معركة عنيفة قبل وقت.

مشى بين جرحى توزعوا الأطلال يشربون الكحول ويدخنون. كان الطعام كثيراً هنا لكنه وجد نفسه عاجزاً عن الأكل. منظر الجنود السكارى أثار فيه شعوراً مقلقاً. حاول أن يحدد شعوره ثم أدرك أن عقله صار في مكان آخر وأن تفكيره لم يعد مربوطاً بما يحدث له ولا بما يحدث حوله.

رجل رآه من قبل اقترب وسأله بالإنكليزية: «أنت جو دونت ووري، لا؟». هز رأسه ولم يقل شيئاً. أخبره الرجل أنه كان في معركة Belleau Wood وأنه رأى عدداً لا يحصى من القتلى يتعلقون من أشجار الغاية مثل الفرود. انتظروه كي يضحك لكن جو أبعد من دربه ومشى من دون أن يفتح فمه. أين كان خليل حدّاد ذاهباً عندئذٍ؟ ماذا كان يرى أمام عينيه؟ ماذا نسي وماذا تذكر؟

اضطرت للخروج وهي مريضة كي تحرّر بضاعة من محطة السكك الحديدية. كانت رحلة سهلة وبينما هي عائدة تحت الشمس الساطعة عطست وشعرت أن العرض خرج منها. اشترت سندويشة «هوت دوغز» وهي تشعر برطوبة عينها. في الأيام التالية استرجعت نشاطها وصارت تخرج في وقت راحتها وتنزه في «البارك»، بين الأشجار الخضراء، وتتأمل الأولاد يلعبون. فتيات في ثياب جديدة تراكضن على العشب وقفزن على الحبل وأنشدن أغنيات لا تعرفها. وقفت على مسافة قريبة وأصغت إلى الكلمات وحفظت الأغنية. بينما تسير عائدة إلى المتجر وجدت نفسها تندندن للحن.

اضطرت الفتاة التي تساعدها إلى الرحيل لكن مرتا لم يضايقها الأمر. وجدت طاقتها مضاعفة بعد المرض والسيات الشتوي. أزعجها فقط ألمٌ في ضرسها. والسيد سكياس دلّها إلى طبيب فذهبت وتخلصت منه. كان الطبيب ماهراً، خفيف اليد. فتح كفه أمامها كي ترى الضرس كما هو، وفي قلبه الأبيض نقطة الوسوس سوداء.

في تلك الفترة امتلأت الجرايد بأخبار المعارك التي يخوضها الأميركيون مع «الحلفاء» على «الجبهة الغربية». بعد معركة كانينغني Cantigny نُشرت أسماء القتلى في الجريدة. مرتا قرأت الأسماء وقلبيها يقرع في صدرها. سمعت النبض يدوي في أذنيها وخافت أن

## الجزء الثالث

يحدث لها شيء. لم تجد إسماً تعرفه. في الشهور التالية، وعند نشر كل لائحة جديدة بأسماء القتلى الأميركيين، كان هذا يتكرر. عندما قرأت في منتصف أيلول (سبتمبر) 1918 إسم هنري أوزبورن بين القتلى لم تنتبه. مرّت على الإسم ولم تنتبه ثم انصرفت إلى أشغالها: استقبلت زبائن وكشّاشين وباعت بضاعة. نفحصت دفاتر الحسابات وسجلت ما تحتاج إليه من نيويورك. لكنها عند المساء، وقبل أن تخلد إلى النوم، شعرت أنها مرّت بلا وعي على إسم تعرفه. التفتت الجريدة متوجسة وقرأت اللائحة مرة أخرى. كان هو، كأنه يلفظ إسمه الآن أمامها: هنري أوزبورن من ترنتون - نيو جيرسي.

بحثت ووجدت أكثر من بطاقة له. قارنت الإسم بين البطاقة والجريدة وشعرت بالدموع تتجمع في زلعمها. لم تعرف لماذا تيكّي. رجل النقته بالصدقة أكثر من مرة واحدة... هل تيكّي عليه؟ أحسّت أنها تختنق ولا تستطيع النوم. لبست ثيابها وخرجت إلى الشارع المظلم ووقفت تحت النجوم تنظر إلى العالم الذي يتام.

## Aisne - Marne

العاشرة صباحاً. الإثنين 14 تشرين الأول (أكتوبر) 1918.  
المتجر فارغ والشوارع أخلتها الأنفلونزا. كانت تشرب كاكاو عندما  
دخل ساعي البريد لابساً الكمامة. أعطاها الرسالة وخرج مسرعاً.  
كان ظرفاً غريباً رمادي اللون، بلا طوابع بريدية، وفي زاوية الختم  
الأسود للجيش الأميركي (US Army). فتحت الظرف فوق منه  
قرص معدني ورنّ على الأرض. كانت صفحة واحدة سوداء  
الحروف، مطبوعة على آلة كاتبة. في الأعلى قرأت إسمها Mrs.  
Martha Haddad. كانت الكلمات تتحرك على الورقة.

We are very sorry to inform you of the death of  
your husband. Private Joe Khalil Haddad was Killed  
while Fighting in the Field of honour for his country on  
the Western Front. He was buried by his fellow Soldiers  
of the AEF in the Marne Cemetery north of City of  
Paris on the 29th of September 1918.

نحن آسفون جداً لإبلاغك بموت زوجك. النفر جو  
خليل حداد قُتل أثناء القتال في ميدان الشرف من أجل وطنه  
على الجبهة الغربية. دفنه رفاقه الجنود من قوات الحملة  
الأميركية في مقبرة مارن شمال مدينة باريس في 29 أيلول  
1918.

لن تعرف مرثا - الربّ رحيم - شيئاً عن الأيام والساعات الأخيرة لجو خليل حدّاد. الكلمات الإنكليزية في رسالة الجيش الأميركي إليها تختم حياته. ترجمتنا العربية بلا قيمة. والكلمات الإنكليزية، أين قيمتها؟ ما قيمة الكلمات؟

كان يركض مع آخرين ويطلق النار. ثم هدأت المدافع الرشاشة وسكنت الصرخات. كانوا يتقدمون على مهل الآن بلا خوف. الخط الذي يتعرض للهجوم أخلاء المدافعون عنه. كان يتقدم والبنديقية في يمينه واليسرى تتحرك جيئةً ذهاباً. الطاقة تعجّ في أعضائه وبينما يتحرك هكذا ارتطمت قبضته بفخذه وشعر بحرارة غريبة. كان اللحم لمس اللحم، كأنه لا يلبس بنطلونه. نظر ورأى قماشة البنطلون ممزقة، تحت الحزام تماماً. ثم رأى السائل الأسود. إستغرب ذلك. لم يشعر بالرصاصة! رجع على ركيّة واحدة. ألقى البارودة على الأرض كي يحزّر يده ويخرج ضمادة من الكيس على ظهره. قبل أن ينجز ذلك لسعت التيار جنبه. مال وقعد الوعي.

استيقظ في مكان غامض ورأى وجوهاً غريبة ثم غاب مرة أخرى. كلّمنا أوشك أن يستيقظ شعره باللم في جنبه - كأنه يُحقن بأبر ضخمة الرووس - ثم تلاشى من جديد. عندما إستيقظ أخيراً رأى نور الغروب البرتقالي يتدفق من نوافذ عالية مستطيلة ويملاً قاعة بلا بداية وبلا نهاية. كان العطش يحرقه. نادى طالباً الماء لكن الصوت لم يخرج منه. رأى إيريقياً وأراد أن ينهض. استجمع أنفاسه وشعر بطاقة خيالية تتدفق في جسمه. قفز فسقط على البلاط وخط أنفه الأرض. نظر إلى ساقيه فلم يعثر على الجزء السفلي من جسمه. كان هذا غير معقول. عندما استوعب دماغه ما حدث صاح غاضباً. كان يصيح ويمدّ ذراعيه ويحاول أن يتمسك بالسرير المجاور. فرّت الدموع من

عينيه وهو بصرخ وبصرخ. كان مقهوراً وغاضباً مثل ولد صغير وبينما بصرخ فقد الوعي.

خُدّروه بالمورفين. وكلّمنا تراجع مفعول المخدر دَبّ الحريق في صدره وحوضه ويطنه. كان ألعماً لا يُحتمل. زادوا الجرعة مرة ثم مرتين. كان يفتح عينيه وبصرخ. دام هذا أياماً قليلة ثم ضاعفوا الحقن مرة أخيرة. وهكذا لفظ الروح. حدث ذلك في 28 أيلول (سبتمبر) 1918 في مستشفى كان من قبل ديراً على ضفة نهر مارن.

جدتي زهية جابر\* نجت من مجاعة الحرب العالمية الأولى. عاشت حتى سنة 1985. هذا يعني أنها نجت أيضاً من الحرب العالمية الثانية، ومن إحدى أقسى محطات الحرب الأهلية اللبنانية: «حرب الجبل» (1983). عاشت حياتها كلها في القرية حيث وُلدت: كفرنبوخ - الشوف، الواقعة في القسم الجنوبي من جبل لبنان. (خط بيروت - الشام، حيث مرّت الطريق الفرناوية - العثمانية لعربات الديبلجانس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحيث مرّ قطار بيروت - الشام في أواخر القرن المذكور ثم في العقود الأولى من القرن العشرين قبل أن يتعطل ويخرج من الخدمة... هذا الخط «الخيالي» يفصل جبل لبنان إلى قسمين، جنوبي هو بلاد الشوف وإقليم الخروب، وشمالى هو بلاد المتن. بتاتر - قرية آل حدّاد - تقع على هذا الخط مع أنها تعتبر تابعة لبلاد المتن).

كان شعرها أبيض، ناصع البياض، وطويلاً. كانت تجذله كالهوند الحمر وتخفي الجداول الطويلة كحيال حرير تحت العنديل الدرزي الأبيض. أتذكرها - وأنا طفل أنام جنبها على سرير حديد

\* زوجة محمد بشير جابر الذي نراه بعد فصول فاعياً من جبل لبنان إلى أميركا لروية أخيه علي جابر.

قديم لا أحد يعرف عمره - تستيقظ قبل الجميع في الفجر المعتم تحت قناطر البيت العقد الذي بناه أجداد العائلة. قبل النهوض لإشعال النار وتسخين إبريق المنة تبقى في الفراش، جالسة تحت البطانية، تفك الجداول وتمشط شعرها. أتذكر أيضاً «كتاب الحكمة» تُخرجه من البيت الجليلي الذي يحفظه. لا تنام إلا وهو تحت مخدتها. فتحنه بخشوع بعد أن تُقبّله. تقرأ فيه كلمات مخطوطة باليد (يُمنع طبع هذه الكتب المقدسة). أسمع الصوت الخفيض تحت قوس العقد العالي ولا أعرف - كنتُ صغيراً - أن جدتي أمية، لا تقرأ ولا تكتب. لم تتعلم يوماً أن تفك الحرف، لكنها تنشدها ما حفظته من صلوات وأدعية. أما فتح «الكتاب» فصلاة وبركة. أتذكر أيضاً التواريخ المكتوبة على ورقة سمراء شبه منفصلة في نهاية «كتاب الحكمة»، ويخيط يشبه غط «الكتاب» فانه (ليس الأمر غريباً: ناسخ «الكتاب» يوسف جابر، أحد أسلاف العائلة). هذا خط جدتي محمد الهاجع عندئذٍ على السرير المجاور، ينام على جنبه الأيمن ويُصدر من حين إلى آخر شخيراً متقطعاً. (كان يُدخن ثلاث علب سيدارز - تيغ وطني - في اليوم. ومع هذا لم يشك يوماً من مرض أو اعتلال. مات بعد جدتي بسنة. لم يتحمل). التواريخ - إذا تأملتها ملياً - لم تُدوّن بخيط واحد ولا بحبر واحد. (التواريخ العتيقة - حبرها أقدم وغريب اللون، أخضر إلى بنفسجي، وفيه برقة عجيبة مع أنه أقدم - لم يكتبها جدتي. من كتبها؟ أبوه بشير جابر صاحب الوصية في الفصل 2؟ لكن بشير جابر لم يكن يقرأ ويكتب. شخص آخر من الأقارب أو المعارف كتب تلك التواريخ. وكتب الأسماء أيضاً. هذه شجرة العائلة. سجلها. يحفظ أسماء اخنفت، تواريخ زيجات ووفاة وولادة. مرّات لا تجد تاريخ الوفاة. هذه حال علي جابر مثلاً).



## الإنفلونزا الإسبانية

لم ترّ مرثا زوجها ميتور السابق يؤخذ إلى حفرة في حقل  
بمساحة يتناثر على ضفة نهر مارن شمال باريس. لم ترّ القبور  
تتراصف متوازية، وتلال الوحل الصغيرة تغطي الجنود الذين قدموا  
من أطراف العالم كي يفقدوا أرواحهم في هذه النقطة. ماذا رأيت؟  
الرقم المنقور على القرص المعدني والمنسوخ أيضاً في زاوية  
الرسالة: 619729

في ذلك اليوم الخريفي - 28 أيلول (سبتمبر) 1918 - وبينما  
خليل حدّاد يلفظ الروح في مستشفى كان من قبل ديراً، وقفت مرثا  
حداد على الرصيف تحت ظلّة المتجر الصفراء تنفّج على الحشود  
تقطع شوارع فيلادلفيا: كانت هذه «مسيرة الحرية»، مهرجان  
موسيقى وأعلام وأناشيد ودعم للمجهود الحربي. ربع مليون شخص  
من سكان المدينة تجمعوا في الطرقات وغنّوا وأكلوا وشربوا وأصغوا  
إلى خطب حماسية. بعضهم كان يغطي وجهه بمنديل: منذ أيام تنشر  
الجرايد أخباراً غريبة عن «إنفلونزا قاتلة» ظهرت في بوسطن وفي  
كوينز - نيويورك. إذا كانت التقارير صحيحة فهذا «الرشح» مرعب.

حكاية العسكري التركي الذي حاول أن يسرق من جدتي  
دجاجتها أثناء المجاعة، تشبه شيئاً سمعته قبل قرون لا عقود. كانت  
وحدعا في البيت ورأته من النافذة يفتح بوابة القرّ (شبه الخالي: ما  
زالت توجد دجاجة) ويمدّ يده. على الحائط بارودة الدكّ. التفتقتها  
وركضت إلى الخارج وصاحت بالتركي أن يترك دجاجتها: «تروك  
الدجاجي!» كانت صغيرة لكن التركي خاف من صوتها ومن  
البارودة.

هناك حكاية أخرى عن شجرة التين، على المصطبة وراء  
البيت: غفلوا أغصانها ببطنانبات الصوف فلم يتمكن الجراد من  
أكلها. عندما ذهبت السحابة المرعبة السوداء عن الجيل كانت هذه  
التينة الخضراء هي الوحيدة الباقية. عاشت هذه الشجرة عبر القرن  
العشرين وأكل منها الكبار والصغار، جيلاً بعد جيل، وما زالت  
حيث هي، حيّة. (نسوة العائلة، جيلاً بعد جيل، اشتكين منها:  
تساقط ثمارها الناضجة على المصطبة الحجرية، وكذلك أوراقها.  
كل يوم لا بد أن تُكنس الأرض مرة ومرتين وثلاث مرات. . . إحدى  
«الكئنات» اقترحت قطعها و«ستّي أم شاهين» قالت: «يُقطع  
ريقتك!»).

حكايات جدي مختلفة. كان صغيراً ومع ذلك يسوق البغال  
ويذهب إلى سهل البقاع وإلى جبل حوران ويرجع. في الصيف  
(الشمس حامية وضربتها تقتل) وفي الشتاء (الثلوج تراكم وإذا وقعت  
في «منسف» تلج تموت بسرعة) يتكبد مشقة الطريق (ثمة لصوص  
أيضاً، بلا رحمة، يسرقون ويقتلون بلا تردد) كي يجلب شعيراً  
وقمحاً. أكثر من مرة كاد يقضي نجه في هذه الرحلات الخطرة. مرة  
أوشك أن يقع في قبضة الجنود الأتراك ولو حدث ذلك كانوا ساقوه  
هو والبغال إلى «الجهة».

خلال ساعات قد يتحول إلى «ذات الرئة» Pneumonia ويختنق المريض بالدم الخارج من صدره.

شاب ينفخ في بوق مواكباً أغنية تشتم القيصر الألماني وإمبراطور النمسا - هنغاريا أزاح البوق لحظة ومسح فمه بكمّ قميصه ثم سأل رجلاً يلبس قناعاً طبيّاً على فمه وأفنه: «لماذا هذا؟».

الرجل قال: «The Flu».

الشاب ضحك هازئاً وخبط الرجل على ظهره وقال: «Afraid of Sneezing!» («تخاف من العطس!») رفع بوقه مرة أخرى ونفخ. وسيظل ينفخ عابراً الطرقات، من مدينة فيلادلفيا على الساحل الشرقي إلى مدينة لوس أنجلوس على الساحل الغربي، ورحلته هذه - من أجل أميركا - ستنتقله من الموت... لكن خلف ظهره، في فيلادلفيا التي يتركها، ستحصد الإنفلونزا الإسبانية خلال شهر واحد 13 ألف قتيل، ثم تخفي.

ماذا كانت الإنفلونزا الإسبانية؟ هذا الوباء الغامض اجتاح العالم\* في أعقاب الحرب العالمية الأولى وقتل في القارات الخمس، أثناء 1918 و1919، أضعاف ما قتله الحرب الكبرى. بين 20 مليوناً و40 مليوناً قُتلوا بهذا الوباء. إذا كان ذلك حقيقياً فلماذا لا نجد عنه مئات الكتب في المكتبات؟ لا أحد يقدر أن يحصي المؤلفات المتعلقة بالحرب الكبرى. لماذا لا تتجاوز الكتب عن وباء الإنفلونزا الإسبانية - في المقابل - عدد أصابع اليد! (خمسة كتب؟ عشرة كتب؟ ماذا؟ ألوف الكتب تؤرخ الحرب العالمية الأولى!) لماذا طُرد هذا الوباء خارج الذاكرة البشرية؟ (لاحقاً، في

\* لم تنتج منه غير بعض الجزر.

نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، سنتذكره، بسبب أوبئة أخرى: «إنفلونزا الطيور» مثلاً). لماذا إذا تذكّرنا أحداً بدا رابواً لقصة خيالية؟ عندما نقرأ رسائل أطباء من فيلادلفيا (أو يوسطن، أو مانهاتن - كنساس، أو كامب ديفنز - ماساتشوستس) أو Gripe عاشوا تلك الأيام السوداء ورأوا مرضاهم يحتضرون بالمشرات في كل ساعة، يُخيّل إلينا أننا نقرأ «يوميات سنة الطاعون» (1722) لدانيال ديفو، يوميات «خيالية» عن زمن الطاعون الأسود تبدو الكارثة أكبر من أن تُصدق: أن يموت في الولايات المتحدة وحدها أكثر من نصف مليون إنسان به «الكرب»! في الهند يموت نحو ستة ملايين! في بريطانيا ربع مليون! في فرنسا نصف مليون! في اليابان ربع مليون! وهكذا... ثم يخفي الوباء وحده، بلا أثر، كأنه لم يكن!

أين بدأ؟ في معسكرات الجنود المكتظة؟ في المستشفيات؟ على «الجبهة الغربية»؟ في المرافئ ومحطات السكك الحديدية؟ النظريات كثيرة لكن المؤكد أن الحرب وحركة انتقال الجيوش عبر الدول والمقارات، في البواخر والقطارات، ساهمت في انتشاره السريع والقاتل. أغرب ما فيه أنه قتل الأجسام الأقوى: معظم ضحاياها تراوحت أعمارهم بين 20 و40 سنة! عادة تقتل الإنفلونزا - إذا قتلت - الأطفال والمعجزة. هذه المرة، في 1918 و1919، اختلف الأمر.

مهرجان 28 أيلول (سبتمبر) 1918 في فيلادلفيا كان خطأ لا يُغتفر: انتشر الوباء بالعدوى بعد هذا التجمع الكثيف، وعندما رحل عن المدينة في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) تركها منكوبة: بين مدن أميركا وقع في فيلادلفيا العدد الأكبر من الضحايا.

ويضحك. المرضى يدخلون إليه وهم يرتعدون ويسعلون. ولا يخرجون إلا على محفة. وضعا سخناً ضخماً على الرصيف لتأمين التدفئة للمبنى. ومدوا إليه أسلاك الكهرباء وأنابيب الماء من جديد. يبقى مضاء طوال الليل، أصفر النوافذ، يصاحب مرتاً في أرقها.

- 87 -

## «أخرجوا موتاكم»

كانت الشاحنة الفورد تمرّ والرجل يصبح من النافذة وهو يعد  
كلماته:

Bring out your dead! -

رأت شاباً لم يبلغ السابعة عشرة يدنو من الشاحنة التي توقفت  
ويضع في الصندوق، فوق الجثث المكومة، جثة صغيرة. من يحمل؟  
أخوه الصغير؟ كان المتجر فارغاً كعادته منذ أيام وهي تجلس وتقطع  
قماشاً وتخييط الأثواب لمتطوعات الصليب الأحمر. من يقايا  
القماش تعد كمادات أيضاً. قبل ذلك خاطت «جاكيتات ذات الرنة»  
(Pneumonia Jackets) ببطانة مزدوجة تحفظ الحرارة في جسم  
المرضى. كانت تقص وتقطب من الصباح إلى المساء ولا تستقبل إلا  
المتطوعات الأتيات من المستشفى في الجانب الآخر من الشارع:  
«مستشفى طواري» احتل المبنى نصف المهدم، إلى جوار الكنيسة.  
في الكنيسة أيضاً أبعثوا المقاعد ومدوا الأسرة. رأتهم - طلاب كلية  
الطب - يركبون الأسرة ويجمعونها على الطريق.

المبنى نصف المهدم كان من قبل مستشفى صغيراً تابعاً  
للمدرسة الطبية. لكن المدرسة اتحدت بجامعة بنسلفانيا، ومبانيها  
اشتراها مقالول وكان يهدمها لبناء متاجر وبيوت عندما عطل الوباء  
أعماله. البلدية جلبت شخيلة أقاموا فواصل خشباً تمنع الهواء والمطر  
عن الغرف: كان مكاناً مضحكاً في شكله، لكن لا أحد ينظر إليه

لم تعد قادرة على النوم ليلاً. في النهار تنام وهي تخطط. لا  
تخشى أن يدخل أحد ويراه نائمة بين الأقمشة. الحياة العادية  
توقفت. القطارات لا تتحرك إلا الأحد. الترامواي متوقف دائماً.  
كل التجمعات مُبعت. المسارح، صالات السينما، حفلات الغناء،  
القدائيس وخدمات الكنيسة، المدارس، المخازن الكبرى... كل  
هذه مقفلة. الناس في البيوت وإذا خرجوا لا يلبس الكمامات لا ترى  
منهم إلا العيون. يهبرون الطريق بخطى متعجلة كأنهم يخشون الهواء  
ذاته. إحدى المتطوعات أخبرتها عن عائلة ماتت اختناقاً! سدوا  
جميع منافذ الهواء وجلسوا حول الوجاق الحطب. حتى ثقوب  
الأبواب، حيث تدخل المفاتيح، سدوها بالقطن. لئلا تدخل جرثومة  
المرض من الخارج. التفوا بالبطانيات وجلسوا حول النار، الأب  
والأم والأولاد الأربعة. عندما وجدهم رجال الصليب الأحمر كانوا  
يستندون بعضهم إلى بعض، مختفين. كيف حدث ذلك؟ لعلمهم كانوا  
نائمين.

لم يأت أحد ويدق على المتجر العلامة الزرقاء بالمسامير لأنها  
لا تسعل، ولا حرارة عليها، وليس في صدرها خرير. ما زال بائع  
الحليب يعبر ويضع القارورة على العتبة ويلقي عليها التحية. في  
الجهة المقابلة، أمام بيوت طُرقت على أبوابها «العلامة»، لم يعد  
يضع قارورة الحليب. يتجنب حتى المرور أمام تلك الأبواب.  
كلمات كبيرة ومرات يزيحها وتتغلى عينه اليمنى ويصير بعين واحدة.  
إذا أمطرت يركض إلى عربة ترامواي حمراء تُركت متوقفة في نصف

الطريق. يقعد فيها حتى تصحو، ويبدو في جلسته هناك كأنه أحد تلك الرسوم الكثيرة المظلية على جنب الترامواي: رسوم الجنود والبحرية يحاربون وراء المحيط.

كم مرة قرأت الرسالة، كم مرة أعادت قراءة الكلمات كأن تكرر القراءة يشرح شيئاً صارت تراكيب الجمل صعبة وغامضة، مع أنها تعرف معاني الكلمات جميعاً! كُتبت عن فتح الورقة لكنها ظلت تحمل القرص المعدني وتلمس الرقم المنقور. كانت الشاحنة تمرّ متمهلة. الدواليب ضخمة تكرج بطيئة، متناقلة، والرجل يُخرج رأسه من النافذة ويصيح:

Bring out your dead! -

عندما يبلغ الرصيف أمام «مستشفى الطوارئ»، يتوقف ويتنظر خروج المحفلات. مرّات يترجل شخص من الشاحنة ويمدّ يد المساعدة. لكن ليس دائماً. أخبرتها ممرضة عن امرأة ثرية تعيش في الضواحي مع خلعها في بيت كبير، مرضت وماتت في ساعة، قبل أن تصل سيارة الصليب الأحمر. إلى هذا الحد كانت نوبة النزيف سريعة. اختنقت بلا هواء بسبب الدم الغزير الخارج من فمها وأغفها. أخبرتها أيضاً عن امرأة أخرى مرضت إنتهت فوضعتها في مغطس وغمرتها بالبصل وعصير البصل وصلّت من أجلها والبنت شُفيت! مع أن الأطباء يعرفون أن البصل ليس علاجاً ولا حتى الويسكي الذي يعطونه الآن في الصيدلية بوصفة طبية. ولا زيت الخروع. ولا حتى الكافور. هذا نحقته في ساق المريض ويتسارع نبضه ويرجع قلبه ويعيش لكن إلى حين... ثم تأتي نوبة سعال أخرى أو ينفجر الدم من أنفه فجأة ويموت. لن تصدقي كيف يموتون، في لحظة يكونون بخير ثم تسود وجوههم وتزرق، من الأذنين إلى الأنف، بسبب نقص الأوكسجين، ويختنقون.

- 88 -

## «أخرجوا موتاكم» (2)

كانت تلبس المعطف والكمامة وتخرج وتقف الباب وتذهب إلى «البارك». تسير تحت الأغصان الخضراء وتنظر إلى البط والورث والسنجاب والعصافير. يدها في جيب المعطف تتلمس القرص المعدني. المقعد يواجه البركة. تجلس وتنظر إلى الهواء يُغضن صفحة المياه. يهبّ هواء والأوراق تتساقط وتتدرج وتقع في البحيرة. ثم يحل السكون. سيارات قليلة تعبر الشارع وراء ظهرها. عربات تجرها خيول أيضاً. حوافر الخيل على الطريق. لا تعرف كم تبقى هكذا، جالسة على حافة الماء. تنظر إلى عجائز في الجهة البعيدة، يعبرون بكمامات ومعاطف وأجسام مقوسة. يسيرون في جماعات ويتبادلون الأخبار، ومع أنهم يسيرون معاً يترك أحدهم مسافة بينه وبين الآخر. عندما يتكلمون ينظرون إلى تحت، لئلا تبلغ أنفاسهم وجوه الآخرين. كان الصوت يبلغها متقطعاً ثم ابتعدوا بين مسابك أزهار وشجيرات مقصوفة على شكل حيوانات وعندما غاب صوتهم أزاحت كماماتها. عبّت أنفاساً كبيرة من الهواء، جرعات ضخمة من هواء الحديقة التنظيف.

في طريق العودة مرّت على فرن واشترت خبزاً ويسكويتاً. البائع كان يلبس قفازاً في يده. فتح اليد أمام وجهها وهو يتراجع إلى خلف فوضعت الستنتات على القفاز الصوف. وهو أزاح يده كأنه

يحمل ثقلاً وأسقط السننات في مرطبان مملوء بالكحول. كل ذلك من دون أن يقول شيئاً، والكمامة جامدة على وجهه. مرتنا نظرت إلى كومة السننات في مرطبان الكحول ولم تفكر شيئاً. كانت معطلة الدماغ، لا حيّة ولا ميتة، تعيش بحكم العادة فقط، ولا تعرف من أين أنت ولا إلى أين ذاهبة.

دخلت متجرّاً آخر واشترت جنباً ولحمّاً وفاكهة وخضراً. حملت الأكياس على ذراعها وبينما هي خارجة ناداها البائع وقال شيئاً. كان عجوزاً، كمامته صغيرة ولا تكاد تغطي فمه وأنه. انتظرت حتى كثر كلامه ثم انتظرت حتى خرج من وراء المنضدة ودنا منها وأعطاه ما في يده. لم يكن يلبس قفازاً وأخذت السننات وهزّت رأسها وشكرته. سألتها هل هي بخير. قالت شكراً وسألته هل هو بخير. شكرها. وخرجت. بينما تبتعد شعرت به وراء ظهرها، واقفاً، يتبعها بنظرة. كان الشارع فارغاً.

عند العصر خرجت مرة أخرى. كانت تسير بلا هدف ووجدت نفسها في الشارع الرابع والثلاثين. رأّت زحمة أمام مدخل بناية بيضاء وعندما رفعت وجهها رأّت المستشفى الكبير. ماذا جلبها إلى هنا؟ العرق بلّ جسمها تحت المعطف وكثرة الصوف. ناس يدخلون ويخرجون. سيارات صليب أحمر. عربات إطفاء. سمعت السعال وظلّت واقفة. عبرت امرأة تيكي بلا صوت. كتفها يهتران وكل خطوة تأخذ منها جهداً لا يصدق. عبرت امرأة أخرى تشدّ فتاة صغيرة خلفها، والفتاة ترفض أن تسير وتقول لأمرها شيئاً والمرأة ترد «No» (لا) وتشدها من جديد. سمعت أحصنة تقترب واستدارت ورأت عربة محملة بالتوابيت. كانت توابيت غير مطلية، بفرافات بين ألواح الخشب. أشاحت بوجهها وابتعدت. ناداها أحد الرجال

وسمعت صغيراً لكنها لم تهتم. كم مشت في تلك الأيام؟ كانت تعود إلى المتجر وجسمها يؤلمها، وكل عضلاتها مرهقة ومنقبضة. في إحدى المرات وجدت نفسها على تقاطع الجادة الثانية مع «الوزن ستريت» (Luzerne St.): رأّت الحقول التي سمعت عنها (Potter's Fields) والرجال يحفرون القبور. كانت عربات الموتى مصطفة في خط مستقيم والغريان يتقافز على الوحول.

إحدى المعرضات أخبرت أنها أخرجوا المساجين من الحبس لحفر القبور. في يوم واحد مات 1760 مريضاً في فيلادلفيا والمقابر لم تعد تتسع للجثث. المشرحة التابعة للمستشفى العام PGH في الشارع الـ 34 تتسع لأربعين جثة فأين نضع ألف جثة؟ كان المساء يأتي وأزاحت مرتنا الكمامة عن وجهها واقتربت من العربات المتراصة. ماذا تريد أن ترى؟ بعد ذلك، وهي عائدة إلى المتجر، تنفتت على مهل وشعرت بالكمامة تترطب وتسخن على فمها. عبرت أمام كنيسة أضاءتها شموع وقناديل. تلكأت لحظة مصغية إلى قرع الأجراس ناظرة إلى الزجاج الملون ثم مشت من جديد. كانت المصابيح تشتعل وأخذ رذاذ خفيف يتساقط. بعد منعطف آخر اعترض طريقها ثلاثة شبان بكمامات كالآتعة. دفعها أحدهم والأخر حاول أن يضمها. لم تعرف ماذا يريدون. كان عقلها معطلاً، لا تدري هل هي حيّة أم ميتة. حاولوا جرّها إلى زقاق قريب. رأّت صناديق النفايات، الزبالة المكومة، والقطط تقفز من وراء الصناديق. كان أحد الثلاثة يشتتها ويجذب معطفها بقوة. شعرت بالضربة على ظهرها قبل أن تصيبها.

صباحاً أبقتها الصيحة ذاتها :

Bring out your dead! -

إغتسلت ووضعت ماء على النار. بينما المياه تسخن أكلت قطعة كعك. فُتحت الضمادة أمام المرأة ونظرت إلى الجرح. كان وجهها غريباً، شكله غريب ولونه غريب. طهرت الجرح محاذرة لئلا تفكّ القطنين ثم وضعت ضمادة جديدة. كان الإبريق يصفر على النار وبينما ترمي فيه حفنة شاي سمعت بوقاً هادراً وصرخات غير مفهومة: كأنهم يحتفلون!

خرجت إلى المتجر ثم فتحت الباب وخرجت إلى الرصيف. كانت شاحنة الموتى مركونة أمام «مستشفى الطوارئ» مشرعة الباب وسمعتهم يقولون إنها ما زالت فارغة: لم يمض أحد الليلة! أحد الأطباء كان يمدّ رأسه من نافذة على الطابق الثالث ويأمر الناس في الشارع بالسكوت. سائق الشاحنة رفع رأسه وقال له «أنت أسكت» ثم كبس يده على الزمور. كان واقفاً في الطريق ومدّ يده إلى داخل الشاحنة وكبس البوق ولم يبعد يده إلا عندما تدخلت الممرضات. بعد ذلك جلس على حافة الرصيف. بدا حزناً كأنه فقد أفراد عائلته. عادت إلى الداخل وأقفلت الباب. سكبت شاياً في الكوب ووضعت فيه سكرًا. قبل أن تشرب جذبت المعطف عن الكرسي وأخرجت من جيبه القرص المعدني:

619729

مرة أخرى صاح الرجل في الخارج وهو يبتعد بشاحنته. وعندما كبس الزمور مرة أخرى شعرت بالدموع من جديد تفور من رأسها وتتساقط في الشاي.

- 89 -

### «أخرجوا موتاكم» (3)

صرخت ودافعت عن نفسها. أسقطوها على الأرض. واحد أمسك بيديها. آخر جلس على ساقيها. والثالث حاول أن يفك معطفها. كَفَّ عن ذلك وهي تنتفض. بحث في الجيوب. صرخت وجمعت طاقتها وانقضت على ذراع قريبة وغرزت أسنانها كلَّها في اللحم. شعرت بأسنانها تقطع القماش وتغوص في اللحم. سمعت صراخاً فظيماً ولم تترك الذراع. تكاثرت الصرخات وهي تلطم وتركل وهم يضرّبون. ثم ارتفعت الشائتم وسمعت صرخات أخرى وحوافر أحصنة. لم تشعر بالضربة الأخيرة التي أسكتت الأصوات لكنها بينما تغيب أحسّت بالسائل الساخن على وجهها وريقها.

كان جرحاً غير بليغ. قبطتان في الجبهة فوق العين اليمنى. ضمدوا رأسها والبوليس أخذوا إفاذتها ورجعت إلى المتجر. كانت الحادية عشرة ليلاً. بينما تغفل الباب على نفسها رأّت الممرضين يقفون ويدخنون تبغاً أمام «مستشفى الطوارئ» المضاء.

كانت الكمامات تتدلى على صدورهم وهم يتمايلون كالسكاري تحت المصابيح. كانوا منهكين وأحدهم جلس على الأرض ومدّ ساقيه وبدا كأنه سينام على الرصيف. شعرت بالرطوبة على خدها وعافت أن يكون الجرح انفتح من جديد. لم يكن الجرح. كانت الدموع تكثُرْ غزيرة وحدها، وظلّت تكثُرْ وقتاً طويلاً، ولم تتوقف حتى بعد أن رقدت في السرير.

## بعد المرض

إنجلت سحابة الأنفلونزا السوداء مثل كابوس انتهى، وخلال يومين دبت الحياة في أوصال المدينة من جديد. التراواي كرج على الخط والقطارات خرجت ودخلت إلى المحطة والبواخر رجعت إلى الميناء. تكاثرت السيارات والعمربات. امتلأت المتاجر والمطاعم. فُتحت المدارس والكنائس والمسارح. ذهب الناس إلى دور السينما. كانت عيونهم زائفة وإذا تبادلوا أخبار المرض فعلوا ذلك على عجل ثم ختموا الحديث بإيماءات غامضة وأبعدوا ما مضى عن أذهانهم.

ماذا حدث بالضبط في تلك الأيام القليلة التي أعقبت رحيل الأنفلونزا عن فيلادلفيا؟ الحذر ظلّ حاضراً: المطاعم تركت مسافة بين طاولاتها. المقاهي أيضاً باعدت بين كراسيها. صالات السينما لم تعرف حشوداً إلا بعد أسابيع. البعض ظلّ يلبس كمامة ويتحمل نظرات الاستنكار. تدريجياً عادوا إلى الحياة التي قطعها المرض. احتفلوا في الأماكن العامة من دون أن يعلنوا أنهم في إحتفال: احتفلوا بينما يشربون طعاماً وثياباً من الدكاكين واحتفلوا وهم يشربون القهوة في المقهى أو يتناولون الشاي والعصير والدوناتس والبريتزلز والبايفل على قارعة الطريق.

كانوا يشحكون شحكاً عنيفاً مهزوزاً إذا ضحكوا كأنهم يستجمعون قوة متبذدة ويكرونها في نقطة واحدة. بدوا مثل وحشي

كانت الإنفلونزا تغادر فيلادلفيا\*. جاء السيد سكياس وأخبرها أنه كان مريضاً، وأن زوجته أيضاً أصيبت بالإنفلونزا وكذلك أصغر أحفاده، لكنهم برحمة الرب نجوا. كان يقف على بعد خطوات ويكلمها لابساً الكمامة. عندما اتبه إلى الضمادة الصغيرة على رأسها سألتها كيف أذت نفسها. لم تعرف ماذا تقول. وفكرت وهي ترى نساء عابرات خارج الزجاج في طريقهن إلى الكنيسة، أنها لم تعد تعرف كيف تتكلم وأنها إذا فتحت فمها الآن وقالت شيئاً لن تسمع صوت البشر بل غمغمة أو برطمة، كالأصوات التي تخرج من الحيوانات أو الطيور. بقيت ساكنة والسيد سكياس إرتبك وظلّ واقفاً ينتظر شيئاً لا أحد يعلم ماذا يكون.

\* أنظر كتاب الفرد كروسبي «الرباء والسلام، 1918» (1976) الصادر في طبعة ثانية عن منشورات جامعة كامبريدج سنة 1989 بعنوان جديد: فوباء أميركا العنسي: إنفلونزا 1918. ومقالة إسحاق ستار - عن تجربته في فيلادلفيا 1918 طبيبياً متمرنًا - المنشورة سنة 1976 في المجلة الطبية (Annals of Internal Medicine)، والرسالة المجهولة المؤلف عن إنفلونزا 1918 في بوسطن المؤرخة 29 أيلول (سبتمبر) 1918 والمنشورة في عدد 22 - كانون الأول 1979 في British Medical Journal.

حزين واحد بعدد لا يحصى من الرؤوس المحطمة. كأنهم يتصرفون عفوياً ولكن بناء على اتفاق مسبق أيضاً. كأن في أجسامهم جينة مشتركة، ثابتة وراثياً في تكوينهم البشري منذ أجيال وقرون، تُعدهم لهذه اللحظة الصعبة (المتردة) التي تعقب الكارثة: حركة خفية اعترت بدن الوحش، مثل موجة تحت الجلد، والوجوه اتحدت في ضحكة واحدة وكشحت بعيداً ذكرى الوياء. منذ تلك اللحظة تعاهدوا - من دون أن يلفظوا كلمة - على النسيان.

بعد ذلك انقسمت حياتهم إلى فترتين. ما قبل 30 أيلول (سبتمبر) 1918 وما بعد 1 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918. الشهر الناقص، تشرين الأول (أكتوبر) 1918، دفنوه تحت التراب مع آلاف الجثث التي لن يطالب بها أحد. كانت هناك جثث دُفنت مكومة، بلا أكفان وتوابيت، في حفرة ضخمة حفرها عمال الأوتستراد Highway بالجرافات ووعدت البلدية (City Hall) أن تُستخرج وتُرَدَّ للأهالي من أجل جنازة ودفن لائق بعد ذهاب الوياء. رحلت الأنفلونزا والأهالي لم يطالبوا باسترداد الجثث. والقلة التي طالبت كفت عن ذلك بعد رحلتين إلى مبنى البلدية: كانت الوجوه تستقبلهم مقلقة، قاتمة، شبه مُحطمة بعد الإستفسار الأول، وشبه ميتة. شعروا أنهم يرتكبون خطيئة لا تُغتفر. تركوا الموتى تحت التراب وذهبوا إلى الكنيسة وصلّوا لوالدة الإله أن تصلي من أجلهم، هم الخطاة، ومن أجل خلاصهم، الآن وفي ساعة موتهم وإلى الأبد، آمين. كانوا يشعلون الشموع ويطرحون على اللذين ذهبوا وبينما الصلاة تتلاشى مع دخان البخور يسرعون إلى الحياة التي لا تنتظر ويقفزون إلى الترامواي ويذهبون.

سيدات متشحات بالسواد خرجن من الحي الإيطالي في

الشارع التاسع وحولن المدينة إلى غيمة أناشيد وروائح عطرية. مرنا أيضاً أشعلت بخوراً في صحن نحاس في مدخل المتجر الذي سرعان ما ستركه إلى متجر يخضها في شارع «البارك».

السيد سكياس سألها لماذا تريد أن تتركه؟ كان يتكلم مصدوماً، وأسنانه نائرة متباعدة في لثته، ومرتا شعرت بالشفقة عليه. شرحت له أنها بحاجة إلى مستودع أكبر ومكان أقرب إلى محطة السكك الحديدية. قالت إنها أخذت هذا العمل مؤقتاً قبل سنوات، هل تذكر؟ وابتسمت من أجله. كان الكلام يخرج منها هكذا، من دون أن تفكر فيه. كانت تسير كما تأخذها الطريق. خرجت من «البارك» ذات عصر، تسير كالثالثة وسقسقة الطيور تتبعها، ورأت المحلات الجديدة الفارغة وإعلان البيع على اللوح الخشب العريض. حفظت الأرقام في رأسها وعندما بلغت المتجر أخرجت ورقة وقلماً وبدأت تحسب. وها هي الآن تُعلم السيد سكياس بقرارها. كيف وصلت إلى هذه النقطة بالضبط؟ هذا ما لا نعرفه. كان هذا طبيعياً. والسيد سكياس شعر أنه طبيعي. دامت صدمته هنيهة ثم تراجعت. ما ضايقه بعد ذلك - في الوقت المتبقي من الجلسة - كان منظر المبنى نصف المحطم خارج الواجهة حيث تباعدت ثياب وبرانيط. كان المبنى فاغر الأنواء، يميل إلى جهة واحدة، ويُثير في النفس فزعاً وقلقاً. لم يفكر أن مرنا تعرب من هذا المبنى الذي استقبل مرضى يحتضرون لكنه تمنى أن يأتي المقاول وينهي مهمته.

المدينة كلّها ارتعشت وهي تعود إلى الحياة وطلبت من العالم أن يستجيب: في 11 تشرين الثاني حدث ذلك.



## 11 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918

كانت معجزة. في الساعة الحادية عشرة صباحاً بتوقيت فرنسا من يوم الإثنين 11 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 سكتت جميع المدافع على «الجهة الغربية». في اللحظة التالية ارتفع الصراخ: كانت صرخة واحدة مهمة امتدت من سويسرا حتى البحر. في أنحاء العالم فُرعت الأجراس ورمى الناس قبعاتهم في الهواء وخرجت النساء إلى الشرفات ورمين الرزّ والورود على المازين. الحرب انتهت. «La guerre est Finie!» الجنترالات الألمان حضروا صاغرين إلى مقصورة الجنرال فوش في ذلك الصباح ووقعوا أوراق «الهدنة». القيصر الألماني، الذي تخلت عنه البحرية وقبلها الجيش، خلع نفسه عن العرش ونفى نفسه إلى هولندا. كان أبيض الرأس أسود الشارب، بارق الجلد كشمعان، له خاصية الإستلال عبر الحدود.

مثل نابليون من قبله، ومثل هتلر من بعده (كان هتلر جندياً في جيشه، وأذى الغاز عينه على الجهة الغربية)، أحبّ القيصر الألماني النوم القليل واكتفى بأربع إلى خمس ساعات منه في اليوم، مكرساً الساعات العشرين الباقية للاهتمام بشؤون العالم. كان (كالمملوك والأباطرة عموماً) يحلم بتغيير العالم إلى ما هو أفضل: يرتفع عن الصغار، يحترم الكنيسة ويقدر نيده وتبغه، ولا يبالي بنزوات الأفل

منه شأنًا: من الأركان إلى عامة الشعب. كان يعلم أن التضحيات لا بد منها في سبيل الوصول إلى العالم الأفضل. وحتى هو اضطر للتضحية: كان حفيد الملكة فيكتوريا ويمتّ بصلة قريى إلى العرش الإنكليزي كما إلى القيصر الروسي، ومع هذا رضي أن يحارب الإثنتين من أجل العالم الأفضل. كانت ألمانيا تنمو محصورة بين دولتين تعاكسان إرادة التاريخ: روسيا وفرنسا. عخط أن يجتاح باريس بحركة خاطفة واحدة ثم يتفرغ للذب الروسي. لم تجر الخطة كما انتهى لكن التاريخ لم يتخلّ عنه: أعطاه موجة تلو الأخرى من الجنود والجيش والجنترالات الذين يشاطرونه الحماس والرؤيا، في جهته، وحتى في الجهة الأخرى. زيارة المقابر والنصب التذكارية في فردان وإيبيره وأنتورب ومارن تكفي شاهداً. قبل دقائق من سكوت المدافع والرشاشات استمر أحد الجنود في إطلاق النار حتى أنهى الرصاص في الحزام الطويل. بعد ذلك وقف وخلع خوذة وانحنى في تحية صادقة للجانب الآخر ثم مضى إلى الخطوط الخلفية عائداً إلى بيته في برلين. جندي آخر في سلاح المدفعية الأميركي جرب في ذلك الصباح الأخير قتال جديدة تصل إلى مدى يتجاوز الألف متر وشعر بالأسى عندما قالوا له «الآن عليك أن تتوقف». نظر إلى الساعة في معصمه وقال «فعلًا». ولم يطلق القذيفة الأخيرة في المدفع. كان يرضخ لإرادة التاريخ.

هل يشبه قيصر ألمانيا هذا الجندي؟ تولستوي ترك شخصياته في الفصول الأخيرة من «الحرب والسلام» وانصرف إلى تأمل التاريخ وإرادة الإنسان. وجد التاريخ أعمى ومبصرًا معاً، أما إرادة الإنسان فصغيرة وأصغر من أن تحدد شيئاً، قيصراً كان أم جندياً. كوتوزوف الروسي - جنرال تولستوي العجوز «الخيالي» - أدرك هذا: كان

انتهت حقبة وبدأت أخرى. بعد هذا لن يسأل أحدهم الآخر أين بدأ المرض، هل بدأ في كانساس، أم بدأ في الصين؟ كان ذلك بلا قيمة، من الماضي، ولا يؤثر فيه البشر. كان ذلك قطعياً، أقسى من أن يُحتمل، والأفضل رميه خارج التاريخ.

يستجيب لروح الجيش. يستيقظ في ساعات الصباح الباكرة ويبقى في كرسية ولا يخرج ويصدر الأوامر ويرسل الرعية إلى الذبح. لا جنرالات ألمانيا في الحرب الكبرى كانوا مثله ولا جنرالات «الحلفاء». حتى هو لم يكن تماماً كما أراده تولستوي، كما تخيله.

قُرعت الأجراس في مدن أميركا. وظهرت أكابيل الزهور. الجنود عائدون. من مليون جندي أميركي نزلوا على الساحل الفرنسي أثناء 1917 و 1918 قتلت الحرب 57 ألفاً وقتلت الأنفلونزا 62 ألفاً. قسم كبير من هؤلاء قضى عند نزوله في مرفأ «برست» Brest أو على الطريق إلى المخطوط الأمامية. البعض وصل إلى الجبهة ناقلاً العدوى في الخنادق إلى جيوش «الحلفاء» و«المحور» معاً. قبل أن يتنحى القيصر الألماني كانت الأنفلونزا بدأت تفتك بجيوشه. داخل ألمانيا بدأت القتل قبل الأنفلونزا وأهرب عمال سكك الحديد. رُفعت رايات حمراء على مدن وبلدات وسارت حشود تطلب السلم. هؤلاء أين كانوا بالنسبة إلى عجلة التاريخ، إلى الدولار الكبير الذي يكرج على الأجسام ولا يتوقف؟ «انتهت الحرب». الجنود من أنحاء العالم لفظوا هذه الجملة بعدد لا يُحصى من اللغات. ثم انتظروا البواخر والقطارات للرجوع إلى البيوت. قسم منهم كان مريضاً يحمل في صدره الفيروس. (بعد عقود طويلة استخرج العلماء جثة قديمة متجمدة من الجبهة الروسية وعثروا على الفيروس). وهكذا مع فرقة هندية أو إنكليزية ذهب المرض إلى الهند، ومع فرقة أخرى سنغالية أو فرنسية ذهب المرض إلى أفريقيا. . .

كانت الأنفلونزا تلهو، تركض طويلة الساقين على خريطة العالم، والناس يتساقطون. لكن في 11 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 اجتمع ناس على الطريق ورقصوا وغنوا، وبينما يفعلون ذلك

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^ RAYAHEEN ^

## الحياة الغربية لجندي سوري - أميركي

كانوا ينتظرون رجوعه في «هنري ستريت» وبدلاً منه وصلت رسالة وبطاقة بريدية. البطاقة عليها كلمات بخط غريب: هذا ليس خطه! قرأتها ماري بسرعة، خافقة القلب، مضطربة. لم تهتم بمناظر باريس المطبوعة فوق بعضها بعضاً (بطاقة مركبة تحمل صورة جادة الشانزليزية وصورة برج إيفل وصورة متحف اللوفر). استعجلت كي تقرأ الرسالة أيضاً وتتأكد أن أخاها لم يصبه مكروه. كانت الرسالة مرحة، مثل البطاقة، ولكنها أيضاً ليست بخط يده. أخبرها - في البطاقة لم يخبرها؛ لعله لم يحسب هذا الحساب: أن تقرأ البطاقة أولاً - أنه يملي الرسالة على صديقه جيم دينكا لأن رسغ يده اليمنى أصيب بشعر طفيف. لم تنكسر العظمة، لكنهم ربطوا اليد ولا يستطيع أن يحرك أصابعه بسهولة إلا بعد أسابيع. لم يؤذ يده في الحرب لأن الحرب قررت أن تمرّ جنبه من دون أن تلمسه. «كلّما أرسلونا إلى معركة انتهت المعركة قبل أن نصل»، كتب جيم دينكا بالإنكليزية. وماري سمعت «صوت» أخيه كأنه في المطبخ، أمامها.

لماذا لم يرجع إذاً مع الجنود العائدين؟ كانت البواخر تبلغ مرافئ الساحل الشرقي كل يوم. في بوسطن ازدحم الجنود كالأغنام، وفي فرجينيا تعطلت حركة القطارات بسبب الجنود العائدين من الجبهة. البواخر ترجع فرادى، لا ضرورة للقوافل

المحمية الآن. غواصات الألمان اخضت، الحرب انتهت، ولا أحد يخاف من التوربيدات. المهم أن تأخذ البواخر حلزها من الألفام المزروعة في بحر الشمال. عدا هذا لا خوف. الباخرة «بيكودو» كانت في عرض الأطلسي صباح الإثنين 11 تشرين الثاني (نوفمبر) ذاهبة إلى الحرب، محمّلة بالجنود الأميركيين القادمين من كولورادو (معسكر فورت لوغان)، عندما وصلتها البرقية: «War Is Over» «Return». استدارت في عرض المحيط ورجعت إلى مرفأ نيويورك نيوز. بعض الجنود رمى قبعاته إلى أعلى احتفالاً. وجزء منهم شعر بخيبة الظن: لم يبلغ أوروبا ولم يقاتل! ماري قرأت مقابلات مع هؤلاء الجنود في الجريدة. بينما تقرأ رسالة أخيها التي أملاها على جيم دينكا شعرت بالقلق. حدس فطّيح هجم عليها: الحرب لم تنته بالنسبة إلى أخيها بعد! هل حدثت بذلك حقاً؟ أم أنها بعد ذلك - في الشهور الطويلة الآتية - استعادت تلك الرسالة الأولى والبطاقة الباريسية وتوهمت أنها من البداية حدثت بما سيأتي؟

لوي رسغه وهو يحمل صناديق ذخيرة - رصاص وقنابل - في مرفأ ليفربول ثم في مرفأ برست. «هذا ما أتينا إلى أوروبا من أجله»، كتب جيم دينكا عن لسان أخيها، «لا كي نحارب بل كي نكون حمالين (كشاشين)! حتى أنهم لم يعطونا بواريداً وعدونا أن نعطي بواريد عندما نزل إلى البرّ الفرنسي، ولم نحصل عليها... هل تعرفين ماذا حدث أخيراً؟ وزعوا علينا بنادق عُثمت من النموسيين. بنادق بلا ذخيرة!».

كانت تضحك بينما تقرأ. من دون أن تنتبه تخيلت الرجلين هناك، يكتبان لها هذه الرسالة، والحرب انتهت، وهما يتسكعان في باريس. يتفرجان على المدينة ويشربان نبيذاً ويدخلان إلى صالات

السينما... بانتظار صدور الأوامر. عندما بلغت المقطع الأخير أتمت وجهها. كتب جيم دينكا أن الاحتمال موجود أن تذهب الفرقة الثانية والعشرون إلى قلب ألمانيا لحفظ الأمن. في هذه الحال لن يكون أمامه - هذا «صوت» أخيها - إلا اللجوء إلى حيث تذهب فرقتها، ربما إلى برلين. «جنتا كي تقاقل فإذا بها سباحة».

لماذا أتمت وجهها عندئذ؟ كانت - مثل أخواتها جميعاً ومثل أمها أيضاً - خائفة على أبيها. تغير جوزف أسطفان منذ فرَّق المحيط بينه وبين إبنه. صار طعامه قليلاً وغضبه سريعاً. عندما نشرت جرايد نيويورك العربية أسماء القتلى السوريين - الأميركيين على «الجبهة الغربية» رجع من المقهى إلى المتجر أسود الوجه، مترنخ الخطوة. كانت الأسماء كثيرة وعثر بين القتلى على معارف وأصدقاء. «الهدى» نشرت الأسماء على الصفحة الأولى: هؤلاء قتلوا في المعارك التي خاضها الجيش الأميركي إلى جانب «الحلفاء». بين الأسماء قرأ اسم خليل حداد، جو خليل حداد، وقرأ اسم قاسم عبد الباقي. أقاموا مجالس التمازي في بروكلين وفي الحي السوري - نيويورك. عندما مرَّ شهران كاملان من دون بطاقة بريدية واحدة من إبنه في أوروبا، صار الصوت يخرج من حنجرة جوزف أسطفان مبسوحاً، كأن أحد أوتاره الصوتية انقطع وهو ينتظر.

بعد ذلك وصلت بطاقة ثم أخرى. كان يكتب أنه بخير. وكان ذلك كافياً، مثل غيظ أوكسيجين دفع يمنع عن الرنة الاختناق. بعد «الهدنة»، عندما وصلت برفية أنه في باريس وأنه راجع إلى الوطن خلال أسبوعين، برق النور من وجه أبيه وعاد برمشة عين إلى الحياة.

- 93 -

## أخبار من بتاتر

انتقلت إلى المتجر الجديد في عطلة الميلاد. صارت تملك بيتاً: الطبقة القوقانية من المتجر. كانت تنزل في الصباح الباكر على الدرج الخشب وتذهب في خط مستقيم إلى الباب وتشرعه. تنظر إلى الشارع القارغ - لم تبدأ الحركة بعد، فقط عربات الحليب والخبز تمر الآن - وتتأمل الأشجار في الحديقة المواجهة. منذ مات زوجها تشعر بخيوط غير مرئية تربطها بالأشجار: تنظر إلى الأغصان تتشابك وتتعالى صوب السماء، ومن دون وعي تعرف أنها تصلي، لكن بلا كلام. تصلي طالبة الرحمة لخليل حداد زوجها وابن عمها. وتصلي طالبة السماح والغفران، لها هي، التي أخطأت ولم تدرك أنها أخطأت إلا بعد أن فات الأوان: كيف بقيت في العربية ولم تنزل؟ هي التي قطعت الأرض كيف لم تقطع تلك الأمتار القليلة الباقية وتواجه خليل والمرأة في الثوب الأزرق؟ لو أنها فعلت! وبعد ذلك، عندما حاول مرة تلو أخرى رؤيتها، أي كبرياء - أي إبليس - وضع تلك الكلمات الشريرة في فمها: «قلْ له: مرتنا لا تريد أن تراك!» كيف يسامحها الرب؟ وهي، كيف تسمع نفسها؟ خليل وحده فكَّ الرباط المقدس؟ هي لم تفكّه أيضاً؟ كان هذا السؤال يعذبها. غارقة في السواد، في ثوب الحداد الذي يضاعف فتتها، كانت تعبر الطريق إلى الفرن أو دكان الخضار أو دكان الجزارة، ولا تنتبه إلى النظرات

تطاردها. الكشاشون أيضاً يسلطون عليها عيوناً مفتوحة شرهة. مع أنها إذا رفعت عينها إلى الوجوه تغيرت النظرة الجائعة في لحظة. كان الحزن يخرج في موجات من كثفها المبرومين. وعندما يستدير رأسها في زاوية وتنظر إلى شخص يعبر خارج الواجهة يبدو جانب وجهها مصقولاً بالحزن، أرق من ورقة السجارة. انهمكت بالعمل هاربة من كل ما يعصرها، وبينما تسلم البضائع وتبيع وتقبض، تحول جسمها إلى قطعة من الزجاج في جوف الثوب الأسود: أدنى لمسة الآن كفيضة أن تحطم هذه الأرملة.

في هذه الفترة الصعبة أرسلت إليها العناية الإلهية نجدة غير متوقعة: رسالة من البلاد. خالها أمي وكذلك ابن خالها لكن الرسالة منهما: ذهبا إلى رجل يقرأ ويكتب، والرجل كتب إلى مرثا حداد رسالة، وعلى الظرف كتب عنوان السيد هرمان تاكر في واشنطن ستريت - نيويورك. جوزف أسطفان جاء بنفسه، راكباً سيارته الفورد من بروكلين إلى فيلادلفيا. ترجل من السيارة ووقف بالبلدة والبرنيطة السوداء ذات الإطار الأبيض، وتأمل الواجهة العريضة المرتبة واللافتة المخطوطة بلغتين... يده اليمنى غاصت في جيب الجاكينة وربت بحنان على الظرف كأنها تلاطف الرسالة، كأنها تتأكد من محتواها وتبعد من داخلها أي أذى محتمل. أكثر من مرة على الطريق، بينما التلال تتدحرج خضراء وصفراء وحمراء عن يمينه، فكر أن يركن السيارة ويفتح الرسالة: كان خائفاً على «شريكتها» مرثا. الرسائل التي بدأت تصل من سورية كلها شؤم: موت فوق موت! لم تبقَ عائلة لم تفقد واحداً أو اثنين أو ثلاثة في المجاعة! الحي السوري فيه مجلس عزاء كل يوم هذا الشتاء. مع أن الناس ماتوا قبل سنوات، في 1915 و1916، لكن غيرهم لم يصل إلا الآن، بنهاية

الحرب الفظيعة. حادراً لتلا تلطخ الحول صباطه وهو يقطع المسافة إلى باب متجرها. كان متمسكاً، مشدود الجسم إلى نقطة في المركز. قبل أيام وصلت رسالة جديدة من إينه: كتب الرسالة بنفسه، صحته جيدة، سعيد في الجيش، ما زال في باريس، ويتنظر الأوامر. قُتلها على الخدين وشذ على يدها. وضعت ركوة القهوة على النار وسألته متى اشترى السيارة. قام واقفاً وقال «تعالى» وخرج أمامها. أخبرها عن الفورد (هذه Model T) وهو يدور حولها. كان يوجل اللحظة ثم أدرك أن هذا لن يقع. أخرج «المكتوب» من جيبه. قال: «معي شيء للتي». وشعر بخوف.

كان إسمها مكتوباً على الظرف تحت عنوان السيد هرمان، باللغتين العربية والإنكليزية (تماماً مثل اللافتة المعلقة في الواجهة). أخرجت الهواء من صدرها وتمتمت: «أبانا الذي في السموات ليتقدس إسمك ليأت ملكوتك لتكون مشيتك كما في السماء كذلك على الأرض» ثم فتحت الظرف كأنها تقفز من درابزين السفينة إلى هول المحيط.

كانت الأخبار طيبة. القرية عانت في المجاعة لكن عائلة خالها بخير: نجوا جميعاً. ابن خالها أيجد إلى الجندية لكنهم تركوه في بيروت، في مطبخ القشلاق، يطبخ للعساكر. لم يأخذوه إلى الجبهة الشرقية لأنه صغير السن. أحد الضباط أشفق عليه، عبّوه في المطبخ وظلّ في البلاد ونجا من الجوع: كان رئيس المخزن يعطيه حصة إضافية من الحبوب فيأخذها إلى أهله في بتائر عندما يذهب في إجازته. بينما تقرأ وتُخبر «شريكتها» جوزف أسطفان ما تقرأ ارتجف صوتها. انسكبت الدموع من عينها وارتجت بالبكاء.

- نعوذ من خالي كان ولداً لا يصل إلى حصري عندما  
سافرت...

سكنت وأطرت. جوزف أسطفان استدار ليعرف تمة الكلام  
لكن مرنا ظلت ساكنة.

- العصفور يصبح كل ساعة.

رفعت وجهها. ورأى أنها لم تفهم ماذا يقول.

- عصفور هذه الساعة يصبح كلما مرّت ساعة.

إتسمت. وهو ارتبك أمام الضوء الذي يخرج من وجهها.  
لعله هو أيضاً استعاد ذكرى قديمة. كان يقفل غطاء الساعة في تلك  
اللحظة ومرنا شعرت أن شيئاً في أعماقها ينتهي وأن شيئاً يبدأ. كان  
إحساساً خاطف السرعة، غريباً، دام رمشة ثم تبذد، ولم تفهم معناه.  
لكنها لسبب غامض نظرت إلى المحبس في إصبعها. ماذا فكرت  
عندئذ؟

أعتقد أنها كانت مضطربة، لا تستقر على صعود أو هبوط.  
كانت تصعد وتهبط، بلا توازن حقيقي. تحاول أن تبقى عائمة،  
ووجهها فوق الماء. لماذا لم تستسلم؟ لماذا تستسلم؟ السؤال  
الأول، كالتالي، بلا معنى. تحملت وعاشت. وعندما قرأت الرسالة  
مرة أخرى واستوعبت أن ابن خالها يود المحبي إلى أميركا للمعمل إذا  
كان هذا ممكناً، أرسلت إليه ثمن البطاقة (النالولون) وعنوانها وقالت  
إن العمل ينتظره.

في الليل كانت الساعة تصيح «تحت»، حيث علقتها في صدر  
المحل، وتوقظها. لم تتساقط. كانت تبسم عندما تسمع العصفور  
الميكانيكي يصبح. في الأسابيع التالية بدأ كشاشون جدد يطرقون

«لحظة وأرجع»، قال جوزف أسطفان. خرج إلى سيارته وعاد  
حاملًا صندوقاً ووضعه على المنضدة.

- للمحل ولكي. من العائلة. ماري صاحبة الفكرة.

فتحت الصندوق وأزاحت أوراق الجرايد ثم رفعت ساعة  
الكوكو الثقيلة. كان يضحك وهو يراها تصارع لإخراج الساعة من  
الصندوق.

«سأربطها لك»، قال وهو يمد يديه. رأت الخواتم في أصابعه  
وعادت إليها ذكريات بعيدة. كانت ذكرى أشبه بالنام: يده تخرج من  
جيبه وتمدّ إليها ورقة وعلى الورقة تقرأ عنواناً (كلاريندون رود) في  
مدينة نيو أورلينز. متى حدث ذلك؟ في أي حياة؟ كيف عبر الوقت؟  
ما زالت مرنا نفسها؟ جلست تسكب القهوة في الفنجانين وتتنظر إلى  
«شريكها» يربط الساعة الجديدة. (خارج المتجر مرّ رجل يصيح وهو  
يصدر جلبة بالته: هذا «بيلج» السكاكين، ينسها على آلة يحملها على  
ظهره، آلة بمقعد، يقعد عليها ويُدرّس فنودور العجلة الحجرية أمام  
وجهه، ويسنّ السكاكين... رآته من قبل قاعداً في مدخل «البارك»  
والنساء يأتين إليه والمصافير تطير عن الأشجار من حوله).

رائحة القهوة غمرتها وهي تقرأ مرة أخرى الرسالة الآتية من  
البلاد البعيدة. من دون أن تتبه تكلمت:

## بيت يواجه «البارك»

تخلت أواخر صيف 1919 عن ليس الأسود. لكنها لم تنزع المحبس. اشتدت الحرارة في تلك الأيام حتى فرقت الذرة في الحقول. كان الكشاشون يدخلون المتجر دائخين. تناولهم الإبريق فيجرعه الواحد منهم كأنه يرشف كوب ماء. بينما يفكون «الكلمات» وينزلون «الكشآت» عن ظهورهم ترى أثر السيور الأحمر على رقابهم، بعد ذلك، وهي تقبض منهم وتشطب ديونهم من دفترها الكبير، يتتابها شعورٌ مبهم بالذنب: مع أنها تساعدهم جميعاً تشعر بالذنب!

ذاع صيتها تدريجياً. كانت تعاملهم كأح حنون. تعطف عليهم وتمد يد المساعدة. تدلهم إلى نُزُلٍ وغرفٍ رخيصة. تسمح لهم بربط الحصان الذي يجزّ العربة، وراء المتجر، وتزودهم بالعلف والماء للحصان ولا تشترط إلا أن ينظفوا بالرفش والسطل ما يوسخه.

مهاجرو ما بعد الحرب الكبرى بلغوا أميركا نصف أحياء نصف موتى. بعضهم عَضَّ ناب الجوع فظَلَّ يترنح في مشيته بسبب ضعف الركبتين. كانت تعطيهم البضاعة على الحساب. تمنحهم إرشادات الطريق إلى الولايات والقرى والمزارع. ترسم لهم الخطوط. تعلمهم عبارات إنكليزية مناسبة للتعاظمي مع ربّات المنازل ومع موظفي السكك الحديد. أحياناً تسامحهم ببعض الديون أو تؤجلها شهرين أو

بابها قادمين من «إليس أيلاند» ومعهم توصية من «شريكها» في نيويورك. أثناء ربيع 1919 إمتلا دفترها! كانت تملأ «كششهم» ولا تأخذ دولاراً واحداً. «في آخر الشهر»، تقول. وكانوا جميعاً يرجعون قبل نهاية الشهر، ويدفعون ما عليهم. مع حبة مسك. العبارة الأخيرة ليست إنشاء: كثر منهم يرجعون حاملين هدايا. إحدى الكشاشات جلبت لها هدية طبختها بنفسها: فخارة «قورمة». أزاحت غطاء القماش فرأت الطبقة السميكة البيضاء فوق طبقة اللحم وشمت الرائحة. فكرت في الكشاش الصغير إد.

كان وقتاً غريباً، مملوفاً بالوجوه الجديدة، ولكن مع كل وجه جديد ترجع إليها ذكريات من حياة تبدو مطمودة تحت الأرض. ذات مساء، وهي عائدة من نزهة بعد أن أقتلت المحل، التقت صدفة «معلمها» القديم السيد جاكوب معمرباشي. للوهلة الأولى لم تعرفه. سنوات قليلة مرّت فكيف شاخ في هذا الوقت القصير؟ بينما يُخرج إحدى سكانه البنية الرقيقة ويشعلها وهو يخبرها عن خطته للانتقال إلى نورث داكوتا، حيث أقارب عندهم مزارع للماشية، تذكرت ما رواء لها قبل سنوات عن أخيه. أرادت أن تقول له أنها كثيراً ما تذكر تلك... حيل أفكارها انقطع بينما الرجل يسعل ويكشح الدخان بعيداً عنها ويقول إن الطقس يبرد باكراً في هذه الأيام. دعاها إلى المرور عليه في أي وقت. وذهب.

كانت المصاييح تتلألا عند سور «البارك». رأتها منعكسة في واجهة المتجر وهي تخرج مفتاحها وتفتح الباب. قبل أن تدخل سمعت التثغة التي تعرفها. في اللحظة التالية خرج العصفور الميكانيكي من جوف الساعة وأطلق صبحته. كان يقول لها شيئاً. لم تعرف ماذا يقول، لكن السكينة استولت على قلبها.

ثلاثة. تصفي إلى قصصهم، تنصحهم، وحتى من دون أن تنصحهم يشعرون أنها فعلت ذلك لأنها جلست وسمعت. كانوا مستوحدين في أرض غريبة. كما كانت هي من قبلهم. والآن؟ لم تعد مستوحدة؟ على الأقل الأرض لم تعد غريبة. تتكلم كأميركية وتلبس كأميركية وتشفي كأميركية. حين تسير في الطريق تشعر بالراحة: لا تخاف! وقبل فترة، عندما رگبت التلغون ال Bell في المحل فصار رقمها مسجلاً في «دليل فيلادلفيا»، فكرت أن هذا صار الآن بيتها: هذا المتجر بالطبقة القوقانية ذات السقف المنخفض، حيث فراشها وثيابها وأغراضها، هذا المبنى المواجه للبارك صار بيتها! كان الأمر عجيبياً، لكنه حقيقي. حتى أن البيت في بتاتر بدأ جزءاً من منام!

ذهبت في عطلة إلى نيويورك وزارت «شريكها». مرّت على كنيسة الموارنة في قلب الحي السوري القديم (تغيّر الحي، جزء من بيوته تهدم... حيث كان «وكر القمار» ارتفعت بناية شاهقة). صلّت وهي تنظر إلى الحيطان ولا تتذكرها: هل دهنا المكان بطبقة طلاء جديدة؟ أخرجت من الجزدان ورقة من فئة الخمسين دولاراً وأسقطتها في صندوق التبرعات وخرجت مسرعة. بعد ذلك، وهي تشرب كوب عصير في الجادة الخامسة، ضحكت مثل طفلة. (عادت إليها ذكرى: قبل أن تمرض أمها وتموت بوقتٍ قصير كانت تسير معها في الجلول تحت الكرخانة. أمها دلّتها إلى امرأة تسقي أشجار الزيتون وقالت أنظري ماذا سأفعل بها... صارت ترميها بالحصى من بعيد وتتخياً وراء شجرة. المرأة داخت وهي تحاول أن تكتشف من أين تأتي هذه الحجارة التي تضرب تنورتها. أمها صارت حمراء الوجه من الضحك وهي تسدّ فمها بيدها لئلا تفضح مكانها).

في الجادة الخامسة في مانهاتن، بينما تتذكر المرأة تحت

أشجار الزيتون تنظر إلى أعلى كأن السماء تمطر حجارة، شعرت مرثاً أنها حرّة. كانت وحدها، بلى، ولم تكن تريد أن تكون وحدها. مع هذا شعرت بالقوّة. كان ذلك يشبه شيئاً عرفته من قبل ثم تخلت عنه أو خسرت من دون انتباه. لم تجرب أن تتذكر متى وأين عرفت هذه الحرّة، هذه الثقة بالذات. كانت تخشى المناطق المظلمة في ذاكرتها وتحاول أن تتجنب الأفخاخ ما أمكن. قطعت «هيفيث أفنيو» ودخلت متجراً تعرفه واشترت علبة سكاثر فضيّة هدية للسيد معمرياشي.

كانت خفيفة وهي تخطو خارجة إلى الشارع، وتذكرت جوزف أسطفان واقفاً وراء المتضدة في متجره قبل ساعات يستقبلها باسماً ويبدو مرهقاً وحزيناً في اللحظة نفسها. مرة أخرى يشغل إينه باله: البطاقات البريدية تأخرت وكذلك الرسائل. وعندما وصلت بطاقة أخيراً لم تأت من باريس، بل من مانيلابحثوا عنها على الخريطة، على الأطلس في «مكتبة نيويورك العامة»، واكتشفوا أن هذه في جزر الفيليبين! بعد ذلك وصلت بطاقة من فلاديفوستوك Vladivostok. بحثوا عنها على الخريطة وعرفوا أنه صار في سيبيريا!



## دعوة إلى عمادة

يضحكون، ويصرخون ويركضون. على رؤوسهم برانيط صوف ملونة وفي أيديهم قفازات حمراء. كان اللون الأحمر يركض ويقفز على الثلوج، والأشجار تنحني وتنزل عنها القطع البيضاء وتصدر صوتاً حلواً عندما تخبط الأرض. ظهر سرب من الطيور ثم اختفى. أحد الأولاد هرب من رفاقه وقطع الطريق. قلب مرثا توقف في زلوعها عندما رأت العربة تتزحلق على الجليد وتوشك أن تصدمه. لم تصدمه. لكنه خاف وصار يبكي وأصحاب العربة نزلوا منها وهم يصرخون. كانوا خائفين أيضاً، ومرثا هي أيضاً وذت أن تصرخ إلى ما لا نهاية. بدلاً من ذلك تراجعت إلى جوف المتجر وفتحت دفتر الدكان. بينما تنهي «الجردة السنوية» خطرت في بالها وديعة صليبي والعرس والكنيسة والرجل الذي جمدتها بعينيه. كانت لحظة إلهام غريبة، فيعد يوم واحد فقط، رأت المرأة آتية تحمل طنجرة وتدخل من الباب.

كانت ملتفة بشالٍ أصفر كالعسل، أضخم من بطانية. بدت مثل حيوان إسطوري وهي داخلة والطنجرة نصف مخفية تحت الشال الكبير. كانت ترجف برداً وقالت إن القطار محطم النوافذ، أسوأ قطار في أميركا. جاءت من سبرينغ فالي - الينوي في دوامة العواصف كي تدعو مرثا إلى حفل عمادة حفيدتها، إينة فارس صليبي إينها الوحيد.

شربت الشاي الساخن وفتحت غطاء الطنجرة كي ترى مرثا «طبختنا»: هل تتذكر أنها مرة أخبرتها عن «ورق العنب بالزيت»؟ هذه الطنجرة نصفها بالزيت ونصفها باللحم، قالت ضاحكة. وقالت إنها أكلت منها قليلاً على الطريق. «لكنني تركت لك «القاطع»، لم أكل إلا من البيرق باللحم».

تبدد شعورها بالقوة قبل أن تركب الترام. كانت تكافح ضد السقوط في كل لحظة. وعندما تأتي البرهة المباركة وترتفع معنوياتها تنسى أن الوقوع آتٍ. كانت غير محمية. تبحث عن ملاذ آمن في صلاتها وكلما تحسنت بعض الشيء يستولي عليها فرح مفرط سرعان ما يتراجع أمام هجمة الغيوم السوداء. كان يكفي أن يتراجع هذا الفرع المبهم - هذا الشعور بالحرية، بالثقة - حتى يغمر القنوط عينها وتبدو بانسة ككلب مريض.

في العمل أيضاً وجدت الملاذ: كانت تركز كل طاقتها في شغلها وتحاول أن تنسى العالم، ومكانها في العالم. أين مكانها؟ كانت وحدها. وعندما يقتررب موسم الأعياد وتُعلن السنة عن دنو نهايتها بالزينة التي تيرق مع أضواء الكهرباء، ينتاب مرثا حداد الإحساس القائل أنها خارج الحياة، خارج العالم، لا أحد يهتم بأمرها، وإذا قضت في هذه اللحظة تدفنها بلدية فيلادلفيا وينتهي الموضوع. كان هذا فظيماً حتى إين خالها الذي انتظرت له باب! غير فكره؟ يبدو أن ذلك ما حدث.

انخفضت درجة الحرارة وتساقت الثلوج. المدارس عقلت فرأت الأولاد يتكاثرون في الجهة الأخرى من الشارع وينون تماثلاً ثلجاً Snow man في مدخل «البارك». كانوا يتراشقون بطابات الثلج

الكلمات القديمة ردت مرتا إلى زمن خرافي. أبوها كان يقول «بيرق»، لا يقول «ورق عنب». حاولت أن تتذكر ماذا كان يقول عن الأكل بالزيت؟ هل كان يقول «القاطع» أيضاً؟ لم تذكر. مات وهي صغيرة. لكنها تتذكر أمها تستعمل هذه الكلمة، خصوصاً وقت الصيام. «نقطع»، كانت تقول. سألتها أين وجدت ورق العنب في هذا الشتاء؟ ودیعة قالت أنا أكسه في الصيف، عندنا في سيرينغ فالي كروم عنب أكثر من راشيا! كانوا يقولون لن نبت، لكنها نبتت، والآن نأكل عنباً طوال الصيف! مرتا مدت يدها وأخذت «حبة» ووضعتها في فمها. كانت تلذّب من دون أن تمضغها وشعرت بالدفء. القطعة باردة ومع ذلك ملامها الدفء.

ودیعة صليبي تكلمت عندئذ:

- نحن نسمع عنك، أخبارك تصلنا، صرت مشهورة يا مرتا. أنا كنت دائماً أعرف أنك إذا أردت شيئاً بصير في يدك. لماذا كلّمنا وأينك أشعر بهذه الحرارة في صدري، لا أعلم. لو تأتيت وتفتحين متجرك في سيرينغ فالي. لم لا؟ المكان يتسع. المسلمون يبنون جامعاً الآن، تصدقين؟ مع أننا أكثر منهم، لكنهم سبقونا واشتروا قطعة أرض لمقبرة. معظمهم من جوار راشيا، ومن النبطية وعينا الشعب. نزورهم ويوزوروننا. الدم يحتر، صحيح يا مرتا. فارس عنده متجر الآن، نصفه له ونصفه لشريكه، أنت تعرفين شريكه، آدمي وطيب ولا يخاف إلا ربنا: كان راغباً أن يأتي معي كي يراك ويُسلم عليك، لكن...

- 97 -

## دعوة إلى عمادة (2)

شربت ودیعة ما بقي في كوب الشاي وتابعت:

- الرجل يفكر فيك يا مرتا. لكنه درزي. ليس من دهننا. قلت له كيف تفكر فيها يا إني يا علي؟ أنا أحبك مثل فارس، أنت عزيز عليّ مثله تماماً، كأنك من بطني خرجت، لكن أنت دين ونحن دين، فكيف تفكر في مرتا؟

مرتا حدّاد سمعت الكلمات وُدجرت. كان الأمر صادماً، مباغتاً، مثل بوق شاحنة في الطريق. تراجعت إلى خلف لا شعورياً كأنها تهرب من أذى وشيك. ودیعة صليبي سكتت لحظة ثم قالت متشهلة:

- لا تفكر في هذا وتضايقي نفسك. الرجل يبيته حسنة ومعذنة ذهب. تكفي كلمة ويذهب في طريقه. لن يزعجك. أنا قلت له أنت لست في هذا الوارد. أنا قلت له ما زالت تلبس محبستها بأصبعها، مرتا. لكنه قال: «انتظر».

خرج العصفور الميكانيكي في تلك اللحظة وأطلق صيحته. أفرغ ودیعة صليبي: كان تركيزها كلّه منصباً على متابعة إيماءات مرتا ونظرتها، تراقبها بعين فاحصة مدققة وتحاول أن تعرف كيف تتقدم، أين تتعطف ومتى، ماذا تقول وماذا تستر.

لكن مرتا ليست قناعاً جامداً أخرس. ودیعة صليبي ارتبكت

قلبيها عندما احتواها بنظرتها: كانت نظرة تخفي بجرأ من العاطفة.  
وأدركت أنها تفرق برمشة عين إذا تركت نفسها.

اضطربت وخفضت بصرها. سمعت صوته:

- تعالي إلى العمادة، تُغيّري جواً. لن يزعجك أحد وستهتم  
بك. لماذا تظنّين وحدك هنا؟ تعالي إلى العمادة.

«ستهتم بك»، قال، وهي سمعت تحت العبارة معناها:  
«سأهتم بك». ولم يكن يقصد العمادة فقط.

رفعت بصرها متوردة الخدين وعرفت أنها ستقاوم زمناً لكنها  
في النهاية، إذا استمر في سعيه، تستسلم.

كانت لحظة إلهام أخرى. طاردها علي جابر عامين وفي العام  
الثالث رضخت. تزوجا في 15 كانون الثاني (يناير) 1922 في ال  
City Hall في فيلادلفيا، زواجاً مدنياً، ولعله الزواج المدني الأول  
بين درزي ومارونية في تاريخ أميركا.

وبذلت الحديث. لن ترجع إليه. هل شعرت بالخوف؟ أظن أنها  
خافت. لماذا خافت؟ الجواب تعرفه بعد أيام قليلة، عندما يظهر علي  
جابر فجأة في باب مرتا ويقول إن المرأة تصرفت من رأسها وأن لا  
علاقة له وأنه غضب عليها والآن لا يتكلم معها. وحتى فارس غضب  
على أمه، ولولا ذلك كان يفك الشراكة ويخرج من سيرينغ فالي ولا  
يرجع أبداً. تدفق بالكلام، أحمر الوجه، وشريان رقبتة يتنبض. حتى  
بعد أن سكوت رأت الشارب الكستنائي يتراقص فوق شفته: كان  
جسمه يرتجف غيظاً في ثيابه.

مرتا قالت لا تغضب هكذا، أنا أصدقك.

الكلمات بلا قيمة، لكن نبرة صوتها ذهبت بحلقه. فجأة خرج  
العفريت منه وسكتت الرجفة.

دعته إلى الجلوس. كان ما زال واقفاً! دخل وفار بما فيه من  
دون أن يلقى السلام! كأنه أحرق بنا!

قال إنه زعل كثيراً عندما سمع بوفاة زوجها. قال إنه أراد أن  
يأتي ويعزيها لكنه لم يقدر. قال إنه دائماً يتذكرها، وصحيح، تكلمتُ  
وقلت أشياء عنك، أنا أعتبر فارس مثل أخي، وتحدثت، وأمه طيبة،  
لكن أنتِ تعرفين... تضايق من رجوعه إلى السيرة ذاتها وسكت.

خرج العصفور الميكانيكي من جوف الساعة وصاح. علي  
جابر رفع رأسه ورسم إبتسامة. مرتا سكبت القهوة في الفنجانين  
وسأله كيف كانت الطريق، هل تتراكم التلوج على السكة؟

نظر إليها كما نظر من قبل، تحت سقف الكنيسة في سيرينغ  
فالي. هذه المرة بدا حزيناً، نحاسي البشرة، قديماً كأنه أتى من  
عصور بائنة، ووحيداً في هذا العالم، وحدة أصيلة غير مستجدة. بدا  
عتيقاً، ولا يشبه أحداً غيره، ولا يطلب أن يشبه أحداً. مرتا خفت

## «مرتا الملكة»

لكننا ما زلنا في شتاء 1919 - 1920. والمستقبل (مرة أخرى) لا بد من أن ينتظر. في هذه الأثناء يقع حريق في «هنري ستريت»: تصل ألسنة اللهب إلى متجر جوزف أسطفان وبيته، ويُنكب الرجل في ممتلكاته. استطاع أن أراه واقفاً مع عائلته في الطريق، أمام بيت إبنته ماري، مخضوض الوجه، يحمل بين يديه الأثواب القليلة التي أنقذها. زوجته أيضاً تحمل بعض القماش، والفتيات المتحلقات يحملن البسة أيضاً. على وجوههن، في ليل بروكلين المضاء بالكهرباء، تنعكس النار التي أحرقت المتجر والبيت ثم انتقلت إلى بيوت أخرى. كان الهواء يذمها أبعد فأبعد، وهي مثل وحش لا يريد أن يموت: كانت تنتشر وعربات الإطفاء تجرب محاصرتها وتفشل. عندما هدأ الهواء بعد نصف الليل تمكن رجال الإطفاء من إخمادها.

الفتيات أصابهن الرعب. النار مخيفة. من لم يرَ ناراً خوتاه تدنو من بيته لا يعرف ماذا يكون رعب النار. عندما هجمعن أخيراً، على البطانيات التي فرشتها ماري في الصالون، كان ضوء الفجر يطلع ويُدّل لون النهار.

جوزف أسطفان لم يرَ ذلك: كان جالساً إلى طاولة المطبخ، يحمل رأسه بين يديه ويكي. خسر كل ما يملك في ليلة واحدة. أين العزاء؟ حتى إبنته مهدد بالموت في تلك الحرب التي لا يفهمها أحد

في نهاية العالم. ماذا تريد أميركا من سيبيريا؟ قرأ الجرايد كي يستوعب ما يحدث، كي يرى متى تنتهي هذه الحرب الجديدة. لكن الجرايد لم تشرح شيئاً. قرأ عن القوات الشيكية المحاصرة شمال سيبيريا، قرأ عن البلاشفة، قرأ عن الصراع بين الروس البيض والروس الحمر، قرأ عن تحالف أميركا وبريطانيا وفرنسا مع اليابان ضد انتشار البلاشفة، قرأ عن منشوريا، وقرأ عن القوات الشيكية اللعينة مرة أخرى: هؤلاء كانوا يحاربون على «الجبهة الشرقية» وانشقوا عن الجيش الهنغاري - النمساوي والتحقوا بصفوف «الحلفاء» أثناء الفترة الأخيرة من الحرب الكبرى. وما حدث أنهم وقعوا في الفخ عندما خرجت روسيا من الحرب وقررت تجريدكم من السلاح. تروتسكي أصدر الأمر وأميركا هبت لنجدتهم.

كان نور الشمس ينتشر على أكوام الخشب المحروق والرماد الساخن. تفقد الأطلال وهو يقفز: كانت الحرارة تلسعه! الأرض امتلأت سخونة. الرائحة فظيعة. اللون الأسود يقطع القلب نصفين. مرة أخرى يكى جوزف أسطفان وهو يبحث في قلب الدمار عن صندوق لن يجهده.

عندما وصلت مرتا في مساء اليوم التالي (تلفتت لها ماري وجاءت في القطار الأول) وجدته أكبر بعشر سنوات: كان قوة غير مرئية دفعته في ظهره فاندفع إلى أمام واخترق جدار الوقت وبلغ شيخوخته باكراً. كان مهذماً، ثيابه واسعة عليه (هذه ثياب صهره)، والياض كثير في شعر رأسه. أسوأ من كل ذلك النظرة في عينيه. بدا مغطاً العينين، كان المياه الزرقاء نزلت في الحلقيتين... جاءت كي تعزيه فشعرت بالحاجة إلى من يعزبها. من دون انتباه فكرت في الرجل النحاسي البشرية: تمتت أن تحتويها نظرتة في هذه الساعة.

## الحياة الغربية لجندي سوري - أميركي (2) (رسالة من سيبيريا)

العزيزة ماري،

وصلتني رسالتك وحزنت من أجلكم جميعاً وتمنيت أن أكون معكم وأمد يد المساعدة... أستطيع أن أتخيل مقدار الخوف الذي أصاب أخواتي وأمي لكنني أعرف أنك وأمي فيكما القوة لتحمل هذه النكبة... طلبت من «القيادة» تحويل جميع رواتبي إلى حسابكم المصرفي. تُعطي 60 دولاراً في الشهر، ليس مبلغاً مهماً، لكنه يساعدكم. لو عملت في مصنع السيارات كما أردتم كنت أجنبي الآن ثلاثة أضعاف المبلغ، لكن المال ليس كل شيء. وأنت تعرفين أحسن مني أن على الواحد أن يفعل ما يؤمن به وأنا أؤمن أنني في المكان الصحيح. البرد يقتل هنا (أحد الجنود الأسرى في معتقل مجاور يضم 1500 هنغاري - نمساوي، معتقل - Krasnaya Retchka، كان يقرأ كتاباً ويستخدم إصبعه كي يفتح الصفحات من دون أن يشعر بإصبعه لأنه تجمد تماماً: إنتبه أنه تجمد عندما وقع الإصح على الأرض!).

صحيح أننا نشعر أحياناً كأننا نقاتل أنفسنا ضائعين في السهوب البيضاء المخيفة، لكن الصحيح أيضاً أننا وصلنا إلى هدفنا: ألم نقطع الأطلسي من أجل هذا؟ هذه ليست «الجبهة الغربية»، أعلم،

استردت شجاعتها بعد صدمة اللقاء (وبعد منظر الشارع الذي احترق نصفه) وفتحت فمها. بينما تتكلم أدركت أن الكلمات تُغيّر الأشياء. كان هذا سحرياً، وغير مفهوم على الإطلاق، لكنها شعرت به في قلبها كما في الوجوه التي تنظر إليها. جوزف أسطفان رفع وجهه: الدموع تلالأت على رموشه. لم تظن قبل ذلك أنه يبكي. طالما أستدها. لم تتخيل أن يوماً يأتي ويكون عليها هي أن تستده. قالت مرثا أنت شريكتي وأنا شريكتك. من دونك لم أفتح يوماً تجارة. كل خسارتك تقسمها بالنصف بيني وبينك.

لم يكن كلاماً. كان الصوت الحار والثابت يعني ما يقول. جوزف أسطفان فتح فمه، أراد أن يقول شيئاً، أن يقول إنه لا يستطيع أن يقبل هذا! لكنها بنظرة يتيمة أسكتته. كانت حازمة، وفي نظرتها تضع ثقل إيمانها كله. شهق الرجل ولم يتكلم. «مرثا الملكة، سئمتها ماري.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^

وينشد ترنيمة الميلاد، أعتقد أنني في تلك اللحظة طلبت هذا: أن ابذل «الجبهة» وأن أحارب عدواً يُتاح لي، في لحظة ما، أن أخرج وأقابله وأعطيه سيجاراً ويعطيني لوح شوكولا. فنفي ساعة معاً، ندفن موتانا، ثم نرجع إلى القتال. هذا ليس شيئاً. قد تظنين أن جليد Vladivostok بدأ يعطب دماغ أخيك لكنك على خطأ: أولاً أنا في Khabarovsk الآن، أرض الذبابة البنية، محطة تبعد 300 ميل إلى الشمال ونخشى أن يهاجمنا المخربون قريباً. ثانياً الناس هنا يستمّون الجنود الأميركيين «الذئاب» و«الذئبة القطبية» لأننا نلبس معاطف مبطنة بالفرو وأقمشة عازلة لا يؤثر فيها الجليد. (حركتنا بطيئة هذا صحيح، لكن أطرافنا لا تتساقط ونحن نأكل البطاطا المطبوخة باللحم). ثالثاً الجليد لا يعطب الدماغ بل العكس: هنا تبدو الأشياء واضحة. أنت لا تتصورين كم هي ضيقة نيويورك. كم هو ضيق هنري ستريت! أشعر أنني أنفَس الهواء العليل للمرة الأولى في حياتي. لست وحدي من يشعر هكذا. معي جندي صار صديقي وفرشته جنب فرشتي جليوه من تكساس من دون أن يعرف إلى أين يؤخذ: كان في المعسكر وسألوه ماذا تُفضل الرمل وحراسة الحدود مع المكسيك أم الماء البارد والفواكه في Philippines؟ أحبّ رنين الإسم وطلب هذه الأخيرة. كان يظن أنه سحرسها ويتخيلها حديقة وبساتين فواكه! أعرف أنك تضحكين وهو أيضاً يضحك عندما يروي القصة. لكنه لم يبلغ مانيتلا. نحن الآن في أقصى شرق سيبيريا، على حافة آسيا، وإذا قطعنا الماء نصل إلى اليابان: من هناك تأتي إمداداتنا الآن، ونحن على نحو ما نتبع الجيش الياباني وفي بعض المناطق يحارب الجنود الأميركيون تحت الراية اليابانية. لكن صديقي التكساسى نزل أولاً وراء جبال الأورال، في الغرب، غير بعيد من

و«الهدنة» أنهت الحرب الكبرى، أعلم. لكننا هنا أيضاً نقاتل من أجل أميركا ونطاق ويلسون الـ 14. حق الأمم في تقرير المصير - في تقرير مصيرها - يعني هذا بالضبط: ألا تسمح للقوي بتحطيم الضعيف. لماذا يُفرض على ناس لا يؤمنون بالشيوعية أن يبرزوا تحت سلطة لينين وتروتسكي؟ أنت لا تعرفين كيف يعيش الناس في هذه الأصقاع، ومن أجل الصدق أقول: حتى أنا لا أعرف! «الألمان» الذي يحكم هذه المنطقة عنده ميل إلى البطش، ويقال إنه متعطف للدماء، وعندما يقع بلاشفة أسرى في يديه يقتلهم على الفور لأنه لا يريد أن يتحمل نفقة الطعام وما إلى ذلك... القوزاق يهاجمون البلاشفة راكبين أحسنه أسرع من الريح، لكن البلاشفة في المقابل يفجرون القطارات وسكة الإمدادات التي من دونها تسقط الحكومة الروسية البيضاء - وهذه نحن ندعها - وتسيطر الحكومة الروسية الحمراء تماماً... تبدو الأمور متشابهة، وهي كذلك، وحتى أنا لا أستوعبها تماماً، مع أنني هنا... لكنني أعرف مهمتي: أنا ورفاقي مهمتنا حراسة السكة Trans - Siberian Railway.

هذا أفضل من حراسة الأسرى في Krasnaya - Retchka. لن تصدقي هذا لكنهم في عيد الميلاد نظموا حفلة أوبرا! الضباط الأسرى يشكلون فرقة كاملة طالما عززت في قصور فيينا. طلبوا الإذن من قيادة المعتقل وحصلوا عليه. كانت جميع الآلات الموسيقية بحوزتهم ولا ينقصهم إلا بوقان bass horns وزوّدهم الجيش الأميركي بهذه، «إعارة» لحفلة الميلاد فقط. هل تذكرين ما قرأته معك في «نيويورك تايمز» عن ميلاد 1914 على «الجبهة الغربية»؟ أعتقد أنني بينما أقرأ عن الضابط الإنكليزي الذي خرج من الخندق وقطع «أرض - لا - أحد» بلا سلاح وهو يدخن السيجار

فنلندا . هناك رأى التشيكيين الذين أتينا من أجلهم، في مرفأ Archangel الروسي على البحر الأبيض، 600 ميل إلى الشمال من موسكو . إسأليني كيف وصل كلارك من «أرك إنجل» إلى هنا؟ رحلة تطول أربعين يوماً، لا أحد يستطيع أن يقطع هذه المسافة، لا بسبب أودية الجليد وسلاسل الجبال فقط، ولكن أيضاً بسبب المعارك المتتقلة . . . لكنهم أسروا! كانت المدينة في حالة مجنونة: غطفوه وهو يشتري فودكا من السوق وصار أسيراً بعد ذلك بادلوه مع أسرى بلاشفة، لكن هنا، في هذه الجهة، غير بعيد من فلاديفوستوكا! وهكذا قطع سيبيريا من الغرب إلى الشرق! لماذا أخبرك عنه؟ هو مثلي يحب هذا المكان . في الليل، الجو من الصفاء الشديد بحيث تستطيعين أن تلمدي يدك وتقبضي على نجمة . لا أحد يصرخ هنا، المكان ساكن، وعندما نصرخ نفعل ذلك بسرور ونحن نهجم على العدو . . . نطاردهم عبر السهب ومزات نقضي عليهم ومزات يفرون . إذا بلغوا «الإخدود» نتركهم؛ هناك الأرض مرعبة . . . هل تعرفين الشعور الذي يستولي على الواحد وهو يسير تحت المطر الغزير . . . في البداية يخشى الببل، لكنه بعد ذلك، بعد أن يدخل الماء إلى الحذاء وتتكسر المظلة، لا يعود مهتماً، ويصير سعيداً بالمطر . . .

كنت أحبّ عندما يحدث هذا وأنا صغير، في مانهاتن وقيل أن ننتقل إلى بروكلين . . . كنت أحبّ أن أصل إلى البيت وأنزع عنّي الثياب وأنا أقول: «سبحت في النهر!» وأمي تخاف عليّ من التزلة وأنت تركضين بالمنشفة وأخواتي يرقصن ويصحن كأنهن في حفلة . . . كنت أحبّ ذلك ثم ضاع الشعور الطيب ولم يبق إلا الجدال العنيف، «وهذا جيد»، «وهذا غير جيد»، وفي كل لحظة . . . لا أريد أن أتكلّم عن هذا الآن . أردت فقط أن أخبرك أن الحرب

تشبه المشي تحت المطر . وأن حراسة السكة ليست مهمة سيئة: نأكل ونشرب جيداً، نشعل ناراً ونغني أحياناً . في الإجازات نتصيد ثعالب ووعولاً . وفي عيد الميلاد نقعد على الكراسي ونشاهد «أوبرا» ألمانية! الصوت أجمل في هواء سيبيريا النقي، تصعد النغمات إلى سماء مرصعة بالنجوم ويشعر الواحد أنه يريد البقاء هنا إلى الأبد .

طبعاً لن أبقي هنا إلى الأبد . ما تقولينه في رسالتك يبدو لي غريباً: لا أستطيع أن أتخيل جوزف أسطفان باكي الوجه . إذا كانت فيّ قوّة وقدرة على التحمل فهذه أتت منه ومن أجداده . أن تقولي أنه لولا تدخل مرتا حداد - كم بالضبط أقرضته مالاً؟ أنت لم تحديدي - كان سيعجز عن بناء المتجر والبيت مرة أخرى . . . هذا يبدو غير مفهوم بالنسبة إليّ . في الرسالة الآتية أكتبي أكثر .

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^

## علي جابر (6)

الخشب وأسواق الخضر واللحم والكحول والدعارة. الناس توافدوا من أنحاء البلاد بحثاً عن عمل وعن فرص للريح السريع. ضاعف كهرياء الجو قانون منع الكحول الذي صدر مطلع عام 1920: بات الأميركي ممنوعاً من صنع المشروبات الكحولية، من نقلها، ومن إستيرادها إلى الأراضي الأميركية. هذا «التعديل الثامن عشر على الدستور» أفاظ عدداً لا يحصى من سكان البلاد لكنه أثن لعلي جابر (ولكثير غيره في ولايات الجنوب) مصدر دخل: اشتغل في تهريب اللويسكي من المكسيك إلى تكساس. كيف حدث هذا؟ التقى في جوار درامرايت رجلاً سورياً (حليبي الأصل) يدعى مطانيوس هيكل. كانوا يستمنون «مستر هاري» ويرفعون القبعات عن الرؤوس عند رؤيته. يقود شاحنة صغيرة ولا يُرى أبداً من دون ثلاثة مرافقين. كان داخلاً إلى «البار» في Shawnee الواقعة إلى الجنوب من درامرايت وسمع شتائم باللغة التي نادراً ما يسمعاها.

التفت ورأى رجلاً يترنح ويلتقط كيس جنيفيس عن الأرض ويهيم بالخروج. اعترض طريقه والرجل القاسي كشجرة صبار دفعه جانباً. قيل أن بهاجمه المرافقون أوقفهم بكلمة واحدة ثم نادى وراء الرجل أن يتوقف. ناداه بالعربية والرجل استدار.

- أنا مطانيوس هيكل، هنا إسمي مستر هاري، أحتاج إلى واحد مثلك. ماذا يستونك؟

علي جابر نظر إليه ولم يرد.

- إذا أوقفك «الشريف» الآن، إذا راك تخرج سكران من هنا تعرف ماذا يفعل؟ يرميك في الحبس حتى لو دفعت الغرامة. لن يرمي صاحب «البار» في الحبس لأن هذا «البار» لا يبيع إلا «الشاي والمرطبات والقهوة». لكن أنت، أنت كالذباب بالنسبة إليه. هل تريد هذا؟ أن تُعس وتضرب من دون حاجة؟

إنظرها في حفل العمادة ولم تأب. شعر أنه طُعن. هذه ليست إستعارة: في الأيام التالية تحرك كأنه مصاب بجرح في جسمه. أو بحرق: كان يعرف ألم الحرق. مرة أحرق يده وهو صغير. سقط وهو يلعب مع أخيه، وكفي يتوازن وضع يده على حافة الموقدة: كان الحجر أحمر كالجمر وأحرق أصابعه وكفّه. دهنها بالزيت ولفوها بالقماش. وكلما أرادوا تبديل القماش وتَمَسُّها الهواء كان الألم يفتك بقلبه. الآن رجع الإحساس: كلما مرّت جنبه أم فارس (هذه المرأة كيف فعلت ذلك؟)، ازداد الوجع في صدره وشعر أنه يخنق. لا أستطيع أن أصف الإرتباك الذي أصابه. فسدت علاقته بفارس أيضاً، صديقه و«شريك النصف». سرعان ما أعلمه برغبته في الانفصال. وفارس صليبي اشترى منه حصته بأقل من القليل. علي جابر حزم أغراضه ومضى. لن يرجع إلى سيرينغ فالي أبداً.

أخذته الطريق جنوباً، إلى درامرايت - أو كلاهما\*. ولايتا أو كلاهما وتكساس كانتا تشهدان في تلك الفترة حقبة من الازدهار العجيب بسبب النفط: أينما ظهر حقل نفط جديد نبعت البلدات من بطن الأرض، كان «الذهب الأسود» يسقي البيوت الخشب والمتاجر

\* Drumright - Oklahoma



علي جابر سأله لماذا يريد واحداً مثله؟

كلّمه بالإنكليزية لأن الآخر انتقل إلى الإنكليزية، والسيد هاري دعاه إلى فنتجان قهوة. بينما يتكلمان، وأثر الكحول يزول من رأسه، أحسّ علي جابر أنه انتهى. كان يختبر هذا الشعور للمرة الأولى في حياته: لم تأتِ مرتاً حدّاد إلى حفل المعادة وهو لم يخرج من تحت الماء بعد ذلك. غرق في جرنٍ أعمق من بشر ولن يتنجو أبداً.

الشیطان أنقذه. قبل الوظيفة واشتغل بالتهريب على حدود المكسيك. المغامرة والخطر رذاه إلى شخصيته القديمة. تخلّى عن الكحول وعاد إلى المتيّة. بينما يرشّف القرعة تلو الأخرى، ساهراً في البرية بانتظار شحنة ويسكي تتسلل على «سختورة» عبر النهر، أحسّ أنه لم يتو بعد. كان يرفع الإبريق الساخن عن النار ويسكب الماء في القرعة بينما الذئب تعوي في صحاري تكساس. يلف لثافة تبغ ويشعلها يعود يحترق. بينما النجوم تبرق في سماء سان أنطونيو وطيور الليل تسافر صوب «سانتا في» Santa Fe، سقت المتيّة روح الرجل المتشقق والمنكمشة حتى ارتوت وملاّت جسمه وثيابه من جديد.

- 101 -

## معمل الكيمونو

مرتا حداد قرأت الإعلان في «الهدى». سالم هلال نشر إعلانه في ثلاث جرايد: «البيان» و«الهدى» و«العالم السوري». وخلال أيام قليلة انهالت عليه التلقونات. كان مريضاً في كبده وينوي الرجوع إلى قرنايل (جبل لبنان). هذا صاحب الرسالة في الفصل 47. بعد الحرب الكبرى اجتذب إلى أميركا عدداً من أبناء عائلته. كان طبيباً معهم، ولعل هذه الطيبة مرتبطة بالمجاعة. قبل الحرب لم يساعد أبناء عائلته على القدوم إلى «العالم الجديد». سخرية القدر طارده: عندما امتلات نيويورك بأبناء قرنايل بدأ كبده يتشمع، فقرر أن يبيع معمل الكيمونو والأليسة الداخلية الذي يملكه وأن يرجع إلى مسقط رأسه قبل فوات الأوان. لكن واجهته بعض الصعاب: كانت البلدية بحاجة إلى قطعة الأرض حيث معمله فتأخرت الأوراق اللازمة ووجد أنه سيضفي قبل بيع المعمل. اختار أسهل حل (ولعله كان الحل الوحيد الممكن): أن يبيع ماكينات المعمل لمن يريد أن يشتري، وأن يبيع المبنى نفسه وقطعة الأرض لمدينة نيويورك. وهكذا فعل. مرتا حداد اشترت ماكينات المعمل.

فرح صافي - كماء نابع من صخور الجبال - غمرها وهي تخرج من «بنك فيلادلفيا» بعد أن حوّلت المال من حسابها إلى حساب جوزف أسطفان في بروكلين قبل شهرين... ذهبت وزارته بعد ذلك بوقت قصير ورأت أكوام الرمام المجروف تُرفع إلى شاحنات بينما

المتجر الجديد يظهر مثل السحر: كان متجر جوزف أسطفان أول متجر يبنى في هنري ستريت بعد الحريق. السوربون وجدوا ذلك سبباً للفخر. رائحة الحريق لم تتبدد من الجو بعد. في المجرور تكس الرماد المبلول، وهذا يمضي وقت طويل قبل أن تخفي رائحته.

مرتا جلست إلى الطعام في بيت ماري وسألته عن أخيها. كانت تعرف - من الأب - أنه يكتب لها دائماً. بينما تحدثان دخلت إحدى أخوات ماري ووقفت جنبها. كانت في الثانية عشرة، جميلة وطويلة الشعر، عندما غمازتان في وجهها وطوال الوقت تبسم. على طاولة المطبخ كانت الجريدة مفتوحة، وفي الزاوية الإعلان عن معمل الكيمونو الجاهز بماكيناته للبيع. تحت صورة الماكينات السعر بالدولار. كان الرقم قريباً من المبلغ المتبقي في حسابها. هكذا ستروي القصة بعد ذلك لإبنها الكبير. أخرجت قلماً من جزدانها ونسخت الرقمين - السعر ورقم التلفون - بينما الفتاة ابنة الـ 12 سنة تبسم. لم تكن تلبس معطفاً أحمر وقبعة حمراء هذه المرة، ومرتا كذلك لم تكن صفراء الوجه نائرة العظم مريضة في غرفة باردة. بينما تيرم الذراع كي يدفأ غط التلفون (هذه التلفونات اليدوية ستبقى موجودة إلى زمن الأبناء لكن الأحفاد لن يروا مثلها إلا في أفلام السينما)، ثم تطلب الرقم وهي تختار الكلمات التي ستلفظها، شعرت مرتا حداد أنها على طريق صحيح. كان إحساسها مصيباً. الرجل باعها الماكينات بسعر مقبول وهي شحنتها إلى فيلادلفيا. كانت تغامر. بعد دفع إيجار المبنى القريب من متجرها صار حسابها فارغاً أو شبه فارغ. وضعت الماكينات فيه وأعلمت «ناس الطريق» أنها بحاجة إلى «الديون»: كل واحد - كشاش أو كشاشة - قادر أن يسد الآن ما عليه، يفعل معها جميلاً ستذكره له. كانت تبسم وهي تقول هذا، وكانوا يبتسمون أيضاً. يُخرجون ما معهم ويدفعون ويعدون بتسديد الباقي قريباً. اكتشفت في تلك الفترة أمراً شعرت به

ولم تجزم به قبل ذلك: تملك في جيوب هؤلاء أضعاف ما تملكه في حسابها!

تكاثروا - أهل الكثة - بعد الحرب الكبرى حتى بلغوا حداً أقصى. في تلك المرحلة - بينما مرتا تفتح معمل كيمونو والبسة داخلية في فيلادلفيا - كان عدد المهاجرين يوماً من أنحاء العالم إلى أميركا يتجاوز خمسة آلاف. هذا الدفق، هذا الطوفان المخيف من المهاجرين، سيحرك نقاشاً عنيقاً في الكونغرس ويفضي إلى قانون الكوتا\* سنة 1924. بعد ذلك تحسر موجة الهجرة (السوربون ضريهم هذا القانون بعرض الحائط: مئة مهاجر جديد فقط يُسمح لهم بالدخول كل سنة. . . عدا الأزواج والأبناء للسوريين المقيمين في أميركا). لكن حتى قبل انحسار موجة الهجرة في 1924 بدأت مرتا تشعر بتبدل الأحوال: كانت تصغي إلى حكايات الكشاشيين والكشاشات وتكوّن تدريجياً صورة عما يحدث الآن، هناك، على طرقات أميركا. العصر الذهبي للكثة انتهى، ولعل زمن الكثة كلّه أوشك أن ينقضي. المتاجر بلغت أقصى القرى. وحتى المزارع المنفردة في البراري لم تعد بحاجة إلى الكشاش: صاروا يطلبون بالبريد ما يحتاجون إليه. تصلهم كتالوجات ويرسلون ورقة أو تلفنون ويصلهم الطرد البريدي. الزمن يتغير. وحتى أخبار الكشاش لم يعد المزارعون بحاجة إليها: كانوا ينظرونه من أجل أخباره أيضاً وهم في تلك الأمكنة النائية القائمة خارج حدود العالم الواقعي. جاء الراديو ووضعهم في العالم.

\* حدد لكل دولة نسبة 2 في المئة من عدد مواطني هذه الدولة المقيمين في أميركا أصلاً بحسب إحصاء 1890. خدم بالتالي أبناء أوروبا الغربية وشمال أوروبا وعكس أوروبا الشرقية وآسيا.

## معمل الكيمونو (2)

الكشاشات سألن مرثا هل تحتاج إلى عاملات؟ مرثا قالت بالتأكيد، هذه الماكينات لن تعمل وحدها. ضحكت وهنّ ضحكن، ولا هي ولا هنّ تخيلن، أن سنوات قليلة تمرّ ثم تشتغل هذه الماكينات وحدها! قبل نهاية سنة 1920 بدأ المعمل يشتغل. مطلع 1921 باعت مرثا حداد الشحنة الأولى من بضاعة معملها. كانت تركض طوال الوقت بين المعمل والمتجر.

لم تغفل المتجر لأنها أرادت وجهه لمتوجات المعمل. شغلت مساعدتين معها وفقدت في وقتٍ قصير سبعة كيلوغرامات. في المقابل امتلات سعادة لا يمكن وزنها. كانت كتلة من الطاقة الآن، وتحت يدها أكثر من عشرين عاملة، معظمهن سوريات وإيطاليات. عندما ملأت واجهة المتجر بالكيمونوات ظنّت نساء فيلادلفيا أن هذه وصلت من طوكيو للتو. إلى هذا الحد كان الحرير لامعاً والرسوم جميلة.

مرثا قالت لإحدى مساعداتها (صرن أربعاً الآن، الشغل إلى فوق رأسها) أن جبل لبنان كاليابان يُربي دود الحرير منذ زمن طويل. لم تكن تكذب: بالنسبة إلى طفلة من بناتر، هذا حقيقي. كرخانة بورتاليس فنوح ورائحتها الفظيعة آخر الربيع وتغمر بيوت القرية (هذه شرائق الفرّ تُرمى في خلاطين المياه المغلية كي تموت الدودة الملتفة

بالحرير). قبل ذلك، قبل أن تُغطف شرائق الحرير عن الزوال وتؤخذ إلى الكرخانة حيث تشتغل أمها، كانت مرثا ترى الدود يسمى على أطباق ورق الثوت الأخضر على السقالات الخشب التي تحجب حيطان البيت. طوال الوقت ترى أباهما فاهياً إلى الثوتات وعائداً بالسلال الملائنة. في البداية يفرم الورق رقيقاً للدود الصغير. بعد ذلك يكبر الدود، تتضاعف شراسته، ويأكل الورق كاملاً. ابنة بناتر تعرف الحرير منذ طفولتها ورأت أمها تعود من الكرخانة عراقنة ورأتها في البيت أيضاً تقعد إلى المغزل القديم. لا أريد أن أتوسع بهذا الوصف لأنني فعلت ذلك سابقاً في رواية «الفراشة الزرقاء» التي تدور معظم أحداثها في القرية الجبلية المذكورة. يكفي أن نقول هنا أن مرثا رأت نسج طفولتها يكرّ أمامها وهي تقف أمام المغازل في معملها الأميركي متأملة آلات الخياطة «ماركة سنجر» تدرز أثواب الكيمونو الزرقاء والحمراء والصفراء، ثوباً بعد ثوب، وكل ثوب أخف من منام.

في العيد الكبير - الفصح - أقامت وليمة صباحية دعت إليها جميع العاملات: السوريات والإيطاليات والأميركيات. ملان قاعة المعمل بأصواتهن الضاحكة وهن ينظرن إلى المائدة قبل الجلوس: البيض المملون والخبز المرفوق السوري (مرّ عجبن ورقّ وخيّر؟ السوريات جميعاً اشتركن) وأصناف الأجبان والمربيات... إضافة إلى ملك الفصح: المعمول بالجوز والكعك بالتمر. أكلن بين آلات الخياطة وشربن شايًا وقهوة وحليباً وعصير تفاح. (إحدى العاملات اشتغلت من قبل في معمل تفاح وحكت لمرثا كيف يجمعون التفاح في كومة على «صحن» الآلة ثم يضعون القش فوقه وحوله ليكون «مصفاة» العصير عندما يكبس حجر الطحن الثقيل التفاح). كان

المكان يفور بالسعادة في تلك الساعة ومرتا نظرت إلى الوجوه  
المتبهجة وفكرت في الرجل الذي اختفى.

ذلك المساء أيضاً، وهي تراجع دفاترها قبل النوم، فكرت  
فيه. منذ ترك سيرينغ فالي لم تسمع عنه شيئاً. أين هو وماذا حدث  
له؟ هل شعرت عندئذٍ أنها لن تراه مرة أخرى؟ وذت لو يأتي! وذت  
لو يأتي أحد وينقل لها أخباره... بعد ذلك انشغلت بأعمالها. في  
الصباح، بينما تغادر فراشها، إتناها إحساسٌ فظيح: ماذا لو اختفى  
إلى الأبد؟

لكن الرجل لن يختفي إلى الأبد. على الأقل ليس في تلك  
الفترة. طوال شهور قاد شاشة صغيرة بحمولة مزدوجة (كانوا يُخفون  
براميل الكحول تحت أكياس الذرة والبطاطا) على طرقات خلفية لا  
ترصدعا دوريات البوليس. ساق الشاشة إلى بلوغراس - كنتاكي،  
ساقها إلى دروكس - كولورادو، ساقها إلى كولمبوس - نيومكسيكو.  
مرّ على مرأى من نوافذ مزرعة سكنها قبل سنوات أجييراً بمدّ يده على  
سطح إسطنبول وينفذ رجلاً من موتٍ محقق. عبرت الذكريات في رأسه  
واستعاد ذلك العشاء والنجوم تملأ السماء وكيف تذكر أخاه بينما  
يرقد. كان شادراً، ورائحة كحول خفيفة تتسرب من تحت المقعد،  
والرجل الجالس إلى جواره يقول شيئاً للمرة الألف عن هذه الرائحة،  
«وماذا لو إنقينا شرطياً الآن؟» في تلك اللحظة، بينما المزرعة تختفي  
عن بصره، أدرك أن هذه رحلته الأخيرة وأن الربّ لم يضعه على هذه  
الأرض كي يُهزّب براميل ويسكي من المكسيك. قبل نهاية 1920  
قطع صحراء نييفادا إلى كاليفورنيا. اشتغل في مزارع بورتلاند  
وسكرامنتو واذخر مالاً يكفيه (مع المبلغ الذي اذخره قبل ذلك) كي  
يفتح متجرّاً صغيراً. كانت خطته أن يذهب إلى بياتريس - نبراسكا  
التي سمع عنها كثيراً. لكنه بينما يقطع تذكرة القطار اختار فيلادلفيا.

- 103 -

## اللقاء

كانت آتية إلى المتجر من المعمل. خطاها واسعة والشمس  
ساطعة. من «البارك» يخرج صوت الفرقة الموسيقية على غير عادة  
(يعزفون الأحد، واليوم الخميس). لعلهم يتمنون لإستعراض  
عسكري جديد. عبرت الفكرة رأسها ثم ثلاثت كأفكار كثيرة. قبل  
أن تبلغ المتجر رأت رجلاً واقفاً في الباب يحمل قبعة في يده. خفق  
قلبا. كان هو.

أعطت «المساعدات» فرصة غداء طويلة واختلت به. كانت  
بشرته أشد قتامة الآن، كأنه ذهب إلى إفريقيا وعاد بينما تفتح معمل  
الكيمونو والألبسة الداخلية. في جبهته رأت تجاعيد الشمس، وفي  
عينيه رأت وحدته أعمق وأقسى وأقرب إلى وحدتها. خرج العصفور  
الميكانيكي من الساعة وصاح كأنه يرحب به، هو أيضاً.

ماذا قالوا عندئذٍ؟ ما هي الكلمات الأولى التي خرجت منه؟  
والكلمات الأولى التي خرجت منها؟ موسيقى فرقة الجيش عُزفت في  
تلك الجلسة؟ لا أظن أنه أخبرها في تلك الساعة عن مغامراته على  
حدود المكسيك. (ربما لاحقاً، في فترة آتية، يخبرها: ربما بينما  
تشرح لابنتهما الأول جاك درساً في الجغرافيا والتاريخ؛ وعدت  
ألمانيا المكسيك أثناء الحرب الكبرى أن تقدم لها هدية ثلاث  
ولايات هي تكساس ونيومكسيكو وأريزونا إذا دخلت المكسيك

الشمس برقت على اللون الأحمر في بطن السمكة. مرتا رأَت زبانا أمام المتجر فقطعت الطريق إليهم. بينما تسير التفتت ونظرت إليه: كان يتبعها بنظرة، لم يدعها تخرج من مجال بصره لحققة واحدة. باعت بضاعة وقبضت ثمنها. وضعت المال في «الصندوق» ورفعت وجهها. رأته يقف في الباب والسمكة ملفوفة في جريدة. بدا جائراً. ومرتا ضحكت. هو ضحك أيضاً.

قال إنه سيأخذ السمكة إلى الفرن، يشويها ويرجع.

قالت نقلها هنا.

قال هذه كبيرة، لا تصلح للقي.

قالت طيب، الفرن غير بعيد.

دارت من وراء «الصندوق» وخرجت معه إلى الرصيف وأشارت بإصبعها إلى المحلات عند زاوية سور «البارك». حيث تمثال الرجل على الحصان، وقالت هناك، في نهاية الصف، لكن لا أعرف هل يقبل أن يشوي السمكة.

ضحك وقال نقطعها ونقلها إذاً، ما رأيك؟ عرفت ماذا يفكر وعرف ماذا تفكر. أرادا البقاء معاً، لا هي تريد أن يذهب ولا هو يريد ذلك.

الحرب إلى جانبها ضد الولايات المتحدة الأمريكية. «نحن»، قالت مرتا لإنها، «قرأنا عن ذلك في الجريدة بعد عيد الفصح سنة 1917. وزير الخارجية الألماني أرسل برقية بالتلغراف إلى الحكومة المكسيكية. لكن الإستخبارات البريطانية اعترضت البرقية وفككت رموزها وأرسلتها إلى الحكومة الأمريكية». لكنه على الأرجح حكى عن كاليفورنيا. ماذا أخبرها عن حياته وماذا أخفى؟ وهل يُبدّل ذلك شيئاً؟ الكلمات بلا قيمة (كم مرة تكرر هذا؟). سطعت الشمس أقوى على واجهة المتجر. نهضا ووقفا على الرصيف: كان يتأمل الأثواب المعروضة وهي تشرح عنها. ثم رفعت بدأً ودلته إلى المبنى غير البعيد (تلك النوافذ الطويلة، هناك). أرادت أن تأخذه كي يرى المعمل لكن في تلك اللحظة شعرت بالخوف: كانت تُنزل أسوارها دفعة واحدة! وماذا لو أنه ليس من تنخيله!

مرّ رجل يبيع سمكاً. كان يصيح بأسماء الأصناف التي يحملها. ويطلق سكيناً على «الحديدة» جنب مقعده. شعرت أنها عاشت هذه اللحظة من قبل، وأن نهاية اللحظة لم تكن طيبة. ابتعد الرجل الذي انتظرت كي يعود، ورأته يتكلم مع بائع السمك. لم تستوعب ماذا يفعل. بلا انتباه تحركت هي أيضاً. من الطريق الأخرى جاءت سيارة سوداء بمقاعد بيضاء، بلا سقف، وأطلقت بوقاً قوياً متقطعاً كأنها تشارك الفرقة الموسيقية عزفها. أدركت أنه يشتري سمكاً ووجدت ذلك غريباً جداً. لكنه عندما استدار وواجهها بضحكة كبيرة نزع عنها خوفها وإرتباكها دفعة واحدة.

أيقنت أنها تريد البقاء معه. تريد أن يظل هنا، في فيلادلفيا. كان البائع يقف عند صندوق العربة الآن ويغسل السمكة الفضية الكبيرة في برميل الماء. الحصان سهل ثم سكت. العربة تمايلت،

### الحياة الغربية لجندي سوري - أميركي (3)

اسباسكو - بحيرة بايكال\* - سيبيريا

العزيزة ماري والجميع

وصلتني أخباركم الأخيرة في الرسالة المؤرخة 3 شباط (فبراير) وقرأتها مرة أخرى قبل أن أسطر لكم الآتي: نحن هنا مثلكم تماماً لا نعرف شيئاً عن مواعيد هذه الحرب، لا كيف بدأت ولا متى ستنتهي، والحروب هكذا، لكن صلّوا من أجلنا وتنتهي هذه الحرب أيضاً ونرجع جميعاً إلى الوطن. الشتاء هذه السنة فظيع. درجة الحرارة تدنت إلى تحت الستين والأحصنة مانت. لكننا بصحة جيدة وعندنا معاطف وأصواف وفرو. وعندنا تدفئة وحطب ونشرب حساء من عظام الغزلان ولحمها خمس مرات يومياً على الأقل. حتى صاحبي جيم دينكا الذي عاد إلى بيته سالماً وأعطوه قبل تسريحه من الجيش جزمة جديدة وبذلة جديدة وراتياً Bonus إضافية، حتى هو لا يتذمأ مثلي في أميركا الحبيبة هذا الشتاء.

اشتقت إلى نيويورك، وأنا كنت أظنني لن أشتاق إليها أبداً. أرغب أن أرجع اليوم قبل الغد وأسير في برودواي وأكل سندويشة همبرغر من دون التفكير في الفوزواق والبلاشفة. الإنسان العن من

\* Lake Baikal

بعض. سأخبركم بعض ما حدث معي في الشهور الماضية وأرجو ألا ينشغل بالكم فأنا بخير الآن ويقال لنا إننا سنؤخذ إلى ماتيليا قريباً ومن هناك إلى الوطن، فحتى لو استمرت الحرب لا بد من تبديلنا نحن والفرقة الخامسة والثمانين التي تضم متطوعين من ميتشيغان وويسكونسن فكأنهم أصابهم الجليلد إصابات بالغة. هم وصلوا قبلنا، آتين من «فورت كاستر» خارج Battle Creek، عن طريق إنكلترا...

قاتلوا أولاً على «الجهة الغربية» وكانوا في صفوف الفرق الفرنسية والإنكليزية التي اجتاحت الخط الألماني... بينهم أصدقاء لي الآن. أهدوني شنائم ألمانية بينها ولاعة Dresden. كنت أود أن أبلغكم أخباراً طيبة لكن ما العمل؟ مرقة تجدون صورة لي مع رفاق - على أقصى اليمين Fred وهذا من أزمز أصدقائي الآن ويضع العصبة على عينه كالقرصان على سبيل المزاح فقط - والصناديق التي تظهر خلفنا نسيها علب البسكويت لكنكم لا تجدون فيها غير البيجانات الصوف، ونحن نلبسها تحت ثيابنا ليلاً نهاراً... وصلنا منها مخزون ضخم عن طريق الخطأ، أما الجزم التي طلبناها فتأخر وصولها! الجندي الذي يركع على ركبة واحدة في المقدمة يُدعى جيرى كاميسون، قاتل مع سلاح الهندسة في Murmansk. أصيب في إحدى معارك Vologda وعندما أرادوا إرساله إلى أميركا لم يقبل. يقول لا أحد عندي ويقول إنه يحبّ الحرب وعنده لذة القتال. أخذوه إلى كيوتو وتعالج هناك مع الجرحى اليابانيين وعاد إلى الحرب من هذه الجهة. عندما نزل في فلاديفوستوك كان يحمل سيفاً مثل محاربي الساموراي. لكنه لطيف في المعسكر. وعندما كلّفونا حراسة «المعتقل» استغل الفرصة وأخذ دروساً خصوصية بالألمانية والهنغارية من الأسرى. أنا أيضاً صرت أجد الروسية والقليل من اليابانية،

وهذه لغة صعبة وحروفها عجيبية كالرسوم ولا يكتبون على الصفحة مثلنا، لكن لا بد من أن أراكم مرة أخرى وعندئذ ترون ماذا أقصد.

لقد رأيت أشياء لم أكن أتخيلها. قطار من الأسرى البلاشفة مرّ أمامنا ثم توقف في محطة يسيطر عليها «الألمان» كالميكوف. هذا رجل قصير سمين يبدو عاجزاً عن إيذة نملة لكنه يملك في حديثه قفصاً فيه ثلاثة دَبَّية بنتية متوحشة. ترك الأسرى في القطار حتى أنهكهم الجوع والعطش والبرد. كانوا يقدون الباب الحديد المقلق بالسلاسل ونسمع صراخهم وهم يطلبون النجدة ويُمنع علينا أن نتدخل. ثم لماذا نتدخل؟ نعرف أنهم يفعلون مثل هذا بأسرانا أيضاً. لكن «الألمان» كالميكوف فتح باب العربة وأدخل الذبّية الجائعة ثم أقفل الباب من جديد.

أنا أكتب عن هذا وأعرف أن الرقيب سيمحوه أو يمزق الورقة لكنني لا أهتم. سأكتب غداً رسالة أخرى فإذا لم تصلكم هذه يكون هذا أحسن لكم وفي المقابل أكون أنا ارتحت وكتبت ما أردت أن أخبركم إياه. أعرف الآن أنني أعطت عندما جئت إلى هنا. لكن في المقابل رأيت هنا أشياء حسنة أيضاً. هل تصدقون أنني التقيت رجلاً سورياً يعيش في قرية صغيرة على ضفة «بايكال» التي يستوطنها هنا «البحر» لأنها أكبر من نيويورك. الرجل أصله من القدس Jerusalem وكان مجنناً في الجيش التركي العثماني. الجيش وقع بأجمعه في الأسر على جبهة القوقاز ورموه في معتقلات سيبيريا. ظلّ فيها من 1915 إلى 1917 ثم أطلق البلاشفة سراحه. لكنه أضاع الطريق وبدل أن ينتهي في أورشليم انتهى في هذه القرية السيبيرية التي لا يستطيع أحد أن يحفظ إسمها الطويل. التقيته في متجر القرية وعرفت أنه سوري من سحتة. تكلمنا وصرنا أصدقاء. أخبرني أنه يتيم وكان

يشغل خادماً في دير الفرنسيسكان في القدس وكانوا يسيئون معاملته لكنه بقي عندهم لأنه اعتبر الدير بيته. طالما خطط للفرار ثم كان في اللحظة الأخيرة يتراجع. لكنه ذهب إلى السوق يجلب طعاماً للرهبان، والجنود الأتراك لقطوه وأخذوه إلى «الجهة الشرقية». كان يحارب بالبارودة كأنه يحارب بالعصا لأن أحداً لم يعطه ذخيرة، حلف لي أن هذا صحيح وأنا أخبرته عن بناقدنا النموية في 1918 وقلت «حتى في الجيش الأميركي يحدث هذا». تزوج امرأة روسية ويعيش من صيد السمك والأرانب البيضاء. مرات يجلب إلينا في المعسكر طرائد ونعطيه بدلاً منها تبغاً وشوكولا.

ماذا أخبركم أيضاً؟ بعض الجنود اليابانيين سكروا على الساكي والكرز وأرادوا أن يسبحوا في النهر (Amur River) على الحدود مع الصين، فوجدوا جثّاً تسبح معهم وهي تلبس دروعاً قديمة. خافوا وخرجوا من النهر لكن الجثث اختفت. هناك أسطورة تقول إن الجنود الذين يموتون في سيبيريا حتى لو دفنوا تحت الأرض يقومون ويرجعون. ثمة سبب لهذا: في الصيف يذوب الجليد، وكثيراً ما نرى جنوداً من أصدقائنا دفنهم، يخرجون من تحت الأرض مع عشب الربيع.

فريد Fred وصلته رسالة من خطيبته في ميسوري تقول إن الهواء الحار هذه السنة عطب محصول القطن. لم تؤرخ خطيبته الرسالة ولا تعرف عن أي سنة تتحدث ولعلها أرسلتها قبل سنتين أو ثلاث سنوات فمند وقت لا يسمع منها وكان يظنها نسيت وتزوجت شخصاً آخر.

### الحياة الغربية لجندي سوري - اميركي (4)

أصيب لكن رفاقه أفلحوا في حمله. ثلاثة غيره وقعوا في الأسر ولن يُعرف بعد ذلك ماذا حل بهم. هو قضى أسابيع هاجماً على سرير في البياخرة - المستشفى Rosemary في مرفأ فلاديفوستوك. عندما انفجرت قنابل في قلب المدينة أبحرت البياخرة مبتعدة صوب اليابان. الأطباء والمرمضات تراكضوا في القاعة ثم انزلقوا وهم يصيحون. لم يفهم ماذا يحدث. حقتوه إبرتين في ساقه وغاب عن الوعي.

استيقظ في المستشفى العسكري في مانिला. في كوابسه رأى أنه يُقطع بالفأس ثم يُرمى طعاماً للأسماك. تفقد أطرافه خائفاً وصرخ ألماً عندما أحرقه زنده: الرصاص مرّق المعطف واللحم. جاءت ممرضة وساعدته على الجلوس في الفراش وطمأنته بلغة إنكليزية مكسرة إلى وضعه: إصابته ليست بالغة، وكان مصاباً بصدمة، والآن لا خوف عليه. أحبّ هذه المرأة السمراء القصيرة وهي بادلته الحبّ. عندما تماثل إلى الشفاء ساعدته على الهروب من المستشفى. أخذته إلى غرفة حقيرة غير بعيدة. كان الماء يدفق من السقف والحيطان تتصدع، لونها أخضر وأسود، وعلى الأخضر ينمو عفن أبيض لم ير مثله من قبل. كان الجو حاراً هنا وشعر أنه مملوء فرحاً كما لو أنه عاد طفلاً لم يسمع عن العالم شيئاً بعد. المروحة المصنوعة من

سعف خفيفة كالقطن مقطوعة من شجر لا يعرف اسمه، تحركت أمام النافذة وعطّرت الغرفة برائحة الصمغ النباتي: كانت تحجبها عن الشارع وهي تنزع ثيابها، وهو باغته رجفة برد. ارتعش كأنه ينزل في ماء أمور اللعين حيث تسيح الجثث مع سمك المنشار، واستمرت ارتعاشته حتى بعد أن أسرعت إليه وغمرته بطانية. بعد ذلك، عندما ذهبت الرعدة، ساعدته على التخلص من البنطلون الكاكي. لم يقل لها شيئاً وهو يتسلقها ثم يدخل فيها ناسياً سيبريا. في خياله رأى امرأة حقيقية موجودة في الجانب الآخر من الأرض. كان يرغبها ويعرف أنها لن تكون له يوماً. اكتفى بالمرأة التي طهرت جراحه وعانقها كأنه موشك على الموت. أضواء الشارع اقتحمت الغرفة الشفافة العتمة ثم انسحبت. لم يسمع رصاصاً وهو يمسح العرق عن نفسه بعد ذلك ولم يسمع رصاصاً وهو يتناول منها الفواكه التي قترتها. شعر أن الرعدة عائدة فتدثر بالبطانية وجذب المرأة إليه.

كان عناقه عنيفاً لكنها لم تتصايق. بل العكس: شدّته إليها وعندما هاجمته الرغبة من جديد طارحته الحبّ كأنها هي أيضاً انتظرت هذه اللحظة سنوات. قبل أن تطلع الشمس لبس ثيابه. كانت تساعد وتركض في أنحاء الغرفة وتعود. استمعلته عندما دخل إلى الحمام لأن النور ملأ الفراغات في المروحة والنافذة صارت بيضاء وإذا لم يصل إلى «القاعدة» بسرعة تكون كارثة. ضحك وهو يركض معها، قافزاً بين عربات محطة أو شبه محطة، يبيع عليها رجال قصار القامة أطعمة مقلية وحلويات وأصنافاً عجيبة من الخضصر والفاكهة والطيور. أراد أن يتوقف ويشترى شيئاً لكنها بدت مذعورة وهي تشدّه من قميصه فلم يتوقف. قضى الليلة خارج المستشفى ولم يتلقّ عقاباً لأن أمره لم ينكشف. وكرر ذلك في الليلة التالية لكن في



## الحياة الغريبة لجندي سوري - أميركي (5)

ماري تلفنت لها وأخبرتها. مرثا تفاجأت وعندما وضعت الساعة وجدت نفسها تضحك. كانت مسرورة لأنه عائد: هي أيضاً ظنّت أنه لن يعود. الفرح استولى عليها فطلبت رقم شريكها في «بروكلين». وجوزف أسطفان ردّ عليها بصوت يزقزق كالعصافير. سألتها هل أخبرتها ماري؟ قالت: «أخبرتني». قال «انقطع ظهري يا مرثا لكنني الآن بخير». لا هو ولا إبنته كانا يعلمان أن الجندي لن يرجع وحده ولكن مع زوجة النقاها في جزر القليلين.

عندما أخبرها أنه يريد أن تذهب معه إلى أميركا أجابت «لن يسمحوا لي». قال «بالأكيد يسمحون لك، أليس زوجتي؟».

- أنا زوجتك؟

ضحك من إنكليزيتها المحطمة ومن تعابير وجهها المدعوشة وأخرج الأوراق من جيبه وقال كل ما علينا الآن هو الذهاب إلى أي كنيسة هنا وانتهى الأمر. وإذا كنت لا تحبين الكنائس نتزوج بلا كاهن، لا يهّم.

لم تفهم شيئاً حتى بعد أن شرح لها. صارت تبكي وسألته لماذا يفعل معها هذا. دام سوء الفهم وقتاً وعندما أدركت أخيراً أنه صادق وهذه رغبته بكت من جديد. منذ تلك الساعة في ماتيللا - كان المطر يهطل ساخناً على الأشجار - وحتى وفاتها عن 93 عاماً في

الثالثة اكتشفوا غيابه. واجهه الضابط المسؤول صباحاً. تلقى تائباً شديداً وتهديداً باعتباره فارساً من الخدمة العسكرية وعرضه للمحاكمة إذا خرج بلا إذن مرة أخرى. ضرب التحية وركل بصباطه الأرض وقبل التائب. كان يترنح وسأله الضابط عن جرحه. ردّ أنه بخير ويستطيع الرجوع إلى القتال في أي لحظة. الضابط قال «في أميركا».

خرج ضاحك القلب. كان يعرف أن الحرب انتهت وأن الجيش الأميركي خرج من سيبيريا. في رحلته الليلية الثانية التقى جنوداً «مارينز» وأخبروه. اشتروا الساكي الفيليبيني الغريب الطعم وتبادلوا الانتخاب وضحكوا كالمجانين. صاحبت - الممرضة التي يناديها «تونا» - خافت وتراجعت إلى وراء. كانوا يضحكون بلا فرح، كأن الرياح المثلجة وعضّات الجليد قرضت الأرواح في أبدانهم. كأنهم بلا روح. رأت وجوههم المصنوعة من الخشب وشعرت بالخوف: في المستشفى لا تراهم هكذا!

أرسل بطاقة بريدية إلى ماري كتب عليها أن هذا الميناء يشبه جميع الموانئ التي رآها مذ خرج من الوطن قبل سنوات. كم سنة؟ قال إنه لم يعد يعرف كيف يحصي السنوات، وقال إن الميناء الوحيد المختلف موجود في فيرجينيا وهو الميناء الذي يطلبه الآن: منه خرج وإليه يطلب أن يعود. سأل رجلاً عن تاريخ اليوم وهذا دلّه إلى روزنامة مغلقة. في ذلك العصر التقى الضابط المسؤول في الكافيتريا يأكل البطاطا الفرنسية «البيرة» مع قطعة لحم ضخمة وصلصة صفراء اللون. سأله ما هي الأوراق التي عليه أن يملأها كي يتمكن من الزواج.

ناشفيل - تينيسي Nashville - Tennessee بعد دهر، أميركية ومحاطة بالأبناء والأحفاد الأميركيين، لن يتضاءل حبها لهذا الجندي الذي سيصير أستاذاً ويناديه تلامذته «مستر ستيفن». حتى هي ستاديه بهذا الاسم: Steven، وعندما يتفاحكان في الفراش وتقول Master Steven يُطلب حاجيه.

هو في المقابل كان يبكي كالصغار إذا مرضت. لم يكن يتحمل - هو الذي رأى كل ذلك القتل في سيبيريا - أن يراها متألعة. كان يصلي أن يموت قبلها، عارفاً أن في صلاته أناة لا تُحَد. بعد ذلك صار يُصلي أن يأخذهما الرب في الساعة ذاتها: بمدّ يده ويخطف الروحين معاً.

أرسل إلى ماري بطاقة بريدية من ميناء ليفربول كتب عليها: «هذه البطاقة قد تصل إليك بعدي وفي هذه الحالة أنسلمها بنفسى من ساعي البريد». تردد قبل أن يخطّ جملة أخيرة ثم ملا قلبه شجاعة وكتب:

- «لست وحدي».\*

كانت غامضة إلى حد لكنه وجدها كافية لتمهيد الطريق.

في الباخرة التي حملته وزوجته عبر المحيط الأطلسي استمعا إلى عازف بيانو عجوز يغني وهو يعزف. كان البيانو مثبتاً إلى أرضية الباخرة بالمسامير. الباخرة لم تكن عسكرية تماماً، مع أنها تعج بالجنود. وقف مع رفاقه عند الدراهزين يشرب بيرة ويدخن. كان العالم غريباً وسرياً ويلا جدوى. الثلج الأبيض حفر الظلام وامتد إلى

نهاية العالم: من هناك جاؤوا، من أطراف الأرض، ولا أحد منهم يعرف كيف ظلّ على قيد الحياة. غادروهم مغفل العينين. كان يحب أن يغمض عينيه ويسير هكذا على ظهر الباخرة. عندما استقبلته في الفراش نصف نائمة وساخنة كالخيز لم يخبرها أنه خائف من أميركا - ومن لحظة اللقاء بعد هذه السنوات الطويلة - كما خاف قبل ذلك من سيبيريا.

أدرك في قرارة نفسه أن أحداً لن يقبل زواجه. لا الأب يقبل ولا الأم ولا الأخوات. كان حزينا بسبب هذا، وهي لاحظت حزنه. سألته ماذا يفكر. كذب قائلاً إن جرح ساعده ما زال يحرقه. لم تصدق، لكنها سكنت.

عندما سمع الصوت ينادي عليه، في محطة السكك الحديدية المحتشدة بالبشر، استدار مدعوراً. هجموا صوبه دفعة واحدة. كان الأب في المقدمة، واسع الخطوة، ضحكتة تكبر حتى تغمر وجهه، وذراعاه ترتفعان أمامه، تطلبان الإبن العائد. مدّ يده لا إرادياً وأمسك بيد زوجته. كي يتحضر أكثر وضع كيسه الكبير على الأرض. توقع الأسوأ وانتظر. كانت رقبته عرقانة. وسمع نبضة قلبها.

عانقه الأب وبكى. وعانق الزوجة التي لا يعرفها وبكى أيضاً. هو نظر إلى جوزف أسطفان وشعر أنه في منام. كانوا يتحلقون حوله، أخواته وأمه، يلمسونه برؤوس الأصابع ويدفنون قلبه بالدموع. هكذا عاد إلى الوطن.

كانت معدته تتمزق ويعجز عن ابتلاع طعامه. زبائن يدخلون، يلتقط الأكياس الورق ويضع فيها ما يطلبون. يأخذ منهم الستانت ويهز رأسه. ثاڤك يو. يو آر ويلكام. كوم آڤين. Thank You. مرة تلو أخرى. كيساً بعد كيس. You are Welcome. والبوظة يجرفها بالمعلقة المخصصة لها ويملا الكوب الورقي، أو القرن البسكويت، شاردأ. Come Again. ثم يخرجون. ومن جديد يتحول إلى تمثال ولا يعرف ماذا يفعل بنفسه. الترامواي مرّ كالسلفاة وهو تذكر بوينس آيرس: لماذا لا يذهب إلى هناك؟ عبرت سيدة تحمل مظلة مطوية وتذكر بورتلاند (كاليفورنيا): لماذا لا يذهب إلى هناك؟ أولاد تراكضوا عائدين من المدرسة (هل مرّ النهار؟) وهو تذكر أمكنة بعيدة. عندما رأى ولدين أخوين يركضان معاً ويقفزان إلى الترامواي المتحرك، أخذ الحنين إلى الجانب الآخر من الكوكب.

لكن الخيط الخفي ظلّ يربطه بشارع «البارك»، حيث المرأة في ثوبها الأزرق. كان يتخيلها خارجة من المتجر داخلة إلى المعمل، وخارجة من المعمل آتية إلى المتجر، واسعة الخطوة، والشمس ساطعة، كما رآها في تلك المرة، عندما تعرّف في ثيابه وهو ينتظرها.

كان الخيط يعطيه الحياة ويقنله في اللحظة نفسها. مثل المصران في بطنه: بينما يبلى قطعة تفاح، ثم يضع السكين على الصندوق، أحسن أن الألم لا يُحتمل. هذا كلّه كان غريباً عنه - هل نسي الوقت الذي قضاه مسمماً بالكحول في أوكلاهوما؟ - وغير مفهوم ولم يتخيل حدوثه يوماً: أن تفنك به امرأة! ومن دون أن تفعل شيئاً!

انتظرها يوماً بعد يوم وحياته معلقة على هذا الخيط. ولم تأت. كان النهار يطول إلى ما لا نهاية، كأنه دهر، كأنه ليس 12 ساعة! وفي الليل يتقلب على الفراش في مؤخرة الدكان، وإذا نام

## في فيلادلفيا

كم مهنة غُيّر في أميركا؟ من معمل الجلود في لونغ أيلاند إلى دكان الخضّر والفواكه والمثلجات (البوظة) في فيلادلفيا، قطع الرجل طريفاً طويلة. هذه السنوات العشر بين الأميركيين، وعلى حدود المكسيك حيث الشرطة تطارد ظلّها، كيف بدّته؟ ملّ سريعاً - كالعادة - من الدكان الذي فتحه. كان يسرق نهاره كلّ ولا يترك له إلا ساعة ظهراً وأخرى عند المساء لرؤية الأرملة التي يحارب للفوز بها. كانا يتشاركان الطعام والأخبار مثل زوجين ومع هذا استمرت في الامتناع عنه. سألتها إلى متى تلبس هذا المحبس في إصبعها؟ وحين نظرت إلى يدها ثم إلى الأرض قال إنه يريد أن يتزوجها ويكون معها.

ابتسمت وقالت مداعبة: «أنت لست مسيحياً!» قال «هذا سهل، أدخل إلى الكنيسة وأطلب من الخوري أن يعملني مسيحياً، هل هذه المشكلة؟» هزّت رأسها أن لا وبدت حزينة إلى حد الموت. وهو شعر أن قلبه يُنتزع من بين أضلاعه ويُضرب بالأرض ويُداس بينما وجهها يحزن هكذا وهي تذكر زوجاً ميتاً.

كانت تلبس ثوباً أزرق، وعظام كتفها ظاهرة، وكذلك استدارة اللحم. وعلى هذا النحو - ساكنة وكتيبة وأجمل من رؤيا - ظلّت تسكن خياله في الأيام التالية وهو قاعد في دكانه كالتمثال متمتعاً عن زيارتها.

مرّت الأيام وحلّ الموعد الذي علّمته على الروزنامة. في «السيّتي هول» طلب منهما رجلٌ غفيف الحركة كباّئع جوّال أن يحلفا، كلٌّ على حدة، أن لا مانع قانونياً يحول دون هذا الزواج. (على الطاولة استقر «الكتاب المقدس». كان سميكاً، ثقيل الوزن، مجلّداً بالأسود، وفي مركزه نَقْرٌ صليبيّ ذهبٌ أصفر من راحة اليد). بعد ذلك قال الرجل المخوّل بحسب قوانين الولاية تحرير عقد الزواج: «أنا سعيد من أجلكما». وهكذا خرجا إلى الشارع، زوجين، في السراء والضراء.

علّمها شرب المتيّة، بدل القهوة، في الصباح الباكر. وعلّمته أن يحبّ البقاء في مكانٍ واحد. كانت تستيقظ أحياناً قبل الفجر. في النور الواهن المنتسب من مصابيح الشارع، تتأمل نومه العميق وشعره الأسود. هل تتساءل كيف حدث هذا، كيف صارت زوجة مرة أخرى، من أين خرج لها هذا الرجل، وماذا سيحدث لهما؟ كان الخوف يتسلل إلى قلبها فتصليّ.

رُزقا طفلاً ذكراً عند الساعة السادسة مساءً في الثالث من كانون الأول (ديسمبر) 1922. كانت المدينة بيضاء، يغطيها الثلج، ومن مداخنها ترتفع الأعمدة الرمادية. في الغرفة الدافئة، نظرت زوجة جوزف أسطفان إلى الأب الجديد يلف سجارة تبغ سعيداً، وسأته

يراه. لكنها دائماً كئيبة، ولا تضحك، ولا تطلبه. عندما استولى عليه اليأس حمل نفسه وذهب إليها. كان محطماً. دخل المتجر وأخبرته إحدى المساعيدات أنها ذهبت هذا الصباح إلى بروكلين ولن ترجع قبل الغد. قالت شيئاً عن جندي عائد من حرب لكنه لم يهتم وخرج أسود الوجه ومضى في خط مستقيم إلى دكانه. أراد أن يأخذ أغراضه ويذهب إلى أي مكان غير هذه المدينة، لكنه بينما يجمع بعض الثياب في كيس أدرك أنه لا يقدر. جلس وانتظر.

صباح اليوم التالي حلق ذقنه. لبس بذلته وتسلّم البضاعة من «الموزع» ورتب الخضّر والفواكه على الرفوف. لم يعلأ براد البوطة منذ أيام: الأولاد إذا سحجوا في المكان أزعجوه. كان يحيا على حافة أعصابه ويشعر أنه بلا أمل. لكنه مع هذا انتظرها في ذلك الصباح وأحسّ أنها آتية. «المساعدة» ستخبرها أنه أتى وسأل عنها. وهي ستأتي. حلّت الظهيرة ولم يظهر ظلّها. غربت الشمس ولم تأت. عند المساء ذهب إليها وبطنه تلتصق بظهره. هل تقوّست قامته، هل التوى عموده الفقري وهو ينتظرها؟

من بعيد، وقبل أن يبلغ المتجر، حدس أنها في الداخل. هل يثق بهذا الحدس الذي يغدو مرة تلو أخرى؟ كان يتحرك بلا إرادة، مثل ميّيت خرج من قبره، وعندما بلغ الباب وراها واقفة وراء المنضدة، وحدها، ترفع عينيها وتراه آتياً من المساء البرتقالي - الكحلي، شعر أنه لن يطلب إلا هذا: رؤيتها!

رأها تتحرك، تدور من وراء المنضدة، وتدنو كأنها تسيح على غيمة غير مرئية. عانقته وشدّته إليها وللمرة الأولى في حياته شعر أنه محبوب كما يريد أن يحبّ. كان ذلك خيالياً وغير مؤكد وعندما قالت له دامة العين «انظر!» وفتحت أمامه يدها رأى أنها نزعّت المحبس.

ماذا سيستمي إينه؟ هو نظر إلى زوجته العرقانة في السرير الأبيض الكبير وقال:

- الأم تُستمي.

وهكذا سقت مرثا إينها: «جارك». سمعته يزعق زعقائه الأولى على هذه الأرض. حملته على ذراعيها. سكت. شعرت بهشاشته اللانهائية. الدموع غسلت وجهها وهي تصلي «أبانا الذي في السموات». كانت أسعد لحظة في حياتها.

## الجزء الرابع

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^ RAYAHEEN ^

## السنوات الطيبة

هكذا دخلت السنوات الذهبية. العشرينات المباركة للمقرن العشرين. اتسعت الأشغال وكذلك العائلة. انضم إلى جاك على التوالي مارغريت (1924) وجيني (1926) وجميل (1927). البيت الجديد في «كامدن ستريت» الذي يعج بمشاجر الحلويات، ملأته أصوات الأولاد السعيدة. الأربعة كبروا وهم يركضون بين المدرسة والبيت و«البارك». كان أسعد أيامهم عندما تقبل أمهم وتأخذهم نهار الأحد - بعد القداس - إلى المعمل، كي يتفرجوا على ماكينات الخياطة. جاك «العفريت» كان يهجم على فارورة زيت التنظيف؛ باكراً تعلم كيف يُزيت دولاب «السنجر» و«قشاطها». انطبعت تلك السنوات في ذاكرتهم مثل حقبة خيالية تسبق الدخول إلى العالم الحقيقي: العشرينات (منذ الذكريات الأولى وحتى 1929 - 1931) كانت «الجنة» بالنسبة إليهم، الفردوس المفقود الذي يعجز أحدهم عن استعادته، لكنه يحصل على فردوس موازٍ له بينما يقعد أمام الأم ويسمع قصصها. حتى زوجها كان يجلس ويصغي إلى القصص المكررة إذا تكلمت. (سألت نفسك وأنت تقرأ الأسماء في نهاية «كتاب الحكمة»: ماذا حصل لهذا الرجل الذي يُدعى علي؟ أهن ضاعمت أخياره؟). الأولاد طالبوها خصوصاً بحكايات الطريق وجزدان الحرير، عندما كانت تتجول في أنحاء أميركا، وحدها، شيئاً أو في القطار.

كلهم (الأربعة) تفتح وعيهم وهم يسمعون أزيز ماكينات الخياطة. جاك رضع حليب أمه في المعمل. وكذلك مارغريت. وكذلك جيني. ازدهرت منتوجات المعمل حتى جاوز الطلب عليها حدود الممكن. الزوجان اتفقا على التوسع: أولاً تمدد المعمل حتى احتل طبقات المبنى جميعاً، بعد ذلك استأجرا مبنى آخر وابتاعا آلات جديدة، أسرع، وأكثر تطوراً. كانت مرتا تهدهد السرير الصغير (سرير من الخشب الأبيض) بيد وتنقل النصاميم من الكتالوج إلى الورق الشفاف باليد الأخرى. قبل العيد الأول لجاك انصرفت إلى حياكة كنزات صوفية له بالصنارة: كان هذا يأخذ وقتاً ثميناً منها، فسهرت أكثر من ليلة حتى وقت متأخر. تعبت وارتفعت حرارتها. عالجت نفسها بالمشروبات الساخنة. زوجها ابتاع مكسرات وفواكه مجففة وصار يطاردها بهذه حتى أنهكها. عندما هددها أن يفك ما تنسجه من الكنزة إذا ظلت تسهر إلى نصف الليل ضحكحت حتى بكت. جوزف أسطفان كان يأتي كي يزورها في الأعياد، هو وزوجته وإحدى بناته. كان ينظر إليها في بيتها الجديد، ونظرة زوجها تلاحقها أينما ذهبت، فيشعر بحزني حلو. وفي القطار العائد إلى بروكلين - كل مرة - يقول لزوجته إنه سعيد من أجل مرتا، طالما تمنى لها هذه الحياة الطيبة.

بانت حياتها تماماً كما قال الرجل: طيبة! غمرها سلامٌ لا نهائي. وبينما تُرسل البضائع بالقطار إلى مدن أميركا وتخطط لفتح متجر يعرض منتوجات المعمل في هنري ستريت (بروكلين) إنانيتها الشعور أن هذا كله يحدث لسبب. لم يكن شعوراً بمقدار ما كان صلاة: كانت تشعر أن الرب يُعِدُّ عليها حبة بلا حساب. في هذه الأثناء بانت ثرية وقادرة على التبرع بمال كافٍ لبناء كنيسة صغيرة. كان زوجها يتحرك في ظلها ولا يضايقه ذلك إطلاقاً. بينما يتكلم عنها أمام آخرين يبدو فخوراً بها كأنها ليست زوجته، كأنها إينة له!

الذين عرفوه قبل الزواج قالوا إن شيئاً فيه قد تغَيَّر. لم يكن ذلك دقيقاً. كانوا يحكمون على مظاهر سطحية، منها أنه كَفَّ عن السفر والجولان والمغامرة. في مطلع 1927، ومرتا حبلى بجميل (آخر العنقود)، جاء كَشَّاش يدعى يوسف الحايك من دير القمر وقال إنه يعرف آل جابر في كفرنبرخ وسأل هل يريد أن يأخذ لهم رسالة. كان عائلاً إلى الوطن بعد سفر دام تسع سنوات. في هذه السنوات الطويلة لم يخلع الشروال ولا الطربوش! كان أغرب كَشَّاش سوري في أميركا! أتى مباشرة بعد «الهدنة» التي فتحت البحار، أتى في وقت الخطر والألغام (نيويورك تايمز نشرت خبراً في مطلع 1919 عن غواصات ألمانية تعمل في المحيط الهندي وتطلق توربيدات على سفن أميركية غير عارفة أن الحرب انتهت! غواصات أخرى اختفت عقدين من الزمن في الدائرة القطبية وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية ظهرت من جديد صدئة وشبه معطلة في بحر الشمال يقودها بحارة إبيضٌ شعرهم وتُكَّت عظامهم في سنوات الاختباء).

يوسف الحايك رجع إلى جبل لبنان بزئار مملوء ذهباً. أقاربه قالوا إنه كان ما زال لابساً الشروال القديم نفسه. في كيس جنطيف حمل مثل ساعي البريد عدداً هائلاً من الرسائل والهدايا (بينها «كروازات» مئة). عن طريقه اكتشف محمد جابر مكان أخيه المنقطعة أخباره في المهجر من قبل نشوب «حرب الأربعين». كان يملك عنوانه البريدي الآن وكتب له رداً على الرسالة. بعد شهر قليلة ودَّع زوجته وطفله (شاهين) وركب البحر كي يزور أخاه: لم يودَّع الأب، بشير جابر. كان خائفاً أن يمنعه! ترك المهمة الصعبة لزوجته (سُتي أم شاهين). قصته مكانها ليس هنا. يكفي أن نقول إنه بلغ أميركا والتقى أخاه وصدُم عندما اكتشف أنه متزوج وعنده عائلة. استمع إلى حكاياته وشرب معه مئة. لكنه لم يتصادق مع مرتا.

حرباً عالمية ثانية كي يخرجوا من بلاد الشام).

من الجندرية انتقل محمد جابر إلى الجيش، فرقة الخيالة. كان مولعاً بالأحصنة. اشترك في حرب 1948 ونال وساماً. في 1950 تقاعد وصار على المعاش. يقض راتبه من ثكنة بيت الدين نهاية كل شهر. يسدّد لصاحب الدكان حسابه (يشترى بالدين أثناء انتظار المعاش). ويحيا حياة معقولة. في تلك الفترة كانت أخبار أخيه انقطعت تماماً. بعد الزيارة اليتيمة إلى أميركا في 1927 - 1928 لم يلتقيا.

اعتنى بحقول أبيه - خصوصاً جلول الزيتون في «عين علي». كانت هذه زيتونات العائلة، يتوارثها الذكور جيلاً بعد جيل. حباتها كبيرة الحجم، رقيقة القشرة، كثيرة الزيت. ما زالت موجودة إلى هذا اليوم. طريقها صعبة (قَدَم) لأنها بعيدة عن «الطريق العام»، وفي بعض الأماكن يفرزها الشوك والقصب والشجر البرّي. لكنها سالكة. بعض الجلول أخضر الحيطان بسبب الحُرْ (الطحلب). المنطقة شديدة الرطوبة، باردة، والمياه التي تنبع من التلة التي تعطي المكان إسمه (عين علي) صافية، تتمتع بطعم صخري فريد، وأثناء فصل الشتاء تتجمد. كان علي الأكبر بين الإثنين لكنه لم يرجع.

ذلك الفراق القديم تكرر في عائلات كثيرة. تقارير القناصل لا تدخل إلى بيوت العقدة في جبل لبنان ولا تحبّرنا الكثير عما حدث فيها. في بيت العقدة، حيث عاش جدي حتى موته، الحيطان سمكية: كل حائط بسمك متر ونصف المتر! هذه الهندسة القديمة لم تعد شائعة. في الحرب الأهلية (1975 - 1990) استُخدمت هذه البيوت ملاجئاً للحماية من قصف المدافع. الحائط إلى يمينك فيه حفرة مستطيلة توضع فيها «عِدّة المِتّة» وتُغطى بستارة بيضاء. على الستارة

## فراق

أثناء غياب محمد جابر في المهجر أملى أبوه الوصية التي تحتل الفصل 2 من هذا الكتاب. لماذا تدهورت صحة بشير جابر في تلك الفترة؟ كان في الحقل في الوادي يسقي الأشجار. اعترضت طريق المجرفة بعض الجذور المشبّكة بالأرض. كان يخبطها بجانب المجرفة، ويستخدم قوة كافية لحفر قناة جديدة للمياه، فانكسرت العصا بين يديه. عند رجوعه إلى «الدار» قال لزوجته إنه: «صدري مكبوس». كان قليل الشكوى، وهي فرشت له. نام الليل ولم ينهض في الصباح.

عند رجوع إبنة (محمد جابر) من المهجر، كان الأب يستقر تحت التراب، عند شجرة الجوز، حيث دفنته «سّتي أم شاهين». زوجها، جدي أبو شاهين، أعلمها أنها أعطأت لأن جذور شجرة الجوز قد تُحرك القبر!

كان يشرب المِتّة (اكتسب العادة سريعاً، لاحقاً انقطعت الرسائل مع الأخ الغائب في أميركا. أما «عادة المِتّة» فتمسكت به ثم بأقاربه وجيرانه)، قاعداً على المصطبة تحت تعريشة العنب، وهو يلاعب إبنة البكر شاهين. بعد وقتٍ قصير التحق بالجندرية؛ سلاح الدرك الجديد (البوليس) الذي أنشأه الفرنسيون في ذلك العهد (الانتداب الفرنسي على لبنان بدأ بانتهاج الحرب الكبرى. لزم الأمر



بوينس أيرس وكان يرهبها الساسة واللصوص معاً - هل يتذكرها أحد الآن؟ ورثت عن أبيها ملحم صعب ثروة صغيرة. يتيمة ووحيدة ومطاردة بالتسمية والحسد استطاعت أن تضاعف ثروتها عشرات المرات. هذه ليست مبالغة: مرّ لها جنرال معلومة ثمينة في الوقت المناسب فاشترت عقارات في أطراف العاصمة. سكة الحديد مُدّت هناك والعقارات صار ترابها ذهباً. الأب كان طموحاً من قبلها: استورد البرغل الشامي (القمح نصف المطبوخ والمجروش بالطاحونة) للسوريين في أميركا الجنوبية. امتلك نزلاً صغيراً أيضاً، يوزي الكشاشين والمهاجرين الواصلين حديثاً من البلاد البعيدة. مات بالسلّ وابنته «الدوقة» (جريدة «السان الحال» البيروتية أوردت في أحد أعداد سنة 1920 أنها حصلت على اللقب من إمبراطور النمسا. ولعل ذلك صحيح) ماتت بالسلّ أيضاً، بعده بعشرين سنة تماماً، وفي البيت نفسه: لم تتخلّ عن بيت أبيها، ولا عن الفرش القديم، حتى بعد أن بلغت من الثراء حدّاً جعلها تمتلك مقطورة خاصة، مبطنة بالخشب والمخمل والذهب، تُربط إلى قاطرة، وتمضي هكذا، ملوكية ومثيرة للأقوال، عبر السهول الأرجنتينية.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^ RAYAHEEN ^

تطريز بالأزرق. هذا «شغل» من؟ لا أعرف. لكن «ستي» كانت تكوّر الخيط والإبرة. الباب الخشب الذي يقودك إلى الغرفة الداخلية، حيث الأسرة الحديد، يقطعك عندما تفتحه، ومسكنه الحديد باردة صيفاً شتاء. في نهاية هذه الغرفة باب آخر: هذا زجاج وحديد (من قبل كان خشباً) ويرتفع عن الأرض نصف متر تقريباً، ومنه تخرج إلى المصطبة (إذا كنت طفلاً عليك أن تكافح كي تتسلق هذه العتبة).

هنا شجرة التين القديمة، بعض فروعها مُطعمٌ منذ 1972 وثمره أسود وليس أبيض. هذه الحبات الحمراء تنمو حتى تصير أكبر من تفاحة، والأحفاد يتصارعون عليها. على جذع الشجرة طُرفت ألواح خشب تتسلق القضاء حتى سطح البيت: الجذع سلم أيضاً. لكنه خطر. عليك أن تحاذر لثلاث تقع وتدق رقبتك على باطن المصطبة (مرات يخفي الباطون تحت الأوراق الكبيرة اليابسة والثمار المتساقطة، لكنه موجود؛ ما عليك إلا استعمال المكسة، وتناكد). كنّا نسميها «المصطبة الوردانية» و«الجريّة». آثار الحائط القديم المتداعي باقية. كان يوجد بيت هنا، بيت آخر، لكنه تحزّب.

الوسام المحفوظ إسمه «ميدالية فلسطين التذكارية» (مرسوم رقم 13294) ومُنح من قبل المقدم خليل ضاهر قائد لفيق المقر العام للرقيب محمد جابر رقم 681 من لفيق المقر العام. بموجب القرار رقم 44 بتاريخ 30 آذار (مارس) 1949. مرفقة بالوسام «شهادة حسن سلوك» من المقدم كسبار نُفيد أن الرقيب محمد بشير جابر الرقم 681 من بلدة كفرنبرخ قضاء الشوف محافظة جبل لبنان «قد قام بتأدية خدماته العسكرية بأمانة وإخلاص وكان حسن السلوك طيلة المدة التي قضاها في الجيش». ماتوا وتبددوا.

الدوقة تفتل - ابنة دير القمر التي سيطرت على حي كامل في

## الحظ

مثل الدوقة نغلا جنت «مرتا الملكة» أرباحاً طائلة من تجارة الأراضي. كان حظها يتسم. بولس عزيز انتقل من تجارة القرو مع الهنود الحمر في منطقة البحيرات الكبرى إلى مهنة السمسة وشراء الأراضي وبيعها. نجاحاته الأولى كانت في الشمال الشرقي، في ماساتشوستس ثم في منطقة شلالات نياجرا على الحدود الكندية. نشر إعلانات في جرايد بوسطن العربية، وفي جرايد نيويورك، ولعب دوراً مهماً في حفظ ثروات سورية - أميركية: عندما حلّ الثلاثة الأسود، في 29 تشرين الأول (أكتوبر) 1929، وانهارت «وول ستريت» وبدأت إفلاسات البنوك، نجا كثير من هؤلاء المهاجرين\* الذين جمعوا ثرواتهم ستناً على سنت. بين الذين نجوا مرتا وزوجها وعائلتها المكونة من أربعة أولاد.

المعمل سيقس، هذا صحيح، وجزء كبير من أموالها سيضيع. لكن، في المقابل، بقيت العقارات: هذه أنقذت العائلة. نصل إلى ذلك بعد قليل، لكن أولاً أريد أن أذكر شيئاً عن عطلة الميلاد 1928.

تلقوا دعوة إلى عرس في نيويورك ولم يلبوا الدعوة: البنت

\* السوري يفضل الأرض على الحساب البنكي.

الصغرى لشریکها السابق جوزف أسطفان تزوجت في ذلك الشتاء، لكن مرتا لم تحضر المناسبة. كان زوجها معتل الصحة، يسعل ليل نهار، ونصحه الطبيب أن يذهب جنوباً أو إلى الساحل الغربي. وهكذا، وبدل الذهاب إلى حفل في بروكلين، ذهبت العائلة كلها إلى «أوتيل ماريلاند» في باسادينا - كاليفورنيا. سافروا لاسبين الصوف والمعاطف وعندما بلغوا باسادينا كانوا يتصبون عرقاً، كأنهم عبروا فصل الشتاء إلى فصل الصيف في لحظة. بذلوا ثيابهم ومشوا على الطريق وتفرجوا على مهرجان الزهور.

كانت الطيور تملأ الأشجار والبيغاوات الملونة تتقافز في الأقفاس والأولاد يتراقصون بالنصف كم وبالبناطيل القصيرة بينما الثلج يندف على نيويورك. هنا، في الطبقة الثانية من «أوتيل ماريلاند»، قررا الانتقال من فيلادلفيا إلى كاليفورنيا. كانت خطة طموحة، صعبة التنفيذ (ماذا يفعلان بالمصنع؟ كيف يتقلان العمل والتجارة عبر البلاد، من شرق أميركا إلى غربها هكذا؟). لكن التحسن الذي طرأ على صحة زوجها تحت شمس كاليفورنيا، أغرى مرتا بالحماة: انكبّت على دفاترها، تجمع وتطرح وتحسب، بينما الصغار يلعبون في الخارج، وزوجها يركب سيارة الهادسون الجديدة (باعوا الفورد بـ 500 دولار واشتروا هذه بثلاثة آلاف) ويطيرون على الطريق الساحلي مسابقاً قطار «سانتا في» وناظرراً إلى حقول الشمندر السكري. كان مصطحب ابنه جاك أحياناً ويتوقفان في إحدى المزارع (بيت ضخم أبيض يتوسط الحقل الشاسع، بسكة حديد خاصة تصل إلى قلب الحقل لنقل حمولة الشمندر؛ إلى هذا الحد كان الملاكون أثرياء في هذه الولاية!). ينزلان من السيارة الطويلة ويمشيان وسط الخضرة. المياه تجري في السهل والأب يشير إلى النبات ويتكلم.

## الحظ (2)

لكنها أمطرت تلك الليلة. الرعود أبقتهما بعد نصف الليل. جلست مرتا في الفراش وأضامت المصباح على الكومودينة فقرأت زوجها واقفاً إلى النافذة يتأمل البرق يسقط فوق سلسلة التلال. كانت السماء حالكة السواد والبرق مثل الشجر الأزرق المتفرع. امتلا الوادي كله بالضوء وبانت فناطر «جسر كولورادو» مثل وحشٍ خرافي غارق في النوم لا توقظه عاصفة. دوى الرعد مرة أخرى وزعق الطفل خارجاً من النوم. حملته وهددته حتى نام. في هذه الأثناء طلب زوجها خدمة الفندق على التلفون فصعد إليه فنى أسود يحمل إبريق المياه الساخنة. جلب شايًا أيضاً وسكراً. ضحكت مرتا وهي تراه يتلعثم ويخرج غير عارف لماذا طلب الرجل المياه الساخنة وحدها، بلا شاي ولا حليب ولا قهوة ولا كاكاو. تساقط المطر غزيراً على زجاج النافذة وهي تنظر إليه يلبس الكلكسات في قدميه لثلا يبرد ثم يُخرج الفرعة من حقيبته ويملاها مقه. كانت الساعة تقارب الثانية فجراً. عانقه وتامت مستتدة إليه.

ذعب عنه السعال أثناء تلك العطلة. بينما يقني ترانيم الميلاد مع الأولاد في بهو الفندق المزين بالأضواء والأشجار، استرد صحته. عند رجوع العائلة إلى فيلادلفيا وجدوا الثلوج تغطي المدينة. كان هذا حسناً أيضاً ولم تتراجع صحته. بدا أنها سحابة عابرة، ولعلها كانت كذلك.

جاك يقفز سعيداً والطيور تعبر السماء والهواء يهز الورق. في إحدى رحلاتهما دخلا لوس أنجلوس وجلبا علبة بوظة كبيرة (نصف غالون) وأكلاها معاً في السيارة، على طريق العودة إلى «أوتيل ماريلاند». كانت بوظة باللبن، نكهتها كرز وحامض، وبينما يلتهمانها قبل أن تذوب، أخبر إينه عن زمنٍ قديم في بلاد بعيدة. هكذا أتخيل حياته. ولكن من يعرف كيف عاش حقاً؟

مرتا غتت للطفل كي ينام وهي تنظر إلى مارغريت وجيني تتعانان على السرير وتلهوان بالدمى المحشوة صوفاً. كانت تخبرهما قصصاً من كتاب مملوء رسوماً. لكنهما هربتا إلى الدمي وبعثرتا الثياب الصغيرة على السرير والسجادة. جاك يحفظ القصص في هذا الكتاب عن ظهر قلب. مرتا أيضاً حفظتها: بينما إنها يكبر تعلمت معه في كتبه. بعد سنوات، بينما القاضي يوجه إليها أسئلة من التاريخ الأميركي قبل أن يعطيها الجنسية الأميركية، كادت أن تضحك: هذه دروس إنبا جاك!

كان المساء يأتي على مهل والتوافد تتم في الفندق والمصاييح تضاء حول البركة. الفناء الإيطالية التي تساعدها (لورا) تحركت على رؤوس أصابعها وهي تدور حول السرير وتحمل مارغريت ثم جيني إلى الغرفة المجاورة. جميل فتح عينيه الواسعتين في سريه الأبيض الصغير ونظر إلى أمه. انحنت ورفعتة وحملته إلى النافذة. أبعدت الستارة ونظرت إلى نزلاء الفندق بشبابهم الخفيفة، يتحلقون حول البركة المستطيلة ويشربون المرطبات. كان هذا كله مسحوراً! والسماء تظلم، والليل يهبط، والمصاييح تهتز، وكذلك الظلال. سمعت ضجة جاك في الرواق قبل أن يفتح الباب. كان عالي الضحكة. شعرت بالسرور. على فراعها غلد الطفل إلى النوم من جديد.

مصروف تعلن إفلاسها ومودعون - خسروا مدخراتهم - يقفون في صفوف طويلة عشية. ماذا ينتظرون؟ بعضهم أحرق براميل الزبالة.

الرئيس Hoover تكلم في الراديو وبشّر المواطنين أن الأزمة لن تطول. لم يكن يعلم - وكيف يعلم - أن الكساد بدأ للتو وأن الإنهيار الاقتصادي طويل. دام الكساد حتى كبير جاك ودخل الجامعة. لم تتحرك عجلة الاقتصاد الأمريكي - والعالمي - مجدداً إلا مع بدء الاستعدادات للحرب العالمية الثانية! سباق التسلح ملا المصانع عمالاً من جديد!

لكن قبل ذلك، قبل أن يكبر جاك ويدخل الجامعة، غادرت العائلة فيلادلفيا. تعطل المصنع من دون رواتب للعاملات والعاملين. وتراجعت مبيعات المتجر عندما توقف الطلب. اخضت السيولة وعمّ الخوف. في الشوارع انتشر المتشردون والعاطلون عن العمل. بين ليلة وضحاها ظهرت مجمعات سكنية مبنية من الكرتون والصناديق! الجمعيات الخيرية فتحت مطابخ تُوزع حساء الدجاج. بدأ الجوع.

مرتا بكت وهي توهب الثياب في الحقائق. ثم كفكتف دموعها وشكرت ربّها لأنها - قبل وقوع الكارثة - اشترت العقار في باسادينا. اعتبرت نفسها محظوظة.

لم يتمكنوا من الانتقال إلى باسادينا في تلك الفترة. وأخذت وتيرة العمل تفرّض نفسها من جديد. غرقا في الشغل، بين المصنع والمتجر، وعندما وصلت رسالة أخرى من إبن خال مرتا (من بتاتر) تسألها هل يوجد عمل في أميركا اشترت له تذكرة أخرى - للمرة التي لا تعرف رقمها - وأرسلت في طلبه. كانت بحاجة إلى شخص يساعد، ويكون من العائلة. وفي هذه المرة أيضاً لم بات. لكنه بعث رسالة وقال إن خاله «تعبان» وهذا ما يمنعه الآن من السفر. قرأت الرسالة وفكرت أن بتاتر صارت بعيدة، وخاله أيضاً! كان هذا غريباً بالنسبة إليها، لكنه حقيقي. كان العائلة من حولها - زوجها وأولادها - أبعدتها عن بتاتر (والماضي) أكثر مما أبعدها المحيط.

في ربيع 1929 اشترت عبر وسيطها (بولس عزيز) أرضاً في باسادينا، مزروعة برتقالاً. دفعت عمولة لبولس ولشخصين ثانٍ أيضاً ولم يزعجها ذلك. كانت ربحت قبل أسابيع فقط ثلاثة أضعاف المبلغ الذي دفعته مقابل قطعة أرض في لارامي - ويومنغ - أغرب ما في الأمر أنها اشترت المقار على الخريطة وبعته على الخريطة من دون أن تدب وترى الأرض في الولاية البعيدة!

الأزمة المالية التي بدأت بالإنهيار المفاجيء في «وول ستريت» سهّلت عليها الانتقال إلى باسادينا. كانت ضربة تقصم الظهر: بين ليلة وضحاها أفلس المصرف وفقدت مدخراتها. ثروة كاملة تلاشت هكذا، من دون أن تشتري أو تبيع. وقتت مع المودعين في الصوف الطويلة، وزوجها جنبها. البيوليس وقفوا في باب المصرف المقل. كان ذلك بلا ضرورة. لم يرم أحد حجارة على المصرف. الناس داروا دائخين حول الأبواب المقلّة ثم تبعثروا تحت المطر الحزين. في جميع مدن أميركا تكرّر مشهد واحد في شتاء 1929 - 1930.

طويل ظهر المتشردون في شوارع باسادينا. مرثا كانت عائدة من السوق ورأت رجلاً يذفع عربة أمامه وفي العربة ثلاثة أولاد: كانوا أكياس مملوءة عظماً وعيونهم غائرة في المحاجر.

سمعت عن مناطق تُتلف فيها محاصيل البطاطا والذرة والحبوب لأن أحداً لا يأتي ويشتريها. كان هذا مرعباً: أن تقرأ عن ناس يتضورون جوعاً بينما أصحاب الحقول يتلفون مزرعاتهم! لم نفهم ماذا يحدث. أغرقت نفسها في دروس الأولاد. مدارس باسادينا تعطلت في تلك الفترة - كانت مديونة للمصارف! - ومرثا أخذت على عاتقها تعليم الأولاد الحساب والتاريخ والجغرافيا والإنكليزية والعلوم. كان ذلك صعباً لكنه أفادها. من دون ذلك هل كانت تنجو؟ ساعدتها أيضاً أشغال المزرعة. وهي ترشّ ذرة للدجاج وتُعلّم جاك كيف يسيط يده فلا تقع الحبوب في نقطة واحدة بل تنتشر على مساحة واسعة وتصل إلى الدجاجات جميعاً، تذكّرت شخصاً كان هي قبل زمن بعيد. تذكّرت مرثا القديمة لكنها لم تتسلم لها. كانت أخرى الآن، ووجدت في هذه المعرفة قوّة.

عندما أثقلت الثمار الأشجار استأجراً عمالاً من الجوار وآخرين قدموا من أماكن بعيدة. أميركا كلّها كانت على الطرقات في تلك الحقبة: أرتال من البشر تسعى غرباً، إلى حيث المزارع والحقول. يعملون بسنات قليلة، وأحياناً من دون مقابل، ويكتفون بإحسان الملاكين: بعض البطاطا أو الفواكه لسد الرمق وإبعاد الجوع.

مارغريت كانت تبكي عندما ترى الأولاد يتصارعون على برتقالة وقعت من صندوق وتدرجت على الطريق. أبوها حملها وأدخلها إلى البيت وأعطاهم صتاورة أمها. هكذا بدأت تخيط.

## مزرعة في باسادينا

كان بيتاً خشبياً مربعاً يتوسط بساتين البرتقال. انتقلت العائلة نهائياً إلى هنا أثناء ربيع 1931. رويداً رويداً تراجع «كامدن ستريت» في ذاكرة الأولاد حتى امتزج بالرسوم الملونة في «كتاب القصص الخيالية». لم يكن جاك بلغ العاشرة بعد. وجميل إبن الأعوام الأربعة كان ما زال يحيا على أكواب الحليب. خافوا عليه من فقر الدم. وتباروا على إطعامه اللحم، بلا جدوى. كان يلوك القطعة المخفية تحت طبقة الزيتون ثم يصفقها. مارغريت وحدها كانت تفلح في دفعه إلى أكل البيض المخفوق: تطعمه البيض لقمة لقمة وهي ترقص حوله وتغني وتلاعبه. تحت أشجار البرتقال كبرت بسرعة، كان شمس كاليفورنيا ناسبتها أكثر. جيني في المقابل استولت عليها الحساسية: قضت الربيع تعطس. احمرت عيناها وظهر فطخ جلدي على ذراعها. في الربيع التالي تكرر الأمر. ثم اعتادت ذلك ولم تعد تهتم. الأب أيضاً تأقلم مع المكان الجديد. ولعله عاش عندئذٍ أجمل أيام حياته.

بنى فتناً كبيراً للدجاج، وعلى مسافة من البيت أقام حظيرة للبقر. كانت مرثا تحسب المشتريات على الدفتر وتنظر إليه. يُبادلها النظرة فتشعر أنها بخير. الجرايد امتلات بأخبار قطيعة. في ضواحي المدن الكبرى عائلات كاملة صارت على الطريق. بعد وقتٍ غير

## مزرعة في باسايينا (2)

في الأربعين من عمرها - في نصف رحلة حياتها - ترملت مرتا للمرة الثانية. إذا كان إيمانها أنقذها في المرة الأولى فإنه لم ينفع في هذه المرة: كان زوجها على حافة الموت وكانت تعلم ولا تصدق. أستطيع رؤيتها في الكنيسة، أي كنيسة، تبكي وتتضرع للرب ألا يأخذ زوجها منها. أستطيع أن أراها منهاراً، عظام وجهها ظاهرة، تستند إلى الفاصل الخشب، وتنظر إلى الرب يسوع المسيح مرفوعاً على الصليب لا ينظر إليها. بعد الدفن لم تدخل الكنيسة طوال سنوات. المحبس لن تنزعه أبداً. عندما لفظت الروح، في خريف 1974، كانت لا تزال تلبس محبسها. كيف بقيت حيّة أربعين سنة إضافية؟ أعلم أن جمالها ذوى - انطفأ؟ - بعد ذلك الشتاء. من دون أن تبكي تغير لون بشرتها: صارت صفراء كامدة. تشتت العظام ونأت سلسلة ظهرها. صارت ناشفة، متخشبة، ولولا حاجة الأولاد إلى صوتها كانت خرست أيضاً وكفت عن التنفس. لم ينقذها الإيمان هذه المرة. خرج الإيمان من صدرها بينما زوجها ينطفئ بين ذراعيها. كان يشهق طالباً الهواء، والورم في حنجرتيه وزلعمومه يمنع الأوكسجين من التسرب إلى رتيبه. هل مات مختنقاً؟ لا أعرف كيف مات بالضبط، لكنني أعرف أنها حفسته وهو يموت. كانت وحدها، في مكان يقع خارج العالم، وفقدت الرجل الذي أحبته بعد أن

وسرعان ما برعت في التطريز. كانت تشبه أمها في بعض طباعها. جيني لم تكن تشبه أحداً في العائلة: كأنها وُلدت هنا خطأ! كانت سريعة الغضب، كثيرة الصياح، تنقائل مع ظلّها. في المرة الأولى التي رأت الحبوب الحمراء على ذراعها ظلت تحكها بأظفارها حتى أدمت اللحم. كرهت الجلوس إلى الكتب والدفاتر، تحت نظرة أمها الصارمة، ومرة تلو أخرى جريت التهرب من الفروض. كانت بين أختوتها الأشد نهماً إلى الطعام. وزاد من إظهار نهماها قصر قامتها (مارغريت كانت طويلة، مثل أمها). جيني (إلى حد) كانت غير محفوظة. في يوم شديد الحرارة أثناء تموز (يوليو) 1933، أخفت نفسها عن العيون عند حافة البساتين، لثلاث تجرير على الاستحمام. كانت تهوى الاستحمام لكنها في ذلك النهار بالذات قررت أنها لن تتحمم! بينما تخفي نفسها هكذا وراء الأشجار داست على قطعة طرية، تشبه غصناً يابساً. عندما تحركت القطعة (كانت حيّة) زعقت وركضت إلى البيت. وسخت نفسها وظلّت تبكي ولم تعد تخرج إلى البستان. لاحقاً تغلبت على هذا الخوف الطفولي. دعمتها أمها عاطفياً، وهذه العاطفة شفتها. كانت مرتا صارمة، لكن هذا لم ينفع من قسوة فيها، بل العكس. أولادها أدركوا ذلك بمرور السنين. كانت الأم والأب في آن معاً؛ ويات هذا دقيقاً - على نحو حرفي - بعد شتاء 1934.

هذا ما حدث: فجأة لم يعد الأب يتحمل التبغ. قبل أن يُشعل السجارة التي لفتها يبدأ شيق النفس. منذ سنوات لم يضايقه سعال. فجأة باغته الألم في الصدر والحنجرة. لم يبصق دماً. لم ترتفع حرارته. لكنه غدا عاجزاً عن شرب المتة. ما كان مرضه؟ لا أعرف. في الأربعين من عمرها ترملت مرتا للمرة الثانية.

وعدت نفسها ألا تحبّ ثانية. فقدت الثاني كما فقدت الأول. وفي هذه المرة كانت عاجزة حتى عن الموت! كانت تحمل وزر أربعة أولاد.

أولادها أجبروها أن تبقى حيّة. لكن خروج الإيمان من صدرها أطفأ ناراً: لم تعد هي. العالم من حولها صار عالماً آخر. فجأة، بين ليلة وضحاها، صار الكون مجهولاً، مرعباً، مملوماً بالأخطار المحدقة. ولا أحد يريد أن يساعدها. وحتى لو جاء أحد كي يساعدها فكيف ترضى بذلك؟ كانت وحدها، وتحت جناحها أربعة بلا حول ولا قوة، بينما العالم كلّه ينحدر إلى الهاوية. لا أدري كيف تحملت كل ذلك.

بولس عزيز نقل النعي إلى المعارف. وجوزف أسطفان جاء من آخر أميركا كي يُعزّيها. وقف أمام الأرملة التي شاخت عشر سنوات في ليلة واحدة ولم يتمكن من بلع ريقه. تجمد كالتمثال مرعوباً محطم الروح. عندما رفعت يدها كي تصافحه أدرك أنه لا يعرفها! لم تكن هي! كانت غيرها! جلس معها إلى طاولة المطبخ وشرب القهوة الباردة. كان يسمع بكاء في غرفة أخرى ورأى ولداً يطلّ بين أشجار سوداء ثم يخنفي. أراد أن يقول شيئاً لكنه لم يجد كلمة. جاء وذهب كالأخرس. لعله لم ينطق حرفاً. بعد فترة جاء مرة ثانية وفي هذه المرة جلب معه زوجته وإحدى بناته. في المرة الثالثة أتى ابنه بصحبه وكذلك زوجة الإبن: كانت تحمل طفلاً بين ذراعيها، يشبهها ولا يشبه زوجها. بعد ذلك رجع جوزف أسطفان في زيارة رابعة، وفي هذه المرة أخبرته أنها تنوي شراء متجر في باسادينا لأن هذا هو الشغل الذي تعرفه. وصل الصوت إليه أتياً من مجرة أخرى. وافقها الرأي وهو يبحث في عينها عن أثر من شعاع قديم. وخبّيل إليه أنه

يرى شيئاً. في اللحظة التالية أظلمت نظرتها وغاب عنه كل أمل.

كانت الفصول دارت دورة كاملة والشتاء يحلّ مرة أخرى. في القطارات التي استقلها عائداً إلى الساحل الشرقي (East Coast) شعر جوزف أسطفان أنه هو أيضاً شاخ عشر سنوات دفعة واحدة. في هذه الزيارات الأربع المتتالية إلى المزرعة المنكوبة في باسادينا فقد قطعة من روحه. عندما ظهرت نيويورك أخيراً، ملثثة بعاصفة ثلجية بيضاء، رفع يده ووضعها على قلبه. عندئذٍ فقط أيقن الرجل السنيني إلى أي حد أحبّ المرأة التي تُدعى مرثا.

القيمة. الناس عضهم ناب الجوع. والذين اشتروا ثياباً من قبل ظلوا يلبسون الثياب القديمة. أخرجوا الإبرة والخيط ورفعوا الثقوب. الكشاشون الذين تحولوا أصحاب دكاكين عجزوا عن البقاء فوق سطح الماء: غرقوا بينما أصحاب مخازن الجُملة الكبار يطلبون تسديد الديون. مع هذا، وفي نكبتهم، وجدوا الوقت كي يخطوا لامرئنا الملكة رسائل تعزية.

بعضهم تأخر الخير قبل أن يبلغه. وبعضهم بلغه الخبر باكراً وكتب باكراً لكن الرسالة تأخرت في الوصول. أغرب من الرسائل التي ملأت صندوقاً، كانت التلغرافات. يرث الهاتف في الليل أو الصباح أو الظهر وترفع السماعة وتسمع «ألو» ثم الصمت. ثم «ألو» مرة أخرى، أعلى وأقوى وأعمق. وبعد ذلك يلفظ الصوت إسمها، بالعربية أو بالإنكليزية، بحسب المتصل. مرات تتداخل اللغتان، ويقول المتصل من هو، أو من هي، وتذكره أو لا تذكر. . . بعضهم لم يخطر في بالها منذ سنين! يسألها عن حالها - بعد التعزية الأولى - ويسأل عن الأولاد. . . لكنه بعد ذلك يتكلم عن نفسه! أحدهم تلقن وقال «أنا جورج منزرا» ثم أجهش بالبكاء. لم تعرف ماذا حدث له، لا تذكر هذا الإسم، والخط انقطع، أو أنه عجز عن الكلام وأقبل الخط. هذا الإتصال تلقت بعد منتصف الليل. أيقظها من نومها، الخفيف أصلاً. بعد أن ردت السماعة إلى مكانها شربت ماء ووقفت إلى النافذة تنظر إلى نجوم آب (أغسطس) تسطع في السماء. كانت باردة مثل قطعة حطب، وعندما رفعت يدها كي تطرد حشرة طئانة سمعت منفصلاً يطرق. هل كانت على قيد الحياة؟

حين زارها جوزف أسطفان في تلك المرة الثالثة ومعه إينه وعائلة الإبن الذي حارب في سيبيريا وعاد وتحول أستاذاً، أرادت أن

### مزرعة في باسادينا (3)

أثناء السنة الثانية تباعدت زيارات التعزية والتلفونات. لكن الرسائل استمرت في الوصول. كانت تحمل طوابع أميركية وغير أميركية. وصلت رسائل من ولايات لم تكن تعرف إسمها. ورسائل من أقصى كندا. ورسائل من المكسيك والأرجنتين. كشاشون بالكاد تحفظ أسماءهم - لكننا إذا بحث في دفاتر قديمة تجدنا - انتهت بهم الرحلة في البرازيل وفنزويلا والبيرو، كتبوا لها. بعضهم بان وجهه أمامها وتذكرته. استغربت أن رسائل كثيرة احتوت أسماء الأولاد. كانوا يسألون عن أولادها بأسمائهم (جاك وجميل ومرغريت وجيني) وأحدهم لم يحفظ غير إسم واحد فكتبت: «جميل وأخوته». كانت رسائل تعزية ولم تعرف من يعزي من. معظمهم نكب في تجارته خلال السنوات الأخيرة. كشاشون أذعروا القروش على مر السنوات الطويلة وعندما بلغ عصر الكثرة نهائيه فتحوا المتاجر وكبروا تدريجياً. ثم حلت الكارثة: لثلا يعلنوا الإفلاس - عليهم ديون كثيرة ولا أحد يدخل المتجر ويشترى الآن - وتلحقهم الوصمة السوداء ما تبقى من الحياة نقلوا الأقمشة والثياب الباقية على الرفوف إلى بيوتهم. تخلوا عن المتجر وصاروا يحملون البضاعة على ظهورهم من جديد ويسعون بين البيوت وعلى الطريق. عصر الكثرة عاد في فترة الكساد (Great Depression)، لكنه عاد باهتاً، بخيلاً، وعديم



تتركهم وتخرج وتعبّر البستان وتمشي إلى الجسر الذي سمّوه بعد 1929 «جسر المتحيرين». الناس المتكويون في أرزاقهم يأتون إلى هنا ويقفزون إلى الفضاء. تنكسر عظامهم في قعر الوادي ويأتي رجال من قسم الشرطة ويأتي أيضاً طبيب. مع أنهم ماتوا يأتي طبيب! كانت تذهب إلى السوق في وسط المدينة ولا تجد ما تطلبه. بضائع كثيرة اختفت. لعلها الظلمة في عينيها.

كان الصغير ينهكها. أكله قليل وطوال الوقت يركض ويركب على الدجاجات ويتسلق الأشجار والحيطان ويغيب عن نظرها. أخوه كبير في تلك الفترة وهو يطارده ويحاول أن ينتبه له، لكن الصغير لا يكل، مع أنه لا يأكل شيئاً من أين يجلب هذه الطاقة إذا؟

احتارت في أمره. كانت تسلق له «بيض الغنم» الغني بالحديد وتهرسه مع أعشاب وزيت وتطعمه غصباً عنه. عندما يبصق طعامه تخشى أن تضربه. كانت يدها ترتجف وهي تلتقط الملعقة. إذا ضربته قد تكسره نصفين. لم تضربه. أخوته تولوا أمره، جاك ومرغريت وجيني. كانوا يضمنون الألعاب الطويلة التي تنتهي بالملعقة الداخلة إلى فمه. وتحسن أكله تدريجياً.

باعث آخر عقار في فيلادلفيا وسدّت ما تبقى من دهنها. ثم استأجرت المتجر الذي عثرت عليه في باسادينا، في «أرويو ستريت»، غير بعيد من الفندق الكبير\*. كان هذا في صيف 1936. جاك ساعدها على تركيب الرقوف. ومرغريت كانت تقف وراء المنضدة، إينة 12 ربيعاً، جميلة كزهرة في ثوبها الأصفر، عندما باعت مرثا القطعة الأولى: بنطلون رجالي بـ 83 سنتاً.

- 116 -

## المتجر - أرويو ستريت

تحبّرت. على الأقل من الخارج، لعيون الغرباء، بدت خشنة وصلبة، متماسكة كالجص في ثوبها الأسود. أوكلت المزرعة إلى رجل مكسيكي الأصل نازح من أوديسا - تكساس، يُدعى خواكيم، زوجته أمريكية إسبانية الأصل تُدعى كاستيلا، عندها أخوة في هويس - نيومكسيكو وجلبتهم للعمل في المزرعة واحداً بعد واحد. كانت تطبخ أيضاً، والأولاد الأربعة أحبوا طعامها. هذه العائلة - خواكيم وزوجته وأخوة الزوجة - أعطت للمزرعة حياة جديدة.

في هذه الأثناء تفوّق جاك في المدرسة: عندما أنهى دراسته في 1938 وجد باب جامعة كاليفورنيا مشرعاً أمامه. احتار بين الفيزياء والهندسة الميكانيكية، وكذلك بين جامعتين. ثم حسم أمره: لن يذهب إلى ساليانس - كاليفورنيا لأنه لا يريد أن يترك أمه.

صرف التفكير عن Stanford والتحق بـ Caltech\* في باسادينا. كان خياراً ذكياً ولن يندم. بينما يسجل إسمه في الصفوف الأولى إجتاح هتلر بولندا. عند رجوعه إلى البيت من اليوم الجامعي الأول سمع الراديو عالي الصوت. كان يدنو من الثامنة عشرة، ومتذكراً حكايات سمعها، إتناه الخوف. على عكس جميل - الأصفر والأكثر

مياً إلى المغامرة - كان لا يطيق الحوادث التي تُعكر المسيرة الطبيعية للحياء. موت أبيه أورثه خوفاً أليماً من المستقبل وتقلباته. التصق بأمه كي يحميها. ومن دون أن ينتبه كان أولاً يحمي نفسه. جميل لم يكن هكذا: وجد العالم طبعاً بين يديه. منذ طفولته لم يهب الخطر. عندما رأى ثعلباً يخرج من بين الأشجار عند الغسق ويسطو على قن الدجاج قرر أن يقبض عليه. طوال أيام انتظره في النقطة ذاتها مسلحاً بالحجارة. لم ينل من ذلك الثعلب لكنه أنقذ قن الدجاج. الحيوان الصغير شعر بوجوده وابتعد عن المزرعة. بعد فترة علّمه حواكيم كيف يصيد الثعالب بأفخاخ الحديد.

في «أرويو ستريت» ينادونها «مرتنا». صار هذا إسمها الوحيد في ياساديننا. لا كشاشات هنا. ولا أحد يكلمها بالعريية. كانت تبلغ المساء منهكة من الوقوف. العروق الزرق بانت في ساقها. في بعض الصباحات تأتي معها مرغريت وتساعد على مسح الأرض والزجاج قبل أن تمضي إلى المدرسة.

لم تكن بحاجة إلى مساعدة. لكنها تصادقت مع إبتنها. كانت إحداهما تحبّ صحبة الأخرى. جيني لم تكن في هذه الدائرة، غير أنها في أكثر من ليلة سعت إلى فراش أمها باكية ونامت جنبها، تحت اللحاف. يكون جسمها بارداً كالثلج، والدموع الحارة تسلق وجنتيها. تنسج بين ذراعي أمها ثم تنام. تقول إنها مشتاقة إلى أبيها. الأم أخبرتها أنها هي أيضاً فقدت أباهما وهي صغيرة. وفقدت أمها أيضاً. أضاءت مصباحاً وأخرجت من الخزانة صندوقاً خشبياً بقفل نحاس وفتحته. كانت تحفظ فيه تذكارات قديمة. أزاحت قطعاً معدنية وأخرجت مسحة ورثتها عن أمها. أفلت الصندوق ورذته إلى الخزانة. جالسة في الفراش تُسّج بالمسحة القديمة - ثم تناولها إلى

إبتنها التي مدّت يدها - أخبرتها أشياء لم تعرف أين كانت تخفيها. حكّت عن أمها وحكّت عن أبيها. بينما تحكي شعرت أنها ليست هي. كان شعوراً غامضاً: بدا لها أنها غريبة عن نفسها. بدا لها أنها كانت تسير على الطريق ثم قفزت فجأة وعبرت مسافة غير مفهومة وبدأت تسير على طريق أخرى ليست طريقها! ولم تنتبه! وما زالت على الطريق الغريبة! لكن أين هي طريقها؟ كانت متعبة، والنوم القليل يضاعف تعبها. في الصباح، بينما تغتسل وتشم رائحة البيض المقلي وخبز الذرة، حاولت أن تتذكر شيئاً نسيته بينما تحكي عن أمها وأبيها. بعد ذلك، خلال النهار الطويل في المتجر في «أرويو ستريت»، زاولها مرة أخرى ذلك الشعور: أنها تسير على طريق خطأ! ثم امتلأ المتجر بزبائن آتئين من الفندق المجاور ونسيت أفكارها.

الرئيس روزفلت تكلم في الراديو. كانت في المطعم الذي يواجه المتجر تشتري همبرغر بعشرة سنتات وتأكلها واقفة. سمعته يقول إن أميركا ستبقى على حياد في هذه الحرب وأن لا مصلحة لها فيها. كان صوته هادئاً، ومع ذلك تغيّر مذاق السندويشة. لم تكملها. لفّتها بالورقة وأخذتها معها إلى المتجر. بعد أيام كانت تسلم بضاعة من محطة السكك. رأت حادثة مرعبة. امرأة بيضاء طويلة القامة تليس معطفاً أسود وعلى رأسها برنيطة فرو رمت نفسها تحت عجلات القطار. قطعها الوحش الحديدي نصفين ومزق ثيابها. هي استندت إلى الحائط وأوشكت أن تقع على الأرض. اقترب رجل وأعانها على الوقوف بينما الصباح يرتفع في المحطة. ركضت امرأة عجوز تحمل شالاً وغطت قسماً من الجسم المقطع. كانت تشهق وتعجز عن التنفس.

بارداً، وحتى العشب الأخضر تبدل لونه إلى الأسود.

اقتحم الظلام عينها وأشجار السيكويا العملاقة اقتربت وأحاطت بها. شعرت يديها تقوصان في التراب وتشبكان بالجلود الحية. مدت يداً وانتزعت نبتة تسلفت الشاهد. كانت لولية الساق، فيها زهور صفر تشبه ما بنيت على برميل خشب متروك في العراء. انتزعتها من دون حاجة إلى عنف، ثم ألقتها جانباً. هذه الحركة العفوية رُدَّتْها - بعد تغرّب دام خمس سنوات - إلى نفسها.

مدّت يدها مرة أخرى وعلمت الشاهد الحجري من نبتة أخرى... بينما تُنظف حول القبر هكذا شعرت أنها تسترد مادة فقدتها. كان هذا بالضبط إحساسها: أن مادة مفقودة منها قد عادت لتتو إليها. مثل جميع الأحاسيس الطاغية دام هذا لحظة ثم تبدل. كانت حالة من الوجد الصوفي غير القابل للشرح بالكلمات. لكن الذكرى لم تختف. حتى وهي تعود إلى البيت عند المساء، ومشهد المرأة المخيف يرجع إليها، لم تختف الذكرى. عجالات القطار رفعتها ورمتها إلى أمام مقطوعة إلى نصفين، ممزقة المعطف والثوب... كانت جزمتها حمراء، لم تتسّ ذلك! لكن الشعور الآخر استولى عليها: كانت تُنظف الشاهد من النبات اللولبي الأصفر الزهور، فتراجعت أشجار السيكويا الباردة إلى الخلف وتسرت حرارة إلى الجو وشعرت بالملائكة.

كانت لحظة وجيزة. لكنها في تلك اللحظة شعرت بالربّ. لم تكن وحدها. تلك الليلة، وهي تلبس ثياب النوم وتمشط شعرها، سمعت غناء وراء الأشجار، في أطراف البستان، حيث السقيفة الخشب. ميّزت صوت خواكيم بين الأصوات لكن الضجة سرعان ما تلاشت. كان الليل يتقدم وانطقاً وهج النار. شعت نجوم السماء

- 117 -

## المتجر - أرويو ستريت (2)

شهقت وحاولت أن تأخذ نفساً. خرجت من المحطة ويدها على الحائط. كانت دوامة الصباحات تتردد كالصدى في رأسها. مشت على الطريق الطويل إلى المتجر وبينما تمشي أخاضعت دربها. كان هذا مستحيلاً لكنه حدث. أخذتها خطواتها إلى المقبرة.

لم تعرف أين هي ذاهبة إلا بعد أن غمرتها الظلال الباردة لأشجار السيكويا العملاقة. عبرت المنطقة المظلمة ودقعت الباب الحديد المطرق ودخلت من السور الحديد. كانت الأشجار الضخمة وراء ظهرها الآن، وبعد خطوات قليلة مترددة - جسماً من خشب - وجدت نفسها أمام قبر زوجها. جلست على الأرض ونظرت إلى العشب الأخضر.

أحسّت بالنار تحرق وجهها. استخدمت المندبل فتبلّل في لحظة. لم تكن تعرف أنها تبيكي. رفعت وجهها ورات الأوراق ترتعش والأغصان تخفق والسماء تدنو. كانت سماء غريبة، غير مفهومة. انخفضت ثم ارتفعت ثم سالت، كانت بخاراً وغيوماً ورأتها تخفق وتراكم وتعبير بين الأغصان والأوراق وتبتعد. سمعت صياح الطيور وشعرت بظلمة تباغتها. لم تخف من الظلمة المبكرة لكنها شعرت بالضياح: كانت رمشة عين لكنها بدت دهريّة، طويلة إلى ما لا نهاية. غمرتها ظلمة الغيوم والأغصان، صار التراب أسود رطباً

### المتجر - أرويو ستريت (3)

كانت تتحسن؟ تُشفى؟ اضطرت دورتها بإضطراب نفسها وباغتتها هبات حرارة وبرودة. كانت سائرة على حبل رفيع، تتأرجح وتحاول عيماً أن تثبت في مكانها، غير عالمة أن هذا مستحيل! عليها أن تتقدم، وإلا تسقط! لكن أين تعثر على القوة كي تتحرك إلى أمام؟

في خريف 1940 اشترت المتجر. كان إيجاره الشهري 120 دولاراً واشترته بثمانية آلاف. أخذت من «مصرف باسادينا» قرضاً مدته عشر سنوات وفتحت «ورشة» في المزرعة؛ تدريجياً ظهر «البيت الكبير». المقاول أعلمها أنه جاهز للتسليم في خمسة شهور ووقع العقد. بينما تنفحص الخريطة وجاك يدور حول الطاولة وقلم الرصاص ثابت وراء أذنه شعرت بدوخة خفيفة: كانت سعيدة ولم تستوعب من أين يأتي هذا الشعور!

المقاول سألها هل وُلدت في نيويورك؟ كانا يتكلمان عن «الساحل الشرقي» ولسبب ما ظن أنها مولودة في نيويورك. أخبرته أنها جاءت إلى أميركا قبل سنة من إندلاع الحرب العالمية الأولى. رفع عينيه إلى السقف كأنه يعد أرقاماً مكتوبة «فوق» ثم لفظ الجواب الذي توصل إليه: «27 سنة». كان ذلك طفولياً ومضحكاً، ومرة أخرى شعرت بالفرح. لكنها بعد رجوعها إلى المتجر تعبت: هل تذكرت عندئذٍ أياماً قديمة في فيلادلفيا، عندما كانت تصعد وتهبط

وساد الصمت العالم. لم تفكر في الحرب وراء المحيط. ولم تتخيل شيئاً. للمرة الأولى منذ زمن بعيد استلقت ونامت على القور. كان نومها عميقاً، وطوال الليل لم تستيقظ مرة واحدة. في الصباح شعرت أنها ملأنة. كأنها لم تنم وحدها في النخت! كأنها قضت ساعات الليل محضونة! ركبت السيارة وأوصلها جاك إلى المتجر قبل أن يكمل طريقه إلى الجامعة. في السيارة كان يسألها عن أشياء مختلفة، لعله كان يتكلم وحسب، لكنها ظلت شاردة. هذا نادر الحدوث. لكنه حدث.

وجدت نفسها وحيدة في المتجر، ترتب الواجبة بلا حاجة، وتشعر بالآلام متنقلة في جسمها: كأن القطار البخاري صدمها هي أيضاً! وضعت الإبريق على سخان الكهرباء وأعدت كوباً من الشاي. بينما تُحرك السكر بالمعلقة صارت تبكي. لم تفهم لماذا تبكي. كانت وحدثها أعمق من أي وقت مضى، وهابية حزنها بلا قرار. خدعها ذلك الشعور أمس، تحت أشجار السيكونيا، وظلّت أسيرة الخدعة ليلة كاملة! كانت يدها ترتجف. ودّت كوب الشاي إلى الصينية ولم تشرب. درعها الحجري تحطم إلى قطع صغيرة، إلى شظايا وطحين، بينما سيارات الشيفروليه والفورد والهادسون والبيوك تعبر «أرويو ستريت» وتطلق زماميرها.

هكذا، في كل ساعة؟ هل يتذكر الإنسان ما جرى له؟ أم أن النسيان هو السيد؟ وإذا تذكرنا ماذا يتبدل؟ هل يُعطينا التذكر قوّة؟ وماذا يكون سرّ هذه القوّة؟ وماذا يربطها بضعفنا الدائم؟ كانت متعبة، ربما لأنها سهوت ليلتين وهي تساعد جيني في دروسها... كانت متعبة، ربما بسبب هذا المشروع الجديد وورشة البناء التي ملأت المزرعة فوضى وغباراً وضجة... كانت متعبة، لهذا السبب أو ذاك، ربما لهذه الأسباب مجتمعة، وبينما ترتفع قماشاً ثقيلًا من صندوق فتحة للتو، وتُكرر للمرة التي لا تعرف رقمها طقوساً زاولتها أكثر من عقدين (أين بدأ هذا؟ في متجر السيد سكياس؟)، شعرت مرة أخرى بدوخة. هذه المرة لم تصبها سعادة. الظلام كَبَل دماغها. مالت واستندت إلى الصندوق لثلا تقع على الأرض. لم تعرف ماذا حدث لها. لكنها شعرت بالذعر. رعب قطيع اجتاح كيانها: ماذا لو أصابها شيء الآن؟ ماذا لو ماتت؟ عندئذٍ ماذا يحدث للأولاد؟ كانت تنزل على أرض تسيل، وشعرت بالبرد يقبض على كاحليها.

جاهدت كي تبقى واعية. فتحت عينيها وحاولت أن تفتح فمها. عليها أن تنادي، أن تطلب نجدة. كانت الضجة بعيدة، وراء الباب الزجاجي. لم ترَ الناس ولا السيارات ولا حتى الشباب والأحذية والبرانيط في الواجهة. كانت نظرتها تزوغ والنقط البيضاء والحمراء تسبح أمامها. استسلمت في لحظة تخلي لكن شيئاً لا يُدرى كنهه تحرك في أعماقها عندئذٍ ورفعها من الهوّة: تراجع الألم في ساعدها وذهب الضغط عن أضلاعها. قلبها خفق من جديد وأسنانها أفلتت الشفة السفلى. مرّت الذبحة الصدرية من دون أن تقتلها. بلا وعي تحركت شفتاها. كانت مرنا حداد تصلّي من جديد.

- 119 -

## قلب مرنا

جاك كان عائداً عند الغروب ورأى جيني تركض وجميل يذنو خلفها بخطى واسعة. قبل أن تفتح فمها عرف أن شيئاً سيئاً قد حدث.

- أمي في المستشفى.

مرغريت خرجت في تلك اللحظة من البيت تحمل حقيبة. خلفها بانت كاستيلا تحمل حقيبة أخرى.

- ماذا حدث؟

أخبروه أن التلفون لم يقل الكثير، لكنها بخير، ويجرون فحوصات لها.

كانت أطول رحلة في حياتها. طارت السيارة على الطريق وهم يتأرجحون في داخلها. وحده جميل لم يرتجف في السيارة الهدسون (الباقية من أيام الأب) في تلك الرحلة المفزعة من المزرعة إلى المستشفى. في عشرين دقيقة وصولاً. لكن كيف تُقاس هكذا رحلة بالدقائق؟ كانوا لا يعرفون ماذا ينتظروهم. وجاك توقع الأسوأ: لولا الحقائق - مرغريت قالت إن أمها طلبت الثياب لأنها قد تقضي ليلتين في المستشفى - كان تحطم. الحقائق أعطته أملاً: الثياب الموضبة. سأل أخته هل كَلّمها في التلفون؟ قالت لا، إتصلت ممرضة من المستشفى، لكنها قالت إن أمي تطلب كذا وكذا.

لا أريد أن أتوسع في هذه الحوارات التي دارت في السيارة الطائرة: كان الكلام يرتطم بالزجاج ويرتد ويطلق الرؤوس. كانوا مذعورين وعندما بلغوا المبنى الأبيض تضاعف ذعرهم ألف مرة. وحده جميل - الأصغر - ظلّ رابط الجأش. هذه ليست مبالغة: جاك كان يرتجف في ثيابه. مع أنه طويل القامة، شديد الساعدين، ورفاقه في الجامعة يعتبرونه شجاعاً... ارتجف مثل الطفل وهو يتسلق الدرجات ركضاً ويخاف أن يفقد التوازن. قالت أخته «أمي في المستشفى» فوقع العالم كالصخرة على رأسه.

الأسوأ لم يحدث. بل العكس: أجروا الفحوصات اللازمة وبعد ثلاثة أيام فقط خرجت. الطبيب أعطاها دواء (حبّة صباحاً وأخرى مساءً) وألزمها أن ترتاح في سريرها - في البيت - إسبوعين طويلين.

«بعد ذلك؟» سأله جاك.

«بعد ذلك إتبهوا لها»، قال الطبيب.

كانوا يتحلّقون حول أمهم ولا يصدّقون كيف جرى لها هذا. جيني ظلّت تبكي طوال الوقت. جميل شدّها من يدها إلى الزاوية وأمراها أن تصمت أو تخرج. غصّت بدمعها: كانت تعرف أنه قاسي ويقدر أن يفعل ذلك. أن يطردها! مسحت دموعها وسكتت. أمها رفعت وجهها لحظة ونادتها إليها. خرج الصوت واهناً، غريباً، حزيناً. مع ذلك جذبها الصوت جذبة عنيفة. في رمشة عين كانت على السرير، جالسة جنب المريضة. الطبيب قال حظك طيب. ومرتا وافقت على قوله. كان السكون يغمرها وهي تستند إلى إبنيتها، خارجة من المبنى الأبيض إلى الباحة المغمورة بضوء الشمس.

برقت سيارة الهادسون التي غسلوها للمناسبة. كانت أجمل من

سيارة جديدة، وبينما يساعدون الأم على الدخول شعرت أنها تبدأ حياة أخرى: كان هذا عجباً لكنه حقيقي. كل ما قاله الطبيب بدا لها صحيحاً ولكنه يخلو من القيمة أيضاً. قال إن الإرهاق - والتوتر والإفغال النفسي الشديد - سبّب لها هذه الأزمة القلبية. لم تشكّ في تشخيصه لكنها لم تهتم كفاية. كانت تعرف ذلك من دون أن يلفظ الكلمات أمامها. ما لا يعرفه هو كيف نجت. قال إن هذا حظها الطيب وكان يمكن ألا تنجوا مرثا بقيت ساكنة، كانت تعرف أكثر منه.

ماذا ظنّت مرثا؟ ماذا حدث لها وهي مطروحة على أرض منجرها في أرويو ستريت - باسادينا؟ هل ظنّت أن الملاك نزل من السماء وفتح صدرها وأخرج القلب المضروب وزرع في مكانه قلباً جديداً؟ لا أعرف ماذا تخيلت وهي تلتفت وتنتظر إلى أولادها على المقعد الخلفي وتفكر أنها هنا، ما زالت معهم! كان جاك يقود السيارة متنهلاً، لتلا تضايق على الطريق. رأت عينيه تيرقان، ومرة أخرى اتبعت إلى حنانه اللانهائي. كان أرقّ من فتاة، وعندما غمرها بذراعيه في المستشفى شعرت أن هذا يكفي - أن هذه العاطفة تكفي - كي تعيش امرأة مثلها مئة حياة أخرى. لن أتكلم عن حزنها وهي تكتشف ما نسيته. اكتشفت أنها طوال السنوات الماضية عاشت غريبة عن أولادها! كانت تعتني بهم واحداً واحداً، بلى، تغسل ثيابهم وتطبخ طعامهم وتساعدهم في دروسهم، ربّتهم مثل أم وأبٍ ولم ترفض لهم طلباً، بلى، لكنها أنجزت هذا من دون أن تكون بينهم! طوال هذه السنوات عاشت في بيت السحفاة الحجري، تُغدق عليهم عاطفتها ولا تقبل منهم حباً أو حناناً... طوال الوقت أبقت نفسها محجوزة في قلب زنزانة مغلقة ومخفية في أعماقها. هل كانت حية طيلة هذه السنوات؟ منذ لفظ زوجها الروح بين ذراعيها في تلك الليلة

الماطرة، هل كانت حية؟ نزل الملاك من السماء وأخذ القلب الميت وأعطاهها الحياة الجديدة.

بان المنعطف. خُفَّ جاك سرعة السيارة وأدار المقود دورة شبه كاملة. ظهرت أشجار البرتقال دفعة واحدة وبان البيت. كان أجمل بيت في العالم: هذا المكان في باسادينا حيث تحيا مع صغارها. ما زالوا صغاراً؟ كان الطيب يظنها نائمة وسمعه يتكلم مع جاك. سأله عن أبيه، أين هو؟ «أبي ميت»، قال جاك. سأله الطيب متى مات، قبل فترة قصيرة، قبل أسابيع؟

«مات قبل سنوات»، قال جاك.

«إذاً ليس هذا هو السبب»، قال الطيب.

- 120 -

## جاك وأخوته

إنتبهوا لها. حاموا حول سريرها كالكواكب السيارة. وبينما تحكي لهم شيئاً تذكرته صدفة تشكَّلت - منذ هذه الساعة وعبر أجيال نالية - مجموعة مرثا الشمسية. في ذكريات أحفادها - وفي القصص التي كتبها وليام ج. حذاد بالإنكليزية - تبدو عجوزاً بيضاء الشعر يتحلق حول كرسيها الهزاز أحفادها الصغار ويصفون في دهشة إلى ذكرياتها. لكن ذلك في المستقبل البعيد، ومرثا لم تغدُ عجوزاً بعد. غطَّ الشيب شعرها، بلى. منذ سنوات بانت الخصل الرمادية. لكنها ما زالت قوية. حين خرجت من فترة القاعة انكبَّت على العمل.

في فترة قصيرة ضاعفت أرباح المتجر: كان إقتصاد البلاد يزدهر، والسفن تبحر كل لحظة محملة ثياباً وسلاحاً وأدوية وأطعمة إلى أوروبا. اشترت كمية ضخمة من البناتيل والقمصان الـ Manhattan، اشترت سراشيف ومناشف من أحجام مختلفة، اشترت ملابس نسائية وأحذية وسكرينيات وجزماً، اشترت قبعات ومعاطف وكنتزات وجوارب، ثم طبعت في المطبعة في «لامب شريت» ألف ورقة إعلان، وأرسلت إحدى مساعداتها (ما إن خرجت من السرير حتى أجبرها جاك على توظيف مساعدتين)، محملة بالإعلانات إلى موقف الباصات الجديد في باسادينا. لم تكتفِ بذلك: طبعت إعلانات أكبر حجماً. علَّقتها في محطة السكك، وعلى عربات

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^

الترامواي. أثناء قعودها الإجابري في البيت وضعت غططاً كثيرة. في نهاية السنة نشرت إعلاناً في الصحيفة المحلية مع قائمة أسعار كاملة. وقبل أن يحلّ الميلاد وجدت مخزنها فارغاً! كانت تظن أن المخزون لن ينتهي قبل السنة الجديدة! اشترت كمية أخرى على وجه السرعة وهذه المرة نشرت إعلاناً إضافياً: «تصفية على الأسعار».

تدفق الزبائن إلى المتجر ووجدت نفسها مضطرة إلى استخدام مساعدات أخريات. حتى مرغريت وجيني حضرتا كل يوم بعد المدرسة للمساعدة. أثناء العطلة جاء جميل أيضاً وسرعان ما باتت موهبته: النساء وقفن في الصف أمام رفوفه. كان في الرابعة عشرة، زيتوني البشرة أسود الشعر واسع العينين، ضحكته عالية (جاك كان يضحك هكذا وهو صغير، في زمن «كامدن ستريت»... ما زالت تذكر تلك الضحكة)، ويبدو للعيون الغريبة رجلاً في العشرين. كان شديد الثقة بنفسه، دائم السخرية من مهنة البيع والشراء، يميل إلى أشغال المزرعة والبساتين. أعز أصحابه خوان الأخ الأصغر لكاستيلا زوجة المدرس خواكيم. تعلم من العائلة المذكورة الأسبانية، وصار يميثهم ضحكاً في البيت حين يتكلم بالأسبانية كأنه وُلد في المكسيك! لم يكن يحبّ متجر الثياب. مع هذا، وفور ظهوره في المكان لايساً قبعة الكاويوي على رأسه، ظهر جلياً أنه بائع أصيل. هو ومرغريت تناقسا: قررت الأم لكل مساعد ومساعدة نسبة مئوية من المبيعات. تحول البيع إلى لعبة عائلية. كان جاك يعود من الجامعة فيسمع الضحك يملأ المكان. لم يخف على أمه من العمل الكثير. بدت له امرأة أخرى. وردته الذاكرة إلى زمن قديم.

البيت أيضاً ملأته الحفّة. صار العشاء مناسبة ينتظرونها. ذهب الصمت عن الأم. وصارت تحكي عن أشياء كثيرة. بينما تحكي رجع

الأب إلى البيت. جلس معهم إلى الطعام ولقت تيقاً ونفخ الدخان في دوائر صوب السقف. كان إبريق المة يصفر على النار وشفتهم الذكريات. تراصت العائلة، تداخلت الحجارة مثل حائط الدك. نسجوا الخيوط المتينة وتعلقوا هكذا فوق النسيج المتين: كانت الهاوية تحت أقدامهم على الدوام، لن تذهب الهاوية السوداء الفاغرة الفم. لكنهم في الأعلى، على النسيج المتين، بنوا حياة جديدة. لم يكن بيت عنكبوت. تحلقوا حول الأم وبينما بعضهم يدعم بعضاً صعد «البيت الكبير» وألقى ظلاله على البساتين.

لم تكدر تلك الفترة سحابة. مرتا لن تشكو من عارض صحي مرة أخرى. لم تدخل المستشفى بعد ذلك إلا لإجراء فحوصات دورية. في فترة النقاهة، بينما جاك وأخوته يغمرون روحها بالمحبة، نظرت من النافذة ورأت «الورشة» وخوان يتسلق البرج الخشب كي ينقلّ خزّان الماء. كان رشيقاً، سريعاً، وقوياً كشور. اختفى عن نظرها في جوف الخزان. وعندما ظهر من جديد رمى أشياء لا تعرف ما هي من فوق ونادى على جميل. سمعت ضحكة إبنها المدوّية ثم أصغت إلى حديثهما. كانا يتكلمان بالأسبانية والإنكليزية معاً. ومرة أخرى أدركت أنها تحيا في أرض مسحورة. كانت ناعسة بسبب الدواء الذي أخذته ورأت برهة من المستقبل. ماذا رأت؟ كان الآتي امتداداً لهذه الساعة، وغمراً الهدوء.



## جك ولخوته (2)

سقطت باريس فشعر جاك بالخوف. كان خوفاً غير منطقي - فرنسا بعيدة وأميركا لن تدخل الحرب - لكنه أمسك به من زلعموه. أثناء ربيع 1941 توطدت علاقته بزميلة تدعى باتريسيا هينينغ، أهلها من «سانتا في» Santa Fe. كانت أميركية، شقراء، خضراء العينين، ولا تعرف من أميركا غير «سانتا في» وباسادينا والطريق بينهما. بآدله الحب على المقاعد الخضراء تحت أشجار الجامعة. وقفت جنبه تحت المظلة بينما الأمطار تتساقط على ورشة «مرصد بالومار». كانت الجامعة تنتظر وصول التلسكوب الجديد العملاق لكن تركيبه تأخر بسبب انشغال المصانع بإنتاج السلاح. أحد أساتذته (ريتشارد فينمان)\* أخبره وهما سيران من المختبر إلى الكافيتيريا أن الجيش لا يمكن أن يأخذ جنوداً من Caltech لأن «القول» لا تعرف كيف تطلق النار. كان يضحك وهو يقول ذلك لكن صوته البارد ضايق جاك.

أغارت الطائرات اليابانية على القاعدة البحرية الأميركية في بيرل هاربور - هاواي بعد أربعة أيام من عيد ميلاده. كانت بقايا قالب الحلوى ما زالت في البراد. شعر أن الطائرات خرجت من وساوسه. كان ذلك في 7 كانون الأول 1941. ودخلت أميركا الحرب العالمية الثانية.

\* نال نوبل الفيزياء سنة 1965.

ذعره تضاعف عندما مرّ على المتجر ورأى جنود المارينز مدججين بالسلاح في أرويو ستريت. كان الشارع يعجّ بالعربات والشاحنات ولم يفهم ماذا يحدث. ظهرت أمه أمامه وأخبرته أن الجيش قرر تحويل الفندق المجاور إلى مستشفى عسكري. منذ الصباح ينقلون إلى هنا أدوية وأسرة ومعدات طبية ومولدات كهرباء. كان الراديو يضحج في المطعم المواجه والمليح يقول إن حامله الطائرات أريزونا غرقت أيضاً وعدد القتلى جاوز الألفين. الرئيس روزفلت تكلم وقال هذا اليوم يدخل في تاريخ العار: هاجمنا اليابانيون قبل أن يعلنوا الحرب، وبلا إلتذار مسبق.

كان مضطرباً وهو ينظر إلى المارينز ثم إلى سيارة الصليب الأحمر ثم إلى أمه من جديد. عرفت ماذا يدور في رأسه.

تحرك داخل مثلث لعله ينسى العالم الواقعي. كان يمضي من أمه إلى المختبر إلى باتريسيا. دار بين هذه النقاط الثلاث طوال الفترة الممتدة من 1941 إلى 1944. اقترب موعد التخرج فشعر بالبرد. كانت باتريسيا تعانقه في مدخل كلية الفيزياء وسألها هل تتزوجه؟  
- Yes.

قدم طلبه كاملاً إلى مجلس الخدمة العسكرية مع شهادة الزواج. أصفوه سنة. كان تأجيلاً ولم يكن إلغاء. ذهب إلى أمه وأخبرها أنهم منحوه التأجيل لمدة سنة واحدة. سألته هل أخبر زوجته. قال سأذهب وأخبرها الآن. هرّت رأسها وبدت متعبة. كانا يسكتان معها، ومع بقية العائلة، في «البيت الكبير». هنا، في المزرعة، حبلت باتريسيا بطفلها الأول (ألبرت).

انتظر جاك نهاية السنة التي أعطيت له كمن ينتظر تنفيذ حكم الإعدام. في أحد الصباحات غادر الجامعة بعد ساعة من وصوله

### جك واخوته (3)

قبل أن يحلّ الموعد ويؤخذ إلى الجيش إنتحرت هتلر وقُتِل موسوليني وأمر الرئيس ترومان\* بالقاء قنبلتين فذئبتن على اليابان. قتلت الحرب العالمية الثانية أضعاف ما قتلته الحرب الأولى، لكنه نجا. عاش ورأى عائلته تكبر: بعد ألبرت رُزق ثلاثة أولاد (ويليام ولوكاس ومارلين). اشتغل في «مرصد بالومار» ولم يترك الجامعة. كانت تمنحه أماناً بحاجة إليه. مثل أمه كانت الجامعة - بمبانيها وأشجارها والتلسكوب الذي يكشف النجوم والمجرات والكواكب - ملاذاً وعالمأ محدد الهدف. أخته مرغريت كانت تجد ملازمته البيت والمزرعة مسألة طريفة. جيني أيضاً كانت تعاكسه أحياناً. جميل في المقابل كان يطلب رضا. إعتاد جاك أن يعيره السيارة، وأن يعدّه بالمال إذا طلب. (مرة سدّد عنه ديناً بلغ مئة وخمسين دولاراً. هذا في 1944. وأخوه الصغير لم يبلغ سنّ الرشد بعد).

جيني مستدخل كلية الطب في تلك الفترة (الأربعينات). في 1970 - وهي زوجة وأم لولدين (توماس وآنا) و«دكتورة» - دُعيت إلى مؤتمر طبي في فيلادلفيا. سألت أمها هل تود مرافقتها؟ وهكذا

\* هاري ترومان. رأيناه من قبل - ولم نذكر إسمه عندئذٍ - جندياً في الحرب العالمية الأولى بلصق قنابل تجريبية ناظرأ إلى ساعته صيحة «الهدنة».

وساق سيارته بلا هدف عاجزأ عن التركيز. كان يعمل في مختبر يتبع المرصد الجديد الذي لم يكتمل تجهيزه بعد. وكانت زوجته تعمل في كلية الهندسة، مساعدة في المكتبة. بدا له العالم غير مفهوم: لماذا يأخذون شخصأ مثله إلى حرب؟ ماذا يستطيع واحد مثله أن يفعل هناك؟ وجد نفسه أمام شاحنة عسكرية تقفل الطريق. عرف أين هو. ركن السيارة ودخل المتجر. رأى وجوهاً لا يعرفها ثم ظهرت أمه. نظرت إليه من نقطتها البعيدة - بينهما زبائن - ورأت ضياعه وخوفه وهشاشته اللانهائية. وراء جاك كان الجنود يقطعون الطريق ضاحكين.

تركت المتجر في عهدة مساعدة وأخذته إلى المطعم القريب. اشترت سندويشات وعصيراً وجلست معه. قالت إنها جائعة. لم تكن جائعة. كان صامتأ ولم تقل شيئأ مهماً. أخبرته أشياء قديمة، لا صلة لها بما يفكر فيه، لكن صوتها خفّف قلقه. بينما يجلسان هكذا نسي الموعد وما ينتظره.

سافرنا معاً بالقطار. سأصف هنا الرحلة، وفي الفصل التالي أعود وأكمل فترة الأربعينات.

كانت رحلة هادئة في طقس صافٍ. انبسطت السهول ثم كرجت التلال. قطع القطار جسوراً معلقة على أنهار وتسلق مضائق ثم انحدر ثم انطلق في سرعة ثابتة عبر البراري. كانت المناظر تتبدل خارج الزجاج والمرأة التي كُذِّلَ البياض رأسها تنظر وتتعرف إلى بلدات وتستغرب ملامح أخرى. كانت هناك سهول فارغة تعرفها وتنتظر أن تراها من جديد لكنها لم تثر عليها! رأت بلدات لم تكن موجودة من قبل. ورائت مدنناً انطفأت في هذه الأثناء وصارت فارغة، أو شبه فارغة، بيوتها متساقطة، وكرات الشوك تندرج حيث كانت الطريق. عندما أدخلت عربة الطعام ووضعت أمامها الصينية وعليها الطبق بالغطاء القضي شعرت أنها في منام. رفعت الغطاء - فقط كي تتأكد - ورائت قطعة البفناك المقلية بالزبدة وجنبها البطاطا المقلية. امتلات حزناً، وكان ذلك شيبهاً بالسعادة.

إبتها جيني، الطيبية الأربعينية الثابتة اليد، قطعت «البفناك» بسكين حادة وأكلت غارقة في أفكارها. نظرت إليها تأكل ثم نظرت إلى الخارج مرة أخرى: مرَّ رجلٌ يجرُّ ثوراً عيماً يرفض الحركة. لعل الرجل لا يتحرك أيضاً: كان القطار سريعاً ولم تحرف ماذا حدث لهما. وخيَّلَ إليها أن هذا أيضاً رأت مثله من قبل.

في القطار، بينما تطوي المسافات مبتعدة عن ياسادينا، اشتاقت إلى البيت وأشجار البرتقال وزهرتها على الشاطئ. اشتاقت إلى أحفادها، إلى باتريك المحتال كتعلمب (أصغر أبناء جميل) يقفز ويعانقها ويتعلق برقبته ويرفض النزول من دون وعد بقطعة حلوى من المرطبان على سطح البراد. اشتاقت إلى الدجاجات في القن الذي

جدَّته وراء البيت. واشتاقت إلى الأشجار والنباتات التي زرعها في الحديقة. أرادت أن تصحب إبتها في هذه الرحلة إلى فيلادلفيا، لكن المناظر أتعبتها! لم تكن بحاجة إلى هذا الآن! كانت تحبِّ الراحة، في المزرعة، وتشرع أنها عاشت كفاية على الطرقات. بينما القطار يدخل محطة في بلدة شبه مهجورة رأت رجلاً عجوزاً يُخرج رأسه من كوخ خشب بنافذة مربعة. فوق الكوخ رأت مدخنة من قرميد أحمر تنفث دخاناً. كان الغروب يعيل إلى ظلمة المساء وخيَّلَ إليها أنها عاشت هذه الساعة قبل سنوات طويلة. كانت تنتظر أحداً ولم يأت الذي انتظرته.

إبتها سألتها هل تشعر بالتعجب؟

هزَّت رأسها أن لا. جلبت لها كوب ماء. أخذته وشربت وشكرتها. كانت المصاييح تضاء في القطار. رأت الوجوه المنعكسة في النوافذ عندما خيم الظلام. بعضهم كان يخلد إلى النوم أو يستعد للنوم. الرحلة طويلة من الساحل الغربي إلى الساحل الشرقي. لم تسافر يوماً بالطائرة ولا تريد أن تجرب ذلك الآن. حتى التلفزيون لم تعود إليه. ما زالت تسمع الراديو. لا تنظر إلى صندوق الصور. وتفضل عليه الجلوس في الحديقة وتأمل الدجاجات.

نامت إبتها. ظلَّت تنظر من الزجاج إلى أضواء تظهر كثيفة متكتلة ثم متناثرة ومتباعدة في ليل أميركا اللانهاية. حين عبر القطار منطقة من حقول النفط رأت السنة حمراء تخرج من الأرض مقلدوة إلى الأعلى، ملتبهة، مثل براكين عمودية تجرَّب عبثاً بلوغ السماء. كانت الشعلة تتطاوَل وتعجز عن بلوغ النجمات. رأتها في القبة، مشكوة كالخرز، ومن دون انتباه عاد فكرها إلى ياسادينا والبيت والأبناء والأحفاد. فتحت جيني عينها فرأت أمها تصلي. ابتسمت عندما سمعت الكلمات العربية.

## جك ولخوته (4)

وهكذا كبروا. المتجر عانى قليلاً أثناء سنوات الحرب، خصوصاً في 1942 و1943، عندما صارت المصانع تُنتج للجيش حصراً، ولم تعد تعثر في السوق على سراشف جيدة أو بناطيل سميكة أو حتى وجوه مخدات! كانت تركب الباص الـ Greyhound مع مرغريت وجيني وجميل إلى سان فرانسيسكو وتجلب بضاعة من هناك وتدفع نقداً. كان هذا خطراً إلى حد، لأن هذه «سوق سوداء» وليست قانونية، ولكن الكل كان يفعل هذا «القانون» لن يحبس أحداً من أجل السراشف. أوقفت هذا نهائياً عندما سمعت عن شخص حبسوه في سكرامنتو بينما يملأ صندوق سيارته أحذية وبطانيات. لاحقاً سيتحول الأمر إلى طرفة في البيت، تلك الرحلات بالياص إلى سان فرانسيسكو. لكننا ندمت ضمناً على ما فعلته وذهبت إلى الكنيسة وصلت طالبة الغفران؛ لا لأنها اشترت من «السوق السوداء» (كانت مضطرة) ولكن لأنها أخذت الأولاد معها. في 1944، وبعد إنزال النورماندي وتحرير باريس وتراجع الألمان، بدأت البضاعة تصل من سيائل في الشمال. «الجنود استولوا على غنائم ضخمة»، كان يُقال بين أصحاب المتاجر، «والآن صارت عندنا سراشف». كانوا يمزحون لكن هذه لقمة خبزهم. وامتلات الرفوف من جديد.

ازدادت أرباحها وتوسعت. اشترت متجراً في الجهة الأخرى من الشارع. عندما طلبت مرغريت أن تتوقف عن الدراسة وأن تبقى معها في التجارة قبلت. بعد ذلك اكتشفت أنها صارت حقاً كبيرة ومتقدمة في السن. كانت تمزح حين تقول ذلك، ومع هذا شعرت أنه حقيقي. بينما تشاهد إينتها تبيع وتقبض وتتسلم الطرود وتوقع إمضاءها على أوراق التسلم شعرت أنها ترى نفسها قبل عشرين سنة أو ثلاثين. كان الأمر مذهلاً. مرغريت وُردت إيماءاتها.

أثناء الحرب الكورية (1950 - 1953) استُدعي جميل إلى الخدمة العسكرية. دفعت مبلغاً من المال يكفي لتأجيل انضمامه إلى الجيش سنة واحدة. استدعوه في 1952 وكان فتح قبل شهر فقط متجراً لبيع المواد الغذائية في الشارع نفسه: أرويو سترت. أراد أن يستقل بتجارته وأقرضته ما يحتاج إليه من أجل ذلك.

خلال السنة المذكورة انتهت إلى قلبها: كانت تذهب إلى الشاطئ في الأيام الصافية وتمشي بمحاذاة الباسيفيكي. في هذه الأيام لا يُرى الضباب متدرجاً على صفحة المحيط. بينما تسير هكذا، وجيني تخبرها عن الجامعة وأصدقائها وأساتذتها، كان الهواء يداعب وجهها ورائحة الملح والطحالب البحرية تنسيها العالم الواقعي. صلّت من أجل إينها الصغير والربّ استجاب. انتهت الحرب الكورية قبل أن يُجنّد. كانت مناسبة للاحتفال في المزرعة لكنهم لم يحتفلوا: أخذ خوان - الأخ الأصغر لكاستيلا زوجة المدير خواكيم - إلى معسكر تدريب في كنساس أثناء صيف 1951. كان يسرّ المتجّل ويستعد لموسم الحصاد وأخذوه. أعطوه بارودة وعلموه تركيب الحربة في رأسها ثم شحنوه بالقطار مع فرقتين إلى لوس أنجليس ومن هناك بالقطار مرة أخرى ثم بالباخرة إلى جزر المحيط

### جك واخوته (5)

صَلَّتْ من أجلهم في البيت وفي المتجر وفي الطريق وفي الكنيسة. أخذها جاك إلى المرصد وجلست على المقعد العالي ونظرت في عدسة التلسكوب. كان يدلُّها إلى الكواكب ويلفظ أسماءها الغريبة باللاتينية والإنكليزية. فتح أمامها خرائط فلكية وصار يدلُّها إلى النجوم على الخريطة ثم «فوق»، في القبة الصافية السوداء. كانت ليلة رائعة وظلَّت في ذاكرتها سنوات. رأت المجرة بذيلها الأبيض كقستان العروس ودعمت. ظلَّ جاك أنه ضابقتها. مسحت عينها بمنديل مطرز الحاشية وقالت «أنت لا تعرف كم أنا فخورة بك». كانت فخورة بهم جميعاً. جميل، بعد حماقات لا تُعد، نضج في المتجر الجديد حيث يبيع كل ما يؤكل، من الحبوب والخضر والفواكه إلى الأجبان واللحوم والحلويات. كانت تنظر إلى اللافتة النيون المعلقة فوق متجره، وهي ترمز بالسيارة عند المساء عائدة إلى المزرعة، وتبتسم. مرات تطلب من مرغريت أن تتوقف. مرغريت التي تقود متعملة - إذا كانت أمها معها - تكون مستعدة من قبل أن تسمع الكلمات.

كانت تدخل وتسلم عليه فيتدفق بالكلام ويخبرها عن خطئه الجديدة للمكان. تسمعه وتشعر أنها تكبر فعلاً. وحين تبلغ البيت وتسمع الأحفاد راكضين إليها تبدأ صلاتها من جديد. كانوا يعجبون

الهاديء. انتهى به الأمر في مرفأ كوبي في اليابان. كان ممنوعاً من التدخين بسبب الربو لكن طبيب الجيش أعلمه أن هذا ليس مرض الربو والدليل أنه يتحمل تدخين الآخرين في المعسكر. اعتبر أنه يخترع الأعداء كي يبقى في أميركا. صلُّوا من أجله وهو وراء البحار، والصلاة نفعت. كلُّما جاء أمر بالإبحار من كوبي إلى خط الجبهة بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية بهبَّ إعصاراً في الختام أبحرت فرقته وعندما بلغوا كوريا سمعوا أن الجيش الصيني صار طرفاً في الحرب الآن. كانت الجيوش تتكاثر وتعاظم الخطر. رأى غوان خنادق مملوءة جثثاً وشعر أنه لن يرجع إلى كاليفورنيا. كانت جثثاً صفراء، مشروحة العيون، صغيرة الحجم، حافية الأقدام، متراففة كالشئل في أنلام الحقل. رجع بين الموتى وصلَّى.

لم تقتله الحرب الكورية. رجع إلى المزرعة مضمد الرأس بالشاش فاقد البصر في العين اليمنى. لم يقبل بكاء أخته كاستيلا. أسكتها بعبارة واحدة:

- عندي عين بعد.

عندما خلق ثيابه في ذلك العصر الريعي العطر الهواء شاهدوا العلامات على ظهره. شرح لهم أن كيس العتاد - الحقيقية التي تحوي الذخائر وأدوات الطعام ومطررة الماء والملابس والبطانية والأدوية والضمادات - يزن أكثر من ثمانين باوند. اغتسل ولبس ثياباً نظيفة، واسعة بعض الشيء، ثم قطع البستان إلى «البيت الكبير». كانت «السيدة» تهتم بالخروج ذاهبة إليه وخلع قبعة وألقى عليها التحية. «صليت من أجلك»، قالت له. «أعرف»، قال.

المكان بأصواتهم الحلوة وكانت سعيدة في قلب الأصوات. قالت لمرغريت إن حظها طيب لأن باتريسيا تعمل في الجامعة بدوام كامل: لولا ذلك ربما طلبت أن تسكن منفردة! كانت تمزح لكنها على عادتها التي استجذت في السنوات الأخيرة لم تكن تمزح تماماً! كانت فعلاً محظوظة: رأت أحفادها يكبرون أمام عينيها يوماً بعد يوم.

كانوا يسألونها هل تحب أن تذهب في زيارة إلى البلاد، إلى بناتر. جميل تحمس في إحدى الجلسات وعرض أن يصطحبها. حدث هذا في 1956 أو 1957. لم تغل لا. ولم تغل نعم. جاك أخذ أخاه جانباً بعد ذلك وأمره ألا يكرر ما فعله. كان يخاف عليها من إرهاق السفر ومن الانفعال. جميل تضايق ورءً على أخيه الكبير أنه سمعه أكثر من مرة، قبل الآن، يسأل أمه السؤال نفسه. ابتسم جاك: «أنا أسألها لكن لا أعرض أن أشتري التذكرة وأذهب معها».

بعد فترة سمعوا عن الحوادث في بيروت. عندما نزل جنود المارينز على الساحل اللبناني في عام 1958 تسمرت مرتا إلى جانب الراديو. كان ذلك أيضاً جزءاً من العالم المسحور: أن تذهب أميركا إلى البلاد البعيدة! لم تغل لأحد إنها لن تذهب إلى وطنها مرة أخرى. لكنهم أدركوا ذلك، من دون شك. لاحقاً أرسلت إلى ابن خالها تفويضاً يُخوِّله التصرف بالبيت والحقل. بينما تختم ذلك الظرف بقطعة الشمع تنهدت: قبالتها كانت نافذة مفتوحة على الأشجار والشمس وأرجوحة معلقة فوق مساحة رمل.

ماذا أخبركم بعد عن حياة مرتا حدادا؟ رأت أولادها يتزوجون ورأت أحفادها. كانت عائلتها حياتها الآن. تعلقت خصوصاً بألبيرت، حفيدها الأول. كان صغير الحجم مثل أمه، وأشقر مثلها،

لكنها تولعت به. في بداية الستينات قرر جاك الانتقال إلى بيت ضمن «سكن الأساتذة» داخل الحرم الجامعي: كان مضطراً بسبب عمله ودوامه الليلي في المرصد. لكنها شارطته أن يسمح للأولاد بإبقائه أغراضهم في بيتها. ضحك وقال: «الأولاد كبروا». قالت: «حتى لو فعلوا ذلك!».

أثناء حرب فيتنام استُدعي ألبيرت إلى الخدمة العسكرية. في تلك الفترة كانت مرتا تلزم المزرعة معظم الأيام وتذهب إلى المتجر بين حين وآخر. قررت وحدها أن تترك التجارة تدريجياً لمرغريت. فعلت ذلك ببساطة: ذات صباح، بينما العائلة قاعدة إلى الفطور، أعلنت مرغريت أنها اليوم لن تذهب معها إلى المتجر. كان ذلك مبعثاً لكنها ضحكت وقالت «هذه مزرعتي أيضاً وأنا لا أعرف عدد أشجارها بعد».

صارت تهتم بشؤون المزرعة. تنزهت في أرجائها وغواكيم يشرح لها ما يشرحه. طوال الوقت يتكلم باحترام شديد. ومن دون أن يقول «سيدتي» يبدو كامل الإخلاص. فيه صدق الناس في البلاد البعيدة. كانت تعتبره عزيزاً ولعله شعر بذلك. أولاده أيضاً وُلدوا هنا، تحت نظرتها. كانت تهتم بعائلته، ومدبرو المزارع المجاورة كانوا يحسدون حظه. السيدة الكريمة ساعدته أيضاً في تسديد ديونه. كانت دينواً قديمة طارده من ولاية أخرى. والسيدة خلصته.

كانت في البيت تُطَرِّز عندما حضر ألبيرت. مسحة كآبة غطت وجهه وهو يتكلم. قال إنه أمام خيارين فقط: يذهب إلى المعسكر أو يدخل إلى السجن. «أريد نصيحتك يا جدتي».

وضعت «الشغل» من يدها وسألته عن رأي أبيه. ابتسم فلزاد وجهه كآبة: «هو جيليني إلى هنا». التفتت بلا وعي صوب النافذة،

لكنها - من كرسيتها الهزاز - كانت عاجزة عن رؤية السيارة في  
الباحة.

- لماذا لم يدخل؟

أخبرها ألبرت إنه يتكلم مع خواكيم.

عندما خرج ألبرت إنتهت أنها عاشت ساعة تشبه هذه من  
قبل: كانوا يطلبون أباه، وكان جاك يقف أمامها صغيراً في المتجر  
في أرويو ستريت. وراء ظهره كان الشارع يبعث بالجنود والأوتيل  
يتحول إلى مستشفى عسكري!

في السيارة التي حملته من المزرعة إلى البيت داخل الحرم  
الجامعي كان ألبرت واجماً. الأب أيضاً - جاك - بدا واجماً. كان  
يكره أي فراق. مع هذا تكبر على نفسه وركن السيارة جنب الرصيف  
ونزل واشترى بوظة وتقاسمها مع ابنه. وضَب ألبرت أغراضه تلك  
الليلة وودَّع أباه وأخته وركب القطار. تسلل عبر الحدود  
الكندية، كما شرحت له جدته. وبقي في كندا حتى انتهت الحرب.

بعد ذلك، عندما رجع الجيش الأميركي من فينتام وتقرر العفو  
عن الفارين من الخدمة مقابل غرامات مالية، أخرجت «الجدّة» دفتر  
شيكاتها من الجارور ضاحكة الوجه والقلب. كان الربُّ يُعينها، هي  
تُصلِّي وهو يستجيب. صلَّت أن يبتعد «الوحش» عنها، وعن الأبناء  
والأحفاد. وكلَّمها دنا منها أبقت أن الربُّ أيضاً قريب. في أواخر  
الستينات كانت تسير مع خواكيم بين الأشجار التي يسبقها وأخبرها  
أن صاحب المزرعة المجاورة «بخطط أن يبيع»؛ هو عرف ذلك من  
المذئب. توقفت عن المشي وأصفت. عند رجوعها إلى البيت دخلت  
المطبخ وملأت كوب ماء وأذابت فيه ملعقة سكر وملعقة ماء الزهر  
من نتاج المزرعة. شربت هذا ثم جلست إلى طاولة التلفون وطلبت

الرقم. اشترت المزرعة المجاورة من دون أن تخبر أحداً وفي دوامة  
تسجيل القمار وتخليص الضرائب طلبت من المحامي خدمة إضافية:  
هكذا قسمت الأرض كاملة إلى أربعة عقارات شبه متساوية،  
وسجلتها بأسماء جاك ومرغريت وجيني وجميل. المحامي أبقى  
التدبير سرّاً كما طلبت. لن يعرف أولادها شيئاً من هذا إلا بعد  
وقت.

والتوفى سنة 1959 بحادثة غرق عبّارة في الميسيبى.

الصورة التّقطت في ذلك الصيف ذاته (1973) وتكشف جانباً من البيت - إلى جهة المطبخ - تتسلفه نباتات زينة ذات زهور حمراء كبيرة مفتحة. الجدة تلقي على كتفها وشاحاً أبيض، ناصع البياض، كأنه جزء من شعرها. على الوشاح تطريز أحمر ناعم. ألوان الصورة احتفظت بتقائها رغم مرور السنين. الأحفاد والحفيدات يتلاصقون ضاحكي الوجوه، حتى أن الجدة تبدو مضغوطة بينهم! لكنها تبسم أيضاً. النور يشع من وجهها العجوز. شجرة تفاح واحدة تظهر في زاوية الصورة: على أحد الأغصان نستطيع أن نحصى أربع تفاحات. لاحقاً ستخيز الحفيدات - وبناتهن - فطائر تفاح شهية، بالقرفة والسكر، من هذه الأشجار.

في الألبوم صورة للجدة وهي تجلس على كرسيها الهزاز، في الحديقة، وحلفها تقف جاين Jane الغائبة عن الصورة السابقة. هذه من 1973 أيضاً. الحديقة تبدو صفراء خريفية والجدة تلتحف ببطانية صوف. مع هذا يظهر ضوء الشمس ساطعاً على النوافذ. للوهلة الأولى يخيل إليك أن البيت يحترق. لعل الصورة التّقطت عند الغروب. الشبه بين الجدة والمرأة الصغيرة الواقعة مدعش. تزوجت جاين رغباً عن والدها وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة بعد. كانت متوسطة القامة، سوداء الشعر، حنطية اللون، ومن عينها يخرج ضوء جذبّ يأسر كل من يمرّ أمامها. رآها إبراهيم الشويري مرة واحدة، وكانت تلك المرة كافية كي يشعر بالمرض في أحشائه. أهلها قالوا لا، ما زالت صغيرة. هي جمعت أغراضها في كيس وهربت من النافذة. كان ينتظرها أمام صالة السينما. أخذها بسيارته الدودج ولم يرجع. لاحقاً قبلت العائلة هذا الزواج. في الصورة التي تجمعها مع

## حديقة التفاح - باسادينا

في صيف 1973، بعد ستين عاماً على نزولها في «اليس أبلاند» حاملة كيس الجنيفس الذي يحوي حياتها، أثمرت الأشجار التي زرعها في باسادينا، تفاحاً. كانت خمس أشجار، توزعت الحديقة التي سوّرتها شجيرات الياسمين والأواح الخشب الأبيض. أحد أحفادها اقترح زراعة صف من أشجار الأرز الأحمر (Red Cedars) الأميركي وراه «الياسمينات» لحماية الحديقة من رياح المحيط ومن ضجة الشارع والعمران الذي يتمدد. وجدت الفكرة ذكية وطلبت الأشجار من «نورث داكوتا». المهندس الزراعي نصحها ألا تفعل ذلك لأن هذه الأشجار تحبّ الطقس البارد. قالت: «نحرب». جرّبت ورأت الأشجار تنمو متمهلة. كانت تجلس في الحديقة وتطرّز وتُعلم حفيداتها التطريز. في اليوم العائلة المحفوظ عند ويليام حدّاد صورة فوتوغرافية تظهر فيها «الجدة» محاطة بأحفادها: ألبرت وويليام ولوكاس ومارلين (من جاك وباتريسيا)، ونورمان وسليم وماري وتيودور (من مرغريت وإدوارد)، وتوماس وأنا (من جيني ومارك)، وكريستوفر وجورج وباتريك (من جميل وألسا). تنقص الصورة حفيدة واحدة: جاين Jane ابنة جميل المقيمة عندئذٍ في باتون روج (لويزيانا) مع زوجها الأميركي السوري الأصل إبراهيم الشويري، الابن الوحيد ليوسف الشويري الملقب ب«ملك القطن»



كانت في الثمانين، أو تدنو منها. بينما تتأمل المياه تكرر بين اعناق البقدونس والرشاد استعادت ذكرى بعيدة فتركت الخرطوم على الأرض ودخلت إلى البيت. أخرجت من الخزانة الصندوق الصغير واستخرجت منه البوميجة الفضية. بعد أسبوعين أو ثلاثة وصلها من إل باسو تكساس الطرد البريدي الذي طلبته: علبة كبيرة Yerba Mate. رجعت إلى شرب المة. بينما تغرز ذيل البوميجة Bombilla في القرعة الساخنة امتلا صدرها بالدموع. مع الرشقة الأولى شعرت أنها تسترجع حياة كاملة. دخل باتريك وسألها ماذا تشرب؟ قالت «تعال». ذاقها وعيس. وجدعا مرة. لم يفهم لماذا تشرب Grandma هذا الشاي المرّ. بعد ذلك صار يشرب معها مة بالحليب لا بالماء. تضع له سكرأ كثيراً في كل قرعة. ويحبّها. «أنا أشرب مة مع جدتي»، يقول لأبيه على التلفون.

باتت الحديقة مقرها. ولا تدخل إلى البيت إلا عندما يبرد الطقس. في الليل تنظر إلى مذئبات تقطع السماء الشاسعة. وتسمع الراديو. مارلين إينة جاك سألتها مرة هل تتذكر طفولتها في سورية، هل تتذكر أقاربها هناك، حين كانت صغيرة.

هزت رأسها وظلّت ساكنة. مارلين سألتها ماذا تتذكر، هل تتذكر أشخاصاً محددين؟ الجدة قالت بالتأكيد، أنا لست خرفة بعد.

جدتها تبدو جاين حزينة وفاتنة. أعتقد أن هذا الانطباع مرتبط بيديها المستقرتين على كتفي الجدة. وعلى أي حال لا تبدو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، بل في العشرينات: كأنها نضجت في الحديقة، بين أشجار الخريف، وهي تتصوّر مع جدتها.

لا يحوي الألبوم صوراً للجدة وهي تسقي أشجار التفاح والياسمين والخوخ، ومسالك الحُضْر المربعة، وأحواض الورد وإكليل الجبل والعطر (الكولونيا). زرعت أيضاً حباً ومردكوشاً وعلمت نحتها - السا - كيف تُطَبِّب اللحم بالأعشاب. لم تكن كثيرة الوقوف في المطبخ. لكنها بين حين وآخر كانت تُعدّ طعاماً لم تذوق منه منذ سنوات. اكتشفت أنها عموماً لا تفلح في طبخاتها. كانت تضحك وتضع الملعقة على حافة الطنجرة بعد أن تذوق. ثم تخرج إلى الحديقة وتنظر إلى الأشجار: خصوصاً أشجار النضاح. من أجلها مدّ المدبّر خواكيم خرطوماً خفيف الوزن من الخزان القريب. كانت تحبّ أن تروي الحديقة. تلبس على رأسها قبعة مكسيكية للحماية من الشمس وتضي فترة بعد الظهر متقلّة بين الخضرة والورود.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^ RAYAHEEN ^

## روايات للمؤلف:

- 1 - سيّد العنمة، دار الريس، جائزة الناقد للرواية، 1992.
- 2 - شاي أسود، دار الآداب، 1995.
- 3 - البيت الأخير، دار الآداب، 1996.
- 4 - الفرافشة الزرقاء (نور خاطر)، المركز الثقافي العربي، 1996،  
طبعة ثانية عن الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة)، 2001.
- 5 - والف رزق الله في المرأة، دار الآداب، 1997.
- 6 - كنتُ أميراً، المركز الثقافي العربي، 1997.
- 7 - نظرة أخيرة على كين ساي، المركز الثقافي العربي، 1998.
- 8 - يوسف الإنجليزي، المركز الثقافي العربي، 1998.
- 9 - رحلة الفرناطي، المركز الثقافي العربي، 2002.
- 10 - بيروت مدينة العالم (الجزء الأول)، دار الآداب والمركز الثقافي  
العربي، 2003، طبعة ثانية 2006.
- 11 - بيروتوس: مدينة تحت الأرض، دار الآداب والمركز الثقافي  
العربي، 2005، طبعة ثانية 2006.
- 12 - بيروت مدينة العالم (الجزء الثاني)، دار الآداب والمركز الثقافي  
العربي، 2005.
- 13 - تقرير ميليس، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2005.
- 14 - بيروت مدينة العالم (الجزء الثالث)، المركز الثقافي العربي ودار  
الآداب، 2007.
- 15 - الاعترافات، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2008.

مارلين ضحكت وانتظرت حكاية. لم تخبرها الجدة حكاية. استولى عليها الأسى وهي تلفظ جملاً منقطعة عن ابن عمها الذي علمها كيف تفتح أكواز الصنوبر الخضراء كي تأكل اللبّ: كان يضع الأكواز قريباً من النار فتششف بسرعة وتفتح وحدها. مارلين سألتها لماذا تحزن هكذا وهي تتكلم عن ابن عمها. الجدة بقيت ساكنة. مارلين سألتها عن اسمه. «خليل»، قالت الجدة. مارلين لفظت الاسم وبدأته بحرف الكاف: «Khalil». الجدة ابتسمت ثم ابتعدت بنظرها إلى مكان آخر.

لم أكن هناك ولست متأكداً من كل هذا. لكنني أستطيع رؤيتها وحدها ذات مساء، تسقي الحديقة الساكنة، وتشعر بالهدوء. البيت هادي، بعد قليل يرجعون. لكنها وحدها الآن، والمياه تندفق من الخرطوم. أعلم أنها بعد شهر تخلد إلى النوم في سريرها، بعد الصلاة، كماداتها كل ليلة، عند الساعة التاسعة. تحب أن تنهض باكراً مع صباح الديك. تحب الخروج إلى الحديقة وتحب أن ترى الأشجار تخرج من الظلام وتستضيء بشعاع الشمس. وقت الصباح قريب من قلبها. لكنها ذات ليلة ستنام وهي تشعر ببعض التعب. للحظة تفكر في النهوض لشرب الماء أو العصير. لكنها ناعسة. تنام وفي الفجر يصبح الديك، لكنه لا يوقظها. أعلم أن هذا آت بعد قليل.

لكنها الآن تسقي الحديقة ساعة المساء وتسمع غناء الطيور. لعلها لا تسمع غناء الطيور. المياه تكثر في المسكبة، تروي النبات الأخضر، وهي تصفي إلى الخريف.

هكذا أريد أن أتذكرها، في الحديقة التي زرعناها تفاحاً في باساديها، تسمع خرير المياه وتحيا إلى الأبد.